


# العالم البيزنطى

تقديم وترجمة وتعليق : د . رأفت عبد الحميد

سحبه الكتاب ونسقه على الصيغة الالكترونية

الباحث عماد أمير

جزاه الله خير

ج.م. هسى

# العالم البيزنطى

ترجمة وتقديم وتعليق

دكتور رأفت عبد الحميد

طبعة ١٩٩٧



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهواري

د . شوقي عبد القوي حبيب

د . علي السيد علي

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفي

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

---

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمي - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spass - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديــــم

يختلف الدارسون اختلافا كثيراً حول نقطة البدء في التاريخ البيزنطي ، ويذهبون في ذلك مذاهب شتى، متخذين من سنوات بعينها ، وقعت فيها حادثات معينة ، منطلقا إلى هذا التاريخ ، وكل يقدم أدلته والبراهين ليثبت بها صدق رأيه وصواب دعواه .

ستفن رنيسمان Steven Runciman يعتبر سنة ٣٣٠ ، خير تاريخ نتخذ منه بداية للتاريخ البيزنطي [١] » . حيث احتفل الإمبراطور قسطنطين Constantinus في الحادي عشر من مايو من العام ، بتدشين العاصمة الجديدة للإمبراطورية ، وأطلق عليها «روما الجديدة» وأبت هي إلا أن تخلد ذكرى مؤسسها فحملت طوال تاريخها في العصور الوسطى اسم القسطنطينية . ومع هذا فقد ظل اسم المدينة الإغريقية القديمة «بيزنطة» Byzantium عالقا بالأذهان ، بل لقد فرض نفسه على عصر بأكمله .

وحتى أواخر القرن التاسع عشر كان المؤرخون يعطون أهمية خاصة لعام ٤٧٦ لما حسبوه سقوطا للإمبراطورية الرومانية[٢] ، وذلك عندما قام القائد الاسكيري الجرماني أودواكر Flavius Odoacer بتنحية رومولوس أوغسطولوس Romulus Augustulus آخر الأباطرة في الغرب ، والاستيلاء على السلطة في إيطاليا . ويرتبون على ذلك انتهاء الامبراطورية الرومانية هناك ، وبقاء الإمبراطورية الرومانية الشرقية . وهم يبدون هذه الآراء على أساس الاعتقاد الذي ساد بينهم من وجود امبراطوريتين رومانيتين في سنة ٣٩٥، عقب وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I ، وتقسيم الامبراطورية بين ولديه ، أركاديوس Arcadius في الشرق وهونوريوس Honorius في الغرب .

---

١- انظر الحضارة البيزنطية ص٦ .

٢- انظر Oman . The Dark Ages, PP. 2-3 ويتخذ منها أومان بداية لدراسة العصور الوسطى حيث يقول : «إذا كان من الضروري اختيار خط فاصل بين التاريخ القديم والعصور الوسطى فمن المستحيل أن نجد خيرا من عام ٤٧٦» .

غير أن هذه المفاهيم التى حملها الدارسون فى القرن الماضى ، لم تعد تجد من يتصدى لتأييدها الآن . فالتقسيم الذى حدث عام ٣٩٥ ، كان تقسيما لإدارة الحكم فى الامبراطورية الرومانية ولم يكن انقساما لها ، «فقد كان كل من الحاكمين يعترف بنفس القوانين ومبادئ الحكومة والتقاليد الرومانية » [٣] .

ولم يكن ما وقع سنة ٤٧٦ ظاهرة فريدة فى الإمبراطورية ولا نكبة حلت بها ، ذلك أن الأمر لم يزد عن خضوع إقليم آخر لسيادة حاكم جرمانى . لعلها فى الواقع كانت صدمة كبيرة أن تقوم هذه المملكة الجرمانية الجديدة فى إيطاليا ، المركز الرئيسى والأصلى للإمبراطورية ، ولكن حتى هذه الناحية كانت لها سوابق معينة . فقد كانت السيادة فى إيطاليا للجرمان ، منذ زمن يعود إلى أيام ستليكو Stilicho بل إننا نجد سنوات بعينها ، قبل عام ٤٧٦ ، خلا فيها العرش فى الغرب من وجود إمبراطور ، وكانت روما وإيطاليا قد أخذتا تفقدان أهميتهما تدريجيا منذ ثلاثة قرون خلت ، خاصة عندما أقام قسطنطين عاصمته الجديدة على شطآن البسفور . لقد كان عصب الإمبراطورية فى القرن الخامس فى الشرق ، ولم ينقص ذلك الإجراء الذى أقدم عليه أودواكر شيئا من سلطان إمبراطور القسطنطينية . ولم يشعر أحد أن الإمبراطورية قد انتهت بها الحياة عند سنة ٤٧٦ ، أو أن إيطاليا كانت خارج نطاق الإمبراطورية بعد هذا التاريخ [٤] . ولعله مما يدعم ذلك أن امبراطور القسطنطينية استقبل فى عام ٤٧٧ وفدا يمثل أودواكر والسناتو الرومانى ، يخبره أن الغرب لم يعد بحاجة إلى وجود امبراطور ، وأن الإمبراطور الرومانى فى الشرق كاف لبسط حمايته على الشرق والغرب معا ، كما كان واقعا فى عهدى قسطنطين وثيودوسيوس . ويضع عند قدمه تاج رومولوس وعباءته الإمبراطورية . ويطلب إليه أن ينعم على أودواكر باللقب الرومانى ، «بطريق» ، ويعتبره نائبا عنه فى حكم إيطاليا [٥] . ومع أن الإمبراطور زينون Zeno لم يوافق على منح أودواكر ، لقب التشريف الرومانى هذا ، فقد راح القائد الجرمانى يحكم إيطاليا كملك ، دون أن يحصل على اعتراف من الإمبراطور ، وإن لم يكن أمام زينون إلا أن يغمض عينه عن ذلك [٦] .

---

٣- بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود زايد ، ص ـ ى .

٤- Strayer & Munro The Middle Ages , 395. 1500 . pp. 39 . 40 .

٥- Oman , op. cit., pp. . 1-2 .

وانظر أيضا Stephenson . Mediaeval history , p. 56 .

٦- Jones . The decline of the Ancient World, p. 92 .

يضـاف إلي هذا أنه حـوالي ذلك الوقت ، كـانت الأجزاء التى تكون الشطر الغـربى من الإمبـراطورية ، قد أصبحت تحت السيـادة الفعلية للجرمان . فـجايزريك Gaiseric ملك الوندال، كان قد بسط سيادته على كل الولايات الأفريقية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار ، عقب وفاة فالنتينيـان الثالث Valentinianus III ثم صقليـة سنة ٤٦٨ ، بينما مد البرجنديون سلطانهم حـتى الراين الأعلى فى الشـمـال والسـامون والرون فى الغـرب . وشـملت مملكة الفيزيقوط معظم أسبانيا وجنوب غربى غالة ، ما بين اللوار والرون والسامون شمالا وجبل طارق جنوبا . وما تبقى من أسبانيا ،.فيما يعرف بمنطقة غاليسيا ، قامت فيه مملكة السويفى Sueves رغم الهزيمة الساحقة التى منوا بها سنة ٤٥٥ / ٤٥٦ على يد ثيودوريك الثانى ملك القوط الغربيين Visigoths . أما أمراء الفرنجة فقد كانوا يحكمون المناطق الواقعة على الميز والموزيل والراين والأدنى[٧] . وعلى حين كانت الإمبراطورية قد تخلت طواعية عن بريطانيا ، عندما اقدمت على سحب حامياتها من هناك فى عام ٤٤٢ لمواجهة الأخطار التى تتعرض لها الإمبرطورية فى غالة[٨] . وهكذا ندرك أن ضياع السيادة الرومانية من إيطاليا كذلك لم يكن أمرا مستحدثا . ومن ثم يصبح القول بسقوط الإمبراطورية الرومانيـة سنة ٤٧٦ بعيدا عن الحقيقة . فلقد كانت هناك دائما إمبراطورية رومانية واحدة ، سواء كان على عرشها امبراطور واحد أو اثنان أو حتى ستة [٩]. وظلت نظرية الدولة الواحدة قائمة دون تغيير ، وعادت الوحدة

---

= وأنظر لنفس المؤلف أيضا The Later Roman Empire . I. p. 245 وقد جرت عادة ملوك الجرمان آنذاك على أن يقرنوا لقب لقب ملك الذى يحملونه بالقبيلة التى ينتمون إليها ، فقد كان يوريك Euric يعرف بلملك القوط الغربيين Visigoths لا ملك أسبانيا ، وكذلك كان جايزريك Gaiseric هو ملك الوندال وليس ملك أفريقيا . ومن ثم لم يدع أودواكر نفسه ملك إيطاليا . خاصة وأن التعريف الإقليمى لمثل هذا النوع من الملكية لم يكن معروفا . أنظر Oman, op . cit ., p. 4 وقارن Davis , Medieval Europe, p. 26 .

٧- Davis , op. cit ., p. 26 ; Jones The Later Roman Empire I, p. 245 - 247 Oman , op. cit ., p. 5 .

٨- Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe , 300-1500, pp. 96-107.

٩- بعد أن اعتزل دقلديانوس وزميله ماكسيميان الحكم سنة ٣٠٥ ، تعرضت الإمبراطورية الرومانية لحروب أهلية استمرت حتى عام ٣٢٣ ، نتيجة لانهيار نظام الحكم الرباعى الذى وضعه دقلديانوس ، بسبب طموح خلفائه . حتى إذا جاء عام ٣٠٨ كان على عرش الإمبراطورية ستة أباطرة هم جاليريوس وليكينيوس وقسطنطين وماكسيمين دازا وماكسنتيوس وماكسيميان . أنظر للمترجم : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الثانى .

القديمة إلى ما كانت عليه ، وانتقلت حقوق الحاكم الغربي من تلقاء نفسها إلى صاحب العرش في القسطنطينية ، وجمع السلطان كله مرة أخرى في يد واحدة، ورغم أن السلطة الفعلية كانت في يد الجرمان ، إلا أن كل روماني ، وبصفة خاصة الأباطرة في القسطنطينية ، كانوا يعتبرون الإمبراطورية الواحدة ما زالت قائمة[١٠] . وهذه الحقيقة نلمسها بوضوح في تلك الجهود الكبيرة التي بذلها الإمبراطور جوستنيان Justinianus (٥٢٧-٥٦٥) ، على امتداد ما يقرب من ربع قرن ، لاستعادة الأراضي التي استولى عليها الجرمان في الغرب الإمبراطوري . فقد كان جوستنيان بالقلب رومانيا بالقالب ، يباهي باللاتينية لسانا ، وبتاريخ الرومان ، ويبعث إلى الحياة من جديد مناصب الأقدمين ، البرايتور والكويستور وغيرهما . حتى حق للمؤرخ نورمان بينز أن يقول عنه «إنه كان آخر الأباطرة الرومان ولم يصبح بعد بيزنطيا »[١١] . وليس أدل على ذلك من أن مجموعة القوانين والتشريعات الجوستنيانية ، سواء المقننة Codex Justinianus أو الجامع[١٢] Digesta أو مبادئ القانون[١٣] Institutiones ، صدرت كلها باللغة اللاتينية ، وإن كانت المتجددات Novellae قد جاءت باليونانية .

---

١١- الإمبراطورية البيزنطية،ص . ي أيضا . Painter , Ahistory of the Middle Ages, pp. 34-35 وهو نفس القول الذي ذكرته المؤلفة عند حديثها عن جوستنيان ومحاولة استعادة الأراضي الرومانية ، أنظر بعده.

١٢- درجت كل الكتب العربية التي تتناول التاريخ البيزنطي على ترجمة Digesta بـ «المختصر» ، وهذه الترجمة تعبر عن المعنى اللغوي لهذا اللفظ . غير أني فضلت استخدام كلمة «الجامع» ترجمة لهذه الكلمة ، تعبيرا عن المدلول الواقعي للعمل الذي أقدم عليه جوستنيان ، فمن غير المعقول أن تطلق على مجموعة قانونية تتكون من خمسين كتابا اسم «المختصر» ، ذلك أن الدايجستا هي محصلة العمل الذي استمر ثلاث سنوات (٥٣٠-٥٣٣) تحت رئاسة تريبونيان وكانت مهمة اللجنة التي أخرجتها تنحصر في فحص ما خلفه الفقهاء الكلاسيكيون جميعا ، واستخلاص مقتطفات منها ، مستبعدة كل ما أصبح غير ذي موضوع . ومن ثم كان على اللجنة أن تقرأ حوالي ثلاثة ملايين سطر تضم الأحكام القضائية والآراء الفقهية والتطورات التشريعية التي تعود إلى الرومان الأقدمين . ومن ثم آثرت استخدام كلمة «الجامع» بدلا من «المختصر» .

١٣- فضلت أيضا استخدام «مبادئ القانون» بدلا من «النظم» وهي الترجمة الحرفية التي تستخدمها أيضا الكتب العربية ، وكان ميلي «لمبادئ القانون» انطلاقا من أن هذا العمل هو عبارة عن كتاب في أربعة أجزاء يحتوي على أهم مبادئ القانون المدني التي جاءت في المقننة والدايجستا ، وقد حرص جوستنيان على إصداره تيسيراً لطلاب القانون في دراستهم .

وللمؤرخ جيبون Gibbon رأى يبدو الآن طريفًا ، فهو يعتبر الإمبراطورية الرومانية ممتدة حتى سنة ١٤٥٣ ، عندما استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية ، على عهد محمد الفاتح . ولكن الطريف فى هذا الرأى أن جيبون يعتبر تاريخ الإمبراطورية الطويل على هذا النحو ، ليس إلا حركة تدهور وانحطاط مستمر بدأت منذ القرن الثانى الميلادى حتى القرن الخامس عشر ، حيث عملت الثورات والانتفاضات المتلاحقة التى حدثت على امتداد ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، على تقويض دعائم السمو الانسانى والقضاء عليها تماما فى نهاية الأمر . ويقسم جيبون هذه القرون إلى ثلاث فترات :

الفترة الأولى يمكن تبين ملامحها فى عهود تراجان والأنطونيين ، حيث راحت الإمبراطورية الرومانية ، وهى فى أوج قوتها ، تهوى إلى غيابات الانحلال ، ثم الدمار بفعل القبائل الجرمانية والاسكيزية المتبربرة ، حتى إذا كانت بداية القرن السادس الميلادى ، خضعت روما لسلطان فاتح قوطى .

أما الفترة الثانية فى انحلال روما وسقوطها ، فيفترض جيبون بدايتها فى عهد جوستنيان، الذى كانت جهوده فى ميدان القانون وانتصاراته العسكرية ، سببا فى أن تعيد للإمبراطورية الشرقية بريقا خاطفا لمجد غابر ، وقد شهدت هذه الفترة الغزو اللومباردى لايطاليا ، وفتح المسلمين للولايات الاسيوية والأفريقية ، وثورة الشعب الرومانى على حكامه الضعاف فى القسطنطينية ، وتنصيب شارلمان امبراطورا ، وهو الذى أقام فى سنة ٨٠٠ الإمبراطورية الثانية فى الغرب أو الإمبراطورية الجرمانية .

وتطول الفترة الثالثة حتى تبلغ ستة قرون ونصف ، وهى أطول الفترات الثلاث على الإطلاق ، وهى تمتد من إحياء الإمبراطورية الغربية حتى الفتح التركى للقسطنطينية ، وانقراض سلالة الأمراء المنحلين الذين مافتئوا يخلعون على أنفسهم ألقاب «القيصر» و «الاوغسطس» ، حتى بعد أن أنحسر سلطانهم إلى حدود مدينة واحدة ، جر فيها النسيان ذيوله منذ زمن بعيد على الرومان الأقدمين وطرائق حياتهم . وعلى الكاتب الذى يتصدى لأحداث هذه الفترة ، أن يخوض فى التاريخ العام للحروب الصليبية ، على نحو يتناسب مع ما أسهمت به فى تحطيم الإمبراطورية اليونانية ، وكذلك الحال الذى تردت فيه مدينة روما إبان فوضى العصور الوسطى وظلامها [١٤].

---

١٤- انظر المقدمة التى كتبها جيبون لمؤلفه «اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية» فى الطبعة التى أشرف على إخراجها العلامة بيورى . وراجع أيضا تقديم الترجمة العربية للمختصر بقلم أحمد نجيب هاشم .

وإذا كان كتاب جيبون عن اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ، قد حظى - كما تقول ج.م . هسى ، مؤلفة هذا الكتاب الذى نقدم له ، بالإعجاب ، إلا أن قصة الإمبراطورية البيزنطية ليست «مملة» أو «مملة» كما اعتقد جيبون[١٥] . ولاغرو فقد نشر جيبون مؤلفه هذا فى أخريات القرن الثامن عشر (١٧٧٦-١٧٨٨) ورغم أنه قد بنى آراءه على ما توافر لديه من المصادر الأصلية ، إلا أن المصادر والوثائق التى تتناول تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، تم الكشف عنها فى القرن التالى لصدور مؤلف جيبون . وقد أدرك هو نفسه هذا القصور . ونلمس ذلك فيما كتبه من تعليقات فى صفحات الطبعة الثانية .

على أن الشئ الذى لايمكن إغفاله ، أن جيبون يقدم لنا بهذا الكتاب درسا فى وحدة التاريخ ، وهذا أمر يسهل إدراكه للوهلة الأولى من العنوان الذى اختاره جيبون لمؤلفه ، حيث تتضح الحقيقة الأساسية بأن الإمبراطورية التى أقامها أوغسطس سقطت فى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وأن كل التغييرات التى حولت أوروبا ماركوس أوريليوس (١١٦-١٨٠) إلى أوروبا إرازمس[١٦] Erasmus لم تمح اسم الإمبراطورية وذكراها . ومهما

---

١٥- انظر مقدمة المؤلفة .

١٦- يعتبر أعظم علماء الإنسانيات فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر . ولد حوالى عام ١٤٦٩ فى روتردام ، واكره على الانخراط فى سلك الرهبنة بعد وفاة أبيه ، ثم تركها مرغما إلى الوظائف الكهنوتية ، عندما رسم قسيسا عام ١٤٩٢ ، وكان نهما للقراءة ، نهل من اليونانية واللاتينية . وقد أخذ يتنقل بين فرنسا وانجلترا وإيطاليا ، ويعيش فى كثير من الأحيان حياة لاهية ، وفضل أن يعيش حراً طليقا ورفض أن يقبل قيود الوظائف العامة أو الكهنوتية ، معتمداً على ما يرتزق به من قلمه . وإن كان قد عانى من جراء ذلك الفاقة لولا مساعدة تلاميذه وأصدقائه . ويعتبر كتابه «امتداح الطيش» Enconium moriae أشهر مؤلفاته . وقد نشر فى باريس سنة ١٥١١ ، وطبع فى حياته أربعين طبعة ، وترجم إلى اثنتى عشرة لغة، وحمل فيه على التعقل الذى يحجب الشجاعة ، والجدل العقيم ، والنساك ، وأعضاء محكمة التفتيش والكرادلة والبابوات . وفى عام ١٥١٤ نشر سلسلة من محاوراته بعنوان «أشكال الحديث المألوف» Familiar-ium colloquirum formulae وصفها أحد الكتاب الإنجليز فى القرن الثامن عشر بأنها تكاد تهدم تماما كل الآراء والأوهام البابوية بأسلوب تعليمى شائق . على أن أهم أعماله كانت المراجعة النقدية للنص اليونانى للعهد الجديد مرفقا بترجمة لاتينية وتفسير، ونشر فى عام ١٥١٦ ، ولقى هجوما عنيفا من رجال الدين المتزمتين الذين أعلنوا أن النسخة اللاتينية الأصلية من الكتاب المقدس هى نسخة القديس جيروم . وكان ارازمس شديد الميل للمذهب العقلى، وسعى إلى التنسيق بين ما كان يحلم به عن «فلسفة المسيح» وبين رأى=

تكن النعوت التى خلعها جيبون على الإمبراطورية ، تحمل الازدراء والسخرية . مثل «الامبراطورية السفلى» أو «الإمبراطورية اليونانية» فان عنوان كتابه قد صحح أي انطباع خاطئ قد توحي به مثل هذه التسميات ، ذلك أن وحدة مؤلفه تعتمد على استمرارية الإمبراطورية الرومانية[١٧].

ويذهب العلامة بيورى أيضا إلى القول باستمرار الإمبراطورية الرومانية من القرن الأول حتى القرن الخامس عشر ، ويستشهد على ذلك بتتابع الأباطرة دون انقطاع منذ أوغسطس أوكتافيوس حتى قسطنطين الحادى عشر باليولوغوس . ورغم ما يذكره من أن عهد قسطنطين العظيم كان فاتحة عصر جديد فى كثير من النواحي ، بشكل يفوق عصر أوغسطس مؤسس الإمبراطورية نفسه ، إلا أنه يرفض القول ببداية لامبراطورية بيزنطية ، «فالامبراطورية الرومانية لم تنته إلا فى عام ١٤٥٣ ، وإذا كان من الممكن أن نتحدث عن «فن بيزنطى» أو «حضارة بيزنطية» فإن الحديث عن الدولة التى اتخذت من مدينة قسطنطين عاصمة لها ، لانجد خيرا من مصطلح «الامبراطورية الرومانية » للتعبير به عنها .

وكان بيورى قد نشر فى عام ١٨٨٩ مجلدين بعنوان History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene تحدث فيهما عن تاريخ الإمبراطورية منذ عام ٣٩٥ ، عندما تم تقسيم إدارة الحكم فى الإمبراطورية بين ولدى ثيودوسيوس ، ولم يغفل الأحداث التى وقعت فى الغرب أيضا إبان هذه الفترة ، تأكيدا لفكرته عن وحدة الإمبراطورية واستمراريتها ، وقد انتهى فى المجلد الثانى من هذا الكتاب إلى عهد الإمبراطورة إيرين آخر

---

= كبار الوثنيين ، ووصف أفلاطون وشيشرون وسنيكا بعبارات «ملهم من الله» . وقد اعتبره علماء اللاهوت المتزمتون ملهما لمارتن لوثر ، رغم أنه حاول أن يتخذ موقفا معتدلا . وعندما اتهمه الرهبان بأنه وضع البيضة التى فقست تحت لوثر ، أجابهم «إن البيضة التى وضعتها خرجت منها دجاجة . أما البيضة التى فقست تحت لوثر فقد خرج منها أحد ديوك المصارعة» . وقد مات ارازمس سنة ١٥٣٦ . أنظر ول ديورنت :

قصة الحضارة ، المجلد السادس جـ٢ ص ١٨٠-٢١٠ ، جـ٣ ص١٥٢-١٦٩ .

وكذلك Thompson & Johnson , op . cit ., pp. 1010-1017-1035 .

وأيضا Pirenne , A history of Europe. pp. 502. 42. 78 . 611 .

وراجع C. M. H. vol. VIII, pp. 712-15 , 777 , 786 .

١٧- انظر المقدمة التى كتبها بيورى لتاريخ جيبون فى الطبعة التى أشرف على إخراجها فى سبعة أجزاء (لندن ١٩٠٩) .

أباطرة الأسرة الايزورية ، والتى عاصرت حادثة تتويج شارل العظيم (Charlemgne) Carouls Magnus امبراطورا فى الغرب على يد البابا ليو الثالث فى ليلة عيد الميلاد لعام ٨٠٠ . وقد أعاد طبع هذين المجلدين مرة ثانية سنة ١٩٢٣ ، ولكنه وقف بالأحداث فى المجلد الثانى عند سنة ٥٦٥ ، أى نهاية عهد الإمبراطور جوستنيان .

وفى سنة ١٩١٢ ، نشر الجزء الثالث من هذا المؤلف وجعل عنوانه : History of the Eastern Roman Empire from the fall of Irene to The Accession of Basil وهو يشمل تاريخ الإمبراطورية منذ مطلع القرن التاسع ، الذى افتتحه نقفور الأول Nicephorus I (٨٠٢-٨١١) بالثورة على إيرين ، ثم قيام الأسرة العمورية أو الفريجية على يد ميخائيل الثانى ، حتى مقتل ميخائيل الثالث واعتلاء باسل الأول مؤسس الأسرة المقدونية ، عرش الإمبراطورية .

وهذا التقسيم الذى لجأ إليه بيورى عند وضع هذه الأجزاء الثلاثة ، قصد إليه المؤلف عمداً ، فهو يقف بأحداث المجلد الثانى عند سنة ٨٠٠، أو بتعبير آخر عند تتويج شارلمان امبراطورا فى الغرب . ومن ثم يمكن التمييز هنا بين امبراطوريتين أحدهما فى الشرق والأخرى فى الغرب. ولهذا نجد الكتابين الأولين يحملان عنوان «الإمبراطورية الرومانية المتأخرة» ، أما الكتاب الثالث فقد جعل عنوانه «الإمبراطورية الرومانية الشرقية» [١٨].

ومن المعروف أن تتويج شارلمان امبراطورا فى الغرب ، جاء وسط ظروف سياسية معقدة ومتشابكة فى الغرب والشرق على السواء . فقد كانت العلاقات تزداد سوءا بشكل مستمر بين ملوك اللومبارديين فى إيطاليا والبابوية فى روما مما دفع البابوات إلى الاتجاه ناحية مملكة الفرنجة الكارولنجيين فى غالة للاستعانة بها ضد أعدائها اللومبارديين ، فى نفس الوقت الذى كانت قوة الدولة الكارولنجية آخذة فى الازدياد ، وحدودها فى الاتساع ، وجهودها التبشيرية بين الفريزيين والسكسون تمضى قدما . وكان تحول الفرنجة إلى المسيحية الكاثوليكية منذ البداية ، دون بقية الشعوب الجرمانية الأخرى عاملا هاما فى توطيد أواصر المودة بين البابوية

---

١٨- انظر . Bury, History of the Later Roman Empire , I, pp. VII- IX, 1-4

وأيضا . Byzantium, edited by Baynes & Moss, XV

وكذلك . Vasiliev,A history of the Byzantine Empire , I, p. 21-23

وراجع مقدمة المؤلفة .

وملوك الفرنجة . وساعد على هذا الاتجاه لدى البابوية أيضا ، انصراف أباطرة القسطنطينية إلى التصدى للأخطار التى تحيط بهم على الحدود الشرقية من جانب الدولة الإسلامية والبلغار فى البلقان . وانغماسهم فى ذلك الجدل العقيدى الذى بدا ولانهاية له حول طبيعة المسيح ، وازدياد الأمر سوءا باتساع هوة الخلاف المذهبى بين روما والقسطنطينية ، وخاصة فى المشكلة الأخيرة التى شغلت قرابة نصف القرن الثامن فى مرحلتها الأولى ، ودارت من حول الأيقونات، واتخذ ليو الثالث الايزورى وابنه قسطنطين الخامس ، موقفا متشددا من تقديس صور المسيح والعذراء والشهداء والقديسين ، بينما وقفت البابوية فى جانب الأيقونيين ، وأعلنت أن الأيقونة هى انجيل العامى ، يرى فيها مالا يقدر على فهمه من الكتاب المقدس !! وقام ليو الثالث بفصل مناطق جنوب إيطاليا وصقلية ، ذات الصبغة اليونانية ، عن السيادة البابوية وجعلها خاضعة مباشرة لسلطة أسقف القسطنطينية .

وعلى الرغم من أن الإمبراطورة ايرين أقدمت على نبذ السياسة اللا أيقونية والعودة إلى الأيقونات فى المجمع المسكونى السابع الذى عقد فى مدينة نيقية سنة ٧٨٧ ، إلا أن ذلك لم يؤد إلى تحسن العلاقات مع البابوية التى أقدمت على تتويج شارلمان فى ٢٥ ديسمبر ٧٩٩ .

وقد أثارت حادثة التتويج هذه ردود فعل عنيفة ، ومناقشات طويلة ما تزال أصداؤها تتردد فى الكتابات التاريخية والسياسية الحديثة . ولكن الشئ الذى ينبغى أن نضعه فى اعتبارنا ، أن الطرفين الرئيسيين فى تلك الحادثة ، وهما البابا ليو وشارلمان ، لم يدر بخلدهما، عندما أقدما على ذلك ، فكرة بعث الإمبراطورية الرومانية القديمة ، أو بتعبير أكثر دقة ، الشطر الغربى منها الذى ظل قائما منذ وفاة ثيودوسيوس الأول سنة ٣٩٥ حتى عزل رومولوس أوغسطولوس على يد أودواكر سنة ٤٧٦ . بل ان هذه الفكرة لم ترد على بال أحد من مستشاريهما . فقد نظروا جميعا ، كما جرت بذلك سنة أسلافهم ، إلى الامبراطورية الرومانية باعتبارها امبراطورية واحدة لاتقبل التقسيم . ولم يكن الهدف الذى سعوا إليه بخلع التاج على ملك الفرنجة ، فصل الغرب عن الشرق ، لكن العودة بروما القديمة - على عكس ما فعل قسطنطين - إلى سابق عهدها بكونها عاصمة الإمبراطورية التى تحمل اسمها . ولما كان عملهم هذا يفتقر إلى الشرعية ، فقد سعوا جهدهم لاضفاء الصبغة القانونية عليه ، فاعترفوا واعتقدوا - إلى حد ما - أنهم لم يتمردوا أو يعلنوا الثورة على الحاكم الجالس على عرش القسطنطينية ولكنهم استخدموا حقهم الشرعى القديم بملء هذا الكرسى الذى شغر بعزل

قسطنطين السادس بيد أمه ايرين ، التى قفزت إلى العرش بدلا منه . ومن ثم اعتبر شارلمان خليفة للإمبراطور قسطنطين السادس وأبيه ليو الرابع وهرقل وجوستنيان وأركاديوس وكل أباطرة القسطنطينية ، وليس خلفا لرومولوس أوغسطولوس . وهكذا جاء ترتيب قسطنطين السادس فى الحوليات الإمبراطور السابع والستين ابتداء بأوغسطس ، وشارلمان الثامن والستين ، دون انقطاع فى سلسلة الأباطرة (١٩).

وعلى هذا النحو يمكن القول أن أحداث ليلة عيد الميلاد لسنة ٨٠٠ قد جرت ضمن إطار الامبراطورية الرومانية القائمة ، التى كانت روما ما تزال جزءا أساسيا منها ، وكان كل ما تم عمله هو انتخاب امبراطور جديد فى ذات الإمبراطورية القائمة . وعلى الرغم من أن شارلمان كان امبرطاورا رومانيا ، من وجهة نظر الذين اختاروه ، إلا أنه لم يكن هناك حق فى أن يخلفه أحد من أبنائه ، ولم يصبح هو بطبيعة الحال الإمبراطور الأوحد ، فغالبا ما كان هناك امبراطور آخر يفوقه فى المكانة والمرتبة ، هو الإمبراطور البيزنطى .

وكان من الطبيعى أن ترفض الحكومة الإمبراطورية فى القسطنطينية الاعتراف بالإمبراطور الجديد ، الذى بدا فى نظرها مدعيا ومغتصبا . بل ان شارل نفسه شعر بالمأزق الذى تورط فيه، وظل لمدة ثلاثة أشهر بعد تتويجه يستخدم لقبه الملكى القديم ، حتى إذا مضت خمسة أشهر على حفل التتويج ، اهتدى إلى عبارة مبهمة غير دقيقة أطلقها على نفسه، «شارل ، أوغسطس الشديد الوقار ، المتوج بفضل الله ، الإمبراطور العظيم ، المحب للسلام ، حاكم الإمبراطورية الرومانية » .

غير أن الأحداث التى وقعت حوالى ذلك الوقت ، من استيلاء شارلمان على استريا وعدد من مدن الساحل الدلماشى والبندقية ، وما لقيه البيزنطيون من هزيمة ساحقة عام ٨١١ على أيدى البلغار ، كل هذا دفع الإمبراطور ميخائيل الأول رانجابى إلى فتح باب المفاوضات مع شارلمان لاسترداد بعض ما فقدته الإمبراطورية البيزنطية . ومن ثم فانه فى الرابع من أبريل سنة ٨١٣ وصل إلى بلاط شارلمان سفراء ميخائيل ، وخاطبوا شارلمان بوصفه «امبراطورا وملكا» "emperor and basileus" . وعد هذا عندئذ اعترافا من الإمبراطور الرومانى الشرعى بامبراطور الغرب .

---

١٩- انظر Bryce , The Holy Roman Empire , pp. 62-64 .

ويتساءل باراكلاف ، على أي شئ كان شارلمان امبراطور ؟ ويجيب أنه كان امبراطورا على لاشئ . ويضيف ، حقا إن شارلمان كتب خطابا مفعما إلى ميخائيل فى سنة ٨١٣ يعرب فيه عن اغتباطه بحلول السلام أخيرا بين الإمبراطوريتين «الشرقية» و «الغربية» . ولكنه كان فى ذلك يجاوز نطاق سلطته ، حيث أن فكرة وجود امبراطورية «غربية» لم يكن لها محل فى المفاوضات الرسمية . لقد كان مفروضا أن يكون شارلمان «امبراطورا وملكا» ، وهو لقب شخصى ، ولكنه لم يكن امبراطورا على بلد ما ، وأبعد ما يكون امبراطورا رومانيا . ومنذ ذلك التاريخ أسقط هو نفسه ، بحكم طبيعته ، من لقبه الصيغة العجيبة «حاكم الإمبراطورية الرومانية» .

فاذا أضفنا إلى ذلك ، أن أحدا من خلفاء شارلمان ، باستثناء لويس الثانى لأشهر قلائل ، أو أوتو الأول ، لم يفكر فى استخدام لقب «الإمبراطور الرومانى» ، وأن شارلمان قد مات قبل التصديق على معاهدة سنة ٨١٢ التى جرت المفاوضات بشأنها بينه وبين الإمبراطور البيزنطى، وأن أباطرة بيزنطة بعد ميخائيل الأول أغفلوا تماما هذه الخطوة التى أقدم عليها هذا الأخير ، وأن ما حدث عام ٨٠٠ لم يكن ، حسب تعبير باراكلاف ، إلا انقلابًا سياسيًا فاشلا[٢٠] أدركنا على الفور أنه من الصعب الوقوف عند تلك الحادثة لنتخذ منها بداية لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية .

وإذا كان بيورى قد رفض القول ببداية لإمبراطورية بيزنطية ، فان توينبى A. Toynbee يقف على النقيض من ذلك تماما . إذا يفترض أن الإمبراطورية الرومانية قد ماتت خلال السنوات الأخيرة من القرن السادس ، وأن «شبح» تلك الإمبراطورية هو الذى كان يشغل

---

٢٠- انظر البحث القيم الذى كتبه ج بارا كلاف G. Barraclough عن The Mediaeval Empire: Idea and Reality وقام بترجمته إلى العربية الدكتور جوزيف نسيم يوسف فى كتابه «الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى» . ص١٨٣-١٨٩ ، وراجع المقدمة التى كتبها الدكتور جوزيف لكتابه هذا ص٣٨-٤٢ وانظر أيضا : ديفز ، شارلمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ، ص١٧٢-١٨٧ وكذلك Einhard , The Life of Charlemagne , trans by Lewis Thorpe , (Two Lives of Charlemagne , by Einhard and Notker the Stammer) pp. 80-81 .

وراجع C. M. H. II, pp. 622-644 وأيضا Stephenson . op. cit ., 158 وكذلك Thompson & Johnson , op . cit ., 246 .

مؤخرا العرش الإمبراطورى ، وأن القرن السابع شهد ميلاد امبراطورية جديدة أبانت عن نفسها بوضوح عندما اعتلى ليو الثالث عرشها ليؤسس الأسرة الايزورية ، ويضيف أن هذه الإمبراطورية الجديدة تمثل رد فعل المسيحية الشرقية تجاه التهديد الإسلامى . وسوف تصبح الدرع الواقى الذى ستصقله المقاومة العنيدة ضد هجمات المسلمين ، وهذه الإمبراطورية الجديدة ليست استمرار للإمبراطورية الرومانية القديمة أو امتدادا لها ، إلا فى الحفاظ على الحكم الإمبراطورى المطلق ، والإدارة المركزية لمواجهة الظروف المتغيرة (٢١).

ولكن القول بفناء الإمبراطورية فى أخريات القرن السادس لايمكن الأخذ به على علاته ، ذلك أن النصف الأول من القرن السادس ، شهد تلك الجهود الكبيرة التى بذلها الإمبراطور جوستنيان من أجل استعادة الأراضى التى اغتصبها الجرمان فى الشطر الغربى من الإمبراطورية . وقد نجح الإمبراطور بالفعل فى استرداد إيطاليا وصقلية وسردينيا وكورسيكا ودلماشيا وأفريقية وجزر البليار وبضع أسبانيا . وهكذا كانت الإمبراطورية عند وفاة جوستنيان سنة ٥٦٥ ، تكاد تسيطر على الأراضى الرومانية القديمة فى الغرب ، إذا استثنينا غالة وبريطانيا ومعظم أسبانيا . وإذا كانت العناصر اللومباردية قد تمكنت من اجتياح شمال إيطاليا بعد ثلاث سنوات فقط من وفاة جوستنيان ، إلا أن أباطرة القسطنطينية ظلت لهم السيادة ، ولو من الناحية النظرية ، على إيطاليا ممثلة فى أرخونية رافنا Ravenna ، وفى التبعية البابوية الاسمية حتى منتصف القرن الثامن عندما ولى البابوات وجوهم شطر مملكة الفرنجة فى غالة . كما أن الإمبراطورية ظلت لها أملاكها فى منطقة جنوب إيطاليا حتى منتصف القرن الحادى عشر . بل إن الإمبراطور قنسطانز الثانى Constans II (٦٤٢-٦٦٨) ، قضى السنوات الخمس الأخيرة من حكمه متنقلا ما بين صقلية وإيطاليا بعد أن راودته فكرة اتخاذ سيراكوز عاصمة له (٢٢).

---

٢١- انظر Toynbee , A study of history , vol : IV, p. 320- sqq :

وراجع : كولنجوود ، فكرة التاريخ ، ص٢٨٥-٢٩٤ .

٢٢- تذكر الروايات أن قنسطانز الثانى طوعت له نفسه قتل أخيه ثيودوسيوس ، فقتله ، فأصبح من النادمين . من أجل ذلك تملكته الهواجس ولعبت به الظنون ، فأمست القسطنطينية له جحيما لايطاق ، يطارده دم أخيه ويؤرق جفنيه ، فارتحل غربا وقد عقد العزم على أن يجعل من صقلية مستقرا ومقاما ، ولكن التطورات السياسية والعسكرية قد تلقى الضوء بشكل أوضح على هذه الناحية : فقد رأى قنسطانز الولايات الشرقية قد أفلتت من يد الامبراطورية وأن أعين المسلمين تتجه الآن صوب الغرب بعد أن تأكدت سيادتهم =

ورغم أن حروب الاسترداد الجوستنيانية الطويلة قد أرهقت الخزانة الإمبراطورية من أمرها عسرا، بهذه النفقات الباهظة التى تطلبتها ، بالإضافة إلى الجزية السنوية التى كان على الإمبراطورية أن تدفعها للملك الفارسى حتى تضمن هدوء الجبهة الشرقية للتفرغ للحرب فى الميدان الغربى ، إلى جانب الروح المعنوية السيئة التى انتشرت بين الجنود بسبب طول مدة الحرب ، وتأخر رواتبهم ، وتكوين الجيش من عناصر رومانية وجرمانية متنافرة بطبيعتها . ورغم كل ذلك إلا أن الإمبراطورية كانت قادرة فى أخريات القرن السادس على أن تواصل القتال ضد العناصر الآفارية والصقلبية فى البلقان ، والدولة الفارسية على جبهة الفرات ، والذود عن السيادة الإمبراطورية فى إيطاليا ضد اللومبارديين .

فقد قام الإمبراطور موريس Mauricius (٥٨٢-٦٠٢) باغراء ملك الفرنجة شيلدبرت Childebert بالهجوم على اللومبارديين ، لقاء خمسين ألف صوليدى . وقد قبل الملك الفرنجى ذلك العرض ، وغزا شمالى إيطاليا فى عامى ٥٨٤ ، ٥٩٠ وقدم له حكام هذه المنطقة فروض الطاعة والولاء . وفى سنة ٥٩١ اضطر كسرى أبرويز ملك فارس للهروب إلى قرقيسية Circesium ووضع نفسه تحت حماية امبراطور القسطنطينية ، وذلك بعد وفاة أبيه هورميزدا وقيام فاران Varanes بالثورة ضده . وقد عرض كسرى على موريس أن يتنازل له عن ميافارقين Martyropolis ودارا Dara وأن يتخلى عن ادعاءاته فى أرمينيا وأرزانينى[٢٢] Arzanene فى مقابل عونه لاسترداد عرشه . وقد وافق موريس على ذلك ونجح فى هزيمة فاران وإعادة السلطة إلى كسرى الذى أوفى بما عاهد عليه الإمبراطور . وبهذا السلام الذى تحقق فى الشرق ، تمكن موريس من نقل قواته إلى الجبهة الغربية ، فوقع الآفار سنة ٦٠٠ معاهدة مع الإمبراطورية ، أصبح نهر الدانوب بمقتضاها حدا فاصلا بين الطرفين ، وسمح للجيش الإمبراطورى بعبور الأراضى الآفارية لمطاردة العناصر الصقلبية .

---

= على مصر وراحوا يرسلون جيوشهم إلى برقة . وتسلط أمل الحفاظ على منطقة شمال أفريقيا بعيدا عن أيدى العرب ، ولن يتأتى له ذلك إلا إذا كان على مقربة من هذه المنطقة . ومن ثم لابد أن يكون قد دار بفكره أن يتخذ من سيراكوز عاصمة له . وقد انتاب الضيق أهالى القسطنطينية لما حسبوه تجريحا لمكانة مدينتهم وسموها . ومن ثم لم يلبث قنسطانز أن اغتيل بعد خمس سنوات قضاها فى الغرب على يد خادم حمامه أندريا Anderias فأفاقت العاصمة من وساوسها .

أنظر . Vasiliev , op . cit ., I. pp. 220-221

٢٢- على الحدود الجنوبية لأرمينيا الفارسية .

هذه هي الصورة التي كانت عليها الإمبراطورية أواخر القرن السادس . فقد صمدت لمتطلبات الحرب المتزايدة بنجاح باد . حقيقة فقدت أجزاء من أيطاليا وحتى ما بقي منها في أيدي الإمبراطورية أفقرته اغارات اللومبارديين ، ولكن الأحوال في أفريقيا أخذت تميل إلى الهدوء ، وأخذت هذه الولاية تسترد بعض الشئ رخاءها القديم ، وامتد الأمان ليشمل أيضا الجزر الواقعة غربي المتوسط وولاية أسبانيا القصية . وعلى الرغم من أن الليريا وتراقيا تبدت للعيان قاعا صفصفا بفعل التدمير الذي لم ينقطع لعدة أجيال متعاقبة ، إلا أن موريس قام هنا بأعمال عسكرية رادعة أحرز فيها كثيرا من التقدم في سني عمره الأخيرة ، التي هي بالتالي آخر سني القرن السادس ، أمن بها جبهة الدانوب وكبح جماح الآفار. وفوق هذا وذاك يكفي أن الجبهة الشرقية قد اصطبرت بعناد في مواجهة قوى الفرس المتجددة . وبقيت الولايات الزاهرة ، آسيا الصغرى وسوريا ومصر التي تضع الإمبراطورية عليها جل اعتمادها ، تحت سيادة الإمبراطور . هذا على حين شهد العقدان الأول والثاني من القرن السابع ، تصدعا هائلا في أركان الإمبراطورية ، وتقلصا شديدا في أطرافها .

فقد اجتاح الآفار منطقة البلقان وحطوا رحالهم عند أسوار القسطنطينية ، منتهزين فرصة الفوضى التي أعقبت مقتل الإمبراطور موريس وتولي فوقاس Phocas (٦٠٢-٦١٠) خلفا له ثم انتقال العرش إلى أسرة جديدة هي الأسرة الهرقلية . واستولى الفرس على الولايات الشرقية، سوريا وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى ، وأشعلوا نيرانهم على شاطئ البسفور المقابل للقسطنطينية . وهكذا لم يبق من «بيزنطة» الامبراطورية إلا «بيزنطة» المدينة، مما دفع الملك الفارسي إلى أن يكتب إلى الإمبراطور هرقل رسالة جاء فيها «من كسرى أعظم الآلهة وسيد العالم كله إلى هرقل عبده الفاجر عديم الإحساس . ألم أقض على الإغريق ؟ إنك تقول إنك تثق في إلهك . فلماذا إذن لم يخلص من يدي قيسارية وبيت المقدس والأسكندرية ؟ وهل أنا لن أخرب القسطنطينية أيضا ؟ على أنني سأغفر لك جميع ذنوبك إذا ما قدمت إلى ومعك زوجتك وأطفالك ، وسأمنحك الأراضي والكروم وعروش الزيتون ، وسأنظر إليك نظرة رحيمة . لاتغش نفسك بأملك الخائب في ذلك المسيح الذي لم يستطع حتى أن ينقذ نفسه من اليهود الذين صلبوه وقتلوه»(٢٤) . غير أن الإمبراطور هرقل استطاع بعد ما يقرب من عشر سنوات من الحرب ومحاولة السلام مع الفرس والآفار ، أن يحقق نصره النهائي على الفرس في

٢٤- أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص١٠٢ .

سنة ٦٢٧ عند أطلال مدينة نينوى القديمة، بينما كان الآفار قد رفعوا حصارهم عن القسطنطينية فى العام السابق ، أمام صمود حامية المدينة وحماسة البطريرك سرجيوس . ولن يمضى على ذلك خمسة عشر عاما حتى يكون المسلمون قد فتحوا هذه الولايات وأخضعوها لسلطانهم .

ولعلنا الآن ندرك أن الإمبراطورية الرومانية القديمة لم تقف بها الحياة عند سنى القرن السادس الأخيرة ، لتولد امبراطورية جديدة فى القرن السابع كرد فعل للخطر الإسلامى ، على حد تعبير توينبى . فالفرس كانوا يمثلون الأعداء التقليديين للإمبراطورية الرومانية لقرون طويلة ، فلما تخلصت الإمبراطورية من هذا العدو ، بيد المسلمين لا بيدها ، حلت الدولة الإسلامية الجديدة محل الفرس فى العداء للإمبراطورية ، رغم اختلاف الأسباب والظروف .

وإذا كان لابد من الحديث - تجاوزا - عن فترة ماتت فيها الإمبراطورية الرومانية ، فانها سوف تكون عند البعض ، كما يفترض نورمان بينز النصف الثانى من القرن الثالث[٢٥] فقد تعرضت الإمبراطورية الرومانية على مدى نصف قرن (٢٣٥-- ٢٨٤) لأزمة طاحنة كادت تودى بها . وشملت الأزمة جميع أوجه النشاط السياسى والاقتصادى والإدارى . وانعكست هذه الفوضى بصورة مباشرة على العرش الإمبراطورى ، فقد تولى الحكم فى هذه الفترة ستة وعشرون امبراطورا ، لم يمت منهم إلا امبراطور واحد ميتة طبيعية ، وشهدت غالة وحدها بين سنتى ٢٥٧، ٢٧٣ خمسة أباطرة . وكان ذلك نتيجة للحروب الأهلية التى سادت بين قواد الفرق الرومانية فى الولايات المختلفة ، تطلعا إلى العرش . وتعقدت الأمور بغزوات الجرمان من الشمال والغرب ، والفرس من الشرق ، وازدياد متطلبات الإمبراطورية واحتياجاتها لمواجهة تلك الأخطار ، ونقص عدد السكان باستمرار نتيجة تفشى الأمراض والأوبئة والطواعين . وانحطاط الزراعة وتدهور الصناعة وكساد التجارة وانخفاض قيمة العملة . ولقد لخص المؤرخ جونز ذلك كله فى عبارة موجزة بليغة ودقيقة بقوله «لقد ضاع كل شئ »[٢٦] . ورغم أن

---

٢٥- Byzantium , ed by N. H. Baynes & H. st. L. B. Moss p. XVII .

٢٦- انظر Boak , A history of Rome to 565 A. D. p. 403 .

وأنظر Jones, Constantine and the Conversion of Europe . pp. 2-3 , 11; Later Roman Empire, I, pp. 22 sqq .

وأيضا . Cantor, Medieval history . p. 28

وكذلك راجع للمترجم ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، ص٣٥-٣٨ .

الأمور وقد جرت على هذا النحو فى القرن الثالث ، قد ساقت الإمبراطورية الرومانية إلى حافة الضياع ، ورغم أن الجهود التى قام بها الإمبراطور دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤-٣٠٥) وأكملها الإمبراطور قسطنطين(٣٠٦-٣٣٧) ، قد بعثت الحياة فى الإمبراطورية من جديد ومكنت لها فى الأرض فترة امتدت أحد عشر قرنا من الزمان ، إلا أن القول بقيام أمبراطورية جديدة لا صلة لها بسابقتها آنذاك يعد أمرا يحتاج إلى الكثير من المناقشة .

والدول والحضارات لاتولد من عدم ، ولاتنشأ فى فراغ . ولاهى منبتة الصلة بما سبقها أو ما حولها ، ولابما هو من بعد فى علم الغيب آت . فهى تأخذ مما سبقها وتتفاعل مع ما حولها ، وتؤثر قدر أصالتها فيما بعدها . وليس فى التاريخ حادثات بعينها تقف عندها جامدين نبدئ بها عصرا أو ننهى بها آخر . فالتاريخ شأن الكائن الحى ، وكما أنه يبدو عسيرا أن نضع أيدينا بدقة على سن معينة فى عمر الانسان نفصل به الطفولة عن الصبا وهذه عن الشباب أو الأخيرة عن الكهولة أو هذه عن الشيخوخة وهكذا ، فكذلك عصور التاريخ ، وكما أن الانتقال من مرحلة إلى أخرى فى عمر الكائن الحى لايتم دفعة واحدة ، وفجأة وبلا مقدمات ، كذلك فان فترات التحول التى تفصل وتصل بين عصر وآخر قد تمتد إلى عدة قرون ، وما حادثات التاريخ فى عصور النقلة هذه إلا علامات ومؤشرات على ذلك التحول ، أو هى مؤثرات فيه تدفع عجلة التاريخ إلى عصر جديد .

والإمبراطورية البيزنطية ليست استثناء من ذلك . فالمتتبع لتاريخ الإمبراطورية الرومانية خلال القرون الثلاثة الأخيرة من الرابع إلى السابع ، يستطيع تبين عناصر جديدة ومؤثرات مختلفة وتفاعلات تركت بصماتها بوضوح على أوجه الحياة السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والفنية والعقيدية ، واستغرقت عملية التفاعل هذه من عمر الزمن القرون الثلاثة، حتى إذا كان القرن السابع أمكن التعرف على الملامح الجديدة دون عناء .

ففى خلال أزمة القرن الثالث الطاحنة التى اعتصرت الإمبراطورية ، فقد السناتو الرومانى كل ما كان قد تبقى له من سلطة سياسية باهتة ، حقيقة أن مجلس الشيوخ كان قد أصبح منذ بداية العهد الإمبراطورى مجرد رمز للعصر الجمهورى الرومانى ، بعد أن استطاع أوغسطس بذكائه أن يقلم أظافره ، وراح الزمن طيلة القرنين التاليين يقضم هذه الأظافر ، حتى إذا أقدم القرن الثالث أمست يد السناتو عاجزة تماما . وانتقل ميزان القوى تدريجيا ، مع الضعف الذى انتاب الأباطرة ، إلى الفرق العسكرية الرومانية ، وليس أدل على ذلك من تلك النصيحة التى

أسداها الإمبراطور سبتميوس سفروسSeptimius Severus(١٩٣-٢١١) لولديه قبل وفاته. «أجزلا العطاء للجند ولا تلقيا بالا للآخرين ». وكان هو نفسه قد التزم هذا الشعار إبان فترة حكمه ، فأغدق على الجنود الكثير من الامتيازات والمنح ، بل ان السنة الشهيرة للأباطرة الأربعة عام ٦٩ ، علمت الجنود أن الامبراطور يمكن أن يوجد فى أى مكان خارج روما ، دون انتظار لترشيح السناتو ، وعلى الرغم من أن النظام الجمهورى فى روما قد انتهى رسميا بقيام الإمبراطورية فى سنة ٢٧ ق . م إلا أن الرومان كانوا يميلون إلى التمسك ، ولو من الناحية النظرية ، بالتقاليد الجمهورية . ففى وسط فوضى القرن الثالث ، تقدم الجنود إلى السناتو ، بعد مقتل الإمبراطور أورليان Aurelianus فى سنة ٢٧٥ ، يطلبون إليه ممارسة حقه فى ترشيح الامبراطور الجديد . ويبدو أن السناتو قد سئم هذه اللعبة ، فتباطأ فى الأمر ثم أقدم على اختيار أكبر أعضائه سنا وهو تاكيتوس Tacitus . وحتى عهد كاروس Karus (٢٨٢-٢٨٤) كان الأباطرة يعترفون بحق السناتو فى الانعام عليهم بالسلطات اللازمة للحكم مثل الامبريوم وغيرها من ألقاب الشرف ، بغض النظر عما إذا كان السناتو يفعل ذلك مختارا أم طائعا . أما كاروس فقد أعلن أنه حصل على السلطة الامبراطورية بمقتضى اعلان الجيش له امبراطورا ، وأخبر السناتو بهذا القرار على سبيل المعرفة . وتضخمت شخصية الاباطرة حتى أصبحوا يحملون لقب الاله رسميا على المسكوكات وفى النقوش ، وظهر هذا واضحا على عهد الامبراطور أورليان الذى استعمل الأكليل المقدس رمز السلطة الإلهية فى العالم القديم ، وأعلن فى جحافلة أن الله وحده ، دونهم ، هو الذى يختار الامبراطور ويحدد فترة حكمه وجرى ذكره على هذا النحو [٢٧] Deus Aureliauns , Imperator Deus et Dominus . Aurelianus Augustus

ولم يكن دقلديانوس أقل من سلفه ايمانا بالاوتوقراطية ، وساعده على ذلك أن هذه الفوضى التى تهلك الامبراطورية ، تحتاج إلى يد قوية وحازمة ، ومن ثم عمد دقلديانوس إلى أن يضفى على منصب الامبراطور نوعا من المهابة والقداسة تثير الرهبة فى نفوس رعاياه . فنظر إلى اختيار الجنود له على أنه تنفيذ لمشيئة الاله جوبيتر . ووجد البذخ الشرقى والطقوس

---

٢٧- أنظر Boak, op . cit ., pp. 416-417 وأيضا Dudley . The Civilization of Rome . pp. 209-210 وكذلك ، ر . هـ . بارو ، الرومان ترجمة عبد الرازق يسرى ، ص١٧٧ وراجع كذلك Vasiliev, op . cit I. pp. 61-62 .

الحافلة طريقها إلى بلاطه ، وكان على رعاياه إذا ما سمح لهم بالمثول بين يديه ، أن يخروا سجدا قبل أن تجرؤ عيونهم على أن ترمق صاحب الجلالة . لقد كان لكل ما يخص الامبراطور قداسة ، كلماته ، بلاطه ، خزانته ، إذ كان هو نفسه مقدسا . وهكذا ثبت دقلديانوس يقينا الاوتوقراطية فى شكلها القريب من الطاغوت الشرقى ، وباتت واحدة من العلامات المميزة فى البناء الحكومى للامبراطورية البيزنطية[٢٨] ولعل أروع منجزات دقلديانوس - على حد تعبير المؤرخ جونز - أنه استطاع أن يحكم احدى وعشرين سنة متواصلة . وأن يعتزل فى النهاية طواعية ، إذا ما قورن ذلك بالفوضى التى سادت الامبراطورية فى القرن الثالث[٢٩].

ولاشك أن دقلديانوس قد أفاد كثيرا من وجوده فى الشطر الشرقى من الامبراطورية على مقربة من الحكم الساسانى الاوتوقراطى فى فارس ، ووسط الولايات الشرقية التى كانت تمثل الممالك الهلنستية القديمة فى مصر البطلمية وسوريا السلوقية وبرجامة الأتالية . وهى التى جرت، وخاصة مصر بالذات ، على عادة تأليه ملوكها فى عصريها الفرعونى والبطلمى . ولهذا لم يجد عناء فى أن يحكم الامبراطورية على هذا النحو . ولاشك أن هذا أيضا كان من بين العوامل العديدة التى دفعت دقلديانوس ، ومن بعده قسطنطين إلى الاتجاه ناحية النصف الشرقى من الامبراطورية واقامة العاصمة الامبراطورية فيه . ولاشك أن هذا الحكم الاوتواقراطى كان يتطلب ، لتكتمل صورته ، ادارة مركزية صارمة ومجموعة كبيرة من الموظفين التابعين للامبراطور مباشرة . ومن ثم فقد أقدم دقلديانوس على الغاء التمييز بين الولايات السناتورية والولايات الامبراطورية ، وأصبحت الولايات كلها تتبع الامبراطور تبعية مباشرة . ووضعها تحت ادارة ولاة لم تكن تتجاوز سلطاتهم دائرة النواحى المدنية فقط . وقام بانقاص حجم الولايات وزيادة عددها حتى يحول دون استغلال ولاتها لضخامة الولاية ومواردها فى التمرد على الحكومة المركزية . وهذه هى الصورة التى تميزت بها الامبراطورية البيزنطية حتى عام ١٢٠٤ عن البلاد الواقعة خلف حدودها [٣٠].

---

٢٨- Vasiliev , op . cit ., I, pp. 61-62 وأنظر كذلك بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص٤-٥ .

٢٩- أنظر Jones , The Later Roman Empire , I, p. 40

وله أيضا . The decline of the Ancient world , pp. 28-32

٣٠- أنظر بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص١٤٧-١٥٤ وأيضا رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ،=

وكان خلفاء دقلديانوس أكثر منه حرصا على الأوتوقراطية وأشد تمسكا بها . وساعد على ذلك أيضا تحول الدولة فى القرن الرابع إلى المسيحية ، فأخذت العبادة الإمبراطورية فى شكلها الوثنى ، صورة جديدة ، فبعد أن كان الإمبراطور مؤلهًا ، أصبح الآن خليفة الله فى أرضه ، نائبا عن المسيح فى حكم رعيته . وقد أطلق قسطنطين على نفسه «رجل الله» و «مبعوث العناية الإلهية» ورفعه شيخ مؤرخى الكنيسة يوساب القيسارى Eusebius of Caesarea إلى مصاف الرسل ، إذ جعل منه الحوارى الثالث عشر للمسيح . وإذا كان قسطنطين قد حرص على أن يكون فى عاصمته الجديدة مجلس للسناتو شبيه بما كان قائما فى روما التيبر . فلم يعد هذا المجلس كونه نوعا من «الديكور» .. إذا صح هذا التعبير - أراد قسطنطين أن يزين به «روماه» الجديدة .

وقد ظل الأباطرة المسيحيون يحملون اللقب الوثنى «الكاهن الأعظم» Pontifex Maximus باعتبار الإمبراطور الرئيس الدينى الأعلى ، حتى تخلى عنه الإمبراطور جراتيان Gratianus (٣٧٥-٣٨٣) . ومع أن هذا اللقب كان مسألة شرفية تقليدية زمن الإمبراطورية الوثنية ، إلا أنه تحول إلى حقيقة عملية مع تحول الإمبراطورية إلى المسيحية ، فقد أصبح الإمبراطور يمثل فعلا رأس الكنيسة ، بيده مقاليد الأمور فى الدين والدولة بعد أن تم التزاوج بين الدولة والكنيسة فى مطلع القرن الرابع على يد الإمبراطور قسطنطين ، الذى يعد أول من رسم لخلفائه من بعده طريق القيصرية البابوية Caesaropapism التى أخذ الأباطرة يعملون جاهدين على تعميق جذورها ، حتى أصبحت تمثل عند بداية القرن الثامن سمة بارزة من أهم سمات الحكم فى الإمبراطورية البيزنطية . فالإمبراطور قسطنطيوس ، ابن قسطنطين وخليفته، يقول لأساقفة مجمع ميلانو سنة ٣٥٥ وهو يحاورهم ، وقد راحوا يحاجون ويجادلون حول شرعية محاكمة أثناسيوس التى جرت فى صور قبل ذلك بعشرين عاما ، «إرادتى هى القانون»[٣١] . وسار جوستنيان خطوات بعيدة على الطريق ، وتكشف متجدداته Novellae

---

= ص٨٨-١٢٢ وراجع كذلك البحث الذى كتبه هارتمان L. M. Hartmann تحت عنوان The Early Mediaeval State : Byzantium , Italy and the West وقام بترجمته إلى العربية والتقديم له والتعليق عليه الدكتور جوزيف نسيم يوسف فى كتابه «الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى » ص٨٣-٨٥ ، ٩١-٩٣ وحاشية ١ ص٩ .

٣١- انظر للمترجم ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث (أثناسيوس) ، الفصل السادس وراجع أيضا الملحق الأول من نفس الكتاب ، الذى يتضمن الحوار الذى دار بين قسطنطيوس والبابا ليبريوس حول محاكمة أثناثيوس وإدانته .

التى أصدرها لتنظيم الأمور الكنسية ، عن مدى رغبته الجامحة وإيمانه العميق بسيادته على الكنيسة ، بل لقد كان يؤمن تماما بأن من حقه أن يختار لرعيته العقيدة التى يجب عليها اتباعها دون مناقشة . فالناس عنده على دين ملوكهم[٣٢] . فلما كان عهد ليو الثالث الايزورى ، بلغت القيصرية البابوية شأوا عظيما ، دل على ذلك سياسته تجاه الايقونيين ، وما أقدم عليه من فصل مناطق جنوب إيطاليا وصقلية عن سلطة البابا وإخضاعها لأسقف القسطنطينية ، ثم كشف عن ذلك بجلاء فى الرسالة التى بعث بها إلى البابا جريجورى الثانى، يقول له فيها أنه - أى ليو الثالث - «امبراطور وقس» . وقد ظل أباطرة بيزنطة ينهجون نفس النهج حتى آخر العهد بهم . وهكذا يمكن أن نتبين بوضوح أن هذه القرون الثلاثة، من الرابع إلى السابع ، كانت تحمل فى طياتها دلائل التحول إلى عصر جديد ذى سمات متميزة .

ولاشك أن تحول الإمبراطورية إلى المسيحية كان عاملا هاما وفعالا فى إحداث هذا التغيير، وظهر دوره بصورة مباشرة إبان مرحلة الانتقال هذه . منذ أصبح على الإمبراطورية فى مطلع القرن الرابع ، أن تختار أحد طريقين فى علاقتها بالمسيحيين . إما أن تسير قدماً فى سياستها التعسفية التى انتهجتها على مدى ثلاثة قرون تجاه الجماعة المسيحية ، وأثبتت الأحداث فشلها . وإما أن تفتح ذراعيها لتحتوى هذه العقيدة الجديدة وتفيد من جهود عبادها ، وهذا هو الطريق الذى سلكه الإمبراطور قسطنطين منذ التقى فى ميلانو سنة ٣١٣ مع حليفه اللدود ليكينيوس .

وكان لابد أن تحدث المبادئ الجديدة التى حملتها المسيحية معها إلى الإمبراطورية ، هزة كبيرة ، فى أركان المجتمع الرومانى ، وليس بخاف على أحد ذلك الأثر الواضح الذى تركته المسيحية على مختلف ميادين الفكر والفن والحياة الاجتماعية داخل الامبراطورية الرومانية ،

---

٣٢- راجع بعض هذه التجددات الخاصة بالكنيسة فى :
P. N. Ure , Justinian and his Age, pp. 150-154 ,
T. Ware , The Orthodox Church. pp. 49-50

وقارن

وعن سياسة جوستنيان الدينية أنظر
Vasiliev , op. cit ., I. pp. 148-154 ; Bury, op. cit., II pp. 372-393
Jones, Later Roman Empire I, pp. 296-98

وأيضا

إلى الحد الذى دفع المؤرخ جيبون إلى أن يبنى نظريته فى انهيار الإمبراطورية وسقوطها ، فى جانب كبير منها ، على هذه المبادئ المسيحية [٣٣]. وهذه الآراء رددها المؤرخون الوثنيون وفى مقدمتهم زوسيموس[٣٤] Zosimus الذى عاش فى القرن الخامس وأوائل السادس . وإذا كانت

---

٣٣- يقول جيبون إنه ولما كانت سعادة الحياة الآخرة هى الهدف العظيم للدين ، فقد لاتدهش أو نخجل إذا سمعنا أن المسيحية ، أو على الأقل اساءة استغلالها ، كان لها بعض الأثر فى تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها . فقد نجح رجال الدين فى تلقين الناس أصول الصبر والاستكانة ، وقوبلت الفضائل الإيجابية فى المجتمع بالتثبيط ، ودفنت بقايا الروح العسكرية فى الأديرة ، وخصص جزء كبير من الثروة العامة والخاصة لمطالب الصدقة والعبادة المظهرية ، وبعثرت رواتب الجنود على الجماهير العديمة النفع من الجنسين ، وهى الجماهير التى لم يكن فى مقدورها إلا الدفاع عن مزايا الحياة الدنيا من حقد وطمع ، نار النزاع اللاهوتى . وغرقت الكنيسة ، بل والدولة ، فى ذلك الصراع العقيدى الذى لم تخب ناره بين الفرق الدينية . وتحول اهتمام الأباطرة من المعسكرات إلى المجامع الكنسية ، وناء العالم الرومانى تحت نير نوع جديد من الطغيان ، وأصبحت الطوائف المضطهدة عدوا خفيا لبلادها . وغرس الأساقفة واجب الخضوع السلبى لحاكم أرثوذكسى ، وقد سلم جيل متخنث ذليل ، فى ورع وتقوى ، بحياة الكسل المتسم بالقدسية التى يحياها الرهبان . ولكن لو أن الخرافة لم تجذب أبناء ذلك العصر إلى العزلة بقصد التعبد ، لكانت هذه الرذائل نفسها قد أغرت الرومان التافهين على التخلى عن علم الدولة ، مدفوعين فى ذلك بدوافع أكثر دناءة وحقارة . والتعاليم الدينية يمكن أن تطاع فى يسر وسهولة إذا سمحت بالميول الطبيعية للمتعلقين بها ، وأضفت عليها نوعا من القدسية ... وإذا كان تحول قسطنطين إلى المسيحية قد عجل باضمحلال الإمبراطورية الرومانية ، فان هذه الديانة الظافرة قد كسرت حدة سقوطها ، وخففت من شراسة طبائع الغزاة » . انظر .

Decline and Fall of the Roman Empire . Vol .-III. ch . XXXVIII

وقارن الترجمة العربية للمختصر ، الجزء الثاني ص٣٥٤-٣٥٥ .

٣٤- هو آخر المؤرخين الوثنيين فى الإمبراطورية . ألف كتابا أسماه «التاريخ الجديد» وقف بالأحداث فيه عند سقوط روما فى يد ألاريك سنة ٤١٠ . وقد كان وثنيا متحمسا لعبادة الأرباب ، ومن ثم فقد أرجع سقوط روما إلى غضب الأرباب نتيجة هجران الرومان لها ، ويوجه اللوم العنيف إلى قسطنطين باعتباره السبب فى ذلك . ولاغرابة إذن أن يمتدح الإمبراطور جوليان . وتذكر الدارسات الحديثة أن زوسيموس لم يكن مجرد مؤرخ فحسب بل أحد علماء النظريات السياسية الذين تولوا الدفاع عن الجمهورية حتى لقد كان «الجمهورى» الوحيد فى القرن الخامس / أنظر Baynes & Moss, Byzantium, p. 222 وأيضا Vasiliev , op. cit., I, p. 125 وكذلك Bury, op . cit., I, p. 30

آراء جيبون قد تعرضت الآن لكثير من النقد من جانب المؤرخين المحدثين ، إلا أن هذا لايمنع من القول بأن المسيحية تركت بصماتها واضحة على المجتمع الرومانى .

ويتمثل ذلك إلى حد بعيد جدا فى مجال الفكر ، فقد كان على المسيحية حتما مقضيا بعد أن خرجت من دائرة اليهودية ومضت إلى طريق أمم ، أن تهجر كارهة أسلوب التبشير بمعجزات المسيح جذبا لليهود ، إلى الدعوة عن طريق الاقناع العقلى واعمال الفكر لاجتذاب الوثنيين . ومن ثم كان على المسيحية أن تتفلسف ، أو بتعبير آخر ، ترتدى ثياب الفلسفة ، فظهرت فى منتصف القرن الثالث والقرن الرابع مسيحية متفلسفة . ولايمنع هذا من وجود آراء من هذا القبيل فى القرن الثانى الميلادى . وكان الهدف من وراء ذلك هو إرساء العقيدة المسيحية على أسس عقلانية ، كى تواجه التيارات الفلسفية السائدة من رواقية وأفلاطونية محدثة وفيثاغورية جديدة . واستقر ذلك فى النهاية فى تيارين رئيسيين عبرت عنهما مدرسة اللاهوت الأنطاكى لتفسير الكتاب المقدس على أساس عقلى ، مهتدية فى ذلك بالمنهاج الأرسطى المنطقى . والمدرسة اللاهوتية السكندرية التى استخدمت التفسير المجازى ، أو الصوفى ان جاز هذا التعبير الأخير ، ومزجته باللاهوت العلمى الأفلاطونى (٣٥) . ويمثل القرنان الرابع والخامس قمة الصراع الكريستولوجى بين الفرق المسيحية المتناحرة وصولا إلى قول فصل فى طبيعة المسيح . وإذا كان هذا الصراع العقيدى قد أثرى الفكر ، إلا أنه بلاشك أهلك العقيدة ، بتلك الخلافات الجذرية التى تفصل بين كنائس الشرق والغرب ، وأدار معه فى هذا التيه رؤوس الأباطرة ودواوين الحكومة والجنود وفرق المضمار والجموع على اختلاف طبقاتها (٣٦).

---

٣٥- David Knowles . The evolution of Medieval thought, pp . 16-32

وأيضا F. Copleston , A history of Philosophy . Vol . 2 Mediaeval Philosophy , Part I. p. 29

وكذلك M. L. W. Laistner Thought and Letters in Western Europe pp. 46, 64 -65

وراجع Ch. Dawson . Religion and the rise of Western culture . p. 29

وكذلك G. Left , Medieval thought from S. Augustine to Ockham. p. 29 وللمزيد من التفاصيل عن مدرسة الأسكندرية اللاهوتية انظر للمترجم الجزء الثالث من كتاب الدولة والكنيسة ، الفصل الأول .

٣٦- يصف اللاهوتى الكبادوكى الشهير ، جريجورى أسقف نيسا Nysaa الحالة فى القسطنطينية فى القرن الرابع بقوله : «لقد امتلأ كل شئ بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم ، وازدحمت بهم الطرقات=

وساعد على اشتداد هذا التيار ، ما زخر به الشرق الروماني من مدارس الفكر والفلسفة اليونانية في الاسكندرية وإيطاليا واسيا الصغرى ثم أثينا في بلاد اليونان نفسها ، بينما نعم الغرب بجهالة ترتبت على خلوه من مثل هذه المدارس ، ونجا من الخوض في تلك المتاهات العقيدية ، إلى حد أن أشهر آباء الكنيسة فيه في القرن الرابع ، هيلارى Hilarius أسقف براتييه Poitiers ظل لمدة ثلاثين عاما بعد مجمع نيقية (٣٢٥) لايعرف شيئا عن مصطلح «الهرموسية» (Homoousius (Consubstantial «مساواة الابن للأب في الجوهر »، وهى العقيدة التى أصبحت قاعدة الإيمان الأرثوذكسي بعد ذلك . ولم يشهد الشطر الغربى من الإمبراطورية نيران هذا الصراع إلا فى عامى ٣٥٣، ٣٥٥ عندما حاول الإمبراطور قسطنطيوس ، أن يفرض عليه العقيدة الأريوسة فى مجمعى آرل وميلانو[٣٧] . ولم يعكر صفو سلام الكنيسة فى الغرب بعد ذلك وحتى وضع مارتن لوثر احتجاجه ضد الكنيسة وتصرفاتها ، على باب كنيسة فيتنبرج سنة ١٥١٧، إلا الجدل العقيدى الذى أثاره بلاجيوس Pelagius ، حول أهمية الإرادة الإنسانية فيما يتعلق بالغفران[٣٨]. ولكن هذا لايمنع من وجود بعض الآراء الأخرى التى

---

= والأسواق والأزقة . فاذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمنا لشئ ، فلسفوا لى الإجابة حول المولود والمخلوق . وإذا ما رغبت فى الوقوف على ثمن الخبز ، أجابنى البائع بأن الآب أعظم من الابن . وإذا ما بحثت عما إذا كان حمامى قد أعد ، جاءتنى الإجابة تقول إن الابن خلق من العدم . ومن المعروف أن الخلاف بين الكنائس وصل ذروته فى القرن الخامس الميلادى ، فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ، وهو المجمع المسكونى الرابع ، وانتهى الأمر بانفصال كنيسة الأسكندرية عن كنيستى القسطنطينية وروما . ولم يلبث أن تم حدوث الشقاق بين الأخيرتين فى القرن التاسع إبان ما عرف بفتنة فوطيوس ، إلى أن وقع الشقاق الأعظم بينهما سنة ١٠٥٤ . وتدين كنيسة الاسكندرية الأرثوذكسية بما ذهب إليه أسقفاها كيرلس وديوسقورس من القول بطبيعة واحدة للمسيح من طبيعتين ، أو بتعبير آخر «طبيعة واحدة للكلمة المتجسدة » . بينما تقوم الأرثوذكسية اليونانية على الاعتراف بأن المسيح شخص واحد أو أقنوم واحد فى طبيعتين بناء على رسالة البابا ليو الأول إلى مجمع خلقيدونية ، وإن كان الخلاف قد وقع بين الكنيستين بسبب إضافة روما تعبير «والابن» filioque على قانون الإيمان فيما يتعلق بانبثاق الروح القدس .

٣٧- انظر Hilarius, De synodis, 91 والمقدمة الرائعة التى كتبها عنه وتناول فيها أعماله بالتحليل ، E. W. Watson ضمن مجموعة Nicene and Post Nicene Fathers of the Christian Church, Vol IX pp. i-xcvi راجع أيضا للمترجم ، الجزء الثالث من الدولة والكنيسة ، الفصل السادس .

٣٨- بلاجيوس هو أحد رهبان بريطانيا فى القرن الخامس ، جهر بآرائه التى تقول بأن من الخطورة الاعتراف بأن الطبيعة البشرية قد فسدت إلى الحد الذى أصبحت فيه مسلوبة الإرادة تماما ، فالإنسان مسئول عن كل خطيئة يقدم عليها ، وخطيئة آدم الأولى لايمكن أن يتحملها بنوه وأن يولدوا بها ، ومن ثم فهو =

من وجود بعض الآراء الأخرى التى نعتتها كنيسة روما بالهرطقة . وإن كانت قد ظهرت أولا كاحتجاج على فساد رجال الدين وسوء خلقهم ، ثم تضمنت فيما بعد أفكارا عقيدية[٣٩]. وساعد الغرب على ذلك ، إلى جوار خلوه من المدارس الفلسفية ، أن لغته اللاتينية لم تكن لتسمح له بممارسة هذا الجدل ، إذ كانت تفتقد الحيوية التى تتمتع بها اللغة اليونانية .

---

= يرتب على ذلك عدم أهمية طقس العماد بالنسبة للمولود ، وينكر القول بأن الغفران لايتحقق إلا بنعمة الله فقط ، ويؤكد دور الإرادة الإنسانية فى هذا السبيل . وقد لقيت مبادئه رواجًا واسعًا فى إيطاليا وبريطانيا ، وإن كانت قد قوبلت بعدم الارتياح فى أفريقيا ، نتيجة لجهود القديس أوغسطين فى مقاومتها ، فقد أدين تلميذه كايلستوس Caelestius فى مجمع عقد فى مدينة اللد Diosopolis عام ٤١٥ . ولكن البابوية أدانت الآراء البلاجية رسميا . انظر . Hefele, History of the Councils of the Church, Vol II, pp. 466-80 H وأيضا . H. Chadwick The early Church . pp. 228-232 .

٣٩- ظهرت هذه الآراء بصفة خاصة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وقد دارت كلها حول محاربة الفساد والانحلال الذى تردى فيه رجال الأكليروس ، وتشير بعض المصادر المعاصرة أن عدد هذه الطوائف قد بلغ فى القرن الثالث عشر قرابة مائة وخمسين فرقة ؛ على أن الكثير منها لم يكن له أهمية تذكر ك ولم يتعد خطره البقعة التى ظهر فيها . بينما حظى عدد منها بالذيوع والانتشار مثل «المتضعين» Humiliati و«المتلعثمين» Beguines نسبة إلى لامبرت الأرتم Lambert le Begue فى ايطاليا والأراضى المنخفضة على التوالى. على أن أهم هذه الفرق على الإطلاق انحصرت فى اثنتين - الولدونيين Waldonsians والاطهار Cathari أما الطائفة الأولى فتنتسب إلى بطرس ولدو Peter Waldo وهو أحد التجار الأثرياء فى ليون Lyons . أقدم فى سنة ١١٧٣ على التنازل عن ثروته ووزعها على ذوى الحاجة ، وأسس جماعة تعرف باسم «فقراء ليون» هجروا دورهم . وسار كل اثنين منهم حفاة . فى ثياب خشنة . ليس لأحدهم ملكية فردية فالملكية يجب أن تكون مشاعا . ولم يكن لهم على هذا النحو آراء يمكن أن تدينها الكنيسة ، بل ان بطرس ولدو زار روما فى سنة ١١٧٩ وحصل من البابا اسكندر الثالث على اعتراف به وبجماعته ، وعلى الإذن لهم بالتبشير ، وعلى ذلك انتشرت الآراء الولدوية فى جنوب فرنسا وأسبانيا ولمبارديا والأراضى المنخفضة وبوهيميا والمجر . واتحدت مع بعض الفرق المنتشرة فى هذه المناطق . ولما أحست الكنيسة بأسها أصدرت قرارا بادانتها فى عام ١١٨٤ مع الطوائف الأخرى فى مجمع فيرونا Verona .

أما الطائفة الثانية وهى طائفة الطهار فقد ذاع صيتها باسم الاليجنيين Albigensians وانتشرت فى مقاطعة بروفانس Provence ولانجدوك Languedoc وخاصة مدن مونتبابيه وناربون وتولوز ومرسيليا واجن ومونتوبان . ولما كانوا يتركزون فى منطقة ألبى Albi فقد عرفوا بذلك الاسم نسبة لتلك المنطقة . وهم=

أما الشرق الرومانى فقد قدم بفكر رجال اللاهوت فيه وآباء الكنيسة آراء عديدة من حول طبيعة المسيح ، فقد اكتوى القرن الرابع بنيران الجدل الذى دار بين الآريوسية وخصومها ، أو بين الآريوسيين وأنفسهم [٤٠]. ثم الماكيدونية [٤١]. حتى إذا كان القرن الخامس ، سعرت نيران

---

= يستقون عقيدتهم من المانوية ، ويقسمون العالم إلى قسمين ، الخير وهو الله ، والشر وهو الشيطان أو المادة . والشيطان هو الذى خلق العالم المادى ، ومن ثم فالمادة كلها شر محض بما فيها الصليب والقربان المقدس . ويشيع عنهم خصومهم القول بأن المسيح ليس إلها ، وأنهم يرفضون العشاء الربانى والقداس وتعظيم الأيقونات والتثليث . ولما كانوا يوقنون بأنه من المستحيل أن يطلبوا إلى كل أتباعهم أن يحققوا أعلى مراتب الرهبانية ، فقد قسموا أنفسهم إلى مرتبتين ، المؤمنون Credentes والكمل Perfecti . وكل ما كان يطلب من المؤمنين أن يطلقوا الكنيسة ، وأن يجلوا الكمل ويوقروهم ، وأن يتلقوا قبل الموت السر المقدس Con-solamentun الذى يسمح لهم بالارتقاء إلى مرتبة الكمل . وإلى هذا الحد لم تلق لهم الكنيسة بالا ، فلما أخذوا يصوبون سهامهم نحوها ، سيرت ضدهم حملات عسكرية ، وصفت بأنها صليبية ، فقد سخروا من هذه الأموال الطائلة التى يكتزها البابوات والاساقفة ، ونددوا بالدعوة للحروب الصليبية وأبدوا استهزاءهم بصكوك الغفران . وقد أصدر البابا انوسنت الثالث Innocent III ضدهم قرار الحرمان ، وأوقع القرار أيضا على الأراضى التى يسيطرون عليها . ثم سير ضدهم حملات عسكرية جمعها من المتطوعين الأوروبيين . وقد استمرت هذه الحرب حوالى ثلاثين سنة ، إلى أن انتهت سنة ١٢٢٩ بالقضاء على الألبيجنيين . انظر عن هذه الطوائف . Thompson & Jonson , op. cit ., pp. 1002 , 624-629

وأيضا Stephenson , op . cit., 420-22 وكذلك Davis , op . cit ., 350 sqq

وراجع Strayer & Munro , op . cit ., pp. 316-18 , 320

وأيضا Mundy , Europe in the high Middle Ages, 1150-1309, C. M. H. vol . VI , pp. 342-345 , sqq., 702-716 .

٤٠- للمزيد من التفاصيل عن الآريوسيةالأصلية والفرق الآريوسية الجديدة .

أنظر : Gwatkin , The Arian Controversy ولنفس المؤلف أيضا Arianism ضمن مجموعة C. M. H. vol. I وانظر كذلك – Neander , Lectures on the history of Christian Dogmas, 2 vols ولنفس المؤلف راجع أيضا General history of the Christian Religtion and Church, 9 vols

وانظر للمترجم الدولة والكنيسة ، والجزء ، الجزء الثانى الفصل الخامس ، والجزء الثالث : الفصل السابع . والمعروف أن الآريوسية انقسمت على نفسها الى فرق عديدة ، ما بين الآريوسيين الأصليين الذين يقولون بخلق المسيح وعدم مساواته مع الآب فى الجوهر ، وأنصاف الآريوسيين Semi-Arians الذين يقولون بالهرمويوسية Homoiousium أى التشابه بين الابن والآب فى الجوهر ، والانومويين Anomoeans الذين ينكرون أي شبه بين الآب والابن ، والهومويين Homoeans الذين يقولون بالشبه فقط دون تحديد .

٤١- نسبة إلى ماكيدونيوس Macedonius وقد تأثر بآراء آريوس فى خلق المسيح ونادى بخلق الروح =

ذلك الجدل، واشتد لهيبها عندما سيطرت عليها حمى التنافس بين كنائس روما والقسطنطينية والأسكندرية وأنطاكية من أجل الزعامة . فظهرت النسطورية واليوطاخية التى اقترنت منها المونوفيزية ، ثم الديوفيزية أو ما ذاعت شهرتها بالخلقيدونية واصطلح على تسميتها بالأرثوذكسية الحكومية . ولعبت الأسكندرية طيلة هذا الصراع دورا بارزا ، وكسبت منه ثلاث جولات ، إلى أن تكاتفت عليها فى منتصف القرن الخامس روما والقسطنطينية . ولم تعرف الإمبراطورية الهدوء فيما يتعلق بالمسألة الكريستولوجية إلا فى القرن الرابع الميلادى ، بعد أن فقدت ولاياتها الشرقية عندما فتحها المسلمون . ليتخذ الجدل العقيدى أشكالا أخرى فى القرون التالية . ولاشك أن هذا الصراع الفكرى صبغ الإمبراطورية بصبغة مميزة فى حينها وإلى هذا الزمان ، حتى أصبح تعبير «الجدل البيزنطى» دليلا على كل جدل طويل وعقيم . وإذا كانت العصور الوسطى قد اقترنت فى الأذهان بعصور الإيمان ، فان بيزنطة تعد التجسيد الحى لهذا المصطلح .

وظهر أثر المسيحية كذلك جليا فى الناحية التشريعية ، ولما كانت مسألة التقنين تمس كثيرا من جوانب الحياة فى المجتمع ، فقد اقتضى ذلك قرنا آخر حتى تصدر القوانين وقد تشبعت بالروح المسيحية ، ومن ثم فان تشريعات القرن الثامن هى أصدق الأدلة على ما نذهب إليه . فقد اعتمد الإمبراطور ثيودسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠) على المجموعتين القانونيتين اللتين وجدهما على عهده ، وهما المجموعة الجريجورية Codex Gregorianus والمجموعة الهرموجينية Codex Hermogenianus وهما تضمان القوانين التى صدرت منذ عهد الإمبراطور هادريان (١١٧-١٣٨) حتى بداية النصف الثانى من القرن الرابع . وقد نهج ثيودوسيوس الثانى فى مقننته Codex Theodosianus التى صدرت سنة ٤٣٨ على غرار هاتين المجموعتين ، ونلمس فيها الأثر المسيحى وإن كان ما يزال بسيطا . فلما كان القرن السادس ، وأصدر الإمبراطور جوستنيان مجموعته القانونية ، ظهر تأثير المسيحية فيها بصورة واضحة أكثر من سابقتها . بل ان جوستنيان كان يعتقد يقينا أن الله هو الذى يمنح الأباطرة حق سن

---

= القدس . وقد أدين هذا الرأى فى المجمع المسكونى الثانى الذى عقد بالقسطنطينية سنة ٣٨١ على عهد الامبراطور ثيودسيوس الأول . وجاء فى قانون المجمع إقرار الإيمان بالروح القدس «الرب المحيى، المنبثق من الآب ، والمساوى فى الجوهر للآب والابن ، مسجود له ، وممجد الناطق بالأنبياء» .

وتفسير القوانين . ومن ثم فالإمبراطور هو الشارع ، ويباركه الرب فى الأعالى ، حتى إذا اعتلت الأسرة الايزورية عرش الإمبراطورية ، أقدم ليو الثالث على إصدار الاكلوجا (المختارات) التى جاءت فى نصها وروحها متمشية إلى حد كبير مع المبادئ المسيحية ، فهى تتميز بوفرة الإسناد إلى الكتاب المقدس لتأكيد مختلف المبادئ القانونية . وجاء فى مقدمتها عند الحديث على القضاء ، أن الخزانة الإمبراطورية يجب أن تدفع لهم مرتبات حتى لايتقاضون ممن يقاضونهم شيئا ، خشية أن تقع نبوءة النبى «لأنهم باعوا البار بالفضة والبائس لأجل نعلين فتسلط علينا الرب بتجاوز وصاياه » . (عاموس ٢ : ٦ ) .

ويعتبر الفن البيزنطى المرآة الحقيقية لهذا التحول الذى تم خلال القرون الثلاثة ، من الرابع إلى السابع . فالفن المسيحى المتقدم لم يكن ، خلال القرنين أو القرون الثلاثة الأولى من تاريخه ، إلا تطويرا أو حتى تفريعا للفن الرومانى المتأخر ، ففى الأعمال الفنية التى ظهرت فى الإمبراطورية الرومانية المتأخرة ، أو عصر الإمبراطور قسطنطين نجد استباقا للسمات الأساسية للفن المسيحى المتقدم ، كنزوعه إلى الروحانية والتجريد ، وإيثاره للأشكال المسطحة التى هى أشبه بظلال لاجسم لها ، والتسلسل فى مراتب الناس ، وعدم اكتراثه بالحياة العضوية بما فيها من لحم ودم ، وعدم اهتمامه بما هو شخصى مميز للفرد والنوع . فهو فن تظهر فيه الرغبة غير الكلاسيكية فى تصوير الجانب الروحى لا الحسى ، وتظهر بجلاء فى صور القبور ، وأعمال الفسيفساء بالكنائس الرومانية والمخطوطات المسيحية الأولى . ولما كانت القيصرية البابوية - كما أسلفنا - هى عصب الحياة السياسية فى نظر الأباطرة ، ولما كانت هذه الأوتوقراطية الروحية الزمنية التى يتمتع بها الإمبراطور ، فى حاجة إلى أن تعرض على الملأ من أجل إثارة الخيال الشعبى ، ولما كان المسيح قد اتخذ بصفته المخلص ، هيئة الإنسان وطبيعته البشرية ، فأضفى بذلك على الذات قيمة لاتقدر ، كان الفن البيزنطى يمثل القمة فى محاولة تقديم صورة رائعة للشخصيات الرسمية التى كانت تطالب باحترام الناس وتبجيلهم ، فالمسيح يصور فى بيزنطة كما لو كان ملكا ، والعذراء كما لو كانت ملكة ، وهما يلبسان أردية ملكية نفيسة ، ويجلسان على عرشيهما فى وقار وتحفظ دون أن يعبر وجههما عن شئ. ويقترب منهما صف طويل من الحواريين والقديسين بايقاعات بطيئة يعلوها الوقار ، وتحول الشعائر الصارمة بين أشخاص الصورة وبين التحرك بحرية ، أو الخروج عن الصف المنتظم ، أو حتى النظر إلى جانبهم ، فكل شئ يبعث على الشعور بالهيبة فى جلاله الملوكى .

ولعل أروع تعبير فنى عن الروح الشعائرية هى أعمال الفسيفساء المهداة إلى كنيسة القديس فيتالى St Vitale فى رافنا والتى تعود إلى القرن السادس ، وهى أعمال لم تشهد العصور التالية لها نظيرا فى هذه الناحية ، فلم تنجح أى حركة كلاسيكية ، أو مقلدة لها ، أو أى فن مثالى أو تجريدى ، فى التعبير عن الشكل والإيقاع بمثل هذه الطريقة المباشرة الخالصة. كما أن كنيسة أيا صوفيا التى شيدها جوستنيان فى القرن السادس فى القسطنطينية تعد بحق أعظم إنجاز فنى فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية على الإطلاق ، فهى على حد تعبير شارل ديل ، عنوان الفن البيزنطى ، وأن أحدا لايمكنه مطلقا أن يفهم أو يقدر قيمة الفن المسيحى الشرقى وأصالته ، قبل أن يشد الرحال ، بادئ ذى بدء إلى هذا البناء الرائع ، والكنيسة الكبرى » الاسم الذى عرفت به فى الشرق إبان العصور الوسطى [٤٢].

وتقدم اللغة دليلا هاما ، إلى جوار كل ما تقدم ، على التحول الذى عاينته تلك القرون الثلاثة . فقد كانت اللاتينية هى اللغة الرسمية فى الإمبراطورية بطبيعة سيادة روما ، وإن كان الشرق الرومانى قد ظل محتفظا بلغته اليونانية ، التى كانت لسان الصلوات والقداسات فى كنائس الشطر الشرقى من الإمبراطورية . وقد حرص الإمبراطور قسطنطين على أن يلقى خطابه فى افتتاح مجمع نيقية سنة ٣٢٥ باللاتينية ، على الرغم من أساقفة المجمع كلهم ، عدا الثمانية الذين يمثلون كنائس الغرب ، يتحدثون اليونانية . ويبدو هذا أمر طبيعيا يتفق وقلة المامه باليونانية ، كما يشير إلى ذلك المؤرخان الكنسيان يوساب القيسارى وسوزومين Sozomenos الغزاوى ، وإن كان المؤرخ جونز يعلق على هذا بقوله إن قسطنطين فعل ذلك ، لا لجهله باليونانية ، ولكن لأنه وجدها الفرصة السانحة ليؤكد رسمية اللغة اللاتينية فى

---

٤٢- أنظر : أرنولد هاوزر Arnold Hauser ، الفن والمجتمع عبر التاريخ . ترجمة الدكتور فؤاد زكريا . الجزء الأول . ص١٤٥-١٦٦ .

وأيضا Ch . Diehl . Byzantine Art فى Byzantium . ed . by Baynes & Moss, pp. 166-199

وكذلك بينز . الإمبراطورية البيزنطية . ص٢٣٣-٢٢٥ .

وراجع رنسيمان . الحضارة البيزنطية . ص٣٠٩-٣٣٩ .

وأيضا . Vasiliev . op. cit ., I, pp. 187-92

وكذلك C. M. H. vol . I, pp. 598-614, vol . IV

الإمبراطورية (٤٣). وكان طبيعيا أن تكون اللاتينية فى تلك الفترة هى لغة الفكرة والثقافة ، حتى أن كثيرين من كتاب ذلك العصر الذين ينتمون لاصول شرقية ، وضعوا أعمالهم باللاتينية ، ومن أشهر هؤلاء مؤرخ القرن الرابع الوثنى ، أميانوس ماركللينوس Ammianus Marcellinus الذى ولد فى أنطاكية ويعتبره شتاين Stein أعظم عبقرية أدبية فى العالم بين المؤرخ الرومانى تاكيتوس Tacitus وشاعر الكوميديا الإلهية دانتى Dante . ويعده نورمان بينز آخر مؤرخى روما العظام .

وكان طبيعيا مع انتقال مركز الثقل فى الإمبراطورية إلى الشرق بانتقال العاصمة ، ثم فقدان النصف الغربى من الإمبراطورية نتيجة الغزوات الجرمانية فى القرن الخامس ، بحيث أصبحت المناطق التى تسيطر عليها الإمبراطورية كلها تتحدث اليونانية ، أن راحت اللاتينية تتوارى تدريجيا ، لتحل محلها اليونانية . وليس أدل على ذلك من أن الإمبراطور جوستنيان عندما أصدر فى النصف الأول من القرن السادس ، مجموعته القانونية (المقننة والجامع والمبادئ) باللغة اللاتينية ، لم يستطع أن يفعل ذلك فى المتجددات Novellae ومن ثم فقد جاءت هذه النوفلات باليونانية . ولاشك أن هذا يعد اعترافا ضمنيا من جوستينان بذلك التحول الذى تشهده الدولة . يضاف إلى هذا أن مؤرخ تلك الحقبة الشهير ، بروكوبيوس Pro-copius كتب مؤلفاته العديدة ، من جوستنيان وأعماله الانشائية باللغة اليونانية ، بل أنه كان يجهل اللاتينية بصورة فاضحة . وباليونانية أيضا كتب معظم كتاب عصر النقلة ذاك ، بطرس البطريق ، وأجاثياس Agathias ونونوسوس Nonnosus وهزيكيوس Hesychius المليتى، ويوحنا مالالاس John Malalas الأنطاكى ، ويوحنا الإفسوسى John of Ephesos ولكن هذا لايمنع من بقاء اللاتينية سبيلا إلى الترقى فى سلك الوظائف الحكومية . كما يخبر بذلك عن نفسه يوحنا الليدياوى Iohannes Lydus الذى أمضى معظم حياته ضمن الهيئة القضائية للنائب الإمبراطورى فى الشرق .

---

٤٣- EVSEB . vita Const . III. 13 . SOZOM . hist. eccl . 1, 20 .

وراجع . Jons . Constantine and the Conversion of Europe p. 156

وأنظر أيضا للمترجم الدولة والكنيسة . الجزء الثانى . الفصل الخامس .

على أنه بتقدم القرن السابع ، أصبحت السيادة للغة اليونانية ، وتجلى ذلك فيما أقدم عليه الإمبراطور هرقل سنة ٦٢٩ ، بعد انتصاره الحاسم على الفرس فى نينوى من اتخاذ لقب Basileus ويعلق ببورى على ذلك بقوله «طالما كان هناك بازيليوس عظيم مستقل خارج حدود الإمبراطورية (يعنى ملك فارس) ، أحجم الأباطرة عن حمل لقب يشاركهم فيه عاهل آخر . فلما أذل هذا العاهل الأجنبى ، ولم يعد هناك مكان لبازيليوس آخر ، دلل الإمبراطور على هذه الأحداث بأن خلع على نفسه رسميا ذلك اللقب». وأخذت اليونانية تمكن لنفسها فى البلاط الإمبراطورى ودواوين الحكومة والمكاتبات الرسمية والدوائر القضائية والتشريعية حتى أضحت اللغة الرسمية للإمبراطورية ، وعلى هذا النحو صدرت الاكلوجا والبازيليقا والقوانين المكملة فيما بعد . كما وضع أباطرة الأسرة المقدونية كتبهم عن الإدارة الإمبراطورية ومراسم البلاط وفنون الحرب باللغة اليونانية .

ولعله مما ساعد على تدعيم هذا الاتجاه أيضا ، أن الأباطرة الذين تولوا العرش بعد وفاة جوستنيان وحتى سيطرت الأسرة المقدونية على شئون البلاد ، قدموا من آسيا الصغرى ، وحملوا معهم أهم الدلائل على ذلك ، فالأسرة الهرقلية تعود إلى أصول أرمينية ، والأيزوريون ينتسبون إلى مرتفعات أيزوريا فى الطرف الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى ، والعموريون يعودون إلى منطقة فريجيا . بل ان كبار القادة العسكريين ، الذين حكموا كأباطرة مشاركين ثم أباطرة ، فى الأسرة المقدونية ، جاءوا من طبقة كبار الملاك فى تلك المنطقة ، ثم الأسرات التى حكمت بعد ذلك حتى النهاية .

وكان ضياع النصف الغربى اللاتينى من الإمبراطورية ، وقيام الممالك الجرمانية فيه ، واكتساح العناصر الآفارية والصقلبية لمنطقة البلقان ، ثم فتح المسلمين لسوريا ومصر وشمال أفريقيا من أهم العوامل التى قوت من هذا الاتجاه ، بحيث أصبحت الإمبراطورية تتمركز فى المناطق اليونانية الخالصة .

وليس بخاف على أحد أن بناء مدينة القسطنطينية ، كعاصمة للإمبراطورية الرومانية ، وسط العالم اليونانى بفكره وحضارته ولغته وثقافته ، قد أدى إلى تأصل ذلك التحول الذى شهده عصر الانتقال . وكان لنجاح القسطنطينية ، بموقعها الحصين فى التصدى للإغارات الجرمانية ، والسياسة الذكية التى اتبعها أباطرتها ، فى القرن الخامس ، أثرهما الفعال فى إبعاد النفوذ والطابع الجرمانى ، الذى كانت له آثاره البعيدة فى الغرب ، عن النصف الشرقى

من الإمبراطورية . ومن ثم كانت القسطنطينية هي البوتقة التي انصهرت فيها كل هذه العوامل المختلفة التي عرضنا لها ، وأبرزها التراث اليوناني والتقاليد الرومانية والمبادئ المسيحية ، لتخرج لنا مع القرن السابع الإمبراطورية في ثوب جديد ، ليس من العسير أن نتبين فيه خيوط الإمبراطورية الرومانية ، بحيث يمكن اعتبار مرحلة الانتقال هذه ، التي استغرقت القرون من الرابع إلى السابع ، عصرا رومانيا متأخرا أو عصرا بيزنطيا متقدما .

لهذا يصطلح كثير من المؤرخين(٤٤) على اتخاذ القرن السابع بما ظهر فيه من ملامح متميزة، بداية طبيعية لما عرف بالإمبراطورية البيزنطية . وتنحو جـ. م . هسي بدورها هذا المنحى ، ويتضح ذلك في النهج الذي اختارته عند تأليفها لهذا الكتاب . فهي تتناول الفترة الممتدة من قسطنطين حتى هرقل ، أو التي اعتبرناها عصر انتقال في تاريخ الإمبراطورية ، لتضع لها عنوانا هو The Byzantine Empire takes Shape وهذا يعني أنها أخذت تتشكل خلال هذه القرون الثلاثة، وتشير إلى عاملين رئيسيين وراء الاختلاف بين عالمي القرن الأول والقرن الرابع ، يكمنان فيما جلبته المسيحية على روما الجديدة ، بحكم موقعها ، من خلافات عقيدية ، والأخطار الخارجية التي تعرضت لها الإمبراطورية من جانب الفرس والجرمان. وكيف أودى الأخيرون بالشطر الغربي ، وأن إطلاق تعبير «عصر روماني متأخر أو بيزنطي متقدم» ، يعد أمرا لاغرابة فيه ، إذا أدركنا مدى ارتباط الإمبراطورية الثقافي بالعالم الهلنستي ، وأن اتخاذ جانب المسيحية لايعني نبذ الحضارة الوثنية ، فيما يتعلق بنظام الحكم وسلطان الإمبراطور الفرد ، وازدياد السلطة المركزية ، ونمو الإدارة المدنية .

---

٤٤- انظر Baynes & Moss, Byzantiun . XV- XXXI ولنورمان بينز الإمبراطورية البيزنطية . ص ، ك . ل . وكـذلك Vasiliev op. cit ., I. pp. 43 . Ostrogorsky . history of the Byzantine State, p. 78

وراجع . Jones, The Later Roman Empire 3 vols وهو يتناول فيه مرحلة الانتقال هذه ويؤرخ العصر الروماني المتأخر ما بين ٢٨٤-٦٠٢ .

ويؤكد هذا المعنى أيضا في كتابه The decline of the Ancient World

وقارن Thompson & Johnson . op. cit ., pp 117-152

وأيضا . Stephenson op. cit ., pp. 99-108 . 178

وكذلك . Boak op . cit .. p. 521, Strayer & Munro op . cit .. p. 138

والكتاب الذى بين أيدينا يقع - فى أصله الإنجليزى - فى مائة واحدى وستين صفحة من القطع المتوسط ، وينقسم إلى قسمين متكافئين تماما من حيث عدد الصفحات . خصت المؤلفة القسم الأول منهما بعرض سريع لتاريخ الإمبراطورية السياسى منذ قسطنطين حتى دخول الأتراك العثمانيين القسطنطينية فى منتصف القرن الخامس عشر . وهى لاتعالج التاريخ السياسى من حيث أحداثه ووقائعه ، ولكنها تعرض لأهم الملامح السياسية البارزة على امتداد التاريخ البيزنطى ، الذى تقسمه إلى أربع فترات . تتحدث فى الأولى منها عن فترة تشكيل الإمبراطورية خلال عصر الانتقال ، وتقارن بين شطرى الإمبراطورية حيث يتميز النصف الشرقى بكثافته السكانية ووفرة موارده ونجاته من الخطر الجرمانى ، ومن ثم أصبح يمثل مركز الثقل فى الإمبراطورية منذ القرن الثالث للميلاد ، بينما نجح الجرمان فى إقامة ممالك متعددة لهم فى الغرب . ولكن مكمن الخطورة فى الشطر الشرقى تمثل فى تلك النزعات الانفصالية التى جنحت إليها بعض الولايات ، لا من الناحية السياسية ، ولكن ظهر ذلك واضحا فى الأدب واللغة ، وازداد بعدا بتباعد هذه الولايات ، خاصة مصر ، عن القسطنطينية فى المسألة العقيدية ، ومحاولة الأباطرة فرض الأرثوذكسية الحكومية ، أو المذهب الذى يرتضيه الإمبراطور ، قسرا على أهالى تلك الولايات . بالإضافة إلى ما ذهب إليه الأباطرة أيضًا من تفضيل كنيسة على أخرى ، بناء على قرارات المجامع المسكونية ، مما أثار الحقد بين هذه الكنائس الرسولية ، وأصاب المسيحيين بخيبة أمل بالغة - نتيجة مما تحقق لديهم من أن اعتمادهم على الدولة لم يحقق للكنيسة الوحدة أو السلام .

وتدافع المؤلفة عن جوستنيان ضد ما يتهمه به المؤرخون ، من أنه جلب الكوارث على الدولة نتيجة سياسته الخارجية ، ولكن جوستنيان كان يصدر فى سياسته هذه ، لاستعادة الأراضى التى سيطر عليها الجرمان ، عن النظرية السياسية الرومانية ، التى تقوم على أساس العالمية ، ووجود امبراطورية واحدة لاتقبل التجزئة . ومن ثم فقد كان جوستنيان بحق آخر الأباطرة الرومان ، بحيث تحدد أعماله الزاهرة نهاية هذه الفترة الرومانية المتأخرة أو البيزنطية المتقدمة . ولهذا لم يكن غريبا أن يفسح له شاعر عصر النهضة الشهير دانتى اليجيرى مكانا فى «الفردوس» .

ولاشك أن خلفاء جوستنيان كانوا على قدر كبير من الواقعية ، عندما أبدوا مقدرتهم على التكيف مع الأوضاع الجديدة التى تعرضت لها الإمبراطورية بعد وفاة جوستنيان ، وحتى

بواكير القرن السابع ، وأدت إلى تقلص مساحة الإمبراطورية فى الشرق والغرب على السواء .
ومن بين هؤلاء جميعا يبرز الإمبراطور موريس الذى جعل الإمبراطورية تستنشق ولو من بعيد، عبير جوستنيان ، وأقام - للحفاظ على ما تبقى من أملاك الإمبراطورية - أرخونيتى رافنا وقرطاجة ، حيث عهد بادارة كل من هاتين المنطقتين إلى حاكم عسكرى هو الأرخون أو الاكزارك ، ومنحه سلطات مطلقة ، لمجابهة الأمور المتردية فى إيطاليا وأفريقيا ، لإعادة الهيبة إلى الإدارة الإمبراطورية فيهما .

وتجعل المؤلفة كلا من هرقل وباسل الثانى أعظم الأباطرة البيزنطيين ، على الرغم من التفاوت فى الظروف التى واجهتهما . فبينما اعتلى هرقل عرش الإمبراطورية ، والأنواء تكاد تعصف بها من الشرق ممثلة فى الزحف الفارسى السائر قدما ، ومن الغرب الآفار . وفى الداخل ذكرى مذابح فوقاس وعهده المقيت . تسلم باسل الثانى أزمة الأمور وسط فيض من الانتصارات الخارجية التى حققها أسلافه ، والانتعاش الاقتصادى والرواج المالى فى الداخل .
ومع ذلك فقد أدت الأسرة الهرقلية دورها بارزا فى تشكيل الإمبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى .

أما الفترة الثانية فتتحدث عن هذه النقطة ، وهى تاريخ الامبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى ، منذ اعتلاء الأيزوريين العرش الإمبراطورى حتى نهاية العصر الذهبى للإمبراطورية بانتهاء آخر أفراد البيت المقدونى سنة ١٠٥٦ .

وقد شهدت بداية هذه الفترة القسطنطينية وهى قاب قوسين أو أدنى من السقوط فى أيدى المسلمين ، ولكن جهود الإمبراطور ليو الثالث حالت دون ذلك ومن ثم فقد كان من أعظم منجزات الأسرة الأيزورية فى عهد أول أباطرتها. إنقاذ العاصمة وبالتالى الامبراطورية من السقوط ، ولاتقتصر أهمية ما فعله الايزوريون على ذلك فحسب ، بل ان نجاحهم فى صد المسلمين عن القسطنطينية ، يفوق بكثير ما فعله شارل مارتل فى الغرب سنة ٧٣٤ من وقف الزحف الإسلامى من التوغل فى أوروبا : ذلك أن منطقة البلقان كانت تموج آنذاك بالشعوب الصقلبية التى كانت ما تزال على الوثنية ، وكان من اليسير تحويلهم إلى الإسلام ، إذا ما قدر للمسلمين فتح القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن .

ولم يكن دور الايزوريين قاصرا على مواجهة المسلمين فى الشرق ، ومحاربة البلغار فى الغرب ، بل انهم أكملوا ذلك الجهد الضخم الذى بدأه أباطرة القسطنطينية منذ القرن الخامس على عهد ثيودسيوس الثانى ، ثم القرن السادس زمن جوستنيان ، فيما يتعلق بالناحية

القانونية ، فأصدر ليو الثالث ، وقد أشرك معه ابنه قسطنطين الخامس ، الا كلوجا التى ظهرت مصطبغة بالمبادئ المسيحية . ورغم أن المقدونيين من بعدهم هجروها ، وأعادوا قوانين جوستنيان ، إلا أن ذلك لايقلل من قيمتها شيئا ، ولايبخس الأيزوريين أعمالهم .

على أن الأيزوريين قد ذهبوا فى التاريخ بشهرة واسعة نتيجة موقفهم من تقديس الصورة أو الأيقونة Icon ، فقد أعلن ليو الثالث ومن بعده ابنه قسطنطين الخامس الحرب السافرة على تقديس الأيقونات إلى حد الخلط بين ما يجب تقديمه لله من وجوه العبادة ، وما يقدم لهذه الأيقونات . وعقد قسطنطين الخامس مجمع هيريا سنة ٧٥٤ ليضفى على موقفه رضاء كنسيا ، ووقفت كنائس الغرب فى بلاد اليونان وروما موقفا عدائيا من القسطنطينية ، وأقدم ليو الثالث على فصل منطقتى كالابريا وصقلية عن السيادة البابوية وأخضعهما لسلطان أسقف القسطنطينية مباشرة . وكان الرهبان هم أكثر الفئات إحساسا بخطورة هذه السياسة التى يتبعها الأيزوريون ، لأن الأديرة كانت تمتلئ بالكثير من هذه الأيقونات الرائعة ، وزاد الأمر سوءا استيلاء الحكومة على عدد من هذه الأديرة وتحويلها إلى مرافق عامة . ومن ثم فقد تزعم الرهبان حركة مضادة لسياسة الأيزوريين ، وكان على رأس هؤلاء يوحنا الدمشقى وثيودور رئيس دير ستوديوس ، وأذاع أولهما آراءه التى كانت تنادى بالفصل بين السلطتين الزمنية والروحية . وقال : «نحن نطيع الإمبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية أى فى الولاء والضرائب وما يحق له علينا من الجبايات ، أما فى الحكومة الكنسية فلنا القسيسون والمبشرون بالكتاب المقدس ، وشارحو القوانين الكنسية ، فالتنظيم السياسى من اختصاص الإمبراطور ، أما التنظيم الكنسى فهو من اختصاص القسيسين ، وليس تجريدهم منه إلا من قبيل اللصوصية » .

وكان إقدام الأسرة الأيزورية على ذلك نابعا من اعتقادهم بوجوب تطهير المسيحية مما شابها عبر هذه القرون الطويلة ، ولاشك أن الأباطرة اللاأيقونيين قد تأثروا إلى حد كبير بالمفاهيم الإسلامية ؛ ولايخفى علينا أن هؤلاء الأباطرة قد قدموا من تلك المنطقة . وإذا كانت الإمبراطورة ايرين قد قضت على الجهود التى بذلها ليو الثالث وقسطنطين الخامس ، طيلة نصف قرن (٧٢٦-٧٧٥) ، وذلك بما تم عليه الاتفاق فى المجمع المسكونى السابع الذى عقد فى نيقية سنة ٧٨٧ ، إلا أن أباطرة الأسرة العمورية وخاصة ثيوفيلوس Theophilus (٨٢٩-٨٤٢) قد عادوا إلى معاداة الأيقونية مرة ثانية ، بل ان سياستهم كانت أشد عنفا وضراوة مما اتبعه الأيزوريون ، وربما يعود ذلك إلى أن أنصار الأيقونات كانوا قد جمعوا

كلمتهم ووحدوا جهودهم وتصدو للأباطرة أشد من ذى قبل . حتى استطاعت الأيقونات فى النهاية أن تعود سيرتها الأولى بعد وفاة تيوفيلوس . ولاشك أن حرب الأيقونات الأولى والثانية قد تركت آثارها الواضحة على مختلف نواحى الحياة فى الإمبراطورية ، سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، وبرز ذلك بصفة خاصة فى الناحية الفنية (٤٥).

وبانتقال العرش إلى الأسرة المقدونية ، عاشت الإمبراطورية البيزنطية عصرها الذهبى ؛ فقد حظيت بنوع من الأباطرة الأدباء والفلاسفة ، وبعدد من القادة العسكريين ، ومنهم من اعتلى عرش الإمبراطورية ، رد عليها اعتبارها . ورغم ما كان يبدو لأول وهلة ، من أنها تعانى من الأباطرة الأحداث ، إلا أن نظام الأباطرة المشاركين قد خلص الإمبراطورية من العواقب الوخيمة التى كان الممكن وقوعها .

امتدت حدود الإمبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر كثيرا باتجاه الشرق فقد توغلت القوات الإمبراطورية إلى الدجلة والفرات ، واصطدمت بالحمدانيين فى بلاد الشام ، مستغلة فى ذلك فرصة انقسام العالم الإسلامى بين خلافتى بغداد العباسية ، والقاهرة الفاطمية ، وتصارع كل منهما على السيادة على بلاد الشام . وربما تكون الحروب التى شنتها بيزنطة على العالم الإسلامى قد صحبها نوع من الحماسة الدينية ، حتى أننا لنجد الإمبراطور نقفور فوقاس يعلن ، أن كل من يقتل فى الحرب المقدسة سوف يحشر فى زمرة الشهداء . وعلى الرغم من أن الجيوش البيزنطية وصلت إلى فلسطين ، إلا أنه لم يتحقق لها أبدا الاستيلاء على

---

٤٥- وأدت الحروب ضد الأيقونات إلى اتجاه جديد فى ممارسة الفن . بحيث أصبح مفرطا فى الشكلية ومتكررا ، فقد أدت الاتجاهات الزخرفية البحتة التى أصبح المصورون يقتصرون عليها الآن إلى العودة إلى الأسلوب الزخرفى الهلنستى . واستطاعت هذه الاتجاهات بعد أن أصبحت متحررة من الأهداف الكنسية أن تتيح معالجة الموضوعات الطبيعية بطريقة أقوى مما كان مسموحا به من قبل . وعندما تطورت هذه الموضوعات بعد ذلك إلى مناظر للصيد والبساتين . أصبحت الهيئة البشرية بدورها تصور أقل جمودا . وبمزيد من الحركة ، وعلى نحو أقل تسطيحا وأقل التجاء إلى أسلوب «المواجهة» . وعلى ذلك فان العصر الذهبى الثانى للفن البيزنطى فى القرنين التاسع والعاشر ، وهو الذى واصل السير فى اتجاه نزعة محاكاة الطبيعة السائد فى هذه الفترة الدنيوية ، وطبق على التصوير الكنسى ، هذا العصر يمكن أن يعد بحق نتيجة لحركة تحطيم الصور .
أنظر أرنولد هاوزر . الفن والمجتمع عبر التاريخ ص١٦٥-١٦٦ .

بيت المقدس ، حتى أنه ليحلو لبعض الدارسين ، أن يعتبروا هذه الحملات إرهاصات بالحروب الصليبية . ولكن الطريف أنه لم يدر بخلد البيزنطيين أنه بعد قرابة قرن من الزمان ، سوف تقوم أوروبا اللاتينية ، بما كان هدفا لنقفور وتزيمسكس من الاستيلاء على بيت المقدس .

وفى الناحية الغربية ، كان الصراع قائما بين الإمبراطورية والعناصر الصقلبية خاصة المملكة البلغارية ، وهى حروب طويلة تعود إلى زمن بعيد . وقد أخذ أباطرة الأسرة المقدونية على عاتقهم مهمة مواصلة هذه الحرب ، إلى أن تمكن باسل الثانى من إخضاع مملكة البلغار لسلطانه ، وأصبحت جزءا من الإمبراطورية طيلة ما يقرب من مائة وخمسين عاما . ونتيجة للقسوة التى استخدمها باسل فى حربه ضد البلغار ، ذاعت شهرته فى التاريخ باسم سفاح البلغار Bulgaroctonus وكان النشاط التبشيرى البيزنطى يسير فى ركاب الحملات العسكرية ، ووصلت جهود المبشرين البيزنطيين إلى الصرب والكرواتيين وإمارة كييف الروسية . وإن كانت هذه المناطق قد أصبحت ميدانا للصراع الكنسى بين روما والقسطنطينية ، وهى نغمة عرف ملوك البلغار بالذات كيف يفيدون منها فى الحصول على استقلال الكنيسة البلغارية ، بل وعلى بعض التنازلات فى أمر العقيدة من أجل الحصول على ولائهم للكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية أو الكاثوليكية فى روما .

وفى هذا العصر الزاهر ، تم إحياء الإمبراطورية فى الغرب من جديد على يد أوتو الأول سنة ٩٦٢ ، ولكن أباطرة القسطنطينية لم يتغاضوا مطلقا عن اعتبار امبراطوريتهم هى الإمبراطورية الرومانية الحقيقية . ولكن هذا لم يمنع من حدوث بعض التقارب بين الإمبراطوريتين عندما أقدم أوتو الثانى على الزواج من الأميرة البيزنطية ثيوفانو Theo-phano ، وأنجبت هذه الزيجة أوتو الثالث الذى امتلأ عقله وقلبه بحب الإمبراطورية الرومانية ، وعمل على إعادة المجد الضائع لروما القديمة . ولكن قدره لم يمهله لإتمام ذلك .

ولاشك أن هذا النجاح الذى تحقق للإمبراطورية فى الخارج ، يعود إلى استقرار الأحوال الداخلية ، وتدعيم السلطة الإمبراطورية القوية وتنشيط الجهاز الإدارى الضخم ، بالإضافة إلى المجموعات القانونية التى أصدرها الإمبراطور باسل الأول ، مؤسس الأسرة المقدونية ، والإمبراطور ليو السادس الحكيم . وكذلك نجاح الأباطرة فى الحد - ولو قليلا - من نفوذ العائلات الكبيرة ، وكبار ملاك الأراضى ، الذين ازداد سلطانهم كثيرا فى القرن الحادى عشر الميلادى . بل ان نقفور فوقاس نفسه ، كان ابنا لواحدة من تلك الأسر الكبيرة .

وكان انكسار حدة الجدل العقيدي ، إذا ما قورن بالقرنين الرابع والخامس عاملا هاما فى استقرار الأمور فى الكنيسة وازدهارها وازدياد نفوذها ، ويعبر عن ذلك بوضوح ما قاله يوحنا تزيمسكس «لايسعني إلا أن اعترف أن فى العالم قوتين .. الكنيسة والإمبراطورية » . ولكن يبدو أن صفحة من صفحات الصراع بين الكنيستين الشرقية والغربية ، كانت قد بقيت مفتوحة لم تطو بعد ، ذلك أن العداء بين روما والقسطنطينية كان يزداد بمرور الأيام شدة ، وساعدت الأحداث في الشرق والغرب على السواء ، على تصعيد هذا الخلاف ، حتى إذا كان عام ١٠٥٤ وقع الانفصال التام بين الكنيستين فيما عرف فى تاريخهما بالانشقاق الأعظم . وكانت هذه الحادثة هى آخر ما شهدته الأسرة المقدونية قبل نهايتها بعامين .

وتعطى المؤلفة اهتماما خاصا للفترة التى أعقبت وفاة باسل الثانى المقدونى سنة ١٠٢٥ وحتى اعتلاء الكسيوس كومننوس العرش عام ١٠٨١ ، أى حوالى نصف قرن تقريبا . على اعتبار أنها شهدت تغييرات جوهرية فى الدولة من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وكان السبب الرئيسى فى حدوث هذه التغيرات ، الضعف الذى كان عليه الأباطرة الذين خلفوا باسل الثانى ، وخاصة إبان ذلك الحكم الثنائي العجيب الذى شهدته الإمبراطورية بين الأختين زوى Zoe وثيودورا .

ومع هذا الضعف الذى كان عليه الأباطرة ، فقد جمعوا إلى جوار ذلك أيضا التبذير والإسراف الذى وصل إلى حد السفه ، حتى أن المؤرخ المعاصر القريب من البلاط ، ميخائيل بسللوس Michael Psellus يذكر أن ذلك الطيش المهلك كان نقطة التحول فى قدر الدولة . وقد لجأ الأباطرة إلى أسلوب غاية فى الخطورة لمعالجة هذه الأوضاع الاقتصادية المتردية ، فأقدموا على تخفيض قيمة العملة بصفة مستمرة ، وكان هذا الإجراء يعنى فى حد ذاته تخريب الاقتصاد البيزنطى .

وقد أصبحت الدولة عاجزة عن حماية صغار المزارعين من جور الملكيات الكبيرة أو هجمات المغيرين . مما أدى بالتالى إلى أن يتحول الفلاح الحر إلى مجرد مستأجر ، وكان التشجيع الإمبراطوري المستمر لصغار الملاك منذ القرن السابع وما تلاه ، من أهم العوامل فى تجديد شباب الدولة ، ولهذا فان فقدان هذا العنصر أو اختفاء» كان له أثره على الناحيتين المالية والدفاعية ، كما أنه أدى إلى احداث تغييرات فى التركيب الاجتماعي للامبراطورية . ذلك أنه بهذا الضعف الذى انتاب السلطة المركزية ، أخذت الأسر الثرية وكبار ملاك الأراضى فى

فرض وصايتهم على صغار الملاك والفلاحين الأحرار ، مما أدى إلى ازدياد نفوذ هذه العائلات ، وبصفة خاصة فى آسيا الصغرى ، ودار الصراع على السلطة واضحا بين العسكريين والمدنيين ، وكان اعتلاء الكسيوس كومننوس العرش يعنى انتصار الطبقة العسكرية .

وزاد الأمر سوءا ابان هذه الفترة أيضا الأخطار الخارجية التى تعرضت لها الإمبراطورية ، وتمثلت فى قبائل البشناق والكومان على الدانوب . وكان تحطيم المملكة البلغارية وتحويلها إلى ولاية تابعة للامبراطورية سنة ١٠١٨ . متنفسا لهذه القبائل التى لم تعد تجد من يتصدى لها ، فى وقت ضعفت فيه القوة العسكرية البيزنطية ، وانخفضت موارد الخزانة من جراء السياسة غير الحكيمة التى اتبعها خلفاء باسل الثانى . ومن ناحية أخرى فقد أبدت بلغاريا هى الأخرى تبرمها من هذا الاذلال الذى تعرضت له ، وأصبحت تتحين الفرصة المناسبة ، بالاشتراك مع الامارات الصقلبية الأخرى ، لمواجهة الامبراطورية ، وبينما هذا يجرى فى الغرب والداخل ، كانت الجبهة الشرقية تشير إلى وقوع صدام عنيف بين البيزنطيين ، وبين عنصر اسلامى جديد أخذ يظهر فى الساحة منذ دخوله بغداد فى أواخر النصف الأول من القرن الحادى عشر ، نعنى الاتراك السلاجقة ، وسرعان ما دارت رحى معركة حاسمة بين الطرفين فى مانزكرت (ملاذكرد) عام ١٠٧١ ، حيث لقيت الامبراطورية هزيمة مروعة ، أسر فيها الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينس . وكانت خطورة هذه الموقعة تتمثل فى اجتياح السلاجقة لاسيا الصغرى ، فخسرت بيزنطة بذلك نبع الجند ، أو المورد الأساسى الذى كانت تعتمد عليه فى تجييش جيوشها . وقد تكالبت المصائب على الامبراطورية فى آن واحد ، ففى نفس العام فقدت الامبراطورية آخر موطئ قدم لها فى إيطاليا ، عندما استولى النورمان على مدينة بارى . وكان التعليق الذى ذكره بسللوس حول هذه الأحداث قوله : «إن الأمور قد وصلت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط» .

غير أنه فى عام ١٠٨١ أخذت الامبراطورية تفيق من كبوتها ، حيث عمل الامبراطور الكسيوس كومننوس على علاج الأوضاع الاقتصادية المنهارة فى الداخل ، واعادة الهيبة إلى الامبراطورية فى أعين جيرانها ، حتى أن جهوده كانت السبب فى تأخير سقوط الامبراطورية إلى أكثر من قرن من الزمان . ولعلنا ندرك هذه الناحية للوهلة الأولى . ففترة نصف القرن السابقة شهدت على عرش الامبراطورية أحد عشر امبراطورا وامبراطورتين ، أما الكسيوس فقد ظل يشغل العرش الامبراطورى طيلة سبع وثلاين سنة .

وكانت الناحية العسكرية أهم ما يشغل بال الكسيوس ، خاصة وقد راح النورمان يعدون مشروعاتهم لغزو القسطنطينية . ولم يجد الامبراطور أمامه إلا الوسائل الدبلوماسية لمسألة السلاجقة ليتفرغ للنورمان . وقد ساعدته الأقدار بموت روبرت جويسكارد الزعيم النورماني ، وهزيمة البشناق ، وانقسام الاتراك السلاجقة على أنفسهم ، فتمكنت الامبراطورية بذلك من التقاط أنفاسها ، واتجه الامبراطور الى البندقية لمساعدته في تحسين الأسطول البيزنطى ، في مقابل منحها امتيازات تجارية ضخمة في القسطنطينية ، وإن كانت هذه السياسة قد تركت آثارها الواضحة فيما بعد على العلاقات بين البيزنطيين واللاتين ، بحيث أخذت حدة العداء تنمو تجاه المدن التجارية الإيطالية والتجار المقيمين في القسطنطينية ، إلى حد تعرضهم للمذابح من جانب البيزنطيين الذين اعتبروهم دخلاء متطفلين شاركوهم أرزاقهم .

وتتناول المؤلفة أهم أحداث هذه الفترة المتمثلة في الحركة الصليبية وتلقى الضوء على ذلك التفاوت الكبير في المستوى الحضارى بين الغرب اللاتينى الذى قدم منه الصليبيون والامبراطورية البيزنطية ، وعلاقات التوجس والريبة التى كانت قائمة بين القسطنطينية وأمراء الحملات الصليبية الذين كانت لهم أطماعهم الشخصية في الشرق ، بل وفى الامبراطورية نفسها ، ومن أشهرهم بوهمند النورماندى . الذى غادر امارة أنطاكية الصليبية الى ايطاليا . ليقوم بهجوم فاشل على بلاد اليونان سنة ١١٠٧ .

وعلى عهدى يوحنا ومانويل ، تمثل الخطر الغربى على الإمبراطورية البيزنطية في الامبراطورية الغربية زمن فردريك بربروسا وهنرى السادس ، حتى أن الإمبراطور الألمانى فردريك أعان سلطان قونية السلجوقى ليوقع الهزيمة بمانويل سنة ١١٧٦ ، بالإضافة إلى مشروعات هنرى السادس للاستيلاء على القسطنطينية ، وإن كان لم يقدر لها أن توضع في حيز التنفيذ . ورغم العداء الذى كان قائما بين البيزنطيين واللاتين ، إلا أن مانويل حرص على أن تظل علاقته بهم وطيدة ، يدفعه إلى ذلك المصلحة الإمبراطورية التى فرضت عليه نوعا من التعايش السلمى مع الغرب ، بدليل حرصه على إبقاء الصداقة مع كونراد الثالث ملك ألمانيا بعد فشل الحملة الصليبية الثانية .

ولقد كان مانويل رجل دولة وحاكما بارعا ، جنديا ، ودبلوماسيا يؤمن بالسيادة العالمية للإمبراطورية وأصالة العرف الإمبراطورى ، راودته أحلام استعادة إيطاليا . غير أن مشروعاته لم يكتب لها النجاح بسبب الظروف السياسية المعاصرة ، وإن كانت الدبلوماسية قد لعبت دورا ما في عهده بكفاءة .

وقد حرصت أسرة كومنين على أن تكون صاحبة السيادة فى علاقتها مع الإمارات الصليبية، فقد نجح يوحنا فى تأكيد سيادته على أنطاكية سنة ١١٣٧ ، التى لم تلبث أن سقطت فى عام ١١٤٤ ، فلما كان عهد مانويل مد نفوذ دولته إلى بيت المقدس . ولكن على الرغم من كل ذلك ، فقد أثبتت الأحداث أن الزمن قد عفا على هذه الإمبراطورية ، ذلك أنها لم تستطع أن تصمد أمام التحديات التى واجهتها بعد وفاة مانويل . فازدادت قوة كبار الملاك، وقامت الثورة فى بلغاريا ، وتم اختيار ملك جديد لها وتضاعفت غزوات النورمان لبلاد اليونان ، فى نفس الوقت الذى جاءت فيه الحملة الصليبية الثالثة التى اشترك فيها أقوى ملوك أوربا . فردريك برباروسا الألمانى ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد ملك انجلترا . وقد انتهت هذه الحملة بالفشل ، وكان فشلها نذير سوء للإمبراطورية البيزنطية ، إذ أخذت الآراء تدور حول مسئولية القسطنطينية بنصيب كبير فى فشل الحملات الصليبية ، ومن ثم أخذت الآراء تتجه إلى مهاجمة القسطنطينية نفسها ، وسرعان ما تولت الحملة الصليبية الرابعة تنفيذ هذه المهمة .

والآن تصل بنا المؤلفة إلى الفترة الرابعة والأخيرة فى التاريخ السياسى للإمبراطورية البيزنطية . وهى الفترة التى تمتد إلى قرنين ونصف (١٢٠٤-١٤٥٣) . وشهدت سقوط القسطنطينية لأول مرة فى تاريخها ثم للمرة الأخيرة أيضا .

ونحن نرى منذ بداية الحركة الصليبية تلك الأطماع الخاصة الكامنة فى نفوس الأمراء ، والتى ظهرت لأول وهلة عند عبورهم البسفور ، ولم تكن فكرة الاستيلاء على القسطنطينية جديدة على الفكرة اللاتينى أو مستحدثة ، فهذا شئ لايثير الغرابة ، ولكن الذى يدعوا إلى الدهشة ، هو تأخر وقوع ذلك إلى بداية القرن الثالث عشر . وقد لعبت البندقية فى ذلك دورا بارزا ، مستغلة ما كانت تعانيه أسرة انجيلوس من الضعف . وعلى ذلك فقد تم تحويل وجهة الحملة الصليبية الرابعة من مصر إلى القسطنطينية . وفى سنة ١٢٠٤ استولى الصليبيون على العاصمة البيزنطية وأقاموا امبراطورية لاتينية استمرت نصف قرن ونيف (١٢٠٤-١٢٦١) .

وقد انتقل النظام الإقطاعى بنظمه المعروفة فى أوربا إلى بلاد اليونان ، فى هذه الإمارات اللاتينية التى قامت على أنقاض الإمبراطورية ، وبقى الأمراء على تبعيتهم الفصلية لملوك أوربا . وإن كانت حركة التجارة قد شهدت رواجا واسعا بفضل جهود البندقية وهؤلاء الأمراء ، وبسبب سيطرتهم على كثير من الجزر والموانئ الاستراتيجية الهامة .

أما الإمبراطورية البيزنطية فانها ، بالرغم من سقوط القسطنطينية ، فقد ظلت قائمة ، وإن كانت منقسمة على نفسها ، متناحرة فيما بينها . مملكة ابيروس فى الشمال الغربى لبلاد اليونان ، ومملكة نيقية فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى ، ومملكة طرابيزون جنوب شرقى البحر الأسود ، وهذا الانقسام فى حد ذاته دليل على النزعات الأسرية الانفصالية التى كانت كامنة فى الإمبراطورية . على أن مملكة نيقية كانت أقوى هذه الأقسام جميعا ، وعمل حكامها من أسرة لاسكارس على تنمية مواردها الداخلية ، بحيث استطاعت فى النهاية تحت قيادة ميخائيل باليولوغوس[٤٦] Michael VIII Palaeologus من توسيع دائرة سلطانها ، واسترداد القسطنطينية سنة ١٢٦١ ، وقدر لأسرته أن تظل فى حكم الإمبراطورية بعد استردادها قرنين تاليين .

غير أن قيام سلطة مركزية قوية مرة ثانية ، لم يعد ممكنا ، واضطر آل باليولوغوس أن يلجأوا إلى نظام الهبات الإقطاعية ، والاعتماد على الولايات الثغرية (الثيمات) فى الناحية الدفاعية، والمرتزقة فى تكوين الجيش . أما الأسطول البيزنطى فقد توارى إلى الظل ، وأخذت حال الفلاحين فى الانحطاط ، وضعفت الموارد المالية للخزانة ، وكانت هذه الأخيرة من أهم المشاكل التى واجهت الإمبراطورية بعد عام ١٢٦١ .

ولكن على الرغم من كل ذلك فقد استطاع ميخائيل الثامن أن يحقق لبيزنطة مكانة دولية طيبة . إذ نجح فى إحباط المحاولة التى قام بها شارل دوق انجو ، والذى أصبح ملكا لصقلية بعد سقوط أسرة الهوهنشتاوفن ، لتكوين حلف ضد الإمبراطورية . وحاول التقرب إلى الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، وان كان هذا الاتجاه قد لقى معارضة شديدة فى الداخل ، ولكن هذا الوضع الذى حققته بيزنطة لم يستمر طويلا بعد وفاة ميخائيل الثامن ، فقد شهد العرش الإمبراطورى صراعا أسريا ، وشهدت الإمبراطورية حربا أهلية ، فى الوقت الذى ازدادت فيه قوة الصرب فى الغرب ، إلى حد أن ملك صربيا راح يدعو نفسه «سيد كل الإمبراطورية الرومانية تقريبا» ، والاتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى ، الذين أخذوا يتدخلون فى الحرب الأهلية البيزنطية ، ويوسعون دائرة نفوذهم فى الغرب على حساب صربيا وبيزنطة على السواء، ونقلوا مركزهم إلى أدريانوبل فى تراقيا ابتداء من عام ١٣٦٥ .

---

٤٦- للمزيد من التفاصيل عن ميخائيل باليولوغوس ، وكيفية استرداده القسطنطينية ، وعلاقة بيزنطة عصر زمن المماليك ، وكذلك باللاتين فى بلاد اليونان ، وما دار فى مجمع ليون الثانى سنة ١٢٧٤ ، راجع : دكتور أسحق عبيد : الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس .

وأمام هذه الأخطار لم يجد يوحنا الخامس بدا من الارتماء فى أحضان روما واعتناق الكاثوليكية ، لعل ذلك يشفع له فى طلب العون من الغرب ، ولكنه لم ينل سوى وعودا جوفاء ، بينما اشتد تيار المعارضة ضد اتجاهه الكاثوليكى فى الداخل من جانب الكنيسة والجموع . وقد أخذت حدود الإمبراطورية تتضاءل حتى أن مانويل الثانى كان يحكم بين عامى ١٣٩١-١٤٢٥ ، امبراطورية تتكون من القسطنطينية وحدها !! حتى أن السلطان العثمانى خاطبه بقوله : «أغلق عليك أبواب المدينة واحكم داخلها ، فكل ما وراء الأسوار ملك لى» . وإن كانت الخطوة الأخيرة للقفز على القسطنطينية قد تأخرت قليلا ، بسبب الصراع التركى المغولى بين بايزيد العثمانى وتيمورلنك .

وقد اتبع مانويل نفس سياسة سلفه فى التجول فى الغرب طلبا للعون . وأعلن فى سنة ١٤٣٩ وحدة الكنيستين ، ولكن هذا لم يجلب عليه إلا المزيد من الاستياء من جانب البيزنطيين والشعوب الصلقبية الأرثوذكسية ، وظل أهالى القسطنطينية يرفضون حتى النهاية أى تآلف مع روما ، وشاعت هذه القالة أنهم يفضلون أن يروا عمائم المسلمين وسط العاصمة على أن يشهدوا قلنسوات اللاتين . وفى ٢٩ مايو ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية وسقطت معها الإمبراطورية فى يد الأتراك العثمانيين ، وكان لهذه الحادثة رنة فرح وأسى عند الشرق الإسلامى والغرب المسيحى . وقبل نهاية القرن الخامس عشر كان العثمانيون قد فرضوا سيادتهم تقريبا على كل الإمبراطورية البيزنطية القديمة .

أما النصف الثانى من الكتاب ، فقد تحدثت فيه ج . م هسى عن النواحى الثقافية والحضارية للإمبراطورية البيزنطية ، وخصت الحياة الكنسية والرهبانية بالنصيب الأكبر ، ثم تناولت بعد ذلك الحياة اليومية والتعليم والأدب ، والفن البيزنطى ، ثم عقدت الفصل الأخير من الكتاب للحديث عن العلاقة بين بيزنطة والعالم المجاور لها ، وفضلها الذى لاينكر على ذلك العالم .

والحضارة البيزنطية تجد جذورها فى تراث العالم اليونانى الرومانى ، فهى ليست منفصلة عن هذا التراث ، كما أنها لم تكن منعزلة عن الحضارات الشرقية القديمة وإن كانت مؤثراتها قد جاءتها عن طريق التراث الرومانى . يضاف إلى هذا أن المسيحية قد صبغت هذه الحضارة بصبغة خاصة ، كان لها أثرها الواضح فى مختلف النواحى . ويظهر هذا بادئ ذى بدء فى السلطة الإمبراطورية . فالإمبراطور كان يعتبر نائبا عن المسيح فى حكم الإمبراطورية ، وهذه

الناحية يبرزها كتاب «المراسم» الذى تركه الإمبراطور قسطنطين السابع ، حيث يبين مدى ارتباط الإمبراطور بالمسيح . مما أعطى للإمبراطور وضعا متميزا عن أى علمانى آخر . وبهذه الكيفية كان لابد أن يباشر الإمبراطور نوعاً من السيادة على الكنيسة ، حتى غدت الكنيسة فى الشرق جزءا من الدولة أو دائرة من دوائرها الحكومية . فالإمبراطور له السيادة فى الناحية التنظيمية ، وهو الذى يدعو إلى عقد المجامع الكنسية ، المكانية والمسكونية ، ويترأسها ويدير دفة الحوار فيها ، ويصدق على قراراتها . وتميل المؤلفة إلى عدم استخدام مصطلح «القيصرية البابوية» فى التعبير عن العلاقة بين الإمبراطور والبطريرك ، وتفضل اعتبارها نوعا من «المصلحة المشتركة» ، أو بتعبير آخر مثل الروح والجسد ، كما ورد ذلك فى كتاب «المدخل» Epanogoge فى القانون الذى ظهر فى القرن التاسع ، ورغم هذه السلطة المطلقة للإمبراطور ، إلا أنه كانت هناك حدود معينة لايجب عليه تجاوزها ، وإلا تعرض شأن أحد رعاياه للحرم الكنسى . ولاشك أننا نجد الاختلاف واسعا ، فيما يتصل بعلاقة الدولة بالكنيسة بين الشرق والغرب . فبينما كانت الصورة فى الشرق على هذا النحو الذى رأيناه ، كان الصراع يدور سافرا فى الغرب بين البابوية والإمبراطورية حول السيادة ، متخذين من مشكلة التقليد العلمانى ستارا [٤٧].

وقد جرت العادة منذ القرن الخامس بتتويج الإمبراطور على يد أساقفة القسطنطينية ، وإن كان هذا مجرد تقليد للدلالة على أن الإمبراطور يباشر حكمه بنعمة من الله وفضل ، بينما أخذت العهود والمواثيق على الإمبراطور باتباع الأرثوذكسية وعدم الخروج عليها ، وجاء هذا رد فعل لما حدث على عهود أعداء الأيقونات[٤٨] . وقد أدى ذلك بالتالى إلى ازدياد سلطان الأساقفة ، خاصة بعد أن تحقق النصر لأنصار الأيقونات .

---

٤٧- راجع مقدمة الجزء الثانى من الدولة والكنيسة للمترجم .

٤٨- ربما تعود مسألة المواثيق التى كانت تؤخذ على الأباطرة باتباع العقيدة الأرثوذكسية إلى زمن متقدم أعنى قرب نهاية القرن الخامس، فقد حدث عند اختيار أنسطاسيوس الأول للعرش الإمبراطورى (٤٩١- ٥١٨) أن رفض البطريرك يوفيميوس Euphemius أن يباشر مراسم تتويج الإمبراطور ، لما عرف عنه من ميل إلى العقيدة المونوفيزية ، ولم يقدم البطريرك على إتمام إجراءات التتويج إلا بعد أن حصل على وثيقة رسمية وقعها أنسطاسيوس يتعهد فيها باتباع الأرثوذكسية الخلقيدونية . انظر Jones , later Roman Empire , I. p 232 وانظر كذلك Vasiliev, op. cit., I, p. 109 وانظر كذلك The decline of the Ancient world , p. 94 ولجونز أيضا

وكانت السمة البارزة فى السياسة الداخلية للأباطرة البيزنطيين، تتمثل فى اهتمامهم بالقانون ، ولم يكن هذا شيئا غريبا على الفكر الرومانى ، الذى برع فى زمن الإمبراطورية القديمة فى سن التشريعات واصدار القوانين ، التى تمكنت بها الإمبراطورية من أن تحقق السلام لرعاياها على اختلاف طبائعهم وتفاوتهم الحضارى . وكان هذا أيضا دبن أباطرة القسطنطينية، نلمسه بوضوح فى تلك المقننات والكتب القانونية التى صدرت على عهود ثيودسيوس الثانى وجوستنيان وليو الثالث وباسل الأول وقسطنطين السابع وغيرهم من الأباطرة . وكان لابد أن يتبع هذا أيضا الاهتمام بالمحاكم وساحات القضاء ، الكنسية منها والمدنية .

وباعتبار الإمبراطور مسئولا عن السياسة وتوجيه الادارة ، فقد كان يمثل رأس الجهاز المركزى ، وهو الذى يمنح الألقاب التشريعية لكبار الموظفين ، ولمن أدى للدولة خدمات معينة . ورغم التعقيد الذى كانت عليه الإدارة البيزنطية إلا أنها تميزت بالكفاءة والمقدرة والمرونة .

وقد تمتعت الدبلوماسية البيزنطية بقدر كبير من الذكاء ، خاصة وأن أعداء الدولة كانوا يحيطون بها من كل جانب وفى كل حين على امتداد عمرها الطويل . ولهذا فان سلاح الحرب وحده كان كفيلا بأن يورد الإمبراطورية مورد الهلاك ومن ثم لعبت ادارة الخارجية البيزنطية دورا بارزا فى التعامل مع الدول والجماعات الأجنبية . ويفصح كتاب الإدارة الإمبراطورية الذى وضع منتصف القرن العاشر ، عن أساليب الدبلوماسية البيزنطية الذكية ، كمنح الألقاب التشريفية على بعض الزعماء ، أو تحريض جماعة على أخرى ، أو الزيجات السياسية وما إلى ذلك ، وقد نجحت بيزنطة فى هذا الميدان نجاحا بعيدا .

ولاشك أن الإمبراطور كان يتحمل المسئولية الكبرى فى تكوين الجيش وبناء الأسطول ، ولما كان الجيش يعتبر بحق عصب الإمبراطورية البيزنطية بسبب الأخطار التى كانت تتهددها دائما ، كان الأباطرة يحرصون على أن تظل قواتهم على أعلى قدر من الكفاءة والمقدرة العسكرية . وليس بخاف على أحد ذلك الدور الكبير الذى لعبه الجيش والأسطول فى حماية الأراضى والسواحل البيزنطية ، والدفاع عن الإمبراطورية طوال هذه القرون . وكان مما يشد أزر الجنود اعتقادهم أنهم يحاربون من أجل نصرة قضية المسيحية وإعلاء كلمة المسيح ، ومن ثم كان يغمرهم دائما تيار الحماسة الدينية . بل ان الأباطرة أنفسهم ، أو على الأقل بعض منهم شاركوا جنودهم هذه العاطفة [٤٩] .

---

٤٩- صحبت الحملات العسكرية التى قام بها هرقل لاستعادة الولايات الشرقية التى استولى عليها =

ولو حاولنا أن نلقى نظرة على التنظيمات الكنسية ، لوجدنا أن الكنيسة قد تمثلت الدولة فى بادئ الأمر وراحت تخطو على نحو منها . مبتدئة بالكراسى الرسولية التى تعود الكنيسة بتأسيسها إلى أحد الرسل الاثنى عشر ، وكان لهذه الكنائس التقدمة على غيرها من الكنائس الأخرى . ويأتى فى مقدمة هذه الكراسى روما والأسكندرية وأنطاكية ، ثم زاحمتهم القسطنطينية فى القرن الرابع ، وحاولت أن تعود بأصلها إلى القديس أندراوس ولقيت العون فى ذلك من جانب الأباطرة الذين حرصوا على أن يعلو كعب أسقفية العاصمة على سائر الكراسى الرسولية الأخرى ، فتضمنت قوانين بعض المجامع المسكونية (الثانى ٣٨١ والرابع ٤٥١) النص على أنها تلى كنيسة روما فى المرتبة مباشرة باعتبارها «روما الجديدة» .

وقد أخذت هوة الخلاف تتسع بين كل من روما والقسطنطينية وازدادت على مر القرون عمقا وتباعدا ، بفعل الاختلاف الفكرى واللغوى والعقيدى ، وما يتعلق بالنظام الكنسى ، ثم تدخلت المسألة السياسية فزادت النار ضراما خاصة إبان الحرب ضد الأيقونات ، واستباق الكنيستين على الاستئثار بمنطقة البلقان ، وبلغاريا بالذات ، واتجاه روما إلى مملكة الفرنجة ، وتتويج شارلمان وأوتو أباطرة فى الغرب ، إلى أن انتهى الأمر بحدوث الشقاق الأعظم بينهما سنة ١٠٥٤ ، والذى جاء نتيجة طبيعية لسلسلة من الأحداث المتلاحقة عبر القرون الطويلة .

ومما لاشك فيه أن القسطنطينية قد أفادت إلى حد كبير من جراء بعض هذه الأحداث ، فأقدم أسقفها فى نهاية القرن السادس على اتخاذ لقب «مسكونى» ، وإن كان هذا لم يعن السيادة العالمية . كما أن فقدان الإمبراطورية لولاياتها الشرقية فى القرن السابع ، قد خلص القسطنطينية من منافسة الاسكندرية وأنطاكية ، وهى منافسة طالما ضاقت بها العاصمة . وأصبحت كنيسة القسطنطينية هى كنيسة المجامع المسكونية السبعة [٥٠].

---

= الفرس فى مطلع القرن السابع ، حالة من الحماسة الدينية شملت الإمبراطورية وتركزت فى العاصمة ، وتمثلت فى الخطب والعظات الدينية التى كان يقوم بها البطريرك سرجيوس واكليروسه . بل ان هرقل نفسه ، بعد فشل حملاته الأولى ، اعتزل بعض الوقت فى أحد الأديرة يناجى العذراء ويتطهر ، وحمل معه أيقونة العذراء عند خروجه الثانى للحرب ، مما جعل الناس يعزون انتصاره على الفرس إلى هذه الصورة ، ودفع نفرا من المؤرخين إلى اعتبار هذه الحروب نوعا من الحرب الصليبية . انظر : أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ص١٠٥ وأيضا دكتور أسد رستم : الروم :جـ١ ص٢٢٥ ، وكذلك C. M. H., p. 292

٥٠- كان قسطنطين هو أول من ابتدع سنة عقد هذه المجامع المسكونية ، وقد عرفت الكنيسة قبل ذلك =

ولم تكن هذه المجامع المسكونية قاصرة على مناقشة الآراء العقيدية . بل عمل بعضها على بحث مسائل التنظيم الكنسى إلى جوار الناحية العقيدية [٥١] . وكانت الكنيسة تضم عددا كبيرا من رجال الإكليروس ، وأوضح مثال على ذلك كنيسة أياصوفيا ، التى اضطر أسقف العاصمة فى القرن السابع زمن هرقل أن يستغنى عن كثير جدا من اكليروسها . وكان الزواج مسموحا به لمن هم دون مرتبة الأسقفية . وفى بعض الأحيان كان يفضل الرهبان لشغل المناصب الكهنوتية ، وإن لم يكن هذا تقليدا ثابتا . وقد حرصت الكنيسة دوما أن تظل غنية بمواردها ، وازداد فعلا ثراء الكنيسة بما كانت تمنحه الدولة لها والمؤسسات والأفراد .

وكانت الكنيسة اليونانية تتسم فى نظر البعض بالجمود أو المحافظة ولكن بقاء الكنيسة اليونانية قائمة ، هو فى حد ذاته رد على هذا الاتهام ، ذلك أن التقاليد لكى تبقى فلابد أن تتطور وهى تنتقل من جيل إلى آخر . ولامجال للشك فى أن الكنيسة اليونانية قد حفظت للعالم المسيحى تراث الآباء اللاهوتيين ، ومحاوراتهم للتوصل إلى تعريف دقيق للإيمان الأرثوذكسى .

---

= المجامع المكانية . ولكن المجامع المسكونية لم يكن من السهل تحقيقها فى ظل السياسة العدائية التى كانت تنتهجها الدولة الوثنية . وكان أول هذه المجامع فى نيقية سنة ٣٢٥ لمناقشة العقيدة الأريوسية ، والثانى فى القسطنطينية سنة ٣٨١ على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول ، وكان من بين مهامه بحث الآراء الماكيدونية . وفى عام ٤٣١ عقد المجمع المسكونى الثالث فى افسوس زمن ثيودوسيوس الثانى للرد على أفكار نسطور ، بينما دعا الإمبراطور مارقيان سنة ٤٥١ إلى عقد المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونية ، الذى أقر مذهب الطبيعتين فى المسيح ، فلما كان عهد جوستنيان عقد المجمع الخامس ٥٥٣ للتوصل إلى حل حول الجدل العقيدى بين المنافزة والديافزة . أما المجمع المسكونى السادس فقد التأم عقده سنة ٦٨٠-٦٨١ ، لإقرار التخلى عن المونوثيليتية (الارادة الواحدة) الذى ابتدعه هرقل فى محاولة لاسترضاء الولايات الشرقية . وكان هذا المجمع على عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع . أما المجمع السابع والأخير فقد دعت إليه الإمبراطورة ايرين سنة ٧٨٧ لشجب الآراء اللاأيقونية ، وإعادة الصور إلى قداستها .

٥١- للوقوف على تفاصيل القوانين الكنسية الخاصة بالناحية التنظيمية انظر :

H, Perrcival, The Seven Ecumenical Councils, (Nicene and Post Nicence Fathers, Second Series). vol . XIV .

وراجع أيضا

Hefele , History of the Councils of the Church , 5 Vols .

وقد لعبت كنيسة القسطنطينية دورا كبيرا فى الحركة التبشيرية بين الجماعات الوثنية ، ولعل أقوى الأدلة على ذلك ، الجهود التى بذلتها بين الجماعات الصقلبية أو القبائل الخزرية . ولايقل عن هذا دور رجال الدين فى الداخل لرعاية شعب الكنيسة ، وتعليم المسيحيين شئون دينهم ، ويعتبر البيزنطيون أعظم كتاب العظات فى العالم المسيحى . وقد اهتموا اهتماما بالغا بالقداسات الكنسية ، فيما يختص بالألحان الموسيقية والترانيم والتسابيح . وكان قداس القديس باسل وقداس القديس يوحنا ذهبى الفم ، هما العماد الرئيسى الذى استقى منه البيزنطيون قداسهم الكنسى .

ولاسبيل إلى الشك فى أن الكنيسة فى بيزنطة قد تمكنت من حياة الناس ، فتعلقوا بها إلى حد كبير ، وزاد من تعلقهم إيمانهم العميق بما شاع عن إتيان القديسين للمعجزات ، فسعوا إلى أن ينالوا البركات على أيديهم . وحظى الرهبان فى هذا المجال بالنصيب الأوفر .

وتعتبر مصر صاحبة الفضل الأول على العالم المسيحى فى الحياة الرهبانية ، فهى التى قدمت إلى دنيا المسيحية هذا الأسلوب فى الزهد والنسكية بنمطيه التوحدى والديرانى . فالقديس أنطونيوس يعد رائد الرهبانية فى مصر والعالم بشكلها التوحدى فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع . والقديس باخوم هو صاحب أول مجتمع ديرانى فى القرن الرابع . ومن مصر انتقلت الرهبنة إلى مختلف أنحاء الإمبراطورية بين الجماعات المسيحية خلال ذلك القرن، فعبرت البحر إلى غالة وإيطاليا وأسبانيا ، ثم اتجهت إلى فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان . حتى إذا كانت الإمبراطورية فى العصور الوسطى ، لم يكن هناك مكان يخلو من الرهبان ، وأصبحت الرهبانية عنصرا مكملا للحياة البيزنطية . ومن أشهر هذه الأمكنة فى فترة العصور الوسطى ، جبل أوليمبوس بالقرب من بروسا ، وجبل لاتروس فى أقصى جنوب آسيا الصغرى ، والجبل المقدس الكلابرى ، ثم جبل آثوس على مقربة من سالونيك ، وهو أشهرها جميعا . فقد اجتذب إليه الرهبان من جميع انحاء العالم المسيحى ، وحظى بالاحترام العميق والحماية الإمبراطورية . ورغم الانحلال السياسى الذى أصاب الإمبراطورية فى القرنين الأخيرين من عمرها ، فان الجبل على العكس من ذلك تزداد قوته ، وكانت حركة الزهد الصامت خير دليل على هذه المكانة التى بلغها .

وتعتبر الأديرة الباسيلية ، التى تنسب إلى القديس باسل أسقف قيسارية الكبادوك ، فى آسيا الصغرى ، النظام الذى ارتضته الرهبنة البيزنطية منذ القرن الرابع ، فقد آثر الديرانية

على التوحد ، وسار على نهجة ثيودور الاستودبي ، رئيس دير ستوديوس في القسطنطينية ، وأبرز الديرانيين في الإمبراطورية في عصورها الوسطى وقد اختط نهج سلفه في القرن الرابع باسل الكبادوكي ، وترك كثيرا من العظات والخطب للسائرين على هداه . وكانت القدرة على التفكير الواضح - كما هي عند يوحنا الدمشقي - تعنى عنده الفهم العميق للكتاب المقدس وآراء آباء الكنيسة ومجابهة الهراطقة .

ولما كانت الحركة الرهبانية قد نشأت في إطار الكنيسة ، فقد اهتمت هذه على أن تفيد من هذه الطاقة قدر الطاقة ، وظهر ذلك واضحا في الدور الذي لعبه الرهبان في المجامع الكنسية ، ووقوفهم وراء الأساقفة في التصدي للآراء التي تنعتها الكنيسة بالهرطقة ، مما دفع بعض المجامع الكنسية إلى تنظيم الإطار الرهباني وتحديد نشاط الرهبان ومهامهم ، واتضح هذا بشكل ظاهر في المجمع المسكوني الرابع الذي عقد في خلقيدونية عام ٤٥١ . وعلى أية حال فان القرن التاسع يعتبر الفترة التي اكتملت فيها النظم الأساسية للحياة الديرانية ، بحيث أصبح من اليسير على العالمين اللاتيني والصقلبي أن يقفا على أسرارها وأن يفيدا منها .

وقد بلغت الأديرة في كثير من الأحيان قدرا كبيرا من القوة والنفوذ ، وازدياد قوتها بفعل الثراء الذي وجدت نفسها غارقة فيه ، نتيجة للهبات والأوقاف التي كانت الدولة أو الأفراد يقدمونها إليها ، وقد أحست الدولة بخطورة هذه الناحية على الموار المالية للخزانة الإمبراطورية ، فتدخل الأباطرة للحد من بناء الأديرة ، أو لتحديد الهبات الموقوفة عليها ، كما حدث في القرن العاشر . وعلى الرغم مما تعرضت له الأديرة من العسف زمن الأباطرة اللاأيقونيين إلا أنه ما لبثت أن استعادت نفوذها وقوتها مرة ثانية بعد هزيمة أعداء الأيقونات، ولم تجد محاولات الأباطرة التالين للحد من سلطانهم . ولاشك أن هذا الثراء الذي كانت عليه الأديرة ، قد أدى إلى خروجها عن مهمتها ورسالتها الأساسية . ولهذا نجد كثيرين من المصلحين - العلمانيين والإكليروسيين على السواء - يرفعون أصواتهم بضرورة الإصلاح ، وعودة الأديرة إلى وظيفتها الأولى . وقد كتب يوستاثيوس Eustathius رئيس أساقفة سالونيك في القرن الثاني عشر ، نقدا لاذعا لما كانت عليه الحياة الرهبانية آنذاك ، وعلى نفس المنوال كتب يوحنا السلمي John Climacus وثيودور الاستدوبي .

وقد تسابقت الدولة والأفراد في تأسيس الأديرة ، وكان لكل دير يقام وثيقة تأسيس تضم الالتزامات الخاصة بالطقوس ، كالصلاة وقواعد الصيام والاحتفالات الدينية ، وعدد الأفراد

الذين يستوعبهم الدير ، والهبات الموقوفة عليه . ورغم ذلك فقد كان هناك بعض الأديرة التى تتمتع بالاستقلال الكامل عن أى سلطة علمانية أو كنسية ، ولاتخضع حتى لمؤسسها ، وكانت هناك كذلك قوانين تنظيم عملية دخول الأفراد الدير ، وتضمنت مراسيم الأباطرة الكثير من هذه القوانين المنظمة ، من أهمها فترة الاختبار التى قد تمتد إلى ثلاثة أعوام للوقوف على مدى جدية الراغبين فى أن يسلكوا هذا السبيل ، وإن كانت هناك استثناءات من هذه القاعدة ، لمن عرف عنهم منذ الصغر الورع والتقوى . وكان الانتقال من دير إلى آخر يمثل أهم المشاكل التى تواجه إدارة الدير المستقبل ، لما يترتب على هذا الانتقال من مسائل خاصة بالانتماء والملكية . ولهذا كان ينظر إلى هذه الناحية بشئ من الامتعاض . وكيفما كان الأمر فان الدير يعتبر البداية الطبيعية لهذه الحياة المشتركة . ولكن بعض الرهبان كان يختط طريقا أكثر صعوبة ، كالمتوحدين أو الذين يحيون على عمود أو داخل الكهوف أو تجاويف الأشجار .

ولاريب أن حركة الرهبنة قد أدت للدولة البيزنطية خدمات متعددة فى مجالات شتئ ، أهما بطبيعة الحال النواحى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية . وقام الرهبان بدور كبير فى الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ولهذا لاغرابة فى أن يصبح الرهبان عمد العالم البيزنطى ، الذين تعلقت بهم أفئدة الجموع ، وراحوا يطلبون إليهم قضاء حوائجهم وتحقيق الآمال . وهكذا احتل الرهبان مكانة فريدة فى الشرق الرومانى .

وفى فصل ممتع، قدمت المؤلفة تصويرا رائعا للحياة اليومية فى الإمبراطورية والقسطنطينية بصفة خاصة . . فالأسرة هى محور الحياة الاجتماعية ، ولهذا كان طبيعيا أن يحظى الزواج بالمرتبة الأولى فى التشريعات البيزنطية ، بينما كان الزواج للمرة الثانية أمرا غير مرغوب فيه، أما الزيجة الرابعة فقد كانت ملعونة ، ومن هنا ندرك تلك المشاكل التى واجهت الإمبراطور ليو السادس لزواجه المتكرر . وكان الطلاق شيئا كريها على الرغم من شيوعه ، وعلى الرغم من حرص القانون البيزنطى على أن يضيق عليه الخناق . وكان للمرأة وضعها اللائق فى هذا القانون وفى المجتمع أيضا وقامت الكثيرات من النساء بدور سياسى له خطورته بصورة مباشرة أو من وراء ستار . ففضل ثيودورا على جوستنيان لايمكن التغافل عنه ، والجهد الذى بذلته كل من الإمبراطورة ايرين زوجة ليو الرابع والإمبراطورة ثيودورا زوجة ثيوفيلوس ، فى القضاء على كل محاولات رجال الأسرتين الايزورية والعمورية المعادين للأيقونات . كان السبب الرئيسى فى انتصار الأيقونيين .

وكانت الطقوس المسيحية هي السمة المشتركة التي تجمع كل افراد المجتمع البيزنطي ، من الإمبراطور حتى أدنى الأدنياء . على أن القسطنطينية كانت ترتدى أحلى ما عندها لتبدو فى أبهى زينة ، إذا كان الطقس يتعلق بأفراد البيت الإمبراطوري ، كتناول أحدهم سر المعمودية . ولاشك أن القسطنطينية كانت مركزا للحياة خلال العصر البيزنطى الزاهر زمن المقدونيين .

ورغم أن هيئة التركيب الاجتماعى للمجتمع البيزنطي قد تحددت بصورة دقيقة ، إلا أن الانتقال من طبقة لأخرى لم يكن عسيرا . فقد اعتلى العرش أباطرة كثيرون يعودون فى أصولهم إلى الفلاحة أو الجندية . هذا على حين كانت للخصيان أهمية خاصة ، وبلغ بعضهم أعلى المناصب فى الدولة .

وتتناول المصادر المعاصرة ، وفى مقدمتها كتاب المراسم وكتاب الوالى ، الحياة الأسرية للأباطرة داخل قصورهم ، وحياة الناس فى دورهم ، وأنواع الأطعمة والشراب عند سراة القوم وعلى موائد الكنيسة والأديرة ، ووجبات أصحاب المهن المختلفة والحرفيين ، وقوانين تنظيم الأسعار ، وقصور الأمراء والنبلاء وبيوت الأثرياء ، وملابسهم وكيفية تنوعها ، والأدوات المنزلية على اختلافها . ولقد كان الجيش البيزنطى يضم بين جنبيه الطرفين المتناقضين . الثراء الكامل والفقر المدقع . وبينما كان المترفون يرفلون فى حلل النعيم ، كانت حياة الأدنياء بئيسة مهلكة ، لم تجد معها محاولات العون من جانب المؤسسات الخيرية الديرانية ، التى كان من أهم واجباتها ، كما يتضمن ميثاق تأسيسها ، رعاية ذوي المسغبة والمتربة .

وقد ازدهرت الصناعات فى القسطنطينية وغيرها من مدن الإمبراطورية مثل سالونيك وطرابيزون ، وفى مقدمتها الصناعات الحريرية والصوفية ، التى بلغت قدرا كبيرا من الرقة والدقة عندما كان الأمر يتعلق بثياب البيت الإمبراطوري ، بل كانت هناك مصانع اقتصر إنتاجها فقط على الأسرة الحاكمة . أما الحياة فى الريف فيصورها لنا ما عرف بقانون الفلاح ، وهو القانون الذى تختلف الآراء حول تاريخه ما بين أخريات القرن السابع والقرن الثامن ، وكيف كان مجتمع القرية يتكون من الملاك الأحرار والفلاحين والعبيد . كما أن هذا القانون تضمن أيضا العقوبات اللازمة لمواجهة كافة الاحتمالات . ولكن الصورة العامة التى كان عليها الفلاح كانت تدعو إلى القنوط ، فقد كان يعيش على هامش الحياة ، ومن الصعب عليه أن يفى بالتزاماته الضريبية تجاه الحكومة فى كثير من الأحيان .

ولما كان للإمبراطورية سواحلها الطويلة ، كان طبيعيا أن يتجه أهلوها للاشتغال بالأعمال البحرية ، سواء على الأسطول العسكرى ، أو التجارى ، أو بالصيد ، وكان لابد كذلك أن توجد القوانين التى تنظم حركة التجارة ، كالقانون البحرى الرودوسى ، الذى وضع من أجل حماية سفن صغار التجار . ومن الطريف أن هذه القوانين نصت على المساحة التى يجب أن يحتلها المسافر على السفينة ، وما يجب عليه فعله أو تركه ، كعدم قلى السمك أو إشعال النيران وهكذا .

وكان الشعب البيزنطى بطبيعته يميل إلى الجدل والنقاش ، وكانت الحمامات العامة تمثل له متنفسا طبيعيا لإشباع فضوله فى هذه الناحية ، وربما يقضى البيزنطى يومه كاملا فى الحمام أو ذاك يتجاذب ورفاقه أطراف الحديث فى مختلف الموضوعات ، وفى الجانب الآخر ، كان التردد على مزارات القديسين بصفة مستمرة يمثل مسألة حيوية للبيزنطيين المتدينين حتى أن كثيرا من العقود التجارية والاتفاقات كانت تتم أثناء هذه الزيارات .

وقد انتشرت الخرافات والخزعبلات وأعمال السحر والشعوذة فى المجتمع ، وساعد على ذلك ما ترسب فى تقاليدهم من التراث اليونانى - الرومانى القديم وما خالطه من مؤثرات شرقية ، بالإضافة إلى إيمانهم العميق بقدرة القديسين والرهبان على الإتيان بالمعجزات . ولم ينس المجتمع البيزنطى وسط متاهات جدله من حول العقيدة ، وتعلقه برهبانه وقديسيه ، أن يوفر لنفسه الكثير من وسائل اللهو والتسلية ، فكانت هناك فرق الأكروبات ، والحواة والمهرجون ، والعروض الموسيقية . وإن كانت بيزنطة قد افتقرت إلى ما يمكن أن يرقى إلى مستوى الدراما الإغريقية القديمة ، التى تقدم فى أسلوب جاد ، يجتذب إليه جمهور النظارة بكل الاهتمام والانتباه .

وكان أهم ما يميز روح البيزنطى السخرية اللاذعة بكل شئ ، بالاطباء ورجال القانون ، والأكليروس ، ورغم الكوارث التى تحيق بالمجتمع البيزنطى على امتداد عمره ، وحياة الفاقة التى كان يحياها الكثيرون ، إلا أن البيزنطى كان ينظر إلى كل ذلك باعتباره تجربة من السماء ، أراد الله أن يبتليه بها ، وما عليه إلا أن يصطبر عليها ليرى الله قدر إيمانه وتقواه».

ورغم ما ساد بين الجموع من الخرافات والخزعبلات ، إلا أن المجتمع البيزنطى يعد من المجتمعات المثقفة ، تعود جذور ثقافته إلى العالمين اليونانى والرومانى ، حيث كانت

الإمبراطورية البيزنطية هي الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية المتأخرة . فقد كان ينظر إلى التعليم نظرة تقدير واحترام باعتباره أمرا ساميا . وينعكس هذا على المعلمين الذين كانوا يلقون التكريم ، العام منهم والخاص . ويتضح ذلك بصورة جلية ، في الاهتمام الذي أولته للعملية التعليمية حتى في أحلك الأوقات التي كانت تمر بها الإمبراطورية إبان الغزو اللاتيني .

ومن الأمور المسلم بها أن التعليم كان أمرا لا مندوحة عنه بالنسبة لذوى اليسار ولم يكن مقصورا على البنين وحدهم دون البنات ، بل لقد نبغت كثيرات من بنات الطبقة الراقية . وكانت حلقات المناقشة التي يشتركون فيها ، تعود بالبعض ، حسب تعبير أحدهم ، إلى ذكرى فلاسفة الاغريق الأقدمين . ويبدأ التعليم الابتدائي في القرية أو المدينة . ويحتوى على الكثير من كتابات المفكرين الكلاسيكيين ، ثم تأتي المرحلة التالية بعد ذلك في مدارس المدن الكبرى كأثينا وبيروت والأسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية . وقد ازدهرت جامعة القسطنطينية بطبيعة الحال للاهتمام الذي أولاها إياه الأباطرة ، حتى إذا كان القرن السادس ، علا كعبها بعد أن أقدم جوستنيان سنة ٥٢٩ على إغلاق جامعة أثينا ، ثم ازدادت شهرتها بعد أن خضعت مصر وسوريا للمسلمين في القرن السابع . ورغم الجدل العقيدي الذي اتسم به المجتمع البيزنطي ، إلا أن جامعة القسطنطينية لم يكن بها كرسي للدراسات اللاهوتية . فقد كانت هناك مدارس لاهوتية خاصة ملحقة بالكاتدرائيات الكبرى . وإن كان هذا لايمنع من القول بأن الكثيرين من أساتذة جامعة القسطنطينية كانوا من علماء اللاهوت .

ولقد شهدت بيزنطة تقدما مرموقا في مختلف نواحي المعرفة الإنسانية وكان في مقدمة العلوم التي برعت فيها الرياضيات والفلك ، وكانت الفلسفة ترتبط بالرياضيات في كثير من الأحيان ، إلى الحد الذي أبدى البعض أسفه لعدم الاهتمام بالفلسفة في حد ذاتها في فترة متأخرة من تاريخ الامبراطورية . وإذا كانت الفلسفة قد ارتبطت أحيانا بالرياضيات ، فقد كان ارتباطها باللاهوت مسألة حتمية ، حيث كان ينظر إليها باعتبارها رياضة فكرية ، وكان على آباء الكنيسة أن يعكفوا على دراستها حتى يمكنهم مواجهة تحديات الفلاسفة للعقيدة المسيحية، وظهر الاهتمام بصورة واضحة بأعمال افلاطون وأرسطو . وظهرت مؤلفات عديدة تناولت كتاباتهم بالتحليل والتفسير والتعليق . ولم يكن الاهتمام بالأدب اليوناني القديم يقل عن قرينته الفلسفة كثيرا ، وخاصة الأعمال الفيلولوجية والنصوص .

ولما كان البيان هو الخطوة الأولى والأساسية فى تفوق أى كاتب أو أديب ، كان لابد أن يحظى بقدر عظيم من الرعاية والاهتمام . هذا شئ كان من أهم ما ورثته بيزنطة عن أسلافها ، ولم يجد الكتاب الذين يفتقدون القدرة البلاغية على التعبير إلا الازدراء ، ولم يقدر لأعمالهم النجاح . وإذا كان الأدب البيزنطى قد تعرض للنقد لأنه يشتمل على أعمال بلاغية لفظية ، فذلك راجع بلاشك إلى أن النقاد كانوا يقارنون الأدب البيزنطى بالأدب الكلاسيكى الزاهر ، مما أوجد هذا الرأى لديهم . وعلى أية حال فقد اهتم الشعر بالنواحى التصويرية والوفاء والشعر الغنائى وقصائد الحب والفروسية أو الشعر الحماسى .

على أن الدارسين لايمكنهم اغفال نواحى التفوق الذى حققته بيزنطة فى ميدانين رئيسين ، هما الكتابات التاريخية والعقيدة . حقيقة لم يستطع البيزنطيون محاكاة هيرودوت أو ثوكيديس أو اكسنوفون فى ميدان التاريخ ، ولكنهم قدموا نماذج جيدة من المؤرخين الذين ذاع صيتهم بفضل كتاباتهم . فاذا استثنينا المؤرخين الكنسيين فى القرنين الرابع والخامس ، كان لدينا عدد غير قليل من المؤرخين فى فترات لاحقة مثل أجاثياس وبروكوبيوس وليو الشماس وأناكومننا ونقفور جريجور .

أما الكتابات اللاهوتية فقد كانت بلاريب ميدانهم الفسيح والساحة الرئيسية التى ليس من السهل على أحد أن يباريهم فيها . ويعود ذلك إلى الولاء الكامل للعقيدة المسيحية ، والحرص على التوصل إلى تعريف دقيق للاقنوم الثانى فى الثالوث ، الابن أو المسيح ، الكلمة المتجسدة ، وساعدهم على ذلك ما أفادوه من دراسة الفلسفة اليونانية القديمة بمدارسها المختلفة واتجاهاتها الفكرية المتباينة . وقد قدمت بيزنطة الكثير من مشاهير اللاهوتيين إلى عالم المسيحية فى مقدمتهم آباء كبادوكيا الثلاثة ، جريجورى النازيانزى Gregorius Naz-ianzenus وجريجورى النيساوى Gergorius Nysaeus والقديس باسل أسقف قيسارية ، وهؤلاء الثلاثة عاشوا فى القرن الرابع ، ثم هناك أيضا سيمون اللاهوتى الجديد كما اشتهر بذلك ، فى القرن الحادى عشر ، وهو الذى تكشف تراتيمه وعظاته عن الطبيعة الخلاقة فى الفكر الدينى البيزنطى .

ولاشك أن هذا التنوع فى نواحى التعليم والأدب ، هو دليل صدق على ثراء اللغة اليونانية، وما كانت تتمتع به من الحيوية ، بحيث أصبحت أداة طيعة فى يد أبنائها المقتدرين عليها ، وليقدموا بها صنوف الأدب ألوانا .

ولم يكن الفن البيزنطى أقل ثراء من قرينه الأدب ، وهو شأن التاريخ البيزنطى يعود فى جذوره إلى العالم اليونانى الرومانى ، وإن كان أكثر من الأدب تأثرا بالجيران الشرقيين ، وكانت مرحلة الانتقال الممتدة من القرن الرابع إلى السابع هى الفترة التى تشكل فيها الفن البيزنطى والعمارة بصفة خاصة ، ولهذا فقد تحددت سماته واضحة بالتقاليد الإمبراطورية والعقيدة المسيحية .ومن ثم كان لابد أن يظهر فى أسلوب جديد ليعبر عما أصبحت عليه الإمبراطورية ، وإن كان التقليد القديم قد ظل ساريا ، وهو الفن فى خدمة الحاكم ، حيث راحت اللوحات الفسيفسائية تمجد الأوتوقراطور والبانتوقراطور ، يشاركها فى ذلك التحف العاجية والعملة والمنسوجات ، واتخذ الفن سبيله فى مدرستين بارزتين ، المدرسة السكندرية بتأكيدها على الواقعية والأبعاد الثلاثة ، ومدرسة آسيا الصغرى وسوريا وتركيزها على صورة البعدين الرمزية . وهذان النمطان يتمثلان بوضوح فى فسيفساء القرنين الرابع والخامس فى إيطاليا .

وإذ كانت القصور التى أقامها الأباطرة قد درست ، ولم يعد من السهل تصورها إلا عن طريق ماورد فى المصادر الأدبية ، فان الكنائس التى شيدت ما زالت باقية ، فقد أقاموها لتبقى ما بقيت العقيدة التى أقيمت من أجلها ، ويتضح منها مدى الاهتمام البالغ بتزيين الكنائس ، والأدوات اللازمة لاتمام القداسات كالملابس والأردية الكهنوتية والأوانى المقدسة . وهناك اختلاف واضح بين الفن الذى امتازت به الكنيسة البيزنطية ، عن الفن الكنسى فى الغرب ، فعلى حين كان الأول يقصد به تفسير الإيمان وتوضيحه ، إلى الحد الذى اعتبر فيه جزءا من عمل شعب الكنيسة فيما يتصل بالعبادة ، كان الفن فى الغرب يقتصر على إثارة مشاعر الرائين .

وكانت القباب هى أقدم ما يميز الفن المعمارى البيزنطى ، ورغم أن القبة كانت شائعة فى فارس وما بين النهرين ، حيث تندر الأخشاب ، ويصبح الآجر هو الوسيلة الطبيعية للبناء ، إلا أن البيزنطيين أضافوا اليها من إبداعهم الفنى . وبلغ الفن البيزنطى أعظم مراتب ارتقائه فى الزخرفة الداخلية للكنائس بالفسيفساء والفريسك . وعرف الفنانون كيف ينتزعون الإحساس الصادق من نفوس العابدين إذا ما راحوا يتأملون هذه الفيسفساء على مسافة معينة وسط الكنيسة . وكان انتشار اللوحات الفسيفسائية دليلا على ازدهار الدولة البيزنطية وثرائها ، نظرا للتكاليف الباهظة التى تقتضيها تلك الصور ، فلما تعرضت الإمبراطورية للضعف والانحلال ، ونضبت مواردها وجدت فى الصور الجصية (الفريسك) عوضا عن الفسيفساء . وإن كان الفريسك قد وجد فى فترة مبكرة من تاريخ الإمبراطورية ولكن بصورة بدائية .

ولايخفى علينا أن الحروب التى شنها الايزوريون والعموريون على الأيقونات وتقديسها ، قد تركت دون ريب اثارها الواضحة على النواحى الفنية[٥٢] ولكن الفن سرعان ما عاد سيرته الأولى وإن كان بصورة متطورة بعد انتهاء هذه الحرب ، وانتصار الايقونيين . واتبع الفنانون والصناع المنهاج الأيقونوجرافى الجديد الذى يهدف أساسا إلى خدمة الأغراض اللاهوتية ، حيث يهتم بالتثليث وخلاص العالم بواسطة المسيح ، حتى أصبحت الكنيسة من الداخل وكأنها تستحضر الكون ، بالإله والقبة الزرقاء والفردوس والمسكونة .

ولم تكن الزخرفة قصرا على الكنائس أو القصور ، بل حظيت المخطوطات هى الأخرى بالاهتمام الفنى ، حيث كان بعضها يكتب بالفضة على نسيج أرجوانى ، وما زالت هناك إلى الآن خطيات نادرة من هذا النمط للكتاب المقدس أو كتاب المزامير ، مع الخطيات التى تتناول الموضوعات العلمانية ، يضاف إلى هذا ما ظهر من مخطوطات مصورة كانت تستخدم فى حملات التشهير السياسى أو الدينى .

وقد طرق الفنانون البيزنطيون كل مجالات الزخرفة واستخدموا كل ما أتيح لهم من وسائل فى التزيين ، فبرعوا فى صناعة المينا ، والعاجيات ، والتحف المعدنية ، والمنسوجات وتتناول كلها مختلف الأغراض الدينية والدنيوية .

ولاشك أن الهزة العنيفة التى أصابت كل شئ فى الإمبراطورية نتيجة سقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤ على يد اللاتين ، قد أثرت بصورة مباشرة على الناحية الفنية ، فاستخدم الفريسك بدلا من الفسيفساء ، وندرت الأعمال الفنية الدقيقة . ولكن الحركة الفنية مع ذلك لم تتوقف. ويعتبر التصوير الدينى على الجدران أروع منجزات هذه الفترة المتأخرة خاصة ما وجد منه فى منطقة البلقان يعود إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

هذه الحضارة الزاهرة التى اتسمت بها الإمبراطورية البيزنطية ، خلافا لما جرى به الاعتقاد آنفا عند بعض المؤرخين ، امتداداً لعالم اليونان والرومان ، وتفاعلا مع بعض العناصر الحضارية الشرقية ، كان لابد ، بحكم الموقع الذى تحتله الإمبراطورية ، أن تفرض عليها نوعا معينا من التعامل مع الجيران . الذين يختلفون معها حضاريا وفكريا . خاصة فى الشمال والغرب . وكان لابد أيضا أن يفيد هؤلاء الجيران من الحضارة البيزنطية قدر طاقتهم ، فى الإدارة والأدب والفن ، وقبل هذا وذاك العقيدة .

---

٥٢- أنظر قبله ص٣٦-٣٧ .

وعلى حين كانت العلاقات البيزنطية الإسلامية تقوم - بغض النظر عن النواحى السياسية والعسكرية - على أساس الاحترام والتقدير الحضارى ، فان الموقف فى البلقان وعند الدانوب كان يختلف عن ذلك تماما ، حيث تنزل عناصر سكانية متباينة ، تنظر إلى الحضارة البيزنطية والإمبراطورية بعين المهابة بل التقديس ، ابتداء من الجرمان فى القرنين الرابع والخامس[٥٣] وحتى الصقالبة فى القرون من الثامن إلى العاشر . وقد اتضحت مقدرة الإمبراطورية فى استيعاب معظم هذه القبائل .

أما فى الغرب ، فقد كان للعلاقات بين بيزنطة وامبراطورية الغرب طابعها الخاص نتيجة التباين الحضاري والتفاوت العسكرى ، ثم الاقتناع الكامل لدى أباطرة بيزنطة بالإمبراطورية الواحدة ، وأنهم وحدهم الأباطرة الرومان ، مما أدى بالتالى إلى تعارض المصالح السياسية فى إيطاليا بالذات، وادعاءات السيادة عند كل من الإمبراطوريتين . حتى إذا كان القرن الحادى عشر ، قدر للدبلوماسية البيزنطية أن تواجه تحديات جديدة لم تعرفها من قبل فى عمرها الأول وتمثلت هذه التحديات فى استيلاء النورمان على جنوب إيطاليا وصقلية ؛ ومشروعاتهم المستمرة لغزو القسطنطينية ، واعتداءاتهم التى لاتنقطع على بلاد اليونان ، ثم نمو الحياة المدنية فى إيطاليا الذى اقترن بالنشاط الاقتصادى المتزايد . وكذلك قيام الحروب الصليبية وما فرضته من ضرورة تعامل الإمبراطورية مع هذه العناصر اللاتينية . يضاف إلى ذلك ازدياد الأعداد والإغارات الصلقبية فى منطقة البلقان وتهديد العاصمة فى كثير من الأحيان ، كما

---

٥٣- لعل خير مثال على ذلك هو تيودوريك Theodoric زعيم القوط الشرقيين ، الذى قاد قبيلته واتجه إلى إيطاليا بموافقة الإمبراطور زينون ، وتمكن من السيادة عليها سنة ٤٩٣ بعد هزيمته لأدواكر . وكان تيودوريك من أشد المعجبين بالحضارة الرومانية ، فعندما زار روما وقف مشدوها أمام آثارها الرائعة ، واعترف صراحة أنه كان يشاهد فى كل يوم وفى عجب شديد عمود تراجان الشاهق ، وأظهر اهتماما كبيرا بالناحية الثقافية ، فحاول تشجيع الأدباء والمفكرين الرومان على القدوم إلى بلاطه ، وكان كاسيودور Cassiodorus الذى يعد من أعظم المثقفين فى أيامه مستشارا له ، بينما كان بوئيثيوس Boethius فيلسوف عصره أقرب الرومان إلى قلبه ، قبل أن يعدمه ، ورغم أريوسيته فقد أعطى للكنيسة الرومانية كل التقدير والاحترام . أنظر Strayer & Munro , op .cit ., p. 42 وكذلك Davis, op . cit., p. 49 وأيضا Thompson and Johnson, op . cit., pp. 85-103 Pirenne, op. cit., p. 38: راجع كذلك جيبون ، اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ، جـ٢ ص٣٧٣ .

حدث على يد البلغار . وتجدد الخطر الشرقى مرة أخرى ممثلا فى الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى . وقد تكاثفت هذه الأخطار فى وقت كانت القوة العسكرية البيزنطية تريد أن تنقض إيذانا بالانهيار ، ومن ثم تحملت الدبلوماسية النصيب الأكبر من هذا العبء الكبير .

ولاشك أن الدول التى قامت فى العصور الوسطى ، وخاصة فى البلقان وعند الدانوب والبحر الأسود ، تدين للامبراطورية البيزنطية بالكثير ، ومن بين هذه الدول الصرب والبوسنة وبلغاريا والمملكة الموسكوفية ومملكة كييف . فقد استقت من بيزنطة التصور الدقيق عن مفهوم الدولة ، والتقاليد الإمبراطورية ، ومراسم البلاط ، والنظم الادارية ، والمبادئ الفقهية الرومانية التى تضمها مقننات الأباطرة وتشريعاتهم كجوستنيان وليو الثالث وباسل الأول وغيرهم .

وكان للإمبراطورية أيضا علاقاتها البعيدة مع أقصى الغرب ، فقد توطدت أواصر الصداقة بين البيتين الحاكمين فى كل من بيزنطة وبريطانيا ، عن طريق المصاهرات السياسية ، وتبادل السفراء والهدايا ، بالإضافة إلى الحرس الإمبراطورى الخاص الذى عرف أفراده بالورنك Va-rangian وكان يتكون فى معظمه فى القرن الثانى عشر من الإنجليز ، دلت على ذلك الرسائل المتبادلة بين الإمبراطور مانويل كومننوس وهنرى الثانى .

على أن العلاقات مع الغرب بصفة عامة ، كان يحول دون كمالها ، ذلك الخلاف العقيدى القائم بين كنيستى روما والقسطنطينية ، فكلتاهما اختطت لنفسها طريقا عقائديا مخالفا ، وأدخلت إحداهما الأخرى فى عداد الهراطقة . وساعدت الأحداث السياسية ، كما أسلفنا ، على تعميق هوة الخلاف واتساع الصدع . وكانت الشعوب الصقلبية بدورها عاملا هاما فى التباعد بين الكنيستين الشرقية والغربية ، حيث كانت ميدانا فسيحا للتنافس بينهما . وهنا لايمكن إنكار ذلك الدور الذى قامت به الكنيسة الأرثوذكسية فى مجال التبشير بين هذه الجماعات الصقلبية ، واتضح التأثير البيزنطى خاصة فى القداسات ، والألحان الكنسية . ونظرا للصلات السياسية والعائلية التى كانت قائمة بين القسطنطينية والكنيسة الهنغارية ، فقد أفاد المجيار من ذلك كثيرا ، وأقيمت الأديرة اليونانية فى هنغاريا ، وكانت تخضع بصفة مباشرة لبطريرك القسطنطينية . ففى كثير من الأحيان كان يتبع العملية التبشيرية الضم الإدارى، وتصبح معظم الهيئة الكهنوتية العليا فى منطقة التبشير من بين رجال الدين البيزنطيين . وقد أفادت هذه الشعوب من الكتابات التى تركها الهاجيوجرافيون عن سير القديسين منذ القرون الأولى للمسيحية . هذا بالإضافة إلى العلوم والآداب ، وبصفة خاصة المنطق الذى كان الأداة الضرورية لمعالجة القضايا اللاهوتية .

وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة قد انتهت بسقوط القسطنطينية ، وإقامة إمبراطورية لاتينية ، وزادت من حمى العداء بين اللاتين واليونان ، إلا أنها كانت فى الوقت ذاته وسيلة للتقارب بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى . فقد وقف الغرب عن كثب على الحضارة البيزنطية الزاهرة ، وتمت بعض الزيجات بين الطرفين ، وأدرك الغرب قيمة ما قدمته بيزنطة لعالم المسيحية من أياد بيضاء فى كثير من نواحى الفكر والفن ، وما قامت به من جهود للحفاظ على العقيدة المسيحية ضد زحف المسلمين من الشرق ، وآريوسية الجرمان ، ووثنية الصقالبة .

وبعد .. ترى ما السر وراء بقاء الإمبراطورية البيزنطية طيلة ما يزيد على ألف ومائة عام ، إذا أدخلنا فى حسابنا العصر البيزنطى المتقدم ، رغم ما تعرضت له الإمبراطورية من هزات عنيفة كادت تعصف بها فى كثير من الأحيان ؟ وهو تساؤل طرح نفسه على كثير من الدارسين، وتعددت فيه الآراء ، خاصة بعد أن استقرت فى أذهان المؤرخين لفترة ليست بالقصيرة نظرية جيبون حول الانهيار الذى لازم الإمبراطورية منذ القرن الثانى . على أنه يمكننا أن نرى عوامل هذا البقاء فى نقاط معينة . وإن كان هذا لايخفى تعددها وتنوعها .

تأتى القسطنطينية فى مقدمة العوامل التى منحت الإمبراطورية هذا العمر المديد ، فقد اختار قسطنطين موقعا استراتيجيا ممتازا فوق أطلال المدينة الإغريقية القديمة بيزنطة ، تحميه المياه من ثلاث جهات : القرن الذهبى من الشمال والبسفور وبحر مرمره من الشرق والجنوب . أما الجهة الغربية فقد أقام فيها سورا . فأضحت «روما الجديدة» بذلك قلعة حصينة ، وازداد هذا السور البرى مناعة على يد خلفائه[٥٤] . ولاشك أن قسطنطين كان نافذ البصر ذكيا . ففى عام ٣٧٨ لقيت الإمبراطورية هزيمة مروعة عند أدريانوبل » خر فيها الإمبراطور فالنز صريعا

---

٥٤- يقول المؤرخ أومان فى حديثه عن مدينة بيزنطة ، التى بنيت القسطنطينية فى موضعها إنه من وجهة النظر الحربية والتجارية على السواء ، لاتستطيع مدينة أخرى أن تفاخرها من ناحية موقعها . وهى تشرف من أقصى نقطة شرقية فى تراقيا ، وتقف أوربا كلها خلفها وآسيا جميعها أمامها . ولذلك فان موقعها جعلها صالحة كل الصلاحية لتكون قلعة الحدود التى تدافع عن حدود الأولى ، أو قاعدة العمليات الحربية للقيام بالغزو من الثانية . وفى تاريخ بيزنطة القديم كله لانجد أنها سقطت بالقوة أبدا . وفى الحالات القليلة التى سقطت فيها كانت المجاعة أو الخيانة هى التى أدت إلى ذلك السقوط. أنظر. الإمبراطورية البيزنطية ، ص٥ .

على يد الفيزيقوط (القوط الغربيين) ، واندفعت هذه الجحافل تخرب تراقيا ولم تفق من نشوة نصرها إلا عندما اصطدمت بأسوار القسطنطينية ، فوقف القوط أمامها عاجزين . وعلى امتداد القرن التالى كانت البلقان تموج بشتى القبائل الجرمانية ، ولكنها تشتهى القسطنطينية، ولكن المدينة وقفت عائقا دون تسرب هذه القبائل إلى الشرق الرومانى .

وكان عام ٦٢٦ يمثل كارثة محققة للإمبراطورية ، فالقوات الرومانية تتقدم باتجاه الأراضى الفارسية عند أرمينيا والفرات ، فى الوقت الذى أحدقت فيه الجيوش الفارسية بالعاصمة حيث عسكرت على الساحل الاسيوى للبسفور بينما راحت جحافل الآفار تطوق العاصمة من الغرب، وقد خلت القسطنطينية إلا من حامية صغيرة . ورغم ذلك فقد تمكنت من رفع حصار الآفار ، بينما راح هرقل يتعامل مع الفرس في الشرق ، فنجت العاصمة من السقوط . وقد تمكنت القسطنطينية من رد الحصار الإسلامى الذى فرض عليها ثلاث مرات [٥٥]. ولم يستطع البلغار أن ينالوا منها شيئا ، بل لقد أصبحت المملكة البلغارية نفسها ولاية بيزنطية فى أوائل القرن الحادى عشر ، وذهبت سدى محاولات النورمان الاستيلاء عليها ، وتبخر مشروع هنرى السادس الإمبراطور الغربى فى القفز إليها .

وفى عام ١٢٠٤ سقطت الإمبراطورية للمرة الأولى فى تاريخها ، أى بعد تسعة قرون إلا قليلا ، بعد إنشائها . وجاء هذا السقوط نتيجة الصراع على العرش فى الداخل ، واستنجاد الكسيوس الرابع بالصليبين لإعادته وأبيه اسحق الثانى الجليوس إلى العرش وما تبع ذلك من فوضى انتهت بمقتلهما . ورغم سقوط القسطنطينية فقد بقيت الإمبراطورية البيزنطية فى نيقية وطرابيزون وابيروس ، إلى أن نجح أباطرة نيقية فى استعادة القسطنطينية ثانية ، لتعيش الإمبراطورية من بعد قرنين تاليين . أما فى عام ١٤٥٣ ، فكانت الإمبراطورية قد هرمت ، ولم يبق منها إلا القسطنطينية فقط ، فقد أحاط بها العثمانيون من الشرق والغرب . ولم تكن الإمبراطورية خلال القرنين الأخيرين من عمرها من الناحيتين السياسية والعسكرية ، إلا ظلا باهتًا للإمبراطورية فى عصورها الزاهرة . ومن ثم كان لابد أن تسقط القسطنطينية بعد أحد عشر قرنًا من الزمان .

---

٥٥- وقع هذا الحصار الإسلامى للقسطنطينية زمن الأمويين ، المرتان الأولى والثانية على عهد معاوية بن أبى سفيان (٦٦٩-٦٧٣م) والثالثة أيام سليمان بن عبد الملك (٧١٧م) . للمزيد من التفاصيل انظر، ابراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون . ص١٦٢-١٦٦ ، ١٧٢-١٧٤ .

وكانت الفوضى التى عمت الإمبراطورية فى النصف الثانى من القرن الثالث قد علمت الأباطرة من بعد أن يبحثو عن أسلوب للحكم يضمن الاستقرار . وكانت آفة النظام السياسى الإمبراطورى آنذاك ، أنه لم يكن هناك نظام ثابت لوراثة العرش ، لأن روما الإمبراطورية - حتى بعد أن فقدت كل سمات الجمهورية - كانت تمقت مسألة الوراثة رغم أنها كانت تعيشها ، ومن ثم كان لابد أن تحدث هذه الفوضى السياسية خاصة بعد أن غلت أيدى السناتو عن التدخل فى اختيار الأباطرة ، وبعد أن أصبحت الفرق العسكرية الرومانية هى صاحبة الحول والطول فى الإمبراطورية . بل ان دقلديانوس نفسه الذى أعاد للمنصب الإمبراطورى هيبته ، بل أضفى عليه نوعا من القداسة ، رفض مبدأ الوراثة فى حكومته الرباعية ، وأقر مبدأ التبنى[٥٦] . ولكن لابد أن تعصف مطامع خلفائه بنظام الحكومة الرباعية ، وأن تكتوى الإمبراطورية بنيران حرب أهلية دامت ثمانية عشر عاما (٣٠٦-٣٢٣) ،أسفرت فى النهاية عن انفراد قسطنطين بحكم الإمبراطورية . ولم يفعل قسطنطين أكثر من أنه جعل الأمر الواقع- أعنى مبدأ وراثة العرش - حقيقة مؤكدة بصورة سافرة ، فأقدم قبل وفاته سنة ٣٣٧ على تقسيم إدارة الحكم فى الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة . قسطنطين الثانى وقسطنطيوس وقنسطانز ، وسار خلفاؤه على سنة سلفهم ، فعرف العرش الإمبراطورى الاستقرار ، بعد أن أصبحت مسألة الوراثة أمر ثابتا ، واعتلى العرش البيزنطى عدد من الأسرات ، توالى أفرادها على كرسيه ، ولم تشهد الامبراطورية منذ عهد قسطنطين الأول فى القرن الرابع حتى قسطنطين الحادى عشر فى القرن الخامس عشر آخر أباطرتها ،حربا أهلية من أجل العرش إلا النذر اليسر ، كان آخرها تلك التى أودت بحياة الإمبراطور قنسطانز سنة ٣٥٠ على يد ماجنتنيوس Mag-nentius الذى نصب نفسه إمبراطورا فى غالة ، وقيام كل من فترانيو Vetranio ونبوتيانوس Nepotianus باعلان نفسيهما إمبراطورين فى الليريا وروما . وقد استمرت الحرب الأهلية ثلاث سنوات حتى تمكن قسطنطيوس من أن يحكم الإمبراطورية منفرداً سنة ٣٥٣ .

وكان الأباطرة يحظون بالولاء الكامل من جانب رعاياهم ، وليس أدل على ذلك من أنه فى أشد الأوقات حرجا ، وعندما يكون الإمبراطور الجالس على العرش ضعيفا واهنا ، كما حدث مثلا فى نهاية الأسرة المقدونية بعد وفاة باسل الثانى ، زمن الإمبراطورة زوى Zoe التى جلبت

---

٥٦- اختار دقلديانوس زميله لحكم الغرب وهو ماكسيميان ، وقيصرين هما جاليريوس وقسطنطيوس ، ورفض أن يعين ماكسنتيوس ابن ماكسيميان ، أو قسطنطين ابن قسطنطيوس قيصرين سنة ٢٩٣ . وأكد هذا الرفض سنة ٣٠٥ عند اعتزاله وزميله ، ووافق على اختيار سفروس وماكسيمين دازا ، اللذين رشحهما جاليريوس . للمزيد من التفاصيل انظر:=

على نفسها بسلوكها سمعة سيئة ، لم يحدث أن أطيح بها تقديراً لما أدته الأسرة المقدونية للإمبراطورية من جلائل الأعمال . ولاشك أن هذا الاستقرار السياسى ، بالإضافة إلى اعتبار الإمبراطور نائبا عن المسيح فى حكم الإمبراطورية ، كان له بطبيعة الحال عند شعب متدين ، آثاره الواضحة التى تجلت فى بقاء الإمبراطورية هذه القرون الطويلة .

ويرتبط بهذا العامل نقطتان هامتان . أولاهما الدبلوماسية البيزنطية الذكية التى تمكنت من تحقيق نجاح منقطع النظير ، فخففت عن الجيش العبء الكبير الذى ناء بحمله ، بل وأفلحت فى أن تقوم بدورها كاملا فى الوقت الذى أخذت قواه العسكرية فيه تترنح من كثرة ماوجه إليها من ضربات ، أما الثانية فهى النظام الإدارى الكفء الذى امتازت به الإمبراطورية البيزنطية . فقد حظيت بادارة مركزية قوية ، يتربع على قمة جهازها الإمبراطور ، ويتبعه جيش كبير من الموظفين فى العاصمة ومختلف الولايات . ورغم ما اعترى هذا الجهاز الادارى من التعقيد ، إلا أنه لم يكن ليفتقد المرونة . ولعل الكتاب الذى وضع فى منتصف القرن العاشر ، بقلم امبراطورى ، دليل واضح على مدى ما يمكن أن تحققه الإدارة الناجحة من خدمات .

ولاشك أن الجيش البيزنطى كان العماد الرئيسى لقوة الإمبراطورية وبقائها ، فالمتتبع لتاريخ الإمبراطورية منذ القرن الرابع ، وحتى سقوطها فى منتصف القرن خامس عشر ، يدرك للوهلة الأولى ، أن الإمبراطورية ظلت فى حرب مستمرة طيلة هذه القرون الأحد عشر . وأنها لاتكاد تتخلص من عدو حتى تبتلى بأعداء جدد ، وتمثل ذلك فى الفرس والمسلمين الأوائل والجرمان والهون والصقالبة والنورمان والسلاجقة والصليبيين والأتراك العثمانيين ، لهذا لم يكن غريبا أن يكتب رنسيمان قائلا «لقد قضت الضرورة على البيزنطيين أن يصوغوا أنفسهم على أسس عسكرية ، وأن يولوا للشئون العسكرية كل التفاتهم وعملهم . وكان ذلك فى صالحهم . ولهذا كانت بيزنطة هى البلد الوحيد طوال العصور الوسطى ، الذى كان يدرس فيه أدوات القتال ووسائل تنظيم الجيش والفنون الاستراتيجية بعناية واتزان» ويضيف نورمان بينز «لايمكن اعتبار بيزنطة وريثا لروما فى شئ بقدر ما يصدق فيما يختص بسياستها العسكرية. لقد بنيت الإمبراطورية وأمنت بفضل كتائبها »[٥٧].

---

=18 . LACTANTIUS . de mort. pers وانظر للمترجم:الدولة والكنيسة، الجزء الثانى، ص٦١-٦٢ .

٥٧- لدينا الكثير من الكتابات العسكرية التى قدمها كتاب متخصصون أو جاءت على أقلام بعض =

والحقيقة أن الجيش البيزنطى كان بمثابة الذراع الطويلة للإمبراطورية ، إذا جاز استخدام هذا التعبير ، تستطيع أن تمدها فى أى وقت وفى أى اتجاه . حقيقة أنها تداولت النصر والهزيمة فى كثير من الأحيان مع جيرانها فى الشرق والغرب والشمال ولكنها كانت قادرة بجيشها على أن تحتفظ بحدودها التى رضيت بها منذ القرن السابع حتى الحادى عشر . ولهذا كانت هزيمتها سنة ١٠٧١ فى منزكرت على يد الأتراك السلاجقة ضربة قاصمة نزلت بها ، لأن الأتراك استولوا على آسيا الصغرى ، فحرموا الامبراطورية بذلك من المصدر الرئيسى الذى تعتمد عليه فى تكوين جيشها . ومن ثم نجد أن الإمبراطورية البيزنطية لم تسترد قوتها العسكرية أبدا بعد هذه الهزيمة ، ولم تعد إلى ما كانت عليه قبلها حتى سقطت فى عام ١٤٥٣ .

وإذا كانت عظمة الإمبراطورية الرومانية القديمة تتجسد فى القانون ، بحيث نجحت فى أن تفرض سلطانها لعدة قرون على مساحة هائلة من الأرض تمتد من الفرات إلى بريطانيا ، ومن الدانوب إلى النوبة ، وتحتوى شعوبا بلغ التفاوت الحضارى بينها حد التضاد ، فمن شعوب ذات حضارات رائعة كالمصريين واليونان ، إلى جماعات ضاربة فى التخلف كالغال والكلت . ومع ذلك فقد جاءت التشريعات الرومانية تتفق وطبائع كل من هؤلاء جميعا . ولهذا كان القانون الرومانى بحق عنوانا صادقا على عظمة الإمبراطورية الرومانية القديمة . ولما كان البيزنطيون ورثة الرومان ، فان جهود أباطرة القسطنطينية التشريعية كانت امتدادا لما تركه أسلافهم . فقد نجح فقهاء القانون البيزنطيون والمشرعون ، فى أن يجعلوا تشريعاتهم تلاحق باستمرار تلك التغيرات التى تعرضت لها الدولة عبر هذه القرون ، وأن تستجيب للعناصر والمؤثرات الجديدة فى الإمبراطورية وفى مقدمتها المسيحية . ولهذا فان أهم سمات القانون فى الإمبراطورية البيزنطية ، المرونة والتكيف ، وهذا أمر يمكن التوصل إليه من دراسة مجموعات القوانين التى صدرت تباعا فى عهود ثيودسيوس الثانى وجوستنيان وليو الثالث وباسل الأول، كما يمكن إدراكه أيضا من المتجددات . وعلى هذا النحو كان القانون عاملا مساعدا على تهيئة الاستقرار السياسى والاجتماعى للإمبراطورية البيزنطية .

---

= المؤرخين المعروفين ، فهناك فيجينوس فى القرن الرابع ، وبروكوبيوس فى القرن السادس والإمبراطور موريس ، وكذلك ليو السادس . انظر : رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص١٥٨ ، ١٥٩ وأيضا بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص١٧١ . وكذلك Vasiliev , op . cit ., pp. 180-181 .

ولاريب أن التزاوج الذى تم بين الدولة والكنيسة فى بواكير القرن الرابع ، كان له أكبر الأثر فى هذه الاستمرارية التى حظيت بها بيزنطة . فقد أفلحت الدولة فى احتواء الكنيسة حتى أصبحت دائرة من دوائرها الحكومية ، وأصبح أسقف القسطنطينية موظفا كبيرا عند الإمبراطور. وإن كان هذا قد كلف الدولة كثيرا ، حيث تمكنت الكنيسة من أن تورطها فى متاهات الجدل العقيدى الذى اتسم به الشرق الرومانى ، ولكن رغم هذا فقد أصبحت الأمور السياسية والكنسية تمثل خطين متوازيين ، إن لم يكن خطا واحدا . وهذه الحقيقة أدركها مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس ، سقراط : عندما ذكر فى تاريخه الكنيسى أنه «من الصعب على أى إنسان أن يرسم خطا فاصلا بين أمور الدنيا وشئون الدين ، فاذا ما اضطربت أمور الدولة ، بدت شئون الكنيسة أشد تعقيدا» . ولهذا يندر أن نجد أسقف القسطنطينية يتخذ موقفا معارضا للإمبراطور ، بل لقد تعاونت الكنيسة فى كل الأمور تقريبا ، حتى العسكرية منها مع الإمبراطور . وهكذا نجت الإمبراطورية البيزنطية مما ابتليت به الإمبراطورية فى الغرب ، فقد دار الصراع سافرا بين البابوية والامبراطورية حول السيادة ، واتخذ هذا الصراع من مشكلة التقليد العلمانى ستارا له ، حتى إذا كانت اتفاقية وورمز سنة ١١٢٢ بين الإمبراطور هنرى الخامس والبابا كالكستوس الثانى Calixtus ، كشف هذا الصراع عن نفسه سافرا ، لمن تكون السيادة ؟ للبابا أم للإمبراطور ؟ وزيفت فى ذلك النظريات ، واستند كل فريق إلى حجج قانونية أو حتى من الكتاب المقدس لتدعيم رأيه . ولقد بلغ الصراع فى بعض مراحله حد المذلة والمهانة للإمبراطورية فى شخص هنرى الرابع الذى جرى إذلاله فى كانوسا سنة ١٠٧٦ على يد البابا جريجورى السابع . وقد ظل هذا الصراع قائما حتى تمكنت البابوية من تحطيم الإمبراطورية فى النهاية سنة ١٢٦٨ .

هكذا عاشت الإمبراطورية البيزنطية طيلة ألف ومائة عام ، بما فيها العصر البيزنطى المتقدم، تحمل تراث عالم اليونان والرومان ، وتحفظ المسيحية الشرقية ، وتهدى فى البلقان وعلى الدانوب خطى الحائرين .

ذلك مبلغى من العلم ، فان أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمن نفسى .

مدينة نصر – القاهرة

أول ديسمبر ١٩٧٦

# العالم البيزنطى

## مقدمـة

كانت بيزنطة اسما للمستعمرة الإغريقية القديمة ، التى اضحت فى زمن تال مدينة قسطنطين ، والكلمة التى ظلت تستخدم طوال عدة قرون للدلالة على ما كان يظن أنه انحلال وتدهور الإمبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى . وقد رفض بيورى J. B. Bury ذلك وفضل أن يتحدث عن «امبراطورية رومانية شرقية»، وآثر تعبير «شرقية» ليفرق بين هذه بعاصمتها القسطنطينية ، والإمبراطورية ، «الغربية» فى العصر الوسيط ، وأبقى على لفظة «رومانية» لاعتقاده أنها ما تزال فى جوهرها الإمبراطورية الرومانية . غير أنه مهما كانت قوة الروابط التى تصلها بماضيها اليونانى - الرومانى ، إلا أنها حققت لنفسها خصائص مميزة ، وأصبح من اللائق استخدام كلمتى «بيزنطى» و «بيزنطة» دون أن يتضمن ذلك أى انتقاص لشأنها . وقد مكننا الدارسون خلال نصف القرن الأخير أو ينيف ، واعتمادا على الأسس التى أرساها رواد القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ومن بينهم دى كانج Du Cange ، من أن ننظر إلى تاريخ وحضارة الإمبراطورية الرومانية الشرقية بصورة أكثر موضوعية ، وأن ندرك بعض منجزاتها الخلاقة ، وأن نقدر مدى ما يدين به لها جيرانها دانيهم والقاصى .

ولقد بدأ المؤرخون يحررون أنفسهم من سحر جيبون Gibbon ورغم أنهم اغتبطوا كثيرا «بالاضمحلال والسقوط» ، إلا أنه قد تحقق لديهم أن قصة الإمبراطورية البيزنطية ليست «غطية» و لا «مملة» ، كما اعتقد جيبون .

وإنى لأعترف بكل الامتنان ، بما أدين به لمؤرخى التاريخ البيزنطى القدامى والمحدثين ، وأخص بالذكر الاستاذ نورمان بينز Norman Baynes الذى يعد هاديًا ملهمًا فى ارتياد عالم روما الشرقية . إليه أهدى هذا الكتاب الصغير بكل التحية والعرفان .

ج . م . هـ

أبريل ١٩٥٧

# الفصل الأول

# تكوين الإمبراطورية البيزنطية

# ٣٢٤ - ٧١٧

١- قسطنطين العظيم وظهور امبراطورية مسيحية

٢- غزوات البرابرة ونجاة نصف الإمبراطورية الشرقي

٣- الإمبراطور جوستنيان والقرن السادس

٤- الصراع من أجل البقاء في القرن السابع : مشاكل الأسرة الهرقلية

# الفصل الأول

# تكوين الإمبراطورية البيزنطية

# ٣٢٤-٧١٧

## ١- قسطنطين العظيم وظهور امبراطورية مسيحية :

فى عام ٣٢٤ وقع اختيار الإمبراطور الرومانى قسطنطين العظيم Constantine the Great على بيزنطة Byzantium المستعمرة الإغريقية القديمة [١]، التى تحتل مثلثا من اليابسة تحيط به مياه القرن الذهبى والبسفور وبحر مرمره ، ليقيم فى مكانها مدينة جديدة تغدو حاضرة الإمبراطورية فى الشرق[٢] . وقد تم الاحتفال بتدشين مدينة قسطنطين وسميا فى

---

١- فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، قام جماعة من اغريق ميجار بالارتحال شرقا ، بحثا عن مكان يقيمون فيه مستعمرة لهم . ولما راحوا يستلهمون وحي الاله أبوللو ، أرشدهم إلى بناء مدينتهم فى المكان المقابل لمدينة العميان . وهو يعنى بذلك تلك المنطقة الواقعة على الشاطئ الأوربى للبسفور ، والمحصورة بين مياه القرن الذهبى والبسفور وبحر مرمره ، ويقصد بالعميان أولئك الإغريق الذين خرجوا قبل ذلك من اليونان ونزلوا على الشاطئ الآسيوى ، وأقاموا مدينة خلقيدونية Chalcedon وعميت أبصارهم عن هذه المنطقة الحصينة . ولما كان قائد هذه الجماعة الميجارية يدعى بيزاس Byzas فقد حملت المدينة اسمه فعرفت بيزنطة . انظر Vasiliev . op . cit., I, p. 57 وأيضا A. V. Millingen, Constantinople . p. 10 وكذلك أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ص٥ المترجم .

٢- لم يكن قسطنطين أول الأباطرة الرومان الذين ولوا روما دبرهم متحرفا إلى الشرق ، فقد سبقه أباطرة القرن الثالث وآخرهم دقلديانوس ، يدفعهم إلى ذلك أن الأخطار التى باتت تتهدد الإمبراطورية ، أصبحت تتركز شمالا عند الدانوب ، وشرقا على الفرات . ومن ثم أصبحت روما بموقعها البعيد على ضفاف التيبر ، عاجزة عن أن تدفع بقواتها بسرعة لإنقاذ أقاليم الحدود ، فى الوقت الذى أضحى الثقل السياسى والاقتصادى للإمبراطورية يتركز فى نصفها الشرقى ، هذا بالإضافة إلى رغبة دقلديانوس وقسطنطين فى الابتعاد عن روما بتقاليدها الجمهورية ، حتى وإن كانت مجرد شبح للماضى . وقد اتخذ دقلديانوس من نيقوميديا Nicomedia فى آسيا الصغرى عاصمة له ، أما قسطنطين فقد راح يقلب النظر فى كثير من المدن ، قبل أن يهديه تفكيره إلى موقع مدينة بيزنطة . ومن بين هذه المدن كانت مدينة نيش Naissus فى صربيا ، وهى مسقط رأس الإمبراطور ، وقلب البلقان ، إلا أنه تخلى عنها بحجة أن خطوط المواصلات إليها عسيرة ، ويقدر=

مايو ٣٣٠ باعتبارها مستقرا له ومقاما وواحدة بين العواصم . ورغم أنه سبق اختيار عدد من المدن فى الشرق لهذا الغرض ، إلا أن هذه المدينة اثبتت على مر الزمن ، بموقعها الجغرافى الممتاز ، أنها واسطة العقد بين أوربا وآسيا ، بين البحر الأسود بهذه الأراضى البكر الفسيحة التى تمتد وراء شطآنه ، والبحرين الإيجى والمتوسط مفتاحى الطرق إلى الشرقين الأوسط والأقصى ، ويحدد تأسيس هذه العاصمة الشرقية ، مستقر الإمبراطورية الأوحد ، الطريق إلى العصور الوسطى ، عندما كانت تمثل النصف الشرقى للإمبراطورية الرومانية الذى حيا دون أن يتعرض لثلمة طوال تاريخه . ولعله ليس جوهريا أن نطلق على فترة التكوين هذه التى بدأها قسطنطين العظيم ، عصرا بيزنطيا مبكرا أو رومانيا متأخرا ، فلم تزل فى جوهرها الإمبراطورية الرومانية. تسودها الثقافة اليونانية وتأثيرات شرقية واضحة .. تلك كانت حقيقة الإمبراطورية الرومانية أيام القديس بولس St Paul وزمن القديس أمبروز St . Ambrose[٣] ومع ذلك

---

قربها من الحدود بقدر بعدها عن البحر . وتراءت له كذلك سرديكا Sardica (حاليا صوفيا عاصمة بلغاريا) وسالونيك Thessalonica . وربما أيضا شرع قسطنطين فى بناء عاصمته على مقربة من طرواده القديمة ، تحت تأثير ما تذكره الأساطير عن انحدار الشعب الرومانى من أصل طراودى . كما أن مدينة نيقوميديا لم تحظ باهتمام قسطنطين ، ولفت نظره ذلك الموقع الممتاز الذى تحتله مدينة بيزنطة الاغريقية القديمة ، فشرع فى بنائها فى عام ٣٢٤ بعد أن أصبح الإمبراطور الأوحد عقب انتصاره على ليكينيوس . وتذكر الروايات أن قسطنطين راح يخط بحربته على الأرض حدود مدينته الجديدة وحاشيته تلهث من حوله ، ولما سألوه متى يتوقف : أجاب . وعلى أن أمضى حتى يتوقف ذلك الذى يسير أمامى ! ولعل هذه القالة التى وردت فى مصادر متأخرة تشير إلى قصة اهتداء قسطنطين إلى المسيحية كما تصورها كتب التاريخ الكنسى . ولم يتوقف قسطنطين إلا بعد أن أدخل فى مدينته التلال السبعة التى تضمها المنطقة الواقعة بين بحر مرمرة والقرن الذهبى . أنظر : أومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص١٤-١٧ وأيضا Millingen , op . cit . p. 18 وكذلك Jones, Later Roman Empire, I, pp. 83-84 وأنظر أيضا SOCRATES, historia Ecclesiastica, I, 16 وكذلك الكتاب الأول من الإنيادة للشاعر الرومانى فرجيليوس والمقدمة التى وضعت لترجمتها ص٤٨ . وتاريخ الرومان تأليف الدكتور ابراهيم نصحى ، الجزء الأول ص٧٧ . وكذلك Boak , op . cit., p. 39 المترجم .

٣- أسقف ميلانو الشهير (٣٧٤-٣٩٧) وأحد أعمدة الكنيسة الغربية ، وله مواقف مشهودة مع الإمبراطور ثيودوسيوس الأول . أنظر Nicene and post Nicene Fathers, vol. X وكذلك Dect. de theol. Cath. art. Amb, vol. I وأيضا E.K. Rand, Founders of the Middle Ages, pp. 69-101 للمزيد من التفاصيل أنظر للمترجم ، الدولة والكنيسة الجزء الرابع (المترجم) .

فان الخلاف بين عالمى بولس الطرسوس وأمبروز الميلانى ، لايكمن فى نسيج البنيان الإمبراطورى ، أوطبيعة الحضارة اليونانية الرومانية ، ولكن فى تغيرين أساسيين : أولهما داخلى ، إذ تمثل الاهتمام المتزايد بالشرق ومذاهبه العقيدية بشكل جلى فى روما الجديدة التى أقيمت على شطآن البسفور ، مدينة أول إمبراطور مسيحى ، والآخر خارجى يتعلق بالأخطار الناجمة عن ضغط الإمبراطورية الفارسية المنافسة ، والتهديد المتزايد للقبائل النازحة من الشمال ، مما أدى إلى اضعاف الموارد الإمبراطورية . وبينما كان الشرق بمنأى عن ذلك ، فان هذه الأخطار قد عرضت النصف الغربى من الإمبراطورية الرومانية للتفسخ السياسى ، وقيام ممالك جديدة مستقلة تحت سيادة الغزاة الجرمان .

ولم تكن معالم ذلك التفكك المرتقب للشطر الغربى من الإمبراطورية الرومانية قد وضحت بعد على عهد قسطنطين العظيم . ولكن الشئ الذى أثار بعضا من دهشة ، هو إقدام الإمبراطور على اتخاذ جانب المسيحية[٤] ، وما تبع ذلك من تسامح ورعاية للكنيسة المسيحية ، ذلك التسامح الذى لن يلبث أن يتحول مع نهاية القرن الرابع إلى الاعتراف بالمسيحية دينا رسميا ، واضطهاد كل العقائد الأخرى . ومع ذلك فان الطقوس الوثنية لم تذهب دفعة واحدة ، ولكنها اثاقلت متباطئة عبر أجيال عديدة ، بل إلى قرون طويلة . وإن كان من العبث أن يدافع المرء عن التسامح ، أو الزعم بأنه يمكن التوصل إلى مثل هذه الحقيقة الواضحة خلال طريق واحد فقط . ومهما تكن طبيعة «التحول» الذى أقدم عليه قسطنطين ، فان اعتقاده فى إله المسيحية وإيمانه بالإرث الرومانى ، دفعاه إلى الاقتناع بأن عليه أن يأخذ زمام المبادرة لإيجاد وحدة عقيدية وتنظيمية داخل الكنيسة المسيحية . ولهذا فقد دعا وترأس

---

٤- أثارت مسيحية قسطنطين وما تزال كثيرا من الجدل والنقاش ، وانقسمت الآراء بين قائل بأن قسطنطين قد اعتنق المسيحية عن اقتناع ويقين ، وهذا الرأى ردده مؤرخو الكنيسة قديما وعلى رأسهم شيخهم يوساب Eusebius أسقف قيسارية فلسطين وتابعهم فى ذلك عدد من الدارسين المحدثين . والرأى الآخر يرفض هذا ويذكر أن قسطنطين كان سياسيا أريبا عرف كيف يستغل الأوضاع التى ترددت فيها المسيحية فى أوائل القرن الرابع لتحقيق مآربه السياسية فى وحدة الإمبراطورية وخضوع الجميع لسلطانه ، وفى مقدمة هؤلاء بوركهارت J. Burckhardt الذى يصفه بأنه رجل «لادينى» . عن مسيحية قسطنطين والآراء التى دارت حولها أنظر للمترجم . الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى . الفصل الثالث . المترجم .

أول مجمع مسكوني عرفته الكنيسة في مدينة نيقية(*) Nicaea سنة ٣٢٥ . وعلى هذا النحو

---

٥- في سنة ٣١٨ جهر آريوس أحد قساوسة الأسكندرية بآرائه في الأقنوم الثاني في الثالوث ، المسيح . وخلاصتها أن الآب هو الإله الحق في مقابل الابن الذي ليس إلها حقا ، فهما يتعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق ، ومن ثم فليس هناك إلهان لامتناهيان ، والابن ليس غير مولود وليس جزء من غير المولود ولايستمد كيانه من مادة . والله لم يكن دوما آبا ، لأنه كان حيدا ، ولم يكن اللوجوس قد وجد بعد ، ثم أراد الله أن يخلق موجودا معينا أسماه اللوجوس ، الحكمة . الابن حتى يمكن أن يخلقنا بواسطته . ولهذا توجد حكمتان : حكمة خاصة بالله وأخرى يشارك فيها الابن . كما أن في الله لوجوس أخرى غير الابن ، وقد سمى الابن باللوجوس تكريما . ولله قوة طبيعية ليس كمثلها شئ سرمدية . أما المسيح فهو ليس القوة الحقيقية لله ، وإنما هو احدى هذه القوى ، وفي علاقته بالمخلوقات خالق ، أما علاقته بالآب فهو مخلوق ، وآلة الخلق وأداة . والآريوسيون في ذلك يتصورون مسافة شاسعة بين الله والمخلوقات ، الأمر الذي يلزم منه أن الخلق المباشر محال . ومعرفة الابن بالله معرفة غير كاملة ، وذلك لأن الآب غير منظور للابن، فالابن لايتأمل ولايعرف تماما الآب . وما يراه الابن وما يعرفه فانما يعرفه بالنسبة لقواه ، إن الابن لايعرف حتى طبيعته هو . وقد رفض اسكندر أسقف الأسكندرية هذه الآراء . وعقد مجمعين في سنتى ٣١٩ و ٣٢١ أدان فيهما أريوس وآراءه . وقد انتشرت الأفكار الآريوسية في فلسطين وسوريا ، ولقيت هناك رواجا وتشجيعا خاصة من يوساب أسقف نيقوميديا ، الذي كان زميلا لأريوس في المدرسة الأنطاكية . وكان طبيعيا أن تسود العقيدة الآريوسية هناك حيث كانت مدرسة أنطاكية تتبع المنهاج الأرسطي العقلي في تفسير الكتاب المقدس ، رغم أن الفكرة الآريوسية تقترب من الفكر الأفلاطوني . ولما أصبح قسطنطين حاكم الإمبراطورية الفرد ، أرسل مستشاره الديني هوسيوس Hosius أسقف قرطبة إلى الأسكندرية لحل هذا الخلاف ، وحمله رسالة إلى اسكندر وآريوس تفصح عن مدى سطحية قسطنطين في الأمور اللاهوتية . وقد فشل هوسيوس في مهمته ، فدعا الإمبراطور إلى عقد مجمع عام يضم أساقفة الإمبراطورية ليكون قراره ملزما لجميع الأطراف، مستفيدا في ذلك بتجربته مع الدوناتيين في شمال أفريقيا . وكان هذا المجمع هو أول مجمع مسكوني عرفته الكنيسة ، حضره حوالي ٣١٨ أسقفا يمثلون كنائس الإمبراطورية ، وأصدر المجمع قراره في النهاية ، بعد مناقشات طويلة ، بادانة الآريوسية ، وجاء في مرسوم الإيمان الصادر عنه أن الابن «مساو للآب في الجوهر» أو ما عرف بالهوموسية Homoousius وأنه «مولود غير مخلوق» ، وأصبح هذا المرسوم هو قاعدة الإيمان الأرثوذكسي للكنيسة الجامعة فيما بعد وإن كان مصطلح الهوموسية قد فتح باب الجدل اللاهوتي على مصراعيه بعد ذلك .

أنظر EVSEB . vita Const. II. 61, 65-66, 69, III, 6-8, 10-13 .

وكذلك SOCRAT hist . eccl . I. 5 . 7-8, 10-13 .

جسد قسطنطين التفاهم بين الكنيسة والدولة الذي يميز الإمبراطورية الرومانية في العصور الوسطى . ولقد وضع مؤرخه الأسقف يوساب[٦] Eusebius أسس نظرية السيادة المسيحية ، مؤكدا لا على الاختلاف القائم بين المدينتين ، أو ما هو لله وما هو لقيصر ، ولكن على الإمبراطورية المسيحية باعتبارها حقا زمنية ، وإن كانت في الوقت ذاته مقدسة لكونها أداة إلهية ، يحكمها إمبراطور يعد نائبا للمسيح على الأرض . ومن ثم فان لقبي «الحواري الثالث عشر » أو «قرين الرسل» يعبران بصدق عن مكانة قسطنطين العظيم في دولة العصور الوسطى .

---

= و SOZOM . hist. eccl. I, 15 - 17 , 19 , 24 , 26 .

و THEOD. hist . eccl. I, 3 -5, 7, 11 .

و ATHANAS. depos. Ar., hist. Arian . 66 , de decr . II, 3 , III, 6 .

وراجع Dict. theol. Cath. 1. 2 , col. 1784-86 .

وأيضا A dictionary of Christian biography, art. Arianism .

وكذلك Duchesne, histoire ancienne de l'eglise, II, p. 144 .

و Hefele, op . cit., pp. 231-349 .

وللمترجم : الدولة والكنيسة ، الجزء الثاني الفصل الخامس «المترجم» .

٦- أسقف قيسارية فلسطين (حوالي ٣١٣-٣٤٠) ، كان تلميذا لبامفيليوس Pamphilius أشهر شيوخ كنيسة قيسارية في نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع ، شديد التعلق به ، حتى غلب عليه اسم أستاذه . شهد بعيني رأسه فترتين من أهم الفترات في تاريخ الكنيسة ، مرحلة الاضطهاد الأعظم ، ثم ميل الدولة إلى المسيحية زمن قسطنطين ، وأعرب عن سعادته بهذا التزاوج بين الدولة والكنيسة في أوائل القرن الرابع ، وضع كتابين هما . تاريخ الكنيسة Historia Ecclesiatica تناول فيه أحداثها منذ المسيح حتى موقعة خريسوبوليس Chrysopolis سنة ٣٢٣ التي انتصر فيها قسطنطين على منافسه ليكينيوس وامتدح في نهايته الإمبراطور ، وهلل لهذا النصر الذي حسبه انتصارا للكنيسة المسيحية . أما الكتاب الثاني وهو «حياة قسطنطين» Vita Constantini فيعتبر قصيدة نظمها في مدح الإمبراطور ، وذكر ذلك بنفسه في مقدمة الكتاب حيث أعلن أنه سوف يحدث فقط عن فضائل الإمبراطور ، ورفع قسطنطين بهذا الكتاب إلى عليين حتى بلغ مصاف الحواريين . ولما كان يمثل جانب الاعتدال إبان احتدام الجدل الآريوسي، فقد كان من أخلص =

ولم تشهد الإمبراطورية خلال القرن الرابع أي تغير مفاجئ في كثير من النواحي إبان هذه الفترة المبكرة ، وربما كان من المناسب أن نطلق عليها عصرا رومانيا متأخرا أو بيزنطيا متقدما . فقد أظهرت ارتباطها الثقافي الكامل بالعالم الهلنستي ، ولم يعن اتخاذ جانب المسيحية نبذ الحضارة الوثنية ، إذ ظل التعليم والفن والفلسفة اليونانية أشياء تزهو بها بيزنطة المسيحية . وكانت حكومتها في جوهرها هي نفسها حكومة الإمبراطورية اليونانية - الرومانية ، حيث استمرت تحكم بواسطة حاكم فرد تزداد سلطته نتيجة لمركزه الخاص ، باعتباره الممثل المختار لإله المسيحية . أما الخدمات الإدارية والمدنية فكانت ثمرة تجربة طويلة ، وقد تعرضت لحركة تجديد شاملة على يد دقلديانوس Diocletian وقسطنطين ، هيأت الجهاز الحكومي كي يصبح قاعدة التطوير المقبل ، وضمنت في الوقت ذاته استمرارية السلطة المركزية وفعاليتها . ولاشك أن الامتداد الواسع للإمبراطورية جعل من الضروري توجيه اهتمام خاص إلى التنظيمات الإقليمية ، ومن ثم فانه مع نهاية القرن الرابع كان هناك أربعة أقاليم : إقليم الشرق (ويضم مصر وسوريا وآسيا الصغرى وتراقيا) ، والليريا Illyricum (ويشمل وسط البلقان وبلاد اليونان) والإقليم الإيطالي (ويحتوى على إيطاليا وشمال البلقان ودلماشيا Dal-matia وجزء من أفريقيا) ، وإقليم الغال (ويتكون من بريطانيا وغالة وإسبانيا وغربي موريتانيا ) . وكانت هذه المساحات الشاسعة تنقسم في داخلها إلى ولايات عديدة تنقسم بدورها إلى مقاطعات . ولم يعد لإيطاليا أي مركز تنفرد به . وحددت سلطات الولاة

---

= أصدقاء الإمبراطور ، خاصة بعد أن رفض ترسيمه أسقفا لأنطاكية خلفا ليوستاثيوس Eustathius الذي عزله اليوسابيون حتى لايساعد على إشعال نيران الفتنة في أنطاكية . أنظر المقدمة الرائعة التي كتبها Mc Giffert عن يوساب في المجلد الأول من Nicene and post Nicene Fathers وكذلك ما كتبه Rich-ardson عنه أيضا في نفس المجموعة عند تقديمه لكتاب «حياة قسطنطين» .

وراجع Dict . theol. Cath, art. Eusb .

وأيضا Vasiliev , op . cit ..p. 119

وكذلك Burckhardt, The age of Constantine the Great , pp. 260-261 .

Latourette, A history of Christianity, pp. 154-155 .

وأنظر للمترجم الجزء الأول من الدولة والكنيسة (المترجم) .

البريتوريين فى أضيق نطاق ، وانحصرت منذ عهد قسطنطين على الناحية المدنية فقط ، وكفت أيديهم عن إدارة القسطنطينية وروما ، ووكل أمر كل منهما إلى الحاكم المدنى eparchos . أما سلطانهم على دوائر الحكومة المركزية فقد قيد بظهور طبقة الموظفين المنافسين وعلى رأسهم كبير الموظفين Master of Offices ولم يكن تضاؤل سلطة الولاة البريتوريين إلا مظهرا واحدا فقط من مظاهر التغيير والتكيف المستمر لنظام الإدارة الرومانى ، وليس أدل على هذا من أن الناحية العسكرية شهدت هى الأخرى عملية إعادة تنظيم وتعديلات مشابهة ، فقد تم فصل السلطتين المدنية والعسكرية فى الولايات ، بحيث أصبح القائد Dux يتمتع بالسلطة العسكرية وحدها ، وإن كان ممكنا أن تمتد سيادته لتشمل عدداً من الولايات . وقد أدى ذلك إلى ازدياد قوة الإمبراطورية من ناحية عن طريق تقوية وسائلها الدفاعية على الحدود ، خاصة تلك القوات التى كانت تقيم فى هذه المناطق وتحصل غالبا على الأراضى مقابل الخدمة العسكرية ، ومن الأخرى بتكوين قوة متنقلة يمكن أن يدفع بها ضد الغزاة فى أى منطقة على الحدود الطويلة للإمبراطورية ، أو تستخدم إذا دعت الضرورة لإخماد أية فتنة يثيرها مدع للعرش .

وكانت الناحية العسكرية فى حقيقة الأمر تمثل المسألة الأساسية بالنسبة للدولة البيزنطية فى أول أمرها ، فالجيش الذى كان أفراده وقواده من العناصر الجرمانية ، طالما تم استدعاؤه ليصد زحوف البرابرة فى الشمال ، أو ليواجه الضغط العنيف الواقع على الشرق من جانب ملك الملوك الفارسى . ويبدو أن تزايد الأخطار على الدانوب والجبهة الشرقية ، كان من بين العوامل التى دفعت قسطنطين (ومن قبله دقلديانوس) إلى اختيار النصف الشرقى من الإمبراطورية لنفسه ، وترك الغرب تحت سيادة زميله[٧] فقد كان الشرق آنذاك يعتبر مركز الثقل فى الإمبراطورية ، حيث كان الشطر الشرقى Pars orientalis أكثر ثراء بموارده الاقتصادية وكثافته السكانية ، وموطن النشاط الثقافى والعقيدى الخصب يزخر بمدنه الكبيرة شأن المدينتين العالميتين ، الأسكندرية وأنطاكية ، بل وحتى هذه المدينة الإمبراطورية الجديدة على البسفور ، التى نمت نموا سريعا بحيث أضحت تنافس روما .

---

٧- كان هذا النوع من «الإمبراطور الشريك» أمراً عادياً . انظر بعده .

## ٢- غزوات البرابرة ونجاة نصف الإمبراطورية الشرقى :

شهدت الإمبراطورية خلال الفترة الأخيرة من القرن الثالث وطوال القرن الرابع ، عددا من أنظمة الحكم المختلفة ، التى تتأرجح ما بين السيادة المطلقة لإمبراطور فرد إلى حكومة رباعية[٨] أكثر إتقانا ابتدعها دقلديانوس ، ورغم أنه كان هناك إمبراطور شريك أو أكثر ، إلا أن الذى لاشك فيه هو أن الإمبراطورية بقيت واحدة دون انقسام ، ومع ذلك فان كلا من شطرى الإمبراطورية الشرقى والغربى ، أخذ يختط لنفسه طريقا مغايرا ، لكل منهما مشاكله السياسية الخاصة .

وفى عام ٣٩٥ حضرت الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم Theodosius the Great الوفاة ، فترك حكم النصف الشرقى لابنه الأكبر أركاديوس Arcadius بينما آل نصفها الغربى إلى ولده الصغير هونوريوس Honorius مع بقاء وحدة الإمبراطورية قائمة ، يدل على ذلك أن القوانين التى كانت تصدر فى أحد شطرى الإمبراطورية ، كانت لها شرعيتها عند إذاعتها فى النصف الآخر . غير أن الأحداث السياسية أدت إلى تحطيم الحكم الرومانى فى الغرب ، ذلك أنه منذ نهاية القرن الرابع وحتى عهد جوستنيان Justinian فى منتصف القرن السادس افتقد الغرب (أعنى ولايتى إيطاليا وغالة) الأباطرة المقتدرين ، ولم يكن من سبيل لتفادى الانحلال

---

٨- اعتلى دقلديانوس عرش الإمبراطورية سنة ٢٨٤ ، وأدرك أنه لايمكنه وحده إدارة دفة الحكم فى الإمبراطورية الواسعة منفردا ، فاختار زميله ماكسيميان Maximianus وخلع عليه مرتبة الأوغسطية وجعله امبراطورا شريكا فى حكم الإمبراطورية ، وعهد إليه إدارة النصف الغربى . وإزاء الثورات التى اندلعت فى الإمبراطورية فقد عين مساعدين آخرين حمل كل منهما لقب قيصر ، جاليريوس Galerius فى الشرق وقسطنطيوس Constantius فى الغرب . ولما كانت آفة النظام السياسى فى القرن الثالث هى تدخل الجيش فى السياسة ، مما أدى إلى اعتلاء ستة وعشرين امبراطورا العرش فى مدى نصف قرن (٢٣٥-٢٨٤) قتلوا جميعا عدا أحدهم ، فقد عمد دقلديانوس إلى الإفادة من نظام الحكومة الرباعية Tetrarchia هذا لضمان الاستقرار السياسى ، حيث يعتلى القيصران إلى مرتبة الأوغسطية بعد وفاة الأوغسطين أو اعتزالهما ، ويتم اختيار قيصرين جديدين لهما وهكذا . ولكن هذا النظام فشل بعد اعتزال دقلديانوس مباشرة . للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع للمترجم : الدولة والكنيسة - الجزء الثانى - الفصل الثانى .

في مواجهة ضغط البرابرة إلا بقدرة هؤلاء القادة الذين استولوا على مقاليد الأمور هناك ، وكانوا هم أنفسهم ينتمون في الغالب لأصول جرمانية مثل ستليكو Stilicho وريكيمار[٩] Ricimer .

وكانت القبائل الجرمانية المهاجرة مصدر قلق بالغ للإمبراطورية لفترة طويلة ، ولن يمضي وقت طويل حتى تصبح لهم السيادة على ولايات الامبراطورية في الغرب من بريطانيا القصية إلى إيطاليا وشمال أفريقيا . ولايعني هذا أن الشرق قد سلم من الأذى ، فقرب نهاية القرن الرابع هطل القوط ، الذين طالما تاكدوا أقاليم الحدود ، على البلقان وأوقعوا بالجيش الإمبراطوري هزيمة ساحقة في سنة ٣٧٨[١٠]، وتبع ذلك استقرار عدد كبير من القوط في

٩- ستليكو هو أحد القادة الجرمان الذين ذاع صيتهم في النصف الغربي من الإمبراطورية ، جمع بين الشجاعة والطموح والذكاء والكفاءة ، تولى الوصاية على الإمبراطور هونوريوس عام ٣٩٥ ، وقد نجح في التصدي لهجمات القوط الغربيين على روما أكثر من مرة في بواكير القرن الخامس ولم يتمكن الريك من اجتياحها والاستيلاء عليها ، إلا في سنة ٤١٠ بعد أن تم اعدام ستليكو عام ٤٠٧ على يد هونوريوس بتهمة الخيانة . أما ريكيمار فقد كان أيضا أحد قادة الجرمان ، ينتمي لقبائل السويفي ، انتهز فرصة الفوضى التي أعقبت مقتل فالنتيبان الثالث Valentinian III سنة ٤٥٥ وراح يولي الأباطرة ويعزلهم بمحض ارادته حتى عام ٤٧٢ . ولم يكن ينقصه فقط إلا حمل اللقب الإمبراطوري .

أنظر C. M. H. I, pp. 260 , 262 , 265 , 269 sqq. 310, 424

وأيضا Thompson and Johnson , op . cit., pp. 90 , 92 , 100 (المترجم) .

١٠- في سنة ٣٧٦ سمح امبراطور القسطنطينية فالنز Valens لقبائل الفيزيقوط بعبور نهر الدانوب والاستقرار في البلقان ، هربًا من زحف الهون الآسيويين ، وكان الإمبراطور يهدف من وراء ذلك إلى تعمير الأراضي القاحلة في البلقان ، وإلى أن يجعل منهم سدا منيعا أمام الهون إذا ما فكروا في عبور الدانوب . لكن الإمبراطور لم يضع في اعتباره توفير الاحتياجات الضرورية التي يتطلبها هذا العدد الهائل من النازحين. وعلى امتداد سنتين قاسى القوط الغربيون من سوء معاملة موظفي الإمبراطور الذين استغلوا المجاعة التي كان يعاني منها القوط وباعوهم لحوم الكلاب الميتة والقطط ، ثم باعوا القوط أنفسهم في الأقاليم ، مما أدى إلى إشعال نيران التمرد بينهم ، على أثر المذبحة التي أوقعها لوبكينوس القائد العسكري في تراقيا بحامية قوطية ، مما أدى إلى وقوع الصدام بين جيش الإمبراطورية والقوط الغربيين عند أدريانوبل Adrianopolis (حاليا أدرنة) في تراقيا ، ودارت الدائرة على الرومان ولقى فالنز مصرعه . وكان لهذه الموقعة نتائجها البعيدة في علاقة الإمبراطورية بالجرمان .

البلقان حيث تم الاعتراف بهما كقوة عسكرية احتياطية (معاهدين Feoderati ) . ولكن هذا الإجراء أرهق الإمبراطورية من أمرها عسرا ، فقد أثبتت هذه الجماعات أنها مبعث إزعاج (للإمبراطورية) ، إذ نهبوا البلقان وسلبوا بلاد اليونان أنى شاءوا ، وكان لهذه الأحداث آثارها السياسية البعيدة ، حيث لم تستطع حكومة القسطنطينية أن تتنفس الصعداء إلا عندما أمكن تحويل أنظارهم إلى منطقة أخرى ، فبعد أن نهب القوط الغربيون Visigoths روما سنة ٤١٠ [١١] ، انسابوا إلى جنوب فرنسا وأسبانيا . على حين أفلح الإمبراطور زينون Zeno في

---

أنظر . Jones, Later Roman Empire, I, pp. 152-4

وأيضا : أومان : الإمبراطورية البيزنطية . ص٢٨-٣٤ .

وكذلك . Thompson & Johnsen , op . cit ., pp. 89-90

و Davis , op . cit ., pp. 22-23 وراجع الكتابين الأخيرين من Res Gestae الذي وضعه المؤرخ الوثني المعاصر أميانوس ماركللينوس Ammianus Marcellinus ووقف في نهايته عند هذه المعركة ومقتل الإمبراطور فالنز . المترجم .

١١- كان لاستيلاء الاريك زعيم الفيزيقوط على روما سنة ٤١٠ ردود فعل واسعة متباينة في مختلف الأوساط ، فالوثنيون ألقوا تهمة هذا السقوط على المسيحية ، وأعلنوا أن الأرباب الرومانية القديمة هي التي قادت خطى الرومان إلى النصر عندما كانوا يتمسكون بعبادتها ، فلما هجروها - أو على الأقل بعضهم - إلى المسيحية غضبت الأرباب وتخلت عن روما إبان محنتها . وقد انبرى القديس أوغسطين Augustinus أسقف بونة Hippo في شمال أفريقيا ، للرد على هذه الاتهامات والدفاع عن المسيحية ، فوضع كتابه الشهير «مدينة الله» De Civitate Dei الذي تناول فيه هذه الاتهامات الوثنية وفندها ورد عليها بحجج مقابلة ، وانتهى إلى أن المدينة كان لابد أن تسقط ، لأن الله أراد ذلك ، لأنها لم تقم منذ البدء على فكرة العدالة ، هذه الفكرة تجد تجسيدا لها في «مدينة الله» ، وهي ليست الكنيسة أو البابوية كما اعتقد الكثيرون في القرون التالية ، ولكنها موجودة في النفس الإنسانية المؤمنة ، واعتبر هذه الحياة الأرضية مجرد رحلة حج بين الأشرار ، تجربة يخوضها المؤمن الحق للوقوف على مدى صلاحيته لمدينة الله ، لحظة عابرة في اللانهائي .

أنظر St. Augustine, The city of God, trans. by Marcus dods

وراجع المقدمة التي كتبها المترجم ماركوس دودس ،

وأيضا . Davis, op . cit., pp. 38-42

وكذلك Hughes , A history of the church, pp. 23-24

وقت متأخر من القرن الخامس ، فى أن يبعث بأعداد غفيرة منهم إلى إيطاليا ، فجاؤها رجالا ونساء وأطفالا فى عام ٤٨٨ يقود جمعهم ثيودوريك Theodoric القوطى الشرقى[١٢] .

ومع نهاية القرن الخامس أمست إيطاليا ، شأن معظم ولايات الغرب . وقد ضاعت من الإمبراطورية . وكانت سلطة الأباطرة الرومان . خلفاء ثيودوسيوس العظيم ، قد انتقلت إلى أيدى القادة الجرمان ، وأصبحت سيادة شبه الجزيرة فى قبضة أودواكر Odoacer . ومع ذلك فقد تمكن ثيودوريك زعيم القوط الشرقيين Ostrogoths من تثبيت نفوذه فى إيطاليا ، لابوصفه إمبراطورا ، ولاحتي حاكما مستقلا مثل معاصره كلوفيس Clovis ، ولكن باعتباره ممثل الإمبراطور الرومانى فى القسطنطينية . وقد سار ثيودوريك فى رعيته سيرة حسنة حتى أصبح جديرا بأن يطلق عليه «امبراطور صالح» ، كما جرى ذلك على قلم معاصره الأصغر فى القرن السادس بروكوبيوس Procopius .

وبينما أمسى الغرب بين يدى هؤلاء المستوطنين الجدد ، كان الشرق أسعد حظا بكثير ، ذلك أن العهد الزاهر لثيودوسيوس الثانى Theodosius II (٤٠٨-٤٥٠) بما شهده من عناية بالتعليم وإنشاء الجامعة ، وإدارة ذائعة الصيت ، واتساع لحدود المدينة ، وإقامة للأسوار الحصينة الضخمة التى تحمى القسطنطينية من ناحية البر ، يقابله ذلك القدر التعس للشقيقة القديمة روما .

غير أن الشطر الشرقى كانت له هو الآخر مشاكله ، فمع أنه فى نهاية القرن الخامس سوف تتمكن العناصر الجرمانية ، التى كانت قد دخلت الإمبراطورية فى شئ من القوة مستوطنين

---

و C. M. H. I, pp. 170, 173, 575 sqq. وراجع الدراسة الخاصة التى قدمها الدكتور اسحق عبيد عن «مدينة الله» فى كتابه : الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص١٣٩-١٥٢ .

وأيضا Rand . Founders of the Middle Ages, pp. 266-272

و D. Knowles, The eveolution of Medieval thought, pp. 32-50

وأنظر كذلك F. Copleston, A History of Philosophy, vol. II Mediaeval Philosophy, part I, pp. 102-105 .

وأيضا G. Leff, Medieval thought, p. 41 المترجم .

١٢- أنظر قبله حاشية رقم ٥٣ ص٥٨ . المترجم .

وجنودا ، من السيطرة على الحكومة الإمبراطورية نفسها ، كما حدث من قبل في روما ، إلا أن أعدادا كبيرة منهم صرفت ثانية تلقاء الغرب ، ولكن الأهم من ذلك ، أن الشرق استطاع أن يعتمد على أهله في نجود آسيا الصغرى كي يجعل منهم جندا وقادة تمكنوا بنجاح من التصدى للجرماني أسبار[١٣] Aspar وأتباعه . وبرهنت آسيا الصغرى آنذاك ، كما أثبتت أيضا فيما بعد ، أنها عضد الإمبراطورية .

أما الأخطار الحقيقية التي عانى منها الشرق فكانت ذات طبيعة مغايرة ، إذ أن الإمبراطورية الساسانية كانت ترتكز في قوتها على امتدادها ناحية الشرق . وقد راحت القوتان تتطلعان بعين ملؤها الشره إلى منطقة القوقاز الاستراتيجية . وتناوران من أجل

---

١٣- كانت معركة أدريانوبل سنة ٣٧٨ فاتحة عهد جديد في العلاقة بين الإمبراطورية والجرمان ، فقد تحولوا من جند مرتزقة إلى معاهدين ، وارتقوا في سلك المناصب العسكرية حتى احتلوا مراكز القيادة ، وساعد على ذلك السياسة التي اتبعها ثيودوسيوس الأول - كارها - بالاعتماد عليهم في تكوين الجيش ، وخلا العرش من شخصية قوية في الشرق والغرب على السواء بعد وفاته ، فازداد نفوذهم في العاصمة بدرجة كبيرة متمثلا في جايناس Gaines زمن أركاديوس ، وأسبار الذي كان السبب المباشر في اعتلاء كل من مارقيان Marcianus (٤٥٠-٤٥٧)وليو الأول (٤٥٧-٤٧٤) عرش الإمبراطورية ، وراح يباشر سلطات واسعة ، وكف أيدى ليو عن ممارسة سلطاته . وكان ابنه أردابور Ardabutius قائداً لجيش الشرق ، بينما كان ابنه الثاني باتريكيوس Patricus يحمل لقب قيصر وزوجا لابنة ليو . وقد انتهز ليو الأول فرصة ازدياد العداء من جانب الرومان في العاصمة تجاه الجرمان ، وموجة السخط التي علت نتيجة فشل الحملة العسكرية التي وجهت ضد الوندال سنة ٤٦٨ ، وأفاد من المساعدة التي قدمها له الايزوريون في آسيا الصغرى تحت زعامة تراسيكوديسا Trasicodissa ، الذي أصبح الإمبراطور زينون Zeno فيما بعد ، ووجهت إلى أسبار وأبنائه تهمة الخيانة ، وتمت مباغتة أسبار وقتله هو وابنه أرادبور ، وجرح باتريكيوس الذي أبقى على حياته بعد أن جرد من كل سلطاته ، أما الابن الثالث هرمانريش Ermanerich فقد نجا بنفسه هاربا ، وقد فشلت كل المحاولات التي بذلها أنصار أسبار لاستعادة نفوذ الجرمان في العاصمة ثانية .

انظر Jones, Later Roman Empire, I, pp. 221-223

ولنفس المؤلف The decline of the Ancient World, pp. 127-133

وكذلك C. M. H. vol. I, pp. 395, 467- 471

وأيضا Vasiliev , op . cit ., I, p. 104 . المترجم .

الحصول على حليف فى هذه الأقاليم ، وسعت كل منهما لتدعى لنفسها قدرا من السيادة على المناطق الصحراوية المتاخمة للولايات الرومانية فى سوريا وفلسطين ومصر ، ورغم أن العلاقات بين الفرس والرومان على الجبهة الشرقية قد اتسمت بطابع التيقظ الحذر والنزاع المستمر ، إلا أن الفرس كانوا يمثلون للرومان خصما يختلف تماما عن أولئك البرابرة الذين أغرقوا الإمبراطورية بسيل طوفانهم العرم . فقد كان الفرس أصحاب تقاليد مرعية وحضارة تقابل حضارة العالم اليونانى - الرومانى ، حتى أنه كان فى مقدور المؤرخ الرومانى ثيوفيلاكت «القط الأفطس»(١٤) Thephylact Simocattes أن يكتب فى نهاية القرن السادس قائلا : «منذ البدء قضت العناية الإلهية أن تزدان الدنيا بعينين وضاءتين ، مملكة الرومان القوية القادرة ، وصولجان الحكمة فى الدولة الفارسية » .

لكن أخطار السخط الهادر فى الولايات الشرقية كانت تفوق بكثير المطامع العسكرية لدى الإمبراطورية الفارسية ، وكان الاستياء المتزايد تجاه الحكم الرومانى يلاحظ بوضوح فى سوريا وفلسطين ومصر ويعود فى جوهره إلى ظهور الشعور المحلى بالانتماء إلى طرائق الحياة الشرقية ، وليس الغربية أو اليونانية - الرومانية . وقد تبدت هذه الانفصالية فى عدد من المظاهر مثل الاهتمام باللغات والآداب الوطنية التى ظهرت جنبا إلى جانب اللغة الوطنية ، تستخدم على نطاق واسع فى الحياة اليومية ، وغالبا ما كانت اللغة الوحيدة المفهومة أو المقروءة . وفى الأديرة الكبيرة حيث نجد الرهبان يتحدثون القبطية واليونانية، وحيث كان من المتوقع قدوم عديد من الزائرين من عالم البحر المتوسط، كان من الضرورى وجود المترجمين،

---

١٤- يعتبر من أشهر مؤرخى الفترة البيزنطية الأولى ، وهو ينتمى لأصل مصرى ، عاش فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع ، وشغل وظيفة أمين البلاط . وقد خلف لنا كتابات فى التاريخ الطبيعى ، ومجموعة من الرسائل ، ثم وضع تاريخا لعهد موريس (٥٨٢-٦٠٢) ويتميز أسلوبه باستخدام البديع بشكل واضح ، ويتفوق على بروكوبيوس وأحيانا فى الكتابة ، بما يفاجئ به القارئ من ومضات لايتوقعها من الخيال والمجاز والمأثورات والأساطير . وهو يمدنا فى كتابه عن موريس بمعلومات وافية عن فارس وعن الصقالبة فى البلقان فى أواخر القرن السادس .

أنظر . Jones , Later Roman Empire, I, p. 303 , ii, 1010

أيضا Vasiliev, op . cit ., I, pp. 181-182 . المترجم .

ولقد انعكست بشكل حاد كل هذه الاختلافات اللغوية والتنافر السياسى فى المشاكل الدينية منذ القرن الرابع وما تلاه من زمان . وكان المجمع المسكونى الأول قد دعى للانعقاد فى سنة ٣٢٥ على يد قسطنطين العظيم ، لمناقشة وإقرار مشاكل العقيدة ومسائل التنظيم الكنسى - ورغم أن هذا النظام المجمعى لم يكن السبيل الوحيد لحسم المشاكل الكنسية ، إلا أنه اتبع على نطاق واسع خلال العصور الوسطى . وكانت الكنيسة المسيحية قد بلغت درجة متقدمة فى النواحى التنظيمية ، عندما حصلت على اعتراف امبراطورى بها سنة ٣١٣ ، وقام بالدور القيادى فى هذا السبيل أساقفة الكراسى الكبرى فى روما وأنطاكية والأسكندرية ، وسرعان ما ضمنت القسطنطينية لنفسها خلال القرن الرابع مركزاً مرموقًا ، ورغم أنه فى المجمع المسكونى الذى عقد فى القسطنطينية عام ٣٨١ ، وقرينه الذى التأم جمعه فى خلقيدونية Chalcedon سنة ٤٥١ ، تم التأكيد على أن كرسى القديس بطرس له الأسبقية فى المكانة على بقية الكنائس . إلا أن القسطنطينية حققت على نحو سريع تقدما كبيرا فى المرتبة والأهمية ، حتى أنها أزاحت الأسكندرية وأنطاكية ، واحتلت الآن المركز الثانى[١٥] «وأصبح لأسقف القسطنطينية التقدمة

---

١٥- كان من بين القوانين الخاصة بالتنظيم الكنسى التى صدرت عن مجمع نيقية (المسكونى الأول) سنة ٣٢٥، القانون السادس ونصه «يتمتع أسقف الأسكندرية بحق الإشراف على ، ورعاية ، كنائس مصر وليبيا والمدن الخمس الغربية ، كما جرى بذلك التقليد القديم ، ويراعى هذا الحق أيضا لأسقف روما وأسقف أنطاكية كل فيما تحت سيادته » وكان هذا اعترافا بأسبقية الأسقفيات الثلاث على ما عداها ، ومن الطبيعى أن لايتضمن القانون القسطنطينية ، لأن المدينة لم تكن قد بنيت بعد . ومن ثم فانه فى المجمع المسكونى الثانى الذى عقد سنة ٣٨١ فى القسطنطينية ، نص القانون التنظيمى الثالث الصادر عنه على ما يلى : «لأسقف القسطنطينية حق التقدمة فى الكرامة بعد أسقف روما ، لأن القسطنطينية هى روما الجديدة » ومن المعروف أن هذا القانون لايمس مكانة أسقف روما ، ولكنه ينعكس بصورة مباشرة على مكانة كنيستى الأسكندرية وأنطاكية ، كما أن القانون الثامن والعشرين من قوانين مجمع خلقيدونية ساوى بين القسطنطينية وروما فى المرتبة ، مما سيؤدى إلى نتائج بعيدة المدى فيما بعد .

أنظر فى ذلك Percival . The Seven Ecumenical Councils, (Nicene and Post Nicene Fathers, vol . XIV) pp. 15-16 . 178-179 .

وأيضا Hefel . op . cit .. pp. 388-404 . II, pp. 357-359 المترجم .

وراجع للمترجم . الدولة والكنيسة - الجزء الخامس .

بعد أسقف روما لأن القسطنطينية هى روما الجديدة » (القانون الثالث لمجمع القسطنطينية عام ٣٨١) . وكان هذا القانون ضربة قاضية لبطاركة الأسكندرية والملوك غير المتوجين لمصر الرومانية» (١٦).

ولقد غدا واضحا كما أدرك قسطنطين العظيم ، أنه ليس من اليسير إيجاد الوئام والوحدة داخل الكنيسة المسيحية . وكان هناك الكثيرون الذين ما زالوا يتمسكون بشكل أو آخر من العبادات الوثنية ، كما كان هناك أيضا المتشككون الذين ارتابت قلوبهم فى كل العقائد على الإطلاق ، وكان على الكنيسة أن تواجه من جديد تحديات ذوى العقول الأريبة والمفكرين النابهين ، ونتيجة لذلك ، واستجابة لمتطلبات الناحية التعليمية فيها ، راحت الكنيسة توضح تفصيلا وتحدد عقيدتها ، وكان محور التعليم فيها يدور حول الإله المسيحى ، ولكنها لقيت العنت الأكبر حين حاولت أن تحدد طبيعة ذلك الإله . وعلى موائد تلك اللقاءات العاصفة التى شهدتها المجامع الكنسية بذل الأساقفة ، وغالبهم من الأسقفيات الشرقية إذا ما قورنوا بالغرب الذى كان ما يزال أقل كثافة سكانية ، ولم يصل إلى نفس الدرجة من ناحية التنظيم الكنسى ، بذلوا الجهد كل الجهد بحثا عن الرشد لأنفسهم والهداية للأجيال التالية عن طريق وضع تعريف دقيق للثالوث ، خاصة الأقنوم الثانى فيه ، الإله الابن ، غير أن العداء الكامن بين الكراسى الأسقفية الكبرى ، أدى إلى تصعيد الكراهية السياسية ، بل وحتى المنافسة الشخصية ، مما تمخض فى النهاية عن انشقاق مشين واليم ، لكن هذه السهام المقدسة التى كثيرا ما رمى بها الخصوم بعضهم ، وتلك التسجيلات الحافلة بلحى نتفت أو أطراف ثلمت ، لاينبغى أن تضع فى طى الغموض الاعمال البناءة لرجال الكنيسة الأوائل ، ذلك أن صياغتهم المتقنة للعقيدة المسيحية قد أرست الدعائم الأساسية التى ما زال يقوم عليها إلى الآن التعاليم واللاهوت المسيحى .

وقد استؤنف جدل القرن القرن الرابع حول الثالوث على يد آريوس Arius وأتباعه الذين أكدوا أن الإله الابن أقل من الإله الاب . ومنذ القرن الخامس حتى السابع ، سعر لهيب الجدل الكريستولوجى وظهر بشكل واضح فى اتجاهين متطرفين ، أولئك الذين يصرون على طبيعة

---

١٦- أنظر N. H. Baynes. Byzantine studies. p. 97

واحدة (المنافزة Monophysites) وهؤلاء الذين ينادون بطبيعتين منفصلتين (النساطرة -Nas torians) اتباع نسطور Nestorius الذى ذاع صيته عندما انفجر النقاش اللاهوتى فى بواكير القرن الخامس(١٧) .وفى مواجهة هذين النقيضين، ظهر من بعد اتجاه وسط فى المجمع المسكونى

---

١٧- اتسم جدال القرن الرابع بالصيغة الأريوسية القائلة بخلق المسيح والرد عليها من القول بولادته ، ودار الجدل حول «مساواته» بالآب أو «شبهيته» بين الأريوسيين والنيقيين وبين الأريوسيين وأنفسهم . أما القرن الخامس فقد طغى عليه الحوار حول طبيعة المسيح ، واحدة هى أم اثنتان ؟، وزاد من أواره ما داخله من صراع بين الكنائس الرسولية فى الإمبراطورية حول الزعامة . ففى أوائل القرن الخامس ، جهر نسطور أسقف القسطنطينية برأيه القائل إن العذراء هى أم المسيح البشر وليست أم الإله ، وهو هنا يغلب الطبيعة البشرية فى المسيح . وكان طبيعيا أن تثور القسطنطينية لأن أسقفها يجرد ربتها «العذراء» من قداستها ، ولما كان الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى رجلا تقيا ورعا ، فقد استجاب لنداء أسقفه الذى خاطبه بقوله «أعطنى الأرض وقد تطهرت من الملحدين ، أمنحك نعيم الجنة المقيم » ، فأنزل الإمبراطور سخطه على الجموع الثائرة وقضى على الفتنة . ولكن كيرلس Cyillus أسقف الأسكندرية ، تناول آراء نسطور بالتفنيد وأعلن شجبها ووضع اثنى عشر بندا للإيمان السكندرى أردف كل واحد منها باللعنة Anathema على كل من يقول بغيرها ، وانحازت أنطاكية إلى نسطور لأنه كان أحد أبنائها وتلميذا لمدرستها اللاهوتية العقلية الأرسطية . ولم يجد الإمبراطور مخرجا من هذا المأزق إلا بالدعوة لعقد مجمع عام ، التأم عقده فى مدينة افسوس Ephesus عام ٤٣١ وعرف بالمجمع المسكونى الثالث . ودار الصراع رهيبا بين الأسكندرية وأورشليم فى جانب ، والقسطنطينية وأنطاكية فى الجانب الأخر . واستخدم كيرلس كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للفوز فى هذه المعركة ، حتى كتب له النصر فى النهاية ، وأدينت آراء نسطور وتم نفيه . غير أن أحد رهبان القسطنطينية ويدعى يوطيخا Eutyches جعل من «أناثيما» كيرلس المادة التى بنى عليها آراءه فى القول بأن فى المسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية ، التى ابتلعت الطبيعة البشرية . وعرفت هذه التعاليم الجديدة بالمونوفيزية ، واشتدت حمى الجدل ، ودخلت روما طرفا فى هذا الصراع ، ودعا الإمبراطور إلى مجمع جديد عقد أيضا فى مدينة إفسوس سنة ٤٤٩ وترأسه ديوسقوروس Dioscorus أسقف الأسكندرية الجديد ، خليفة كيرلس وتلميذه . وقد برأ المجمع ساحة يوطيخا ولم تتل فيه رسالة العقيدة Tome التى بعث بها البابا ليو الأول ، مما دفع روما إلى أن تطلق على المجمع فيما بعد اسم «مجمع اللصوص» . ولذلك ارتبطت كنيسة الأسكندرية بالمونوفيزية لإيمانها بأن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين . (المترجم) .

الذي عقد سنة ٤٥١ في مدينة[١٨] خلقيدونية Chalcedon ، لقى الاستحسان من روما

---

١٨- لم تحل المشكلة العقيدية في مجمع افسوس ، ولهذا دعا الإمبراطور مارقيان ، الذي خلف ثيودسيوس الثاني ، إلى عقد مجمع جديد في مدينة خلقيدونية سنة ٤٥١ ، حمل اسم المجمع المسكوني الرابع. وكان الإمبراطور الجديد يشعر بضعف موقفه الداخلي ، حيث لم يكن ينتمي لأسرة ثيودوسيوس ، رغم أنه تزوج من بولكيريا أخت سلفه . ولهذا أراد استرضاء الأسقف الروماني ، لما يعلمه من تدهور الأمور في الشطر الغربي من الإمبراطورية ، وفي هذا المجمع وقفت روما والقسطنطينية في جانب ، والأسكندرية في الجانب الآخر ، وتم التصديق على رسالة العقيدة التي كان ليو الأول قد أرسلها آنفا ، ونص قانون الإيمان الصادر عن المجمع على الاعتراف بطبيعتين في المسيح «فهو نفسه كامل بحسب اللاهوت ، وهو نفسه كامل بحسب الناسوت . إله حقيقي وإنسان حقيقي . وهو نفس واحدة وجسد ، مساو للآب في جوهر اللاهوت ، ومساو لنا في جوهر الناسوت . مماثل لنا في كل شئ عدا الخطيئة ، مولود من الآب بحسب الناسوت لأجلنا ولأجل خلاصنا ، ومعروف هو نفسه مسيحًا وابنًا وربًا ووحيداً وواحد بطبيعتين بلا اختلاط ولاتغير ولا انقسام ولا انفصال ... » . وقد أدين ديوسقوريس أسقف الأسكندرية في الجلسة الثالثة من جلسات المجمع وقطع من شركة الكنيسة . على أن أهمية هذا هذا المجمع وخطورته تعود إلى أن مصر وسورية اختطا لنفسيهما منذ الآن طريقًا مستقلاً منفصلاً عن القسطنطينية ، وأبطلت الكنيسة السكندرية استخدام اللغة اليونانية في قداساتها واستبدلتها باللغة المصرية القديمة ، وأصبحت تعرف بالكنيسة الأرثوذكسية وتعترف بطبيعة واحدة في المسيح من طبيعتين ، على حين اعتبرت القسطنطينية نفسها هي صاحبة الإيمان الأثوذكسي منادية «بطبيعتين تؤلفان شخصا واحد وأقنوما واحدا» ، عن هذه الحاشية والتى سبقتها راجع للمترجم ، الدولة والكنيسة : الجزء الخامس .

وأنظر SOCRAT. hist. eccl . VII, 29, 31 , 32 , 34 .

وراجع Dict . theol . Cathol. art. Nest. and Mono .

وأيضا The New Schaff . Herzog encycl . of Relig . Knowledge, 13 vols.

و Encycl of Relig . & Ethics, 12 vols .

و كذلك Neander , lectures on the history of Christian Dogmas .2 vols.

و Percival , op. cit., 192-295

و Hardy , Christian Egypt: Church and People . pp. 111-116

و Neale , A history of the Holy Eastern Church, Patriarchte of Alex. 2 vols .

و Hefel , op . cit ., vol. III .

وأيضا Lambart , The Canons of the first four general Councils of the Church and those of the early local Greek Synods .

وأيضا الدكتور أسد رستم ، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى الجزء الأول . ٣٠٧-٣٤٤ (المترجم) .

والقسطنطينية ، وإن لم يحظ إلا بأقلية ضئيلة فى حوض المتوسط الشرقى . وظهر فى سوريا وفلسطين ومصر نوع من الشروح والتأويلات المخالفة ، زاد من ضراوتها التبرم السياسى الذى يمكن أن يوضع فى عداد العوامل التى أدت إلى فقدان الإمبراطورية الرومانية لهذه الولايات فى فترة متأخرة زمن الفتوحات العربية . وهكذا نشأت إلى جوار الكنيسة «الأرثوذكسية» كنائس أخرى منشقة بنظامها الهيراركى ، مثل الكنائس المونوفيزية فى مصر وسوريا ، والتى ما زال بعضها قائما إلى أيامنا هذه .

على هذا النحو أدركت المسيحية أن الحماية الامبراطورية وما تبعها من الاعتراف بها ديانة رسمية ، لم تجلب لها الوحدة أو السلام ، بل ان الامتزاج التام بين الكنيسة والدولة ، قد أدى إلى ايجاد عدد من المشاكل الجديدة ، وإن كان فى الوقت ذاته قد دعم مركز الكنيسة ، وفتح أمامها آفاقا جديدة فى الداخل أو فى ميدان التبشير ، وزاد من موارد دخلها المادى ، وضمن لها التفوق دائما . ولكن هذا الارتباط الكامل بالأمور التى تخص القيصر ، والذى كان من العسير تجنبه ، أفضى إلى عدد من العواقب السياسية ، بالمجامع المسكونية أصبح باستطاعتها الآن اعلان أسبقية هذه الأسقفية أو تلك بسبب كونها «امبراطورية» يرفع من قدرها سيادة الدولة ومجلس السناتو ، وليس بسبب تأسيسها على يد أحد الرسل (على الرغم من أنه لم يحدث انكار صريح لهذه الناحية ، بل ان القسطنطينية سمحت فى وقت لاحق ، حفاظا على مكانتها بين الكراسى الأسقفية القديمة ، إلى الادعاء بأنها ذات علاقة خاصة بالقديس اندراوس St. Andrew [١٩]. كما أن هذا الاقتران بالدولة ترك أثره الواضح فى المسائل العقيدية ، على النحو الذى كشفت عنه الأحداث فى عهد جوستنيان Justinian .

---

١٩- ظهرت أسطورة ارتباط القسطنطينية بالقديس أندراوس للمرة الأولى فى القرن السابع . (المؤلفة). وقد شهد القرن الخامس احتدام الصراع بين الكنائس رقيا إلى مرتبة الزعامة ، وغلف هذا الصراع نفسه برداء العقيدة ، حتى انتهى الأمر باختصام الكنائس جميعا فيما بينها . وقد أسلفنا أن مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ ، قد نص فى قانونه السادس على أسبقية الكنائس المسيحية . الاسكندرية وأنطاكية وروما ، وقد قدر لمدينة روما أن تكون للقديس بطرس مستقرا ومقاما ، حيث أقام بطرس هناك فى القرن الأول الميلادى قواعد الكنيسة المسيحية. ولما كانت روما لقرون خلت عاصمة امبراطورية عريضة وحاضرة مجد الرومان ، ولما كان بطرس بين الرسل أميرهم ، اعتمادا على ما جاء فى حديث المسيح إليه ذات مرة وهو يحاوره « ... طوبى لك

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

---

= يا سمعان بن يونا ، أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماء ، نقول إنه انطلاقا من هذا الواقع ، اعتبر أساقفة روما كرسيهم الأسقفى رأس الكنيسة العالمية ، وساعد على ذلك أن أباطرة روما منذ القرن الثالث قد هجروا المدينة إلى معسكراتهم على الحدود ، أو مدن أخرى في الشرق مثل نيقوميديا ثم القسطنطينية ، وحتى أباطرة القرن الخامس فى النصف الغربى ، ولوها دبرهم إلى رافنا فى الشمال . وهكذا وجد أساقفة روما أنفسهم وحيدين فى العاصمة ، فراحوا يمارسون سيادتهم الروحية دون أدنى قلق ، إلى الحد الذى اتسعت فيه هذه السيادة لتشمل فيما بعد النواحى السياسية بل والعسكرية فى مطلع القرن الخامس . وعلى الطرف الجنوبى للبحر المتوسط ، كان مرقس الإنجيلى قد قدم الأسكندرية يحمل بشارته ، ولم يكن مرقس من بين الرسل الأثنى عشر ، ولكنه كان قريبا إلى بطرس محببا إليه ، شاركه رحلته إلى روما وكتب انجيله بناء على «رغبة الأخوة الرومان» ثم اتخذ طريقه إلى ليبيا ومنها إلى الأسكندرية . ونقف على هذا كله من رسالة بطرس الأولى ، وما كتبه القديس جيروم ويوساب القيسارى . وإذا كانت كنيسة الأسكندرية قد افتقدت المرتبة الرسولية ، فقد اعتمد آباؤها فى تعويض ذلك على ما ذهبت به الأسكندرية من شهرة فى العالم الهلنستى فكرا وثقافة ، وما قدمته لعالم المسيحية من آباء اللاهوت ، وما لها من ماض مجيد قديم كانت تعيشه الأسكندرية عاصمة لإمبراطورية البطالمة . وهناك على الساحل الشرقى للبحر المتوسط كانت تقوم أنطاكية ، ولها ما لها من سمعة عريضة وحضارة ، ولكنها الآن تفخر على روما والأسكندرية بأن أمير الرسل بطرس هو الذى وضع أسس كنيستها قبل أن يرتحل إلى روما ، وأنه قضى فى أنطاكية سبع حجج ما بين عامى ٣٤-٤١ ويطلعنا على هذه الحقيقة صراحة يوساب القيسارى فى تاريخه الكنسى . وفى عام ٣٣٠ برزت إلى الوجود مدينة القسطنطينية ، وحاولت كنيستها أن تجد لها مكانا على سلم الزعامة فوق الدرج الذى ارتقت إليه تلك اللدات ، ولما كانت مدينة حديثة عهد بالحياة ، فقد اعتمدت على حاضرها كعاصمة للامبراطورية ومستقر للأباطرة ، وأنها تفوق كل تلك المدن فى أنها نشأت على المسيحية ، لم تسع إلى مذبح لتحرق أمام الأرباب بخورا أو تقدم قربانا . ثم كانت أسطورة ارتباطها بالقديس أندراوس ، التى تقول إنه هو الذى أسس كنيسة بيزنطة ، المدينة التى على أطلالها شيدت القسطنطينية ولما كان اندراوس هو الذى أخذ بيد أخيه سمعان (بطرس) إلى المسيح ، كان له فضل السبق فى الإيمان والمكانة (لاحظ أن انجيل يوحنا وحده هو الذى ينفرد بذكر هذه الحادثة) . ومن ثم يصبح كرسيه رسوليا . وقد قدمنا فى حاشية سابقة ما تضمنه القانون الثالث الصادر عن المجمع المسكونى الثانى سنة ٣٨١ حول مكانة أسقف القسطنطينية وكذا قانون رقم ٢٨ لمجمع خلقيدونية . عن هذه الأحداث بالتفصيل راجع للمترجم - الدولة والكنيسة- الجزء الخامس .

### ٣- الإمبراطور جوستنيان والقرن السادس :

«لدينا كبير أمل فى أن يأذن الإله لنا باسترداد أراضى الإمبراطورية الرومانية القديمة التى من جراء التراخى ضاعت » (نوفلا ٣٠ ، ١١) .

يعود جوستنيان فى أصله إلى فلاحى مقدونيا ، ولكنه شأن أسلافه ومن خلفوه ، يضطرم عقله بفكرة امبراطورية رومانية مسيحية تعود إلى حدودها القديمة ومركزها المرموق فى عالم البحر المتوسط . وخلال فترة طويلة من عهد خاله جوستين الأول Justin I (٥١٨-٥٢٧) ، وطوال ما يقرب من أربعين عاما حكمها منفردا ، قام جوستنيان بالمحاولة الجريئة والأخيرة لإعادة فرض السيادة الرومانية على الشعوب الجرمانية التى كانت قد استقرت الآن فى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وشمال أفريقيا . وكان لدى جوستنيان حافز آخر تمثل فى الاستغاثة التى جاءته من الكاثوليك ، ادعوا فيها أنهم يتعرضون للاضطهاد من جانب سادتهم الأوستروقوط فى إيطاليا والوندال فى شمال أفريقيا[٢٠] ولم يكن تأييد الأرثوذكسية بالنسبة لجوستنيان يقل شأنا وأهمية عن استعادة الإمبراطورية .

---

٢٠- تحولت معظم الشعوب الجرمانية - عدا الفرنجة - إلى المسيحية فى صورتها الآريوسية ، ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى أن أولفيلا Ulfilas أحد رجال القوط قد رسم أسقفا فى سنة ٣٤١ على يد يوساب النيقوميدى ، أبرز زعماء الآريوسية الأصلية ، ورفيق آريوس فى مدرسة اللاهوت الأنطاكية ، ثم وقع أولفيلا أيضا على مرسوم الإيمان الذى اتفق عليه الآريوسيون فى ٣١ ديسمبر سنة ٣٥٩ فى نيقا Nice وذلك فى مجمع القسطنطينية الذى عقد فى يناير / فبراير سنة ٣٦٠ ، وهو المرسوم الذى أقر العقيدة الهومويه Homo-ion (الشبه بين الابن والآب) . ومن ثم انتشرت الآريوسية بين القوط ومنهم إلى القبائل الجرمانية الأخرى. وإذا كان الوندال قد اتبعوا سياسة عدائية تجاه الكنيسة الكاثوليكية ورعاياها فى شمال أفريقيا منذ البداية ، فإن الكنيسة فى روما حظيت بالاحترام من جانب ثيودوريك الذى كان حاكما متسامحا فى عصر لايعرف التسامح .

أنظر SOZOM hist . eccl . IV , 24 SOCRAT hist . eccl . II, 41

وراجع C. M. H. vol . I, p. 212 .

و Davis, op. cit ., pp. 45-53 وانظر للمترجم . الدولة والكنيسة . الجزء الثالث .

فى عام ٥٣٣ كان جوستنيان قد أعد للأمر عدته ، فبعث بقائده الوفى المقتدر بليزاريوس Belisarius على رأس حملة استطاعت القضاء على سيادة الوندال فى شمال أفريقيا ، وتمتعت المنطقة تحت السيادة الرومانية العائدة بقدر من السلام ونوع من الحكومة المنظمة قدر لها أن تظل قائمة طوال قرن ونيف حتى مقدم الفتح العربى . وبعد جهود مضنية تمت هزيمة القوط الشرقيين فى إيطاليا ، واستعادة جزر غربى البحر المتوسط ، واكتساب موطئ قدم فى جنوب شرقى أسبانيا ، وإن ظلت معظم أراضى هذه المنطقة فى أيدى القيزيقوط ، مثل جنوبى فرنسا ، أما ولاية غالة الفقيرة فلم يقدر لها أن تعود ثانية إلى أحضان الإمبراطورية (٢١).

وكثيرا ما تعرض جوستنيان لحملات من النقد بسبب حروبه الاستردادية ، واتهم بالفشل فى محاولته إيجاد نوع من التوافق بين السياسة الإمبراطورية والوضع السياسى المتغير ، وأعلن هؤلاء النقاد بأنه كان يتعين على جوستنيان أن يركز اهتمامه فى بلاد اليونان ومنطقة البلقان والمشاكل المتعلقة بالولايات والجبهة الشرقية . ولكن الحقيقة أنه لايمكن أن نتوقع من أى إمبراطور رومانى التخلى عن كل ولايات الغرب هذه أو معظمها دون حرب ، خاصة إيطاليا ، التى كانت لزمن بعيد قلب الإمبراطورية وملتقى أنظارها ، ورغم أنه لم يعد لها الآن ذلك المركز الاستراتيجى الممتاز الذى كان ، إلا أنها ما زالت تمثل أول عاصمة للإمبراطورية ، روما القديمة. وعلى هذا النحو فان جوستنيان كان يقتفى وقع أقدام أسلافه ، فالإمبراطور زينون على سبيل المثال لم يعترف البتة بأدواكر أو ثيودوريك الاستروقوطى حاكمين مستقلين فى إيطاليا ، ولكن فقط مجرد ولاته . وبعد انتهاء عهد جوستنيان ظل أباطرة القرن السابع يقدرون تماما قيمة إيطاليا والغرب . ويرون أن استرداد هذه المناطق وإدخالها ثانية ضمن حدود

---

٢١- للوقوف على التفاصيل العسكرية لحروب جوستنيان الاستردادية ، والظروف السياسية التى أحاطت بها ، أنظر

Ure, Justinian and Age, pp. 17-84 .

و Jones, Later Roman Empire pp. 269-78, 287-94

وكذلك Vasiliev , op . cit., I, 133-141 وأيضا C. M. H vol . II, pp. 11-19

Thompson & Johnson , op . cit ., pp. 120-127 .

وكذلك هـ. موس ، ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ١٧٣ ، ١٨٣ وأيضا أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ص٦٤-٧٦ .

و Gibbon , op . cit., IV, ch . 41 و Bury , op. cit., II pp. 124-291

الإمبراطورية ، أمر يقع ضمن نطاق الممكن . ورغم أن أسلوب حكم جوستنيان كان يلقى النفور حقيقة في إيطاليا ، وأن الشمال الإيطالي قد وقع في أيدي الغزاة اللومبارديين Lombards عقيب وفاة الإمبراطور[٢٢] ، إلا أنه يعزى إلى مشروعه هذا تجدد الاتصال السياسي المباشر مع إيطاليا تحت السيادة البيزنطية . أما الروابط الثقافية التي ربطت طويلا جنوب إيطاليا وصقلية بعالم بحر إيجة فقد قويت بصورة غير محدودة .

على أنه لايمكن بأي حال أن تتخذ الحماسة والاهتمام بمشروعات الإمبراطور في الغرب ، دليلا على الخلاص من القلق الذي ينتاب الجبهات الأخرى ، ذلك أن المشاكل التي كان يعاني منها عهد جوستنيان تشبه إلى حد كبير تلك التي واجهت أي امبراطور روماني ، سواء في العصور القديمة أو الوسطى . فأعداء الإمبراطورية في الشرق كانو يتطلبون منها الانتباه الدائم والحذر ، الأباطرة الساسانيون ذوو المطامع في فارس ، وفي الوقت ذاته القبائل النازحة غير المستقرة التي لم يتوقف سيلها عبر الدانوب إلى داخل الولايات الإمبراطورية ، اما للنهب أو حتى بغرض الاستيطان .وفوق هذا وذاك حالة الاضطرام الدائم والعنيف بسبب السخط

---

٢٢- توفي الإمبراطور جوستنيان في عام ٥٦٥ ، ولم يكد يمضي على ذلك ثلاثة أعوام حتى كانت عناصر اللومبارد قد أخذت تجتاح شمال إيطاليا ، وكان جوستنيان قد دعاهم للنزول على حدود نوريكوم Noricum إلى الشرق من مملكة الجبيديين Gepids الذين كانوا قد احتلوا بانونيا Pannonia وقد راحت العلاقات بينهما تجري إلى السوء ، مما دفع اللومبارد إلى الاستعانة بعناصر الآفار الذين كانوا يستوطنون الشرق البعيد عبر الدانوب . وقد قبل الآفاريون ذلك شريطة أن يسلم اليهم اللومبارديون عشر قطعانهم ونصف أسلاب الحرب بعد النصر وكل أراضي الجبيداي . وتمكنت القوات المتحالفة من تدمير مملكة الجبيديين ، وكان هذا في حد ذاته نذير الكوارث للإمبراطورية . فقد أدرك اللومبارديون أن حلفاءهم الآفار يشكلون جيرة خطيرة على أمنهم ، ومن ثم قرروا هجران إقليمهم ذلك الخرب ، وغزوا الأراضي الإيطالية لحسابهم الخاص ، وكان اللومبارد قد وقفوا على ثراء إيطاليا عندما أقدم نارسس Narses، قائد الإمبراطور جوستنيان ، في عام ٥٥٢ على تجنيد عدد كبير منهم محالفين ، أثناء صراعه مع الاوستروقوط . وحوالي عام ٥٦٨ ، أي بعد ثلاث سنوات من وفاة جوستنيان تمكن ملك اللومبارد ألبوين Alboin من دخول فينيسيا ، وفي العام التالي استولى على لجيوريا بما فيها ميلانو ، ثم سار الغزو اللومباردي لإيطاليا بعد ذلك قدما إلى أن استعان البابوات بمملكة الفرنجة .

أنظر Oman , The Dark Ages , pp. 181-203 وكذلك Jones , Later Roman Empire , I, p. 305 وأيضا Pirenne , op. cit., pp. 43-45 المترجم .

السياسي ونتيجة الجدل العقيدي ، مما عمل على تقويض دعائم الولاء للحكم الروماني ، أدى ذلك إلى تكدير العلاقات بين الأسقفيات الكبيرة المختلفة ، خاصة روما والقسطنطينية .

ورغم أن قلب جوستنيان ومطامحه كانت معلقة بالغرب ، إلا أنه لم يكن باستطاعته أن يغمض عن الشرق عينيه ؛ ذلك أنه عاصر في الجزء الأكبر من عهده خصمه الساساني كسرى الأول Chosroes (٥٣١-٥٧٩) الذي كان على قدر كبير من الكفاءة والثقافة . وقد ترك بروكوبيوس[٢٣] Procopius سكرتير بليزاريوس ، تقريرا مفصلا عن الحروب الفارسية الطويلة المتقطعة . وتمكن جوستنيان في عام ٥٦٢ ، بمعاهدة السلام التي وقعت بين الطرفين ، أن يحتفظ بالسيادة على لازيقا Lazica ، وهي المنطقة الواقعة عند الطرف الجنوبي الشرقي للبحر الأسود ، بسكانها المسيحيين وأهميتها الاستراتيجية ، سواء من الناحية السياسية أو التجارية . كما أنه حافظ على الولايات الرومانية الشرقية مصونة في مواجهة قوة العدو

---

٢٣- هو بروكوبيوس القيساري ، ولد في قيسارية فلسطين حوالي نهاية القرن الخامس ، ودرس القانون في القسطنطينية ، واشتغل بالمحاماه ، ثم أصبح سكرتيرا للقائد الشهير بليزاريوس ، ورافقه في حملاته العسكرية بما أتاح له فرصة متابعة الأحداث عن قرب ، وأباح له الإطلاع على الوثائق الرسمية . وقد ترك لنا ثلاثة أعمال يأتي في مقدمتها بلاشك «التاريخ» الذي يقع في ثمانية كتب ، تناول فيها بالتفصيل حروب جوستنيان مع الفرس والوندال والقوط ، أما عمله الثاني فقد وضعه في ستة كتب عن «الانشاءات المعمارية» التي أقامها الإمبراطور جوستنيان ، وهذا المؤلف يعد قصيدة نظمها بروكوبيوس في مدح جوستنيان . أما كتابه الثالث فهو «مذكرات لم تنشر» أو ما شاع بين الدارسين باسم «التاريخ السري» وقد جاء على النقيض من الكتابين السابقين تماما ، إذ يحمل فيه على الإمبراطور وزوجته ثيودورا وبليزاريوس وزوجته أيضا ، ويعزو إلى الإمبراطور كل البلايا التي حلت بالإمبراطورية حتى أن الدارسين انتابهم الشك في نسب هذا الكتاب لبروكوبيوس ، ولكن الدراسات الدقيقة الجادة أثبتت أن واضعه هو بروكوبيوس بنفسه . وعلى الرغم من أن بروكوبيوس قد تتبع نسق المؤرخين الإغريق القدامى ، مثل هيرودوت وثوكيديدس . إلا أن أسلوبه رغم استخدامه اللغة الكلاسيكية ، كان يتميز بالحيوية والسلاسة . أنظر دكتور نور الدين حاطوم ومجموعة من الأساتذة ، المدخل إلى التاريخ ص١٣٥-١٣٨ . وأرنولد توينبي ، الفكر التاريخي عند الإغريق ، ص١٠٥-١٠٩ . وكذلك Vasiliev , op. cit., I, pp. 180-181

و Bury, op. cit., II, pp. 21 , 24 . 50, 59 , 419 sqq و Ure, op . cit ., pp. 168-184 المترجم .

الفارسى ، وإن كانت هذه النتيجة وحدها اقتضت حملات عسكرية باهظة التكاليف ، تدعمها مساع دبلوماسية لانهاية لها ، وجزية مالية سنوية ضخمة ، وتحسين وتحصين الوسائل الدفاعية على الجبهة الشرقية .

وكان جوهر سياسة جوستنيان فى الشمال ، شأن الشرق ، دفاعيا بحتا . ولم يكن لديه من الوقت ما يكفى ليسوق إلى هذه المنطقة حملات عسكرية ذات فعالية ، ولكنه كان راضيا بما يمكن تسميته السياسة الانتهازية التى تقوم أساسا على التصدى من حين إلى آخر لزحوف الغزاة الصقالبة والآفار الذين دأبوا على التوغل فى الولايات الرومانية ، خلال إغاراتهم التى استهدفت السلب والنهب ، وإن كان جوستنيان قد أورث خلفاءه مشكلة الصقالبة والبلقان .

لقد دعى جوستنيان بحق «الإمبراطور الذى لم تغمض له عين». وقد يبدو أن مطامحه الهجومية فى الغرب ، والأزمات المستمرة والحروب فى الشمال وعلى جبهة الشرق ، شغلت منه الوقت كله ، ولكن الأمر لم يكن على هذا النحو فحسب ، فقد لعب جوستنيان نفسه دورا كبيرا فى الجدل الكنسى الذى تأجج فى القرن السادس . وكانت روما قد أخذت على عاتقها من قبل مسئولية وضع التعريف الأرثوذكسى للعلاقة بين الطبيعتين الإلهية والبشرية فى المسيح ، والذى أذيع فى مجمع خلقيدونية المسكونى سنة ٤٥١ . وقد علمنا أن هذا التعريف لم يحظ بموافقة بعض الولايات الرومانية فى الشرق [٢٤] ، ومن ثم فان جوستنيان قضى من عهده عدد سنين فى محاولة لإيجاد بعض السبل التى من شأنها استرضاء سوريا وفلسطين ومصر ، دون أن يجلب على نفسه فى الوقت ذاته عداء روما والغرب . وقد دفعه ذلك إلى البحث عن طريق وسط Via media يحفظ بها وحدة الإمبراطورية .

وبقدر ما كان المنافزة والشرق المنشق يحظون باهتمام خاص ، فقد وجدوا نصيرا وفيا فى زوج جوستنيان ، ثيودورا Theodora (ت ٥٤٨) التى كانت إحدى راقصات المسرح ، ذات ماض ملوث ، وقد ساحت فى الأراضى المونوفيزية قبل زواجها ، ولذا مالت ناحية المنافزة . وكانت تضم بين جوانبها شخصية قوية تنم عن فطنه سياسية وشجاعة فى آرائها وفكرها ، تجلت فى مواقف كثيرة كان أبرزها عندما وضعت نفسها على رأس أولئك الذين استحثوا جوستنيان على أن يدعم مركزه فى القسطنطينية ، حينما اشتعلت الفتنة فى الهبدروم ، وهدد

---

٢٤- راجع حاشية ١٨ ص٨٩ . المترجم .

مشيروها باختيار إمبراطور منافس[٢٥] . وربما كانت ثيودورا تعتقد أنه من الأفضل استرضاء

---

٢٥- انتهى الأمر بالفرق الرياضية الأربع التى عرفتها القسطنطينية والتى تمثل عناصر الحياة الأربعة ، الماء والهواء والنار والتراب، (الأزرق- الأبيض- الأحمر- الأخضر) إلى الاندماج فى فريقين فقط هما الزرق والخضر ، ولم يعد نشاطهما مقصورا على النواحى الرياضية فى الهيدروم ، بل امتد ليشمل نواح أخرى ، فعهد إليهم بالحفاظ على الأمن فى العاصمة ليلا ، ثم مهمة الدفاع عن القسطنطينية ، ثم أصبحوا يمثلون الطبقات الاجتماعية ، فالزرق عنوان أهل المدن والتجار والنبلاء ، والخضر دليل أهل الريف ، ثم راحوا يعبرون تبعا لذلك عن التيارات العقيدية المتصارعة ، فالخضر هم أصحاب الطبيعة الواحدة والزرق هم أصحاب الطبيعتين . ولقد عانت العاصمة الكثير من جراء صراعهم السياسى والاجتماعى والدينى . وبذل أباطرة القرن الخامس وأوائل السادس جهودا كثيرة للحد من نفوذهم دون جدوى . وكانت فتنة النصر التى وقعت سنة ٥٣٢ فى القسطنطينية واحدة من هياجهم المألوف . فقد بدأت بشغب عادى فى الهيدروم بين الفريقين ، امتد أثره إلى أنصارهما ، قابله محافظ المدينة يواديمون Eudaemonius بعدالة صارمة ، حيث قبض على سبعة من زعماء الثائرين ، وأعدم بعضهم بينما أفلح بعض آخر فى الفرار . ولكن هذا السلوك من جانب المحافظ ، بالإضافة إلى السياسة المادية التى كان ينتهجها يوحنا الكبادوكى ، وحدت بين الفريقين المتصارعين ، فتآلفوا فيما بينهم وجعلوا من كلمة Vika (Nica) «النصر» شعاراً لهم ، ومن ثم عرفت الفتنة بهذا الاسم . وقد قاموا فى ١٤ يناير ٥٣٢ باشعال النيران بمبنى المحافظة ، ثم أضرموا هذه النيران فى دور الحكومة والمرافق العامة والمنشآت ، وعقدوا اجتماعا عاصفا فى الهيدروم ، خلا إلا من الفوضى . وقدموا مطالبهم التى تنادى بطرد العادل الصارم يواديمون ويوحنا الكبادوكى والمشرع تريبونيان ، وكان المترفون فى العاصمة يكرهون هذين الأخيرين . وقد تملك الخوف جوستنيان ، فأصغى لمطالب الثائرين ، وآنس هؤلاء فى أنفسهم قوة فاستحثوا خطاهم إلى دار بروبوس Probus ابن أخى انسطاسيوس الامبراطور الاسبق ، لاعلان اختيارهم له إمبراطورا فلما رفض أحرقوا داره ، وفى ١٨ يناير أصدر الامبراطور عفوا عاما يبتغى به ترضية الثائرين ، غير أن الزحوف اكتسحت سماحة جوستنيان فى أنفة حمقاء ، فاختاروا هيباتيوس Hypatius ، وهو ابن أخ آخر لأنسطاسيوس ، إمبراطورا ، واقتادوه إلى الهيدروم لتتويجه . وقد شجع الثائرين على التمادى فى غيهم أن العاصمة كانت خالية من الجند ، ولهذا تسرب اليأس إلى نفس الإمبراطور وقرر الهروب . غير أن ثيودورا وقفت تخاطب زوجها فى حزم ، فرفضت فكرة الهرب التى لاتليق بالملوك ، على حد تعبيرها وبينت له أن ذلك من أيسر الأمور ، ولكنها تفضل أن تموت فى مكانها على العرش ، وأنهت حديثها بقولها إن «الأرجوان خير الأكفان» ، تعنى بذلك تفضيل الموت فى العباءة الإمبراطورية على الهروب . وكان لهذا القول أثره فى تغيير فكر جوستنيان، الذى أمر قائديه بليزاريوس وموندوس بالقضاء على الثائرين ، وعلى الفور رتب القائدان ما=

الشرق على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع روما . فلما توفاها الموت أقدم جوستنيان على أن يتخذ بنفسه بعض الاجراءات والقرارات الكنسية ، حقق فيها فشلا ذريعا ، حيث جلبت عليه عداء أنطاكية والاسكندرية وروما ، ومع ذلك فقد سار جوستنيان فى سياسته وراح يمارس سلطة واسعة على الكنيسة ، حتى أنه يعد واحدا من الأباطرة الرومان القلائل الذين تنطبق على سياستهم الدينية ذلك التعبير الذى أسئ استخدامه بصورة واضحة «القيصرية البابوية» Caesaropapism .

وعن طريق الخدمات التى أداها مساعدوه ذوو الكفاية والدراية ، تمكن جوستنيان من توفير المال اللازم لسياسته الخارجية ولاسكات طنين أعدائه ، وقد أقدم جوستنيان على تنفيذ برنامج واسع من المشروعات المعمارية ، تمتد من التحصينات العسكرية الجديدة فى البلوبونيز Peloponnese والسقايات الضخمة فى افسوس Ephesus إلى انشاء أيا صوفيا Hagia Sophia التى دشنت للحكمة المقدسة ، والتى ما تزال تعد احدى روائع القسطنطينية ، ويدل كثير من قوانينه على اهتمامه باستئصال الفساد الادارى . وقد أصدرت اللجنة التشريعية التى ألفها مجموعة من الكتب عرفت بمجموعة جوستنيان Corpus of Justinian وكانت فى حد ذاتها محاولة لتقويم وتهذيب الأسلوب القانونى الرومانى البالغ التعقيد بما يتلاءم وطبيعة العصر ، وبشكل مغاير فى أغلب الأحيان فيما بعد، وتضم هذه المجموعة ، المقننة Code وهى عبارة عن المراسيم الإمبراطورية التى صدرت منذ عهد هادريان Hadrian فصاعدا ، بما فيها تلك التى صدرت فى عهد جوستنيان ، والجامع Digest وهو تصنيف لأحكام وتشريعات الفقهاء الرومان ، ومبادئ القانون Institutes وهو مختصر يعتمد عليه طلاب القانون [٢٦].

---

= توافر لهما من الجنود ، وأطبقوا على الثائرين فى المضمار ، حيث جرت فيهم مذبحة مروعة ذهب ضحيتها ، على حد بعض التقديرات ، ثلاثون ألف قتيل على رأسهم هيباتيوس . ولم تقم لحزبى الزرق والخضر بعد ذلك قائمة . لمزيد من التفصيلات عن هذه الثورة ، راجع للمترجم ، الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢ ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٣٢ لسنة ١٩٨٥ .

وأنظر Bury , op. cit., II,pp. 39-48 و Vasiliev , op . cit ., I, pp. 154-157 و Ure, op . cit. pp. 201-203 و Jones, Later Roman Empire, I, pp. 271-272

وأيضا . أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ص٥٩-٦٣ . ودكتور أسد رستم ، الروم . الجزء الأول ، ص١٧٠-١٧٢ . المترجم .

٢٦- راجع حاشية ١٢ ص٦ . (المترجم)

والمتجددات Novels (novellae leges) وهى مراسيم جوستنيان التى أذيعت منذ نشر المقننة، أول مجلد صدر من المجموعة . وقد وضعت مجموعة القانون المدنى Corpus Juris civilis هذه الأسس التى ارتكزت عليها من بعد القوانين البيزنطية ، واستخدمت أجزاء منها على الأقل فى الأراضى الصقلبية التى أصبحت ضمن دائرة النفوذ البيزنطى ، فلما ظهرت فى القرن الثانى عشر ، تركت بصماتها الواضحة على الفكر القانونى والسياسى للعالم المسيحى اللاتينى .

كان جوستنيان - بكل ما تعنيه الكلمة - آخر الأباطرة الرومان ، نجح فى أن يستعيد للمرة الأخيرة «إمبراطورية رومانية : imperium romanum تضم تقريبا كل عالم البحر المتوسط . أما عظمة سياسته ومنجزات رعاياه من القواد العسكريين والإداريين والمهندسين المعماريين وفنانى الفسيفساء والشعراء والفقهاء ، فقد تركت انطباعا كبيرا على أناس عصره والأجيال التى تلت . ومن ثم فقد كتب دانتى Dante فى نهاية القرن الثالث عشر عن فكر جوستنيان ، معتبرا إياه يمثل الإمبراطورية الرومانية ، وأفسح له فى «الفردوس» Paradise مكانا [٢٧].

ولاشك أن أعمال جوستنيان بكل ما لها من بهاء تحدد نهاية الفترة الرومانية المتأخرة أو البيزنطية المتقدمة ، فقد كان على خلفاء جوستنيان المباشرين أن يتصدوا لمشاكل إعادة تنظيم عنيفة ، حتى تتمكن الإمبراطورية الرومانية من تهيئة نفسها لمواجهة التغييرات التى أحدثتها الممالك البربرية فى الغرب ، والتحديات المتجددة على جبهتى الشمال الشرق . وأصبحت أية محاولة للعودة إلى الحدود القديمة شيئا غير وارد . على أن طاقات الإمبراطورية الفتية ، ومواردها الاقتصادية ، وقوتها الحيوية الخلاقة ، جعلت من اليسير مواءمة إطارها السياسى حتى أن التقاليد الإمبراطورية والحياة الثقافية للعالم الإيجى ، لم تتعرض لهزة عنيفة فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية ، وانتقلت بلا قصد من العصر القديم المتأخر إلى عالم العصور الوسطى المسيحية المبكر .

---

٢٧- أنظر ما جاء عن جوستنيان فى الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالى الشهير دانتى «المطهر» Purgatory, c. VI 88 و «الفردوس» Paradise, c. V. 117 sqq, c. VI. I sqq (المترجم)

## ٤- الصراع من أجل البقاء فى القرن السابع :

### مشاكل الأسرة الهرقلية

كان خلفاء جوستنيان المباشرون فى القرنين السادس والسابع واقعيين إلى حد القدرة على إعادة تشكيل الإمبراطورية الرومانية وتأكيد استمراريتها . ولم يحى هؤلاء على الأمانى السائدة كما فعل جوستنيان . ولعل أقل قدر من الإنصاف يمكن أن يزجى للشجاعة والتصور اللذين كانوا يعالجون بهما أى مشكلة تعن لهم . وكان عليهم أن يواجهوا العجز المالى فى الداخل ، والاعتداءات المتكررة على جبهات متعددة . فقد غزا اللومبارديون إيطاليا فى سنة ٥٦٨ وأقاموا عددا من الولايات لهم فى شمال شبه الجزيرة ووسطها ، وإن كانت الإمبراطورية قد أفلحت فى الاحتفاظ بشريط من الأرض يمتد من رافنا Ravenna إلى روما ، وكذلك الأراضى الأكثر اصطباغا بالهللينية فى الجنوب . ومع تباشير القرن السابع كانت المناطق التى تم استردادها مؤخرا فى أسبانيا ، قد عادت ثانية إلى أيدى الفيزيقوط، وفقدت بذلك من الإمبراطورية إلى الأبد . أما الصقالبة فقد استمر تقاطرهم على البلقان دون انقطاع .

أدى ضياع الأقاليم الإمبراطورية فى الغرب على هذا النحو إلى أن يصبح أكثر الأمور أهمية ، إنقاذ الحدود الشرقية ، وهنا كان البيزنطيون أقدر على الاحتفاظ بمراكزهم . فقد رفضوا الاستمرار فى دفع الجزية السنوية التى كان جوستنيان قد تعهد بأدائها ، وبعد حروب طويلة ومتقطعة أصبح بوسعهم التوصل إلى معاهدة مرضية مع الفرس فى ٥٩١ ، تمكنوا بمقتضاها من الحصول على جزء من أرمينيا الفارسية ، مما أعطاهم مركزا قويا فى إقليم يعد معينا لاينضب للتجنيد العسكرى . كانت هذه النتيجة تبعث على الارتياح منذ أصبح من الضرورى إيجاد قوات جديدة تحل مكان الجنود الجرمان الذين كانوا يعملون عندئذ فى مناطق أخرى .

ولو أن الإمبراطور موريس Maurice كان قد بنى أياصوفيا ، أو ظهر على الفسيفساء فى كنيسة سان فيتالى San Vitale فى رافنا ، وأشرف على إصدار مجموعة القانون المدنى ، لكان من الممكن التحدث عن «عصر موريس» وليس «عصر جوستنيان» ؛ فقد كان حكمه يمثل نصف امتداد لعهد جوستنيان ، ومع ذلك فقد كان كافيا لإبراز الصفات التى امتازت بها أمور الدولة ، بحيث دعمت قلب الإمبراطورية الرئيسى . ذلك أن موريس انتهز الفرصة التى سنحت له فى السياسة الفارسية ، ومد يد العون للملك الصغير كسرى الثانى Chosroes II ،

ووصل بالحرب الفارسية الطويلة إلى نهاية ناجحة [٢٨]. أما في إيطاليا وشمال أفريقيا ، فإن تنظيماته الجديدة كان لها أثر كبير في إنقاذ ما تبقى من هاتين المنطقتين عن طريق إنشاء اكزارخيتي رافنا وقرطاجة . وقد دعمت سلطة الاكزارخ ، الحاكم في كل من رافنا وقرطاجة ، بجمع السلطتين المدنية والعسكرية في يديه ، وهو نظام استخدم على نطاق واسع في القرن التالي لتسهيل مسألة الدفاع العاجل والضروري عن آسيا الصغرى في مواجهة التهديدات بغزوها من جانب الفرس أولا ثم العرب .

تصدى موريس للمشكلة القائمة على الجبهة الشمالية ، حيث كان الأهالي الرومان في المنطقة الواقعة جنوبي الدانوب يتعرضون مع صبيحة كل يوم لاغارات تستهدف النهب والسلب من جانب جماعات الآفار Avars والصقالبة . وكانت مملكة الآفار قد استقرت الآن شمالي الدانوب ، بينما نزل الصقالبة ، سواء كانوا مستقلين أو تحت سيادة الآفار ، على الدانوب الأوسط أو الأدنى ، وما إن اقترب القرن السادس من نهايته حتى كان الصقالبة . شأن الجرمان من قبل ، قد استقروا داخل الإمبراطورية . وقد توقفت الحملات التي كان موريس قد أنفذها لتجبر الصقالبة على التراجع نتيجة عزله ثم إعدامه بسبب الثورة التي أشعلها الجنود المتمردون الذين لم يستطيعوا احتمال النظام الصارم الذي فرضته الحملات المتكررة على الجبهة الشمالية.

---

٢٨- شهد البلاط الفارسي في عام ٥٩١ تراجيديا مروعة ، انتهى الفصل الأول منها بوضع حد لقساوات هورميزدا ، وذلك بمؤامرة تم تدبيرها داخل القصر ، ليزاح الستار في الفصل الثاني عن تولية ابنه كسرى الثاني ، الذي بدا عاجزا عن الاحتفاظ بحقه الشرعي في مواجهة فاران Varanes الذي تمرد في مبدأ ، واضطر كسرى للهروب إلى قرقيسية Circesium ووضع نفسه تحت رحمة امبراطور بيزنطة ، فقد عرض عليه أن يتنازل له عن ميافارقين Martyropolis ودار وأن يتخلى عن ادعاءاته في أرمينية وأرزانيني Arzanene على الحدود الجنوبية لأرمينيا الفارسية ، في مقابل عونه لاسترداد عرشه . وقد استقبل كسرى بما يليق بمظاهر التكريم ، وقبل موريس العرض وأمده بجيش استطاع هزيمة فاران وإعادة السلطة إلى كسرى الذي أوفى بما عاهد عليه الإمبراطور . وهكذا قدر لجبهة الشرق أن تشهد سلاما ظلت ترقبه طويلا .

انظر في ذلك . C. M. H. vol. II, p. 280

و Vasiliev, op . cit., I, p. 171 و Jones, Later Roman Empire, I. p. 311

لم يضع موريس وقتا أو يبدد مالا فى الاقدام على مشروعات واسعة من أجل استرداد الغرب ، بل كان قليل الاهتمام تماما بالادعاءات الرومانية التى تعود إلى زمن بعيد عن السيادة العالمية ، وأظهرت الرغبة التى أفصح عنها سنة ٥٩٧ أمله الكبير فى أن تكون روما شأن القسطنطينية عاصمة تمارس منها السلطة الإمبراطورية أثناء إقامة الإمبراطور . وأن يقيم ابنه الثانى فى روما ، على أن يبقى أكبر أبنائه فى العاصمة الشرقية الأكثر أهمية . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد أعقب موت موريس فترة من الفوضى (٦٠٢-٦١٠) تمثلت فى الفتن التى وقعت فى المدينة ، والاضطراب السياسى والجدل الدينى ، وأفضى هذا كله إلى نوع من الارتباك الداخلى بدأ معه وكان النصف الشرقى من الإمبراطورية سوف يساقط فى أيدى الصقالبة والآفار من الشمال ، والفرس من الشرق . ولم يلبث كسرى الثانى . وقد استبد به الغضب نتيجة إعدام صديقه وحليفه موريس وأسرته أن ضرب سوريا وفلسطين وعاث فى آسيا الصغرى فسادا .

إلا أن هذا التفسخ العام لم يلبث أن توقف بقدم هرقل Heraclius اكزارخ شمال أفريقيا . ويعتبر هرقل إلى جانب باسل الثانى Basil II فى أواخر القرن العاشر أعظم حكام البيزنط ، ولكن بينما وجد باسل الثانى نفسه فى فيض من نجاح بيزنطى ، ووجه هرقل بموقف غاية فى الخطورة إلى الحد الذى دفعه إلى التفكير فى نقل مقره الإمبراطورى من القسطنطينية إلى قرطاجة ، غير أنه تمكن من إنقاذ الإمبراطورية بحسن استخدامه لموارد دولته . فقد تحالف مع الكنيسة ، واستغل إلى أقصى حد الحماسة المسيحية الصليبية ضد عدو كافر احتل بيت المقدس . واستولى على الصليب الأعظم . وخلال القرن السابع تم ضم ولايات آسيا الصغرى معا (فى وقت تحررها من قبضة الأعداء) ، فى وحدات عسكرية ضخمة تحت سيادة حاكم عسكرى Strategos أطلق عليها ثيمات Themes (وواحدتها ثيما Thema ) وقد رؤى فيما بعد ضرورة تفتيت هذه الوحدات الكبيرة فى آسيا الصغرى للحيلولة دون تركيز سلطات ضخمة فى يد رجل واحد . ومع ذلك فان نظام الثيمات هذا قد انتشر تطبيقه تدريجيا فى الإمبراطورية كلها خلال القرن السابع والقرون التالية . وليس لدينا سجل رسمى عن مثل هذا التنظيم الجديد. وغالبا ما نجد أول ذكر له فى بعض المزمنات أو حياة القديسين . وفى نفس الوقت يبدو أن الجنود قد وطنوا فى مزارع صغيرة تم منحهم إياها فى مقابل الخدمة العسكرية . وكان انتقال هذه الأراضى والالتزام إلى أكبر الأبناء ممهداً لقيام جيش وطنى .

ولاشك أن ما كان يعد في حقيقة الأمر تأصيلا للنزعة الحربية فى الإمبراطورية . قد أرسى دعائم تنظيماتها خلال الحقبة البيزنطية الوسيطة ، وأمدها بالوسائل الكفيلة بايجاد قوة عسكرية وبحرية مقتدرة . وفوق هذا وذاك أصبح للجنود المزارعين قيمة اقتصادية واجتماعية تعدل أهميتهم العسكرية ؛ فقد زادوا فى عدد صغار الملاك ، ودعموا قوة الفلاحين الأحرار الذين يشكلون العمود الفقرى لمجتمع القرية ، يشد من أزرهم قانون الفلاح الذى يرجع أنه يعود إلى أواخر القرن السابع [٢٩] . وكلت الحكومة المركزية تجاهد دوما لتأكيد وضمان الخيرية المستمرة . وتحول دون ابتلاع النبلاء الأقوياء فى آسيا الصغرى ومناطق أخرى لأراضى صغار الملاك .

وكان بناء قوة عسكرية وطنية . وإعادة تنظيم حكومة الولايات ومناطق الحدود ، أمرا يتطلب بالضرورة فترة تمتد طيلة قرنين أو بنيف . وغالبا ما أخفق هرقل وابنه وحفيده فى أن يروا أية نتيجة يمكن توقعها . ولكن المنجزات البارزة التى يزهو بها القرن العاشر تعتمد فى جوهرها على الدعائم التى أرسوها .

تمكن هرقل بعد عدة حملات قام بها فى آسيا الصغرى وما بين النهرين Mesopotamia أن يحطم بنجاح المطامع الفارسية . وفى سنة ٦٣٩ دخل بين المقدس دخول الظافرين ومعه صليب الصلبوت الذى كان الوثنيون قد انتزعوه عندما استولوا على المدينة سنة ٦١٤ . غير أن الهزيمة الفارسية لم تحقق للامبراطورية أى نوع من الأمان ، وذلك أن عدوا أشد قوة وخطرا ظهر بظهور الإسلام . ورغم أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) قد مات سنة ٦٣٢ إلا أن فارس أو بيزنطة لم يقدرا قيمة المد الحقيقى لأتباعه الذين سرعان ما فتحوا فارس وسوريا وفلسطين ومصر ، وهاجموا آسيا الصغرى ، وأغاروا على جزر بحر إيجة ، وأصبحوا بذلك قاب قوسين أو أدنى من العاصمة وتعرضت القسطنطينية لحصار طويل بين عامى ٦٧٤-٦٧٨ ، ولكن الأسطول البيزنطى أوقع الهزيمة بالمسلمين فى عام ٦٧٨ . وكان لهذا الانتصار أهميته بالنسبة للحضارة الأوربية ، شأن قرينه عند القسطنطينية أيضا عام ٧١٨ ، أو التصدى للزحف الإسلامى عند بواتييه Poitiers سنة ٧٣٢ .

هكذا فقدت بيزنطة دون رجعة بعض ولاياتها ، وتقلصت الإمبراطورية الرومانية إلى مجرد جزء فقط من الشطر الشرقى ، وذلك أنه مع نهاية القرن السابع تملك المسلمون سوريا وفلسطين

---

٢٩- يدور جدل كثير حول هذا الصراع . وإن كان هناك اتفاق عام بأن قانون الفلاح يعود إلى أواخر القرن السابع أو بداية الثامن .

ومصر وشمال أفريقيا ، وضاعت كل ممتلكات الإمبراطورية فى الغرب ، عدا بعض أجزاء من إيطاليا (أكزاوخية رافنا وشريط ضيق من الأرض يصلها بدوقية روما ، والأراضى الموجودة فى الجنوب وصقلية) ولكن هذا لم يحدث دون عوض ، فبخضوع البطريركيات الشرقية ، أنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية للمسلمين ، تسنمت القسطنطينية مركزا مرموقا باعتبارها ملتقى أنظار الكنائس الشرقية ، ورسمت لنفسها سياسة تتجنب بها أى تحد جديد قد يعيد إلى ذاكرتها الأيام العظيمة للأسكندرية فى القرن الخامس [٣٠] . كما أدى فقدان الولايات الشرقية بشقاقها العنيد وهرطقاتها المستمرة إلى فتح الطريق أمام إيجاد نوع من التعايش السلمى المؤقت Modus Vivendi عقيديا مع روما . وأصبح من الممكن الآن تركيز الاهتمام حول المشاكل الجوهرية قريبة الصلة بالدولة ذاتها ، مثل الوسائل الدفاعية عن آسيا الصغرى ، المعين الذى لاينضب من الرجال والمال ، أو إقرار كيفية ما من السيادة على الشعوب الصقلبية فى البلقان والمناطق الشمالية . ومن ثم فانه ليس من المبالغة فى شئ القول بأن ضياع الولايات الشرقية يمثل الخلاص للإمبراطورية الرومانية الشرقية .

---

٣٠- يمثل الصف الأول من القرن الخامس الفترة التى احتلت فيها كنيسة الاسكندرية مقعد الصدارة بين كنائس الإمبراطورية ، وتحقق ذلك فى الانتصارات الثلاث المتتالية التى حققها أساقفتها على الأساقفة الآخرين. وقد دار الصراع فى الجولة الأولى بين ثيوفيلوس Theophiulus أساقف الأسكندرية ويوحنا ذهبى الفم Iohannes Chrysostomos أسقف القسطنطينية ، نتيجة لما حسبه الأسقف السكندرى إدعاءات متعجرفة لبطريرك العاصمة ، ذلك أن أربعة من الرهبان المصريين ، كان ثيوفيلوس قد حرمهم ، رفعوا شكواهم إلى يوحنا الذى ربما يكون قد رفض قبول ملتمسهم ، ملتزما بقرارات مجمع القسطنطينية (٣٨١) الذى حرم على الأساقفة التدخل فى شئون زملائهم . ولكن الرهبان لجأوا إلى الإمبراطورة يودوكيا زوج أركاديوس . ومن ثم صدرت الأوامر الإمبراطورية باستدعاء ثيوفيلوس إلى العاصمة . وهناك استغل الأسقف السكندرى كراهية الإمبراطورية لذهبى الفم ودعا إلى عقد مجمع فى ضواحى القسطنطينة ، ورفض يوحنا حضوره ، فصدر ضده قرار الإدانة ثم النفى وإن كان قد أعيد ثانية نتيجة ثورة الجموع . ولكنه ما لبث أن نفى من جديد . أما الجولة الثانية فقد أحرز النصر فيها كيرلس على نسطور فى مجمع إفسوس (المسكونى الثالث) سنة ٤٣١ ، على حين كسب ديوسقوروس الجولة الثالثة فى مجمع إفسوس الثانى عام ٤٤٩ (راجع حاشية ١٧ ص٨٨ ) ولاشك أن هذا الانتصار المتتابع أثار حفيظة القسطنطينية وروما ، فتكاتفت جهودهما لازلال كبرياء الأسكندرية ، وتحقق لهما ذلك فى المجمع المسكونى الرابع سنة ٤٥١ . راجع للمترجم: الدولة والكنيسة : الجزء الخامس .

أنظر

Chadwick The early church, pp. 184-91-205 .

وإبان القرن السابع بدأ الصقالبة فى الاستقرار جنوب الدانوب مباشرة ، وهناك دليل أيضا ، وإن كان لايلقى تأييداً إجماعيا ، على أن الصقالبة أخذوا منذ القرن السابع فصاعدا فى التدفق جنوبا عبر البلوبونيز ، سواء بمزاحمة الأهالى اليونان أو بسوقهم إلى منفى مؤقت إلى الجزر وربما جنوب إيطاليا وصقلية . ومع ذلك فلعل بلاد اليونان لم تخضع لسيادة العناصر الصلقبية إلى الحد الذى تفقد فيه تقاليدها ولغتها الهيلينية . وقد عمل أباطرة الأسرة الهرقلية الأواخر ، خاصة قنسطانز الثانى Constans II (٦٤١-٦٦٨) وجوستنيان الثانى Justinian II (٦٨٨-٦٩٥ ، ٧٠٥ - ٧١١) على إقرار نوع من السيادة الجزئية فى البلقان ، وعلى استغلال هذا الفيض من القوة البشرية . وهكذا تم تجنيد الصقالبة ، وتوطينهم كطبقة ملاك صغار عسكريين فى آسيا الصغرى . ولكن على الرغم من أن الإمبراطورية تمكنت بهذه الطريقة من تحويل هذا الغزو لمصلحتها ، إلا أن بعضا يسيرا فقط من هؤلاء النزلاء الجدد تم استيعابهم داخل الإمبراطورية كرعايا ، على حين ظلت الكثرة الغالبة منهم تتمتع باستقلال حقيقى فى الإمارات الصقلبية التى تشكل فى مجموعها أراض إمبراطورية جنوب الدانوب ، والأخطر من ذلك أنه قرب نهاية القرن السابع شهدت المنطقة وصول عناصر أخرى جديدة أشد عتوا هم البلغار ، الذين ينحدرون من أصول تركية ، مما أضاف تهديدا متزايدا للسلام الرومانى ، بلغ ذروته فى ذلك التحدى الذى تمثل فى قيام الإمبراطورية البلغارية الأولى فى بواكير القرن العاشر .

وفيما عدا فترة قصيرة فقط ، امتد حكم الأسرة الهرقلية مائة عام (٦١٠-٧١١) . وكان أباطرتها الأربعة الكبار يتمتعون بصلابة الرأى والأوتوقراطية. مع شئ من المزاج السوداوى فى

---

وكذلك Hardy , op . cit ., pp. 111-116 .

وأيضا T. Ware, The Orthodox Church . pp. 32-33 .

و Jones , Later Roman Empire, I, pp. 214-216

و Vasiliev . op. cit ., pp. 95, 98 . 99 .

وأنظر SOCRAT. hist . eccl . VII, 30 , 31 . 32 , 34 .

وأيضا SOZOM . hist . eccl . VIII, 2 , 3 , 12 - 14 , 16 - 19 .

فى مظهرهم الخارجى ، وإن كان كل منهم قد أدى دوره بارزا فى تشكيل الإمبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى . فالى عملية الإنعاش العسكرى وإعادة التنظيم الإدارى التى قام بها هرقل ، يعود الفضل فى إنقاذ القسطنطينية من الوقوع فى أيدى الفرس . أما قنسطانز الثانى فقد احتمل عنف هجمات العرب الأولى ، ووجد لديه فى الوقت ذاته متسعا ليتصدى للصقالبة فى البلقان ، على حين نجح قسطنطين الرابع CosnstantineIV فى إنقاذ العاصمة من الحصار العربى ، واستعاد للمسيحية الرومانية الشرقية مكانتها ، بينما استمر جوستنيان الثانى يواجه العرب والصقالبة ويغذى الإمبراطورية بدماء جديدة عن طريق نقل جماعات كبيرة من منطقة لأخرى . ولاشك أن الفضل يعود إلى هذه الأسرة القوية الحاذقة فى إبعاد العرب عن أوربا . كما أن الاستمرار السياسى والثقافى لسيادة التقاليد اليونانية - الرومانية بقى دون انقطاع رغم هجمات الغزاة على أراضى الحدود فى الشمال والشرق، يعززها هجوم بحرى لايفتر . لقد كانت القسطنطينية غالبا مدينة «محاصرة» . ولكنها رغم ذلك لم تسقط إلا فى سنة ١٢٠٤ وفى يد عدو مسيحى .

# الفصل الثانى

# الإمبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى
# ٧١٧ - ١٠٥٦

١- منجزات الأباطرة اللاآيقونيين (٧١٧-٨٤٢).

٢- العصر الذهبى للإمبراطورية البيزنطية .

(أ) العموريون والمقدونيون .

(ب) الزحف إلى الشرق ٨٤٢-١٠٢٥ .

(جـ) القسطنطينية والصقالبة .

(د) بيزنطة والغرب .

(هـ) السياسة الداخلية : الكنيسة والتعليم .

# الفصل الثانى

# الإمبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى
# ٧١٧ - ١٠٥٦

## ١- منجزات الأباطرة اللاأيقونيين (٧١٧-٨٤٢) :

فقد جوستنيان الثانى ، آخر أباطرة الأسرة الهرقلية ، عرشه وحياته نتيجة قساواته الوحشية وطغيانه المتزايد ، وبموته سقط بيت هرقل ، وأعقب ذلك فترة من الاضطراب الداخلى، أججت نيرانه حمى التنافس على العرش ، وصحبه فى الوقت ذاته تجدد هجمات العرب . وفى عام ٧١٧ اعتلى عرش الإمبراطورية ليو الثالث Leo III وهو قائد قوات الناطليق[١] Anatolicon فى آسيا الصغرى ، ويمتاز بشخصيته القوية وكفاءته العسكرية . وينحدر من عائلة تنتمى أصلا لشمال سوريا [٢]. وقد تمكن من أن يضع نفسه على رأس العاصمة فى فترة حرجة عندما تعرضت مرة أخرى للحصار على يد المسلمين .

وتمثل وقفة القسطنطينية الشهيرة ضد العرب سنة ٧١٧ جزءاً يسيراً من صراع عنيف استمر طوال مائة عام وامتد منذ منتصف القرن الثامن ، ومن هذه الناحية فان ما تحقق على يد آخر أباطرة الأسرة الهرقلية وأباطرة القرن الثامن الإيزوريين ، يعد عملا متصلا . وقد أدت الجهود التى قام بها ذلك الرجل صاحب الإرادة القوية و «الميول العربية » ليو الثالث (٧١٧-٧٤١)

---

١- فى سبيل تقوية الوسائل الدفاعية على الجبهة الشرقية لمجابهة الأخطار الكامنة هناك ، أقيمت فى القرن السابع أربعة أقاليم عسكرية عرفت فيما بعد بالثيمات : الأرمنياق Armeniakoi والناطليق Anat-olikoi وهما يحتلان الجزء الأوسط كله من آسيا الصغرى للوقوف فى وجه الجيوش العربية ، من حدود كيليكيا Cilicia فى الشرق إلى شواطئ بحر إيجة فى الغرب، ثم الأبسيق Opsikion بالقرب من بحر مرمرة ومهمته حماية العاصمة من الاعتداءات الخارجية . أما آخرهم فهو الثغر البحرى المعروف باسم كارابيسيان Carabisiani على الشاطئ الجنوبى لآسيا الصغرى لمواجهة الأسطول الإسلامى (المترجم) .

٢- يذكر أحد المصادر المتأخرة أنه ينتمى لمنطقة إيزوريا Isauria فى جنوب شرقى اسيا الصغرى . ومن هنا جاءت صفة الإيزورية التى عرفت بها هذه الأسرة فى أغلب الأحيان .

وابنه الداهية قسطنطين الخامس Constantine V (٧٤١-٧٧٥) إلى تدعيم الحكم الرومانى فى اسيا الصغرى ، بعد أن اهتبلا الفرصة التي سنحت لهما بسبب الاضطرابات التى تعرض لها العالم الإسلامى ، والناجمة عن انتقال الخلافة من الأمويين فى دمشق إلى بنى العباس فى بغداد . ولاشك أن ليو الثالث أفاد من ماضيه[٣] بحيث أصبح يعرف تماما ضرورة تأمين اسيا الصغرى من هجوم العرب ، واستخدم فى ذلك كما جرى التقليد البيزنطى - وسائله الدبلوماسية والعسكرية ، وأدرك القيمة الحقيقية للافادة من حسن علاقته بجيرانه ، وأقدم ابنه قسطنطين الخامس على الزواج من ابنة خان الخزر ، الذى تحتل مملكته المنطقة الواقعة شمالي بحر قزوين. على أنه بعد وفاة قسطنطين الخامس لم تحفظ باحكام الامتيازات البيزنطية فى منطقتى أرمينيا وما بين النهرين ، وشهدت هذه الفترة وحتى منتصف القرن التاسع تقلبات مستمرة بين النصر والهزيمة مع شئ من الخسارة الجسيمة كفقدان كريت (سنة ٨٢٧) . وإن كانت آسيا الصغرى قد تمكنت من الصمود ، واستقرت إلى حد ما الحدود البيزنطة الإسلامية . وطوال ما يزيد على مائة عام امتدت إلى الغرب الإمارات القوقازية بين البحر الأسود وبحر قزوين ، متجهة جنوبا إلى الشواطئ الغربية لكيليكيا . دون أن يدخل فى نطاقها جبال طوروس . وقد سارت حرب العصابات وإغارات التخوم التى كان ينظمها سادة البر ، جنبا إلى جانب الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية فى هذه المناطق . وخلدت ذلك الملاحم البيزنطية التى تناولت سيرة المحارب ديجنيس أكريتاس[٤] Digenis Akritas غير أن القسطنطينية توصلت إلى اتفاق فى الشرق تمكنت بمقتضاه من إنقاذ آسيا الصغرى على الأقل ، فأتاح لها ذلك الفرصة للقيام بهجماتها الناجحة فى عصرها الزاهر زمن الأسرة المقدونية فى القرن العاشر .

أما بالنسبة للصقالبة فى الشمال فقد كان الأمر يختلف عن ذلك ، فلم يكن هناك أدنى أمل فى تحول المسلمين عن عقيدتهم ، بينما لم يكن لدى الصقالبة المهاجرين الوثنيين أى ارتباط بالمسيحية أو الإسلام ، وكانت طرائق حياتهم نصف بدوية . ومن ثم أصبحوا يمثلون

---

٣- ترقى ليو الثالث فى سلك الجندية . وعمل فى خدمة جوستنيان الثانى فى الفترة الثانية من حكمه . ولعب دورا فى الحملة التى وجهت إلى القوقاز ، ثم عين فى عهد أنسطاسيوس الثانى (٧١٢-٧١٥) قائدا على ثغر الناطليق الذى يعتبر أهم الأقاليم البيزنطية فى آسيا الصغرى . وقد أفاده ذلك فى الوقوف على أحسن الوسائل الدفاعية ضد المسلمين (المترجم)

٤- أنظر بعده . (المترجم)

ميدانا فسيحا لأعمال التبشير ومجالا واسعا للنفوذ السياسى والثقافى . ومنذ بدأوا يتحركون باتجاه الجنوب ويعبرون الدانوب فى أعداد ماتذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، ثم أخذوا فى الاستقرار بعد ذلك ، أصبحوا عاملا حيويا فى التطور الداخلى للإمبراطورية البيزنطية . وقبل القرن الثامن كان الصقالبة قد استوطنوا الأراضى البلقانية التى أضحت من بعد موطنا لهم . وكانت بلغاريا هى الدولة الأولى التى هددت القسطنطينية ، وقد تكونت من خليط بضم الصقالبة والبلغار . على أنه حتى القرن الثامن وأوائل التاسع لم تكن هذه الدولة قد توفر لها الاستقرار الذى يمكن أن يشكل للإمبراطورية تهديدا سياسيا خطيرا . ومع ذلك فقد تطلب كل من الصقالبة والبلغار يقظة عسكرية دائمة ، وحظى قسطنطين الخامس بقدر خاص من الاحترام، على الرغم من أنه كان فى عداد الهراطقة، باعتباره قائدا ناجحا فى حملاته المتتابعة فى البقلان ، والتى وضعت حدا لتحركات البلغار التخريبية.

ولم يكن الإيزوريون محاربين فقط ، بل كانوا أيضا إداريين أكفاء . فقد أدخلوا الكثير من التحسينات على التنظيمات التى استحدثت فى الولايات فى القرن السابع . ولما كانت الثيمات الجديدة فى آسيا الصغرى ، كما كانت هذه الولايات التى ضمت إلى بعضها تدعى ، متسعة إلى الحد الذى يحمل فى ثناياه الخطر ، فقد أعيد تقسيمها من جديد ، ويمثل كتابهم فى القانون «المختارات» Ecloga محاولة لتقديم مختصر عملى للاستخدام اليومى ، وهو يعتمد فى جوهره على القانون الجوستنيانى ، ولكنه يعكس بعض التغييرات التى وقعت منذ عهد جوستنيان ، ومن بينها نوعية الجزاءات . وقد جمع بعد ذلك بشكل ما فى مجموعات أو كتيبات ، وإن كان قد ظل غير معروف بسبب صدوره عن امبراطور هرطوقى . وقد تم ترجمة الاكلوجا واستخدامها بواسطة الشعوب الصقلبية المجاورة .

وأمام دواعى اليقظة الدائمة التى اقتضتها أحداث القرن الثامن ، كان لابد أن تتوافر لبيزنطة ثروة ضخمة وموارد اقتصادية وفيرة . وقد هيأ لها موقعها الجغرافى تجارة نشطة ومربحة ، كما ساعد على ذلك أيضا إيراداتها من السلع الكمالية ، وصناعاتها الدقيقة من العاج والطرز والحرير ، ومكنتها قوتها البحرية فى أول الأمر من تسيير دفة التجارة فى البحر المتوسط عبر الطرق التى تعود عليها بالربح ، بالإضافة إلى اتخاذها سياسة تحاملية حازمة تجاه مصر وسوريا . وأصبحت طرابيزون Trebizond والبحر الأسود المنفذين الرئيسيين للتجارة ناحية الشرق الأقصى ، على حين قامت خرسون Cherson فى شبه جزيرة القرم بنفس الدور باتجاه روسيا وأضحت طريق الشمال . أما فى الغرب فلم تعد التجارة بحكترها التجار

السوريون أو اليونان أو المصريون أو غيرهم من الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، بل تقاسمتها المدن البحرية الإيطالية كالبندقية ، أو تلك التي ماتزال ضمن دائرة السيادة البيزنطية في جنوب إيطاليا مثل أمالفي Amalfi أو نابلي .

وفيما تلا من أجيال بيزنطية ، تناولت الألسن الإيزوريين بالتجريح والافتراء ، وجر التناسي والتجاهل ذيولهما على منجزاتهم البناءة نتيجة انتهاجهم سياسة دينية كانت تختلف عقيديا مع الديانة المسيحية الأرثوذكسية . وقد أدى ذلك إلى فتح الطريق أمام الاصطراع الداخلي الذي عانت منه الإمبراطورية ، وتسميم العلاقات مع روما والغرب . ولم يكن ما قد يبدو لائقا ، من استخدام أيقونات Icons أو صور القديسين والمسيح ، بنوع ما في العبادة المسيحية شيئا جديدا . غير أن هذا النوع من العبادة قد أسئ استعماله ، فالجاهل قد يربط ما بين الأيقونة وصاحبها الحقيقي أو يقدم لهذه الأيقونة العبادة التي يجب أن ينفرد بها الله وحده . وقد أثيرت هذه المسألة من جانب بعض الأساقفة في المجمع الذي عقد في القرن السابع [٥] ، ومع ذلك فقد تم الاعتراف بشرعية الاستخدام الصحيح لمثل هذه الأيقونات . وعندما راح ليونتيوس Leontius أسقف نيابولس Neapolis في قبرص القرن السابع ، يفند اتهامات اليهود للمسيحيين بالوثنية ، كتب يقول : «نحن لانضرع للصليب ولا لأيقونات القديسين قائلين «أنت ربي» ، لأنها ليست لنا أربابا . ولكنا نفتح الكتب لتذكرنا بالله ، ولمجده نؤم

---

٥- تشير المؤلفة هنا إلى المجمع الذي عقد بقاعة القبة سنة ٦٩١ أو ٦٩٢ على عهد الإمبراطور جوستنيان الثاني ، وذاع صيته باسم المجمع الخامس السادس Quinisext ، ذلك أن المجمعين المسكونين الخامس (٥٥٢) والسادس (٦٨٠ / ٦٨١) تناولا أمور عقيدية بحتة ، ولم تحظ التنظيمات الكنسية فيهما بنصيب ، ولهذا فقد عقد هذا المجمع وعد عمله استكمالا للمجمعين السابقين . وكان من بين القوانين التي صدرت عنه القانون رقم مائة ، الذي نص على تحريم «الصور سواء بالرسم أو بأي أسلوب آخر ، والتي تجذب إليها العين وتفسد القلب ، وكل من يقدم على ذلك سوف يحرم من رحمة الكنيسة» . ولم يكن ذلك أول بادرة لتحريم عبادة الصور ، فقد كانت الكنيسة في أول عهدها تكره الصور والتماثيل وتعتبرها من بقايا الوثنية خاصة وقد جاء في الكتاب المقدس . «فاحتفظوا جدا لأنفسكم فانكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب في حوريب من وسط النار . لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالا منحوتا صورة مثال ماشبه ذكر أو أنثى ، شبه بهيمة ما مما على الأرض ، شبه طير ما ذي جناح مما يطير في السماء ، شبه دبيب ما على الأرض ، شبه سمك ما مما في الماء تحت الأرض» . (تثنية٤: ١٥ / ١٨) . إلا أن انتصار المسيحية على عهد قسطنطين ، وما كان للبيئة=

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

= والتقاليد والتماثيل اليونانية والفكر فى الشرق ، كل هذا جعل الكنيسة تخفف من غلوائها إزاء هذه الأفكار والمظاهر التى عدتها فى البدء وثنية ، وراح المسيحيون يتبارون فى تشييد الكنائس وتزيينها ، فجعلوا من جدران الكنائس الجديدة توراة وانجيلا مصورين تصويرا ، فبدأوا بجنة عدن وانتقلوا منها إلى بلوطة ممرة وقبر سارة ولقاء يوسف بإخوته ، فموسى والشريعة ، فبيت راحاب ، فسبى اسرائيل ، فبشارة مريم فقيامة ليعازر ، فآلام المسيح ، فموته فقيامته فصعوده ، وكتبوا تحت هذه الصور عبارات تبين مواضيعها . وبمرور الزمن وتوالى الأيام تضاعف عدد القديسين الذين الذين يكن لهم شعب الكنيسة الاحترام والتقدير . وبذلك نشأت الحاجة إلى تذكرهم ، فظهرت لهم وللعذراء صور كثيرة ، وتحول الأمر بعد ذلك عند الجموع إلى حد عبادة هذه الصور والسجود والتماس البركة منها وطلب تحقيق المعجزات على يديها . وعلى هذا النحو انتشرت الصور فى كل مكان ، تراها فى الكنائس ، والأديار والحوانيت وأثاث المنازل والحلى والملابس ، وأخذت المدن التى تتهددها أخطار الوباء أو المجاعة أو الحروب تعتمد على قوة ما لديها من الصور والآثار الدينية للقديسين ، بدلاً من الاعتماد على مهارة الجنود وكفاءتهم العسكرية . وأصبحت الصورة عند آباء الكنيسة هى إنجيل الأمى يقرأ فيها مالا يقدر على فهمه فى الكتاب المقدس . غير أن الكنيسة شهدت منذ بداية القرن الرابع رد فعل عنيفا ضد هذه الظاهرة التى تتهددها ، ففى أسبانيا عقد مجمع الفيرا Elvira ، حوالى سنة ٣٠٠ وأوجب تحريم وجود الصور فى الكنائس (القانون رقم٣٦) ، وأبدى يوساب امتعاضه من تزيين الكنائس وأعلن أن تعليق الصور وإقامة التماثيل محض بدعة وضلال . وبمرور الزمن اشتد إدراك المسيحيين لحاجة الكنيسة إلى الإصلاح والرغبة فى تطهيرها . ولما كان قلب الدولة البيزنطية فى القرنين الثامن والتاسع آسيا الصغرى وأرمينيا ، كان لابد أن تتأثر الإمبراطورية بما ظهر فى هذه المنطقة من مؤثرات دينية تطهيرية ، خاصة طائفة البيالصة Paulicians الذين أنكروا ما للمسيح من جسد مادي وما يرتبط به من فكرة الخلاص لاعتقادهم أن المادة كلها شر ، ومن ثم أنكروا الصليب وكل الأيقونات .

أنظر فى ذلك Percival, op . cit., pp. 407, 523-528

و Hefele, op. cit., I, p. 151. V. p. 236

وراجع أيضا : الدكتور أسد رستم ، حرب فى الكنائس ، ص٨-١٣ والروم ، الجزء الأول ، ص٣٠٤-٣٠٥ وكنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى ، الجزء الثانى ص٨١ .

و Vasiliev, op. cit., I, pp. 251-258

وأومان : الإمبراطورية البيزنطية ص١٤٩-١٥٢ وبينز : الإمبراطورية البيزنطية . ص١١٣-١٢٢ وأيضا Baynes & Moss, op . cit ., pp. 15-16 .105-108 .

الكتائس وإياه نعبد»[٦] وفوق هذا فان مؤيدى الأيقونات فى معرض الإنكار لاستخدامهم لها، كان لابد أن يؤدي ذلك حتما إلى تعقيدات لاهوتية ، ذلك أنه إذا كانت الكلمة حقا قد صارت جسدا وحلت بيننا ، وإذا كان المسيح قد صار إنسانا ، لأضحى من الممكن تصويره أو تمثيله .

وربما تعزى محاولة وضع حد لاستخدام الأيقونات بادئ الأمر فى القرن الثامن ، ثم محاولة القضاء عليها ، إلى التأثير الإسلامى ولو بصورة جزئية ، ومن الممكن أيضا وضع التأثير اليهودي فى الاعتبار ، وقد تمثلا بشكل واضح فى أراضى آسيا الصغرى ، وإن كانت المسألة قد عولجت قسراً عن طريق الأوامر الإمبراطورية ، ويعد قسطنطين الخامس ، فى منتصف القرن الثامن ، الممثل الحقيقى ، أكثر من أبيه ليو [٧]، لمناهضى الأيقونات يؤيده فى ذلك عدد كبير من رجال الكنيسة والجنود وكل من لاينتمى إلى الأصل الأوروبى من أهالى الإمبراطورية . وقد استطاع أن ينظم صفوف فريقه بمهارة فائقة ، وراح يشجع الجدال والمناظرة ، ويلقى القبض على خصومه فى النهاية ، ويكتب بنفسه بعض المقالات فى اللاهوت ، محاولا أن يكسب إلى جانبه بالحسنى الآباء الديرانيين المتشددين ، فلم تكن لديه الرغبة فى أن يجعل منهم شهداء. وقد دعا إلى عقد مجمع كنسى عام ٧٥٤ أمه ٣٣٨ أسقفا وتقرر فيه أن السياسة اللاأيقونية تتفق تماما مع التقاليد الأرثوذكسية . غير أن البابا والغرب ، وبصفة خاصة إيطاليا، تحفظوا

---

و Hughes. op . cit., pp. 118-126

وكذلك Acton, Essays on Church and State, pp. 97-99

و Encycl . of Religion and Ethics, art . Iconoclasm

و C. M. H. vol. IV , pp. 9 sqq. وOman , op. cit., pp. 300-321 .

وأنظر EVSEB , hist. eccl. VII, 18 المترجم .

٦- N. H. Baynes, Byzantine Studies, p. 232 .

٧- أخذ ليو الثالث أول أباطرة الأسرة الإيزورية على عاتقه مهمة تطهير العقيدة المسيحية من الشوائب والوثنيات التى لحقت بها ، فأصدر فى سنة ٧٢٦ قراره بانزال أيقونة المسيح القائمة عند أحد مداخل القصر الإمبراطورى وقابل هياج العامة فى العاصمة بالقمع وعزل أسقف العاصمة جرمانوس الأول الذى عارضه الرأى ، وعقد مجلسا فى سنة ٧٣٠ ضم كبار الموظفين وكبار الشيوخ وبعض رجالات الكنيسة لإقرار السياسة التى ينتهجها فى محاربة الصور ، واستتبع ذلك ممارسة الاضطهاد ضد الأيقونيين ، وازدادت العلاقات سوءا مع روما التى كانت تناصر تقديس الأيقونات . وقد سار قسطنطين الخامس على نفس السياسة ، ولكنه كان أشد عنفا وضراوة من أبيه (المترجم)

على ذلك القرار . وكانت تلك فرصة مناسبة كي يبدى الحكام الكارولنجيون امتعاضهم ، وجعل شارل العظيم Charles the Great من نفسه فيما بعد حامي الأرثوذكسية في الغرب ، حتى بعد أن أعلن المجمع المسكوني السابع المنعقد في نيقية[٨] سنة ٧٨٧ نبذه لهذه الفكر الهرطوقية . ولقد انفجرت الحركة مرة أخرى في القرن التاسع وإن كانت أكثر اعتدالا وأقل تنظيما وأعيدت الأرثوذكسية ثانية وللمرة الأخيرة في المجمع الكنسي الذى عقد سنة٨٤٣[٩].

---

٨- آخر المجامع المسكونية بالنسبة للكنيسة الشرقية ، وقد دعت إليه الإمبراطورة إيرين زوج ليو الرابع الايزوري، وكانت تنحدر من أصل آثيني ولهذا كانت شديدة التعلق بالصور ، شديدة الكراهية لسياسة الإيزوريين ، وكان لها تأثيرها على زوجها الذى ظهر معتدلا في سياسته بعكس أبيه قسطنطين الخامس وجده ليو الثالث . وكان من المقرر عقد هذا المجمع سنة ٧٨٦ في القسطنطينية، ولكن الجيش - وكان معظمه من اللاأيقونيين - هاجم المؤتمرين وانفض المجمع . فعملت ايرين على نقل هؤلاء الجنود خارج العاصمة ، واستبدلتهم بغيرهم، وعقد المجمع ثانية في مدينة نيقية في العام التالي ، وقرر إلغاء قرارات مجمع هيريا الذى عقده قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤ ، والعودة إلى عبادة الصور المقدسة ، وإن كان المجمع قد رأى التفرقة والتمييز بين العبادة الخاصة بالله والقداسة الموجهة للصور.

أنظر Percival, op . cit., pp. 523-542 .

وكذلك Hefele , op . cit., V, pp. 342-390 .

و Vasiliev, op. cit., I, pp. 263-265 ودكتور أسد رستم : حرب في الكنائس ، ص٤٣-٤٦، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى ، الجزء الثانى ص٩٥-٩٧(المترجم)

٩- بدأت حرب الأيقونات الثانية على يد ليو الخامس الأرمني (٨١٣- ٨٢٠) الذى أعلن أن ما حل بالدولة من كوارث إنما يعود إلى عبادة الأيقونات ، فعزل أسقف القسطنطينية سنة ٨١٤ لمعارضته إياه . وعقد مجمعا في نفس العام في كنيسة أيا صوفيا قرر فيه تحريم عبادة الصور وإعادة إقرار ما صدر عن مجمع هيريا سنة ٧٥٤ . بينما تأرجحت سياسة ميخائيل الثانى العمورى ( ٨٢٠-٨٢٩) بين الشدة والتسامح ، فلما كان عهد ثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢) ازدادت نيران هذه الحرب ضراوة ، ولكن نلاحظ على الحرب الثانية بصفة عامة أنها كانت أقل عنفا من الحرب الأولى زمن الإيسوريين . فقد نظم الأيقونيون الآن صفوفهم ولم يؤخذوا بغتة كما حدث في القرن الثامن . وتمسك الرهبان بالأيقونات ووقفوا يتحدون الأباطرة في صلابة . وإذا كانت الحرب الأولى قد أخمدت على يد ايرين ، فان الحرب الثانية والأخيرة قد انتهت على يد تيودورا زوجة تيوفيلوس . فدعت في عام ٨٤٣ إلى عقد مجمع كنسي أصدر قراراته باعادة قوانين مجمع نيقية (المسكوني السابع) . واختتم المجمع جلساته باقامة قداس مهيب في ١١ مارس ٨٤٣ ، ولايزال هذا اليوم يحتفل به عيدا أرثوذكسيا في الكنيسة اليونانية (المترجم)

ويعتبر القديس يوحنا الدمشقى[١٠] St. John of Damascus زعيم الكنيسة المدافع الأساسى عن الاستخدام التقليدى للأيقونات . وفى عدد من الرسائل الشهيرة المتلاحقة صاغ يوحنا الأدلة اللاهوتية لاستخدام الأيقونات ، بحيث أصبحت من بعد سلاحا ماضيا اعتمد عليه الأيقونيون صراحة فى دفاعهم . وكان القديس يوحنا يعيش داخل الأراضى الإسلامية ، وقضى السنوات الأخيرة من عمره داخل الأديرة القريبة من بيت المقدس ، وبهذا كان بمأمن من أن تصل إليه يد السلطة الإمبراطورية . أما الزعامة الديرانية داخل الإمبراطورية فقد تمثلت فى القديس ثيودور[١١] Theodore رئيس دير ستوديوس فى القسطنطينية ، وقد تعرض للنفى مرات عديدة بسبب إيمانه الصريح الذى لايتزعزع بالأيقونات . ومع ذلك فقد كان هناك شئ آخر يمكن ليوحنا الدمشقى وثيودور الاستوديى الاعتماد عليه ، أعنى حق الكنيسة فى الانفراد بتقرير أمور العقيدة . ومهما يكن من أمر ، فقد انتهى ذلك الجدال بالتوصل إلى طريق وسط . فقد ظل الارتباط التقليدى الوثيق بين الدولة والكنيسة قائما ، وأعيد من جديد الاستخدام البعيد للأيقونات ، وإن كان قد لزم التأكيد على التمييز بين العبادة التى يجب أن ينفرد بها الله وحده ، والتقدير الذى يمكن أن يقدم للمخلوق وما يبدعه .

---

١٠- يوحنا الدمشقى هو أحد رهبان دير القديس سابا قرب بيت المقدس ، توفى سنة ٧٥٠ لم تكن خطورته على أعداء الأيقونات قاصرة على معارضة سياستهم الدينية ، بل فيما نادى به من آراء حول سلطة الجالس على العرش ، فقد فصل بين السلطتين الزمنية والروحية وأكد ذلك بقوله : «ونحن نطيع الإمبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية أي في الولاء والضريبة ، وما يحق له علينا من الجبايات . أما فى الحكومة الكنسية فلنا القسيسون والمبشرون بالكتاب المقدس وشارحو القوانين الكنسية . فالتنظيم السياسى من اختصاص الإمبراطور ، أما التنظيم الكنسى فهو من اختصاص القسيسين ، وليس تجريدهم منه إلا من قبيل اللصوصية » . وإذا كان يوحنا الدمشقى قد تولى مهمة التصدي للايزوريين، فقد قام ثيودور الاستوديى بنفس الدور تجاه العموريين، وقد تعرض للنفى، وهو الوسيلة الوحيدة التى وجدها الأباطرة للخلاص منه ومات سنة ٨٢٦ ولم تكن أقواله تخرج عما ذكره سلفه يوحنا الدمشقى ، فقد راح يخاطب الإمبراطور ليو الخامس الأرمنى بقوله :«ولاتعكر صفو الكنيسة. فالرسول قال - وهو الذى أعطى بعضا أن يكونوا رسلا ، وبعضا أنبياء ، وبعضا مبشرين، وبعضا رعاة ومعلمين ، وهكذا لم يذكر الأباطرة . وقد أعطاك الله مقاليد الدولة والجيش فاعتن بها واترك الكنيسة لرعاتها ومعلميها . وإذا كنت لاترضى ، فاننا لانصغى لما تقول ولو نقله إلينا ملك من السماء». ولاشك أن الرهبان قد لعبوا دورا بارزا فى التصدي للسياسة اللاأيقونية التى اتبعها الأيزوريون والعموريون ، خاصة عندما أقدم قسطنطين الخامس على الاستيلاء على عدد من المؤسسات الديرانية وجعل منها مرافق عامة للدولة . وقد خسرت بيزنطة الكثير من جراء ذلك عندما هاجر عدد كبير جدا من الرهبان إلى الغرب هربا من هذا الاضطهاد حاملين معهم الكثير من الأعمال الفنية الرائعة (المترجم)

١١- راجع الحاشية السابقة .

هكذا عادت بيزنطة إلى الأرثوذكسية ، ولكن الآثار الناجمة عن هذا الجدال ظلت باقية لزمن طويل خاصة فى الخارج ، فقد أقدم الإمبراطور ليو الثالث عام ٧٣٢ على فصل مناطق جنوب إيطاليا والليريا عن السيادة البابوية ، وأخضعها لسلطة بطريرك القسطنطينية . وقد اغتمت البابوية طويلا نتيجة هذا الإجراء الذى كان سببا فى اضطراب العلاقات بين روما والقسطنطينية فى القرن التالى . يضاف إلى هذا ، أن الحقيقة القائلة بأن الأباطرة الرومان ليسوا إلا هراطقة ، (بالإضافة إلى انشغالهم بالجبهات الأخرى) ، أدت إلى أن تنشد البابوية ، ربما كرها ، العون من حكام الفرنجة فى الغرب . وهكذا حمل الكارولنجيون على التدخل فى السياسة الإيطالية والارتباط الوثيق بالبابوية . وقد عمق هذا من الطبيعة النظرية للادعاءات البيزنطية بامبراطورية مسيحية عالمية ، ومع هذه البدايات راحت «الإمبراطورية» الغربية المنافسة تأخذ طريقها إلى الظهور .

ورغم أن شارل العظيم استطاع فى أوائل القرن التاسع أن يحصل على اعتراف مؤقت بلقبه الإمبراطورى من إمبراطور بيزنطى واهن الإرادة ، ورغم أن الاضطرابات العقيدية التى كان يعانى منها العالم الأرثوذكسى آنذاك قد انعكست على الحياة فى القسطنطينية حتى القرن العاشر (رغم ما تم التوصل إليه سنة ٨٤٣)[١٢] ، لم تلبث التسمية المصطنعة لـ «امبراطورية» شارل أن توارت بالحجاب ، بينما أخذت الإمبراطورية الرومانية الحقة تنتقل بثبات منذ منتصف القرن التاسع من قوة إلى قوة، لتحقق ما يمكن اعتباره مع شئ من التبرير قمة منجزاتها فى العصور الوسطى . وهكذا تمكنت بيزنطة من أن تخرج بنجاح من الأزمات التى دهمتها فى القرنين السابع والثامن، بعالم يونانى - رومانى وطيد الأركان ، حقيقة محدود المساحة، ولكن يدعمه موقع استراتيجى ممتاز يضع إحدى قدميه فى اسيا والأخرى فى أوروبا .

---

١٢- فى نفس العام (٨٤٣) الذى شهد خاتمة الحروب ضد الأيقونات كانت الإمبراطورية الغربية تشهد نزوعا إلى الاستقرار، وإن كان على شكل انقسام ، فقد قسمت امبراطورية شارلمان قبل وفاته سنة ٨١٤ ، جريا على عادة الجرمان ، بين أبنائه الثلاثة انقساما ، يتفق وطبيعة الأقاليم التى تتكون منها ، ولكن إرثه انحصر فقط فى لويس التقى بسبب موت أخويه ، فلما مات هذا الأخير سنة ٨٤٠ ، دار الصراع عنيفا بين أبنائه الثلاثة وانتهى الأمر بعقد معاهدة فردان سنة ٨٤٣ ، التى تم فيها تقسيم الإمبراطورية بين الإخوة الثلاثة ، فذهب لويس بالمنطقة التى أصبحت فيما بعد ألمانيا ، وخص شارل ما عرف بعد ذلك بفرنسا ، واحتفظ لوثر بالمنطقة الوسطى التى أصبحت تعرف باسم لوثارنجيا (اللورين) واحتفظ بلقب الأمبراطور .=

## ٢- العصر الذهبي للإمبراطورية البيزنطية :

### (أ) العموريون والمقدونيون

شغل العرش البيزنطي فيما بين عامي ٨٢٠-١٠٥٦ بأسرتين ، احداهما قصيرة الأجل تمثلت في البيت العموري ، والثانية العائلة المقدونية التي حكمت قرابة قرنين من الزمان. ولعله يبدو خطأ أن نفصل بصورة قاطعة بين الأسرتين ، حيث عنت لهما تقريبا نفس المشاكل ، واشتركتا إلى حد كبير في نفس الإنجازات . وكان ميخائيل الثالث Michael III العموري (الذي يدعى أحيانا ودون وجه حق «السكير») قد قتل في عام ٨٦٧ على يد باسل Basil وهو سائس صغير للخيول ، ينتمي إلى أصل قروي، كان قد أصبح من المقربين إلى الإمبراطور، بل أضحى امبراطورا شريكا . ويعتبر باسل هذا «المقدوني» ، (ويعود نسبه أساسا إلى أصول أرمينية) المؤسس الحقيقي للأسرة التي ضربت جذورها راسخة في الأرض البيزنطية ، حتى أن آخر أفرادها ، الأختين المسنتين زوي Zoe وثيودورا Theodora لقيتا العون الكامل رغم عجزهما الواضح عن التصدي لأعباء الدولة . وقد قدم البيت المقدوني للعرش نوعيات مختلفة: باسل الأول استطاع أن يجعل من نفسه بصورة فائقة وريثا للتقاليد الإمبراطورية البيزنطية، على حين اثبت ابنه ليو السادس Leo VI الحكيم أنه أديب وكاتب أكثر منه جنديا، إلى جانب اهتمامه العميق بمواصلة الجهود التشريعية التي شهدها عهد أبيه . أما قسطنطين السابع ConstantineVII والذي أريد له أن يظل طفلا لفترة طويلة (١٣)، ابن ليو من زواجه الرابع (الذي عد زواجا غير شرعي) فقد ذاع صيته لانشغاله بالأدب والفن ، وفوق هذا وذاك المؤلفات التي وضعها حول إدارة أمور الدولة ، وجهد ليضع بها أمام الأجيال المتعاقبة أسس الدبلوماسية البيزنطية تجاه جيران الإمبراطورية وأعدائها ، وكذا مراسم البلاط عبر هذه

---

= أنظر : Pirenne, op . cit., pp. 128-133

وأيضا Oman , op . cit., pp. 409-sqq .

وكذلك Davis , op . cit., pp. 159-162

و Strayer & Munro . op . cit., pp . 102-103.

وكذلك Stephenson, op . cit., p. 170

و Thompson & Johnson, op. cit., pp. 281- 282 .

١٣- كان قسطنطين السابع واقعا تحت وصاية القائد البحري الشهير رومانوس لكابنوس Romanus Lecapenus الذي جعل من نفسه الإمبراطور السيد ، وأنزل قسطنطين ، الإمبراطور الشرعي ، إلى مرتبة الإمبراطور الشريك . بل رفع أبناءه أيضا إلى هذه المرتبة ، وظل يسيير دفة الدولة طيلة أربع قرن (٩١٩-٩٤٤) وكف أيدي قسطنطين طوال هذه السنوات عن ممارسة سلطانه . وفي عام ٩٤٤ دبر أبناؤه ضده=

القرون الطويلة والتي تتناغم وفصول السنة الميلادية . بينما لم يعمر ابنه رومانوس الثاني Romanus II طويلا ولعل رومانوس كان مسئولا عن ذلك إلى حد كبير ، فقد اتضحت عبقريته الأثيمة في زواجه من ثيوفانو Theohano الإبنة الطامحة الأنانية لصاحب إحدى الحانات ، إذ سرعان ما مات رومانوس عام ٩٦٣ مخلفا وراءه صبيين هما باسل الثاني وقسطنطين الثامن ، وريثين له، وقد تمكن أكبرهما باسل فيما بعد من أخذ زمام المبادأة ليغدو بذلك الحاكم الأول صاحب السيادة الفعلية ، بينما قنع أخوه قسطنطين، الذى كان قد توج شأن باسل وهو غض العمر ، بموقع الإمبراطور الشريك . ويعد باسل الثاني بحق آخر حكام الأسرة المقدونية المقتدرين . وقد استطاع أن يحتل مكانة مرموقة بين أولئك الأباطرة الذين تدين لهم الإمبراطورية البيزنطية بالكثير ، ولما كان قد عانى فى شبابه الباكر من جراء المؤامرات والدسائس التى كان عليه أن يواجهها ، فقد أضرب عن الزواج ، وغدا حاكما صعب المراس صارما ، وقائداً من الطراز الأول لايعرف الملل ولا الرحمة فى مشروعاته العسكرية . سياسيًا حاذقًا فى تعامله مع البلغار المتهزمين ، أو فى سيادته على الأسر صاحبة النفوذ المتزايد خطورة. ولكن هذا كله دون الاهتمام بذلك الشغف البيزنطى بالأنشطة الثقافية والفنية ، أو ازدراء لمراسم البلاط . وربما كان يحمل بين جوانحه عواطف إنسانية ، كما يدعى ميخائيل بسللوس (١٤) Michael Psellus ذلك المؤرخ الذى كان يدور فى فلك العرش ، غير أن طابعه المميز كان يتمثل فى كونه رجل دولة صارما سافرا . فلما قضى باسل الثاني نحبه ، أكره أخوه قسطنطين الثامن ، الإمبراطور الشريك ، على الخروج من حياة الدعة التى كان يعيشها فى الظل ، ليحكم منفردا ثلاث سنوات سويا (١٠٢٥ - ١٠٢٨) ولما لم يكن له ولد ، فان بناته الثلاث أمسين يمثلن آخر سلالة البيت المقدونى . يودوكسيا Eudoxia التى آثرت أن تعكف على نفسها فى أحد الأديار ، وحذت ثيودورا حذوها ، وإن كانت قد أرغمت على أن تترك الدير لتعتلى العرش فى منتصف القرن الحادى عشر. أما زوى Zeo فقد خلفت وراءها شهرة لسمعة ملطخة ، يمكن أن تبعث إلى الحياة من خلال ذلك الوصف التفصيلى الذى كتبه عنها بسللوس لمعرفته الوثيقة بها، تدعمه صورتها الفسيفسائية التى تشد الرائين، والتى تم الكشف عنها على جدران أيا صوفيا ، وكانت زوى ببشرتها البضة الناعمة، وعنايتها الفائقة بتألقها

---

= مؤامرة تم فيها القبض عليه ، وقد استغل قسطنطين هذه الفرصة التى سنحت له . فلم يسمح لولدى رومانوس بأن يفرضا عليه من جديد سلطة أبيهما . وأيده فى ذلك أهالى العاصمة . فأعدمهما سنة ٩٤٥ ، وهكذا تولى الحكم وهو فى سن الأربعين (المترجم) .

١٤- أنظر بعده (المترجم) وراجع للمترجم: ميخائيل بسللوس من خلال كتابه «التاريخ الزمنى» - مجلة كلية الآداب - جامعة صنعاء - العدد الثانى ١٩٧٩ .

وجمالها ، بطابع الحسن فيها وطلعة بهية . عابثة تجرى وراء الخزعبلات مؤمنة بها، متلاقة تعوزها الحكمة، أملت عليها اعتبارات محض شخصية اختيار أزواجها ، أو ابنا يتبنى. ولم تكن ثيودورا إلى جوارها شيئا مذكورا . هكذا أمسى بيت باسل الأول بهاتين الكهلتين إلى أفول، تناضلان من أجل الحفاظ على عرشهما بمنجاة من ذلك الولاء غير الصحيح لاسرتهما .

وفيما بين باسل الأول وسميه الثاني ، فقط ، تنحصر كل الانجازات الرائعة التى رفعت كثيرا من قدر الإمبراطورية البيزنطية خلال هذه الفترة الطويلة ، ولقد تعرضت الإمبراطورية إبان القرن الحادى عشر لبعض المشاكل التى نجمت عن حداثة سن بعض أباطرة البيت المقدونى، أو عجز بعضهم عن إدارة أمور الدولة وإن كان قد أمكن التغلب على هذه المشكلة بذلك النظام البيزنطى الذى يسمح بوجود إمبراطور شريك دون تهديد لوحدة الحكومة . وكان أمرا مألوفا أن يتوج الأمير إمبراطورا هو يحبو فى مدارج الطفولة ، أو حتى وهو بعد رضيع ، ومن ثم تسنح الفرصة لأحد قادة الجيش أو الأسطول ، أوتى من القوة قدرا يجعله يمر بعملية التتويج التى تدفعه إلى ادعاء مرتبة الإمبراطور الأول . ولعله من أوضح الأمثلة على ذلك أنه خلال قصور قسطنطين السابع ، وحتى بعد أن بلغ سن الرشد ، اعتلى الادميرال رومانوس لكابنوس Romanus Lecapenus العرش باسم رومانوس الأول (٩١٩-٩٤٤) واستطاع أن ينقذ بقوة شكيمته وحسن تصريفه للأمور، الإمبراطورية فى الداخل والخارج، على الرغم من أن قسطنطين السابع الذى تزوج من هيلينا Helena ابنة رومانوس الأول وصاحبة الإرادة الحديدية. قد ذهب بعيداً فى وصف صهره (الذى كان يحمل له كل الكراهية ) بأنه «جاهل حقير». وفى أخريات القرن العاشر كان نقفور فوقاس Nicephorus Phocas واحدا من أبرز القادة على الجبهة الشرقية ، ينتمى لعائلة من أكبر عائلات الأرستقراطية الزراعية . وقد أقدم على الزواج من الوصية على العرش ، الملكة الأم ثيوفانو، ومن ثم توج إمبراطوراوأقام من نفسه وصيا على الإمبراطورين المقدونيين الصغيرين، باسل وقسطنطين . وكان هذا يتفق تماما مع الواقع العملى للحكومة البيزنطية . وقد دفع هذا ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona ، المبعوث الحانق الذى قدم من إيطاليا فى عام ٩٦٨، إلى أن يحمل انطباعا يعد إلى حد ما غير واقعى، عندما أصر على اعتبار نقفور الثانى محدث نعمة أزاح عن السلطة «سيديه». ولما اغتيل نقفور فى ليلة ثلجية فى مشهد تراجيدى بتحريض من ثيوفانو، التى ربما وجدت فى طباعه صرامة لاتتناغم وهواها ، قبض منافسه يوحنا تزيمسكس John Tzimisces على زمام الأمور،

وأضفى على مركزه صبغة قانونية بحمل البطريرك على تتويجه . وكان يوحنا تزيمسكس آخر الأباطرة الشركاء ذوى النفوذ . وبات واضحا أن باسل الثانى لم تكن لديه نية السماح بمثل هذه الأساليب فى عهده، ومن بين الأزواج الثلاثة لزوى، وكان هناك واحد فقط ، هو ميخائيل الرابع Michael IV قادرا بحق على أن يغل يدها ، ولسوء الحظ لم تشهد تلك الآونة سياسيا أو قائدا يقدم على انتهاز هذه الفرصة عند الاقتضاء ويفرض على الحكومة إرادته .

ولقد تدعمت السلطة الإمبراطورية خلال حكم الأسرة المقدونية بشكل غير محدود بهذه الأرضية الأسرية الوطيدة ، يزيدها رسوخا ذلك النظام الرومانى المألوف الذى يتمثل فى الأباطرة المشاركين ، حتى غدت بيزنطة مرة أخرى القوة الرئيسية فى حوض البحر المتوسط الشرقى. وتمكنت من وقف التقدم الإسلامى فى آسيا الصغرى . كما أن الهرطقة اللاأيقونية ، التى كان واضحا أنها تتشابه إلى حد كبير مع وجهة النظر السامية ، تم شجبها ، بل إلى حد ما اجتثاثها ، وتم قبول بيزنطة عضوا فى الجماعة المسيحية . وكان انتصار الصور انتصارا للروحية اليونانية الرومانية ، على الرغم من أن ذلك ليس استثناء عاما لعملية الامتزاج بين التأثيرات الشرقية والغربية . وليس هناك من شك فى أن مركز بيزنطة فى النصف الأول من القرن التاسع كان ما يزال يفتقد الثبات . ذلك أن نفوذها فى إيطاليا والدوائر البابوية كان قد تضاءل إلى حد كبير ، كما أنها تعرضت لكوارث بحرية محققة فى البحر المتوسط من جانب الأسطول الإسلامى، هذا إلى أن العناصر الصقلبية والبلغارية التى استوطنت البلقان لم يعد زمام أمرها بأيدى السلطات البيزنطية . وعلى الرغم من أن البحرية الاسلامية فى شمال أفريقيا كانت تشكل قوة كبيرة إلى الحد الذى مكنها من مهاجمة بعض المناطق الاستراتيجية مثل كريت (التى فقدت سنة٨٢٧) أو صقلية ، والإغارة على جنوب إيطاليا والأملاك البيزنطية الأخرى ، إلا أن طاقة القسطنطينية الاقتصادية وتجارتها مع الشرق عن طريق طرابيزون وما بين النهرين أخذت فى الرواج ، بينما نمت علاقاتها مع روسيا . ورغم الازدياد الواضح فى قوة بعض المدن البحرية الإيطالية ، وعمليات التهريب التى كان من الصعب القضاء عليها ، إلا أن القسطنطينية ظلت تقوم بتنظيم تسويق صادراتها المرتفعة الثمن. لقد كان لدى القسطنطينية موارد اقتصادية ، وإدارة متطورة ، وخدمة مدنية راقية ، ونسق من الحكومة المحلية طبق منذ القرن السابع ليواجه باطراد الاحتياجات المتجددة ، وفوق هذا كله فقد كانت تملك وحدة الهدف الذى يتجمع فى ذلك الكيان الإمبراطورى ، مع إدراك واع لكل المسئوليات ، وعلى هذه الدعامات أقام العموريون والمقدونيون منجزاتهم .

ويتمثل نجاحهم فى توسيع رقعة الحدود فى آسيا الصغرى ، وإحياء القوة البحرية شرقى المتوسط ، واجتذاب الجماعات الصقلبية فى روسيا والبلقان ضمن دائرة الثقافة البيزنطية وإخضاعها لنفوذ الإمبراطورية السياسى ، مع ما صاحب ذلك من تمدد جديد فى أطرافها بحيث أمست المملكة البلغارية ضمن حدود الإمبراطورية . ولاشك أن هذه الإنجازات كان لها دلالاتها الهامة، فهى من ناحية أعاقت ، بل ربما أوقفت إلى حد ما ، الزحف الإسلامى فى أوروبا . ومن الأخرى كان لها تأثيرها الفعال فى الارتقاء بالصقالبة الجنوبيين .

(ب) الزحف إلى الشرق (٨٤٢-١٠٢٥)

فى منتصف القرن التاسع كانت الحدود البيزنطية فى آسيا الصغرى تأخذ طريقها ناحية الجنوب حين ينعطف البحر الأسود باتجاه الشمال شرقى طرابيزون إلى الفرع الشمالى من الفرات ، ثم تنحدر جنوبا بغرب حتى تصل إلى البحر المتوسط . مخلفة وراءها طوروس ، وسلسلة طوروس الداخلية . والجزء الأكبر من كيليكيا تحت السيادة الإسلامية . وطوال القرنين التاليين لم يكن الصراع على هذه الجبهة يمثل إلا سلسلة متصلة من الانتصارات البيزنطية ، وإن أمكن القول على أحسن الفروض أن الفترة التى انقضت على عهدى الأسرة الهرقلية والأباطرة اللاأيقونيين ، تعتبر انتصارا للقيادة العسكرية والدبلوماسية البيزنطية ، وإقامة الثيمات . فمن الناحية العسكرية وجه الإمبراطور ميخائيل الثالث كل اهتمامه إلى تدعيم وتقوية القلاع المقامة فى منطقة الحدود ، خاصة تلك التى تتحكم فى الممرات الاستراتيجة . هذا إلى أن الحملات المستمرة التى خطط لها قواده ، إلى جانب الهزيمة الحاسمة التى لقيها أمير ملطية Melitene الذى قام بالهجوم على ثغر الأرمنياق ، أدت إلى أن تتحول عمليات الغزو بعد ذلك إلى الأراضى الإسلامية ، فاستولى باسل الأول على لؤلؤة Lulum التى تتحكم فى الممر الهام بالنسبة لمدخل كيليكيا من ناحية الجنوب ، وكان ذلك فى حد ذاته أولى الخطوات الفعالة فى سبيل حرمان الهجمات الإسلامية السنوية من معاقلها الجبلية ، كما أن باسل أوقع بالبيالصة Paulician الهراطقة الذين يقيمون حول تفريق Tephrice هزيمة قاسية . وذهب ليو السادس خطوة أبعد من ذلك بضم الأراضى المتاخمة الواقعة بين فرعى الفرات والتى تؤدى إلى منطقة الجزيرة ، وفى عهد رومانوس الأول اندفع قائده الشهير يوحنا كوركواس John Curcuas (الذى ينحدر شأن الإمبراطور من أصل أرمنى) داخل أرض الجزيرة وأرمينيا . على الرغم من المقاومة العنيفة التى أبداها سيف الدولة (الحمدانى) أمير الموصل وحلب إلا أن

يوحنا استولى على ملطية وعدد من المدن ناحية الشرق شمالي الجزيرة (ميافارقين -Mar tyropolis ودارا Dara). وفى سنة ٩٤٤ هاجم الرها Edessa واستعاد ذلك المنديل الثمين الذى كان المسيح قد جفف به وجهه والذى انطبعت عليه ملامحه[١٥] وهكذا تمكن البيزنطيون من التوغل فى منطقة دجلة والفرات، وراحوا يحكمون سيطرتهم على المرتفعات الكليكية.

لم يتوقف نجاح الجيوش المسيحية، ويعود ذلك إلى عدد من العوامل المتشابكة، فالسلطات البيزنطية كعادتها دائما كانت تشجع أى تحالف ممكن، وتستغل فى الوقت ذاته إلى أقصى حد تلك الخلافات القائمة بين حكام المسلمين، أو الصراعات الناشبة بينهم الناجمة عن تضارب مطامحهم. ولعله كان مما يدخل السرور على قلب بغداد ومصر الفاطمية أن يروا قوة أمير الموصل وحلب تهن فى منتصف القرن العاشر أمام الزحف المسيحى فى ميزوبتاميا الشمالية، لعله أيضا كان من الحكمة فى نظر دمشق أن تعترف بسيادة يوحنا تزيمسكس التى أخذت تزداد باطراد فى فلسطين عام ٩٧٤. ولم يكن يقل عن ذلك أهمية تلك القوة التى تبدت فى قيادة الجيش تدعمها عائلات ذوى ملكيات كبيرة فى آسيا الصغرى، يدفعها إلى ذلك، ليس مجرد الرغبة فى تحقيق النفوذ السياسى الذى سوف يمنحهم إياه النجاح العسكرى لهؤلاء القادة، بل التوسع الاقتصادى الذى سيجد فى هذه الأرض الجديدة التى يتم الاستيلاء عليها ميدانا أرحب مما يجده فى مشروعات صناعية أو تجارية تخضع لسيطرة الدولة. وقد استمد هذا الباعث الأخير دفعة أقوى من المحاولات الإمبراطورية التى جرت بقصد وضع حد لعملية شراء وجهاء القوم لأراضى صغار الملاك. يضاف إلى ذلك أن الصلابة التى تمثلت فى أولئك القادة المتعاقبين ظهرت دوما فى الحرب البيزنطية ضد الخارجين عن دائرة الإيمان. وليس أدل على ذلك من أن الامبراطور نقفور الثانى نفسه وهو الذى يعد واحدا من أعظم قادة أسرة

---

١٥- ترتبط مدينة الرها فى ذاكرة المسيحيين دائما بعلاقاتها المبكرة مع المسيح، وبما فيها من آثار القديسين. ومما تذكره الروايات أن أبجار Abgar ملك الرها كتب إلى المسيح يطلب إليه، وقد علم بالمعجزات التى تمت على يديه، أن يبرئه من مرضه، فكان من بين يديه ما بعث به المسيح إليه، على ما تذكر الأسطورة، منديلا Mandilon طبع عليه وجه المسيح وقد شاعت الأساطير حول مدى قدرة هذا المنديل على شفاء المرضى وإتيان المعجزات. وقد قام يوحنا كوركواس بنقل هذا المنديل فى موكب مهيب من الرها إلى القسطنطينية (المترجم)

فوقاس فى آسيا الصغرى ، أعلن أن كل من يقتل فى الحرب المقدسة سوف يحشر فى زمرة الشهداء . وقد واكب التوغل البيزنطى فى الأراضى الإسلامية ، إغارت بحرية نشطة أسفرت فى النهاية عن الاستيلاء على عدد من المواقع الاستراتيجية مثل كريت وقبرص ، وهى التى ظلت لفترة طويلة من أهم المراكز الإسلامية البحرية التى يشن منها الأسطول الإسلامى هجماته. وكان بناء قوة بحرية ضاربة والاهتمام بها مسألة حيوية للدفاع عن الإمبراطورية ، خاصة وأنها تمتلك سواحل طويلة متعرجة وعددا لاحصر له من الجزر فى مياهها .وتوضح خريطة الإمبراطورية سنة ١٠٢٥ عند وفاة باسل الثانى تقدما كبيرا باتجاه الشمال (متضمنا جزءا رئيسيا من الأراضى القوقازية). وقد نظمت الآن فى ثيمات أو ولايات مثل إيبريا Ibe-ria وفازبورقان Vaspurkan وأرزن Theodosiopolis وطارون Taron أما ما تبقى من مملكة أرمينيا (آنى Ani) فكان لابد أن يؤول إلى بيزنطة بعد وفاة حاكمها . وإلى الجنوب كانت هناك أيضا أقاليم جديدة مثل الجزيرة وملطية ومدن الفرات ، بينما كانت مدن كيليكيا وتلوخ Teluch التى تتحكم فى مداخل المرتفعات الجنوبية ، وكذلك كرسى البطريركية القديم فى الأقليم الانطاكى بسوريا الشمالية تحت السيادة المسيحية . ورغم أن بيت المقدس كانت ما تزال بأيدى الكافرين [١٦]، إلا أن الجيوش المسيحية كانت قادرة على أن تعيث فسادا فى المناطق الجنوبية من فلسطين ، ولاريب أنه كان يبدو شيئا مثيرا لسخرية القسطنطينية فى أوائل القرن الحادى عشر أن يظهر فى الأفق ما يشير إلى استيلاء الصليبين اللاتين على سوريا وفلسطين ، فقد بدا آنذاك كما لو كان البيزنطيون أنفسهم عازمين على استعادة الأراضى المقدسة .

---

١٦- يرد هذا التعبير ابتداء من الآن وفى مواضع تالية متعددة إشارة إلى المسلمين ، وهو التعبير الذى استخدمته الكنيسة الغربية والبابا أوربان الثانى فى صيحته عام ١٠٩٥ لإثارة أوروبا للخروج بحملاتها الصليبية إلى الشرق الإسلامى . ورغم أن المؤلفة قد استخدمت كلمتى «الإسلام» و «المسلمين» قبل ذلك فى مقابل الجيش البيزنطى ، فاننا نجدها تستخدم الآن هذا التعبير «الكافرين» فى مقابل«الجيش المسيحى» للدلالة على ما ساد حروب القرنين العاشر والحادى عشر عند البيزنطيين من روح قد تبدو صليبية ، ولما حدث بعد ذلك من قيام الحركة الصليبية ، وقد ترجمت هذه الكلمة كما هى توخيا للأمانة العلمية وللدلالة على نظرة أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى إلى المسلمين (المترجم)

(جـ) القسطنطينية والصقالبة :

إذا كان الصراع قد جرى فى الجنوب على هذا النحو ، فان نظيره فى الشمال كان يجرى على نحو يختلف ؛ حيث ووجهت بيزنطة بعدو يمكن ترويضه ، كان على استعداد للإعجاب بالحضارة المسيحية والرغبة فى التعلم منها ، وكان توسع الشعوب الصقلبية فى وسط وجنوب شرقى أوروبا سلاحا ذا حدين لعالم المسيحية ، ذلك أن الاهتمام المتزايد فى ميدان البعثات التبشيرية كان قد أصبح التزاما مسيحيا وامبراطوريا فى الوقت ذاته منذ القرن الرابع على عهد قسطنطين . ومنذ الحروب اللاأيقونية واطراد التحالف بين البابوية وحكام الفرنجة فى القرن الثامن، اتسعت هوة الخلاف بصورة مستمرة بين كنيستى روما والقسطنطينية ، وراحت كل منهما تحاول أن تضم الصقالبة إلى دائرة كنيستها ، واستطاعت كل منهما أن تحقق نجاحا معينا فى أجزاء مختلفة من أوروبا . ففى النصف الثانى من القرن التاسع خرّجت القسطنطينية مبشرين من بينها كانوا يجمعون بين التقوى والمعرفة والسياسة فى آن واحد ، بحيث يمكن أن نعتبرهم خير نموذج يمثل طرائق الحياة البيزنطية ، وعلى رأس هؤلاء يأتى مثوديوس Me-thodius (توفى عام٨٨٥) وكيرلس Cyril اللذان اتصفا بالمقدرة والحكمة الى درجة استطاعا بها أن يضعا الأسس الكفيلة بجعل صربيا Serbia وبلغاريا وروسيا ، تخضع فيما بعد لنفوذ وسيادة أسقفية القسطنطينية . كما أنهما وضعا أيضا الأبجدية التى أصبحت القاعدة الرئيسية فى اللغة المكتوبة لدى هذه الشعوب . وهكذا أصبحت الكنائس الصغيرة التى أقيمت ونمت فى هذه المناطق أعضاء ضمن عالم المسيحية ، بخدماتها الأكليروسية وأدبها اللاهوتى المبكر فى لغاتها الأساسية حتى أضحت كنائس صقلبية وليست يونانية ، رغم أنها غالبا ما ترجمت عن الإغريقية أو حاولت أن تحاكى الأصول اليونانية الكلاسيكية (كما يبدو واضحا فى سير قديسيهم أو الكتابات النسكية ) وتدين هذه الكنائس للقسطنطينية بالألحان الكنسية الصقلبية القديمة كما ظلت باقية .

غير أن مشكلة الجوار التى نشأت عن وجود الصقالبة فى منطقة البلقان ، كانت تحمل فى طياتها نذر شر مستطير على امتداد التاريخ البيزنطى . فخلال تلك الفترة المبكرة التى كان الصقالبة يسعون فيها لتثبيت أقدامهم عبر الحدود الإمبراطورية جنوب الدانوب . كان على القسطنطينية أن تكابد لقرون عديدة تالية الإغارات التخريبية المدمرة لتلك المناطق التى تمتد لتشمل كل بلاد اليونان ، بل وتصل إلى أسوار العاصمة نفسها . حتى إذا كان النصف الثانى

من القرن التاسع وجدت بيزنطة نفسها أمام خطر مدلهم يهددها يتمثل فى المملكة البلغارية . بل ان معظم الكوارث السياسية التى أحدقت بالإمبراطورية فى القرن العاشر من ناحية الشمال، كان مصدرها هذه المنطقة (وقد ظل ذلك حتى القرن الرابع عشر حيث كانت صربيا يداعبها حلم أن تكون وريثة القياصرة المسيحيين) . لقد كان لدى القسطنطينية الكثير الذى يمكن أن تقدمه ، وكانت حضارتها ذات الصبغة العالمية ، وثراء إمبراطوريتها ، دعوة متجددة وخطيرة تغرى بغزوها . وفى بداية الأمر لم تجد القسطنطينية أمامها من سبيل سوى أن تلجأ إلى ذلك النظام الذى جرى العرف باتباعه وهو الجزية السنوية ، فلما كان أوائل القرن العاشر أمكن التصدى لرغبة البلغار فى أن يكون لهم على الأقل بعض النصيب فى الإمبراطورية ، وتحقق ذلك أولا عن طريق الوعود ، ثم بعد ذلك بالسياسة الأريبة التى اتبعها الأدميرال رومانوس لكابنوس الذى كان قد توج إمبراطورا شريكا آنذاك . فلما قدر للملك البلغارى الطموح سيمون Symeon أن يموت فى عام ٩٢٧ ، أقدم ابنه بطرس على الزواج من ماريا لكابنا Maria Lecapena إحدى حفيدات رومانوس (وهى لاتنتمى لأصول ملكية). ومع ذلك فقد ظلت بلغاريا دائما شوكة فى جنب الامبراطورية إلى أن كان آخر القرن العاشر وأخذت قوة الأباطرة فى الازدياد ، بات واضحا أن أفضل الحلول وآمنها للمشكلة البلغارية هو الغزو . ومن بين هؤلاء الأباطرة أقدم يوحنا الأول تزيمسكس وباسل الثانى على قهر ذلك الجار المشاغب. ومنذ ذلك التاريخ وطوال ما يقرب من مائة وخمسين عاما ، حتى حركة الإحياء الوطنى الثانية أصبحت المملكة البلغارية جزءاً من الإمبراطورية وتم تقسيمها إلى منطقتين: باريستريون Paristrion وبلغاريا . وقد أضفت هذه الحملات العنيفة القاسية ضد البلغار شهرة ذائعة على الإمبراطور باسل الثانى . ولكن «سفاح البلغار»[١٧] هذا كما يدعى ، أوجد فى

١٧- اتسمت الحملات العسكرية التى قام بها الإمبراطور باسل الثانى ضد البلغار بالعنف الذى وصل إلى حد الوحشية فى بعض الأحيان وقد استمرت الحرب بين باسل والبلغار سبعة عشر عاما (١٠٠١-١٠١٨) تمكن خلالها الإمبراطور البيزنطى من تحقيق انتصارات ضخمة ، كما أنه مثل بالبلغار أشنع تمثيل ، ففى إحدى المعارك أمر بسمل عيون أربعة عشر ألف أسير من الأسرى ، ثم سمح لهم بالعودة إلى ديارهم يقودهم مائة وخمسون أعوراً . فلما أبصرهم الملك البلغارى صموئيل على هذه الحال زهقت روحه كمداً سنة ١٠١٤ ، ولهذا سمى باسل الثانى «سفاح البلغار» Bulgaroctonus . ويشترك بعض المؤرخين معه فى هذه النسبة الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥) .

هذه الأراضي التى تم الاستيلاء عليها نوعا من الاستقرار السياسى فأبقى على التقاليد المحلية ، وأبدى شيئا من التسامح فيما يتصل ببعض المسائل الكنسية بحيث بقى للكنيسة الكثير من استقلالها الحقيقى . وإن كانت هذه الاجراءات فى نفس الوقت قد وضعت بلغاريا تحت السيادة الفعلية للإمبراطورية، كما أنها أدت إلى ظهور الهرطقة البوجوميلية[١٨] -Bog omil التى تفشت هناك تحت السيطرة المباشرة للإمبراطور الأرثوذكسى ، الذى كان من أهم واجباته القضاء على كل مصادر الدنس . كما أنها كانت تعنى بصورة قاطعة أنه لم يعد هناك دول حاجزة فيما بين بيزنطة وتلك الأخطار الكامنة فيما وراء الدانوب .

ولم تكن علاقات القسطنطينية مع الشعوب الصقلبية قاصرة فقط على بلغاريا . فقد انساب أثر بعثاتها التبشيرية إلى البلقان ، على الرغم من أن كرواتيا Croatia وصربيا لم يصبحا فى يوم من الأيام جزءاً من امبراطورية العصور الوسطى كما حدث لبلغاريا . فقد كانت كرواتيا تميل إلى الدوران باتجاه الشمال فى فلك هنغاريا. غير أن ساحل دلماشيا اللاتينى (والذى كان يعد جزءا من الإمبراطورية رغم تمتعه بنوع من الاستقلال) والأراضى الصقلية الشديدة التباين والواقعة إلى الداخل ، كانت تعترف بادعاءات القسطنطينية بالسيادة السياسية ، وإن كان هذا الاعتراف يتباين تبعا لتوقع الأخطار مثل الهجمات التى يقوم بها العرب من بحر أدريا ، أو التهديدات المدمرة من جانب البلغار .

---

= أنظر Vasiliev. op . cit., I, pp. 319-320 و C. M.H. vol. IV, pp. 241-42 والدكتور السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ص٦٣٦-٦٥١ وأومان ، الإمبراطورية البيزنطية ص١٨٨-١٨٩(المترجم)

١٨- درجت السياسة البيزنطية على نقل عناصر معينة من السكان من مواطنها إلى مواطن أخرى ، وقد حدث هذا كثيرا إبان الحروب اللاأيقونية ، وخلال القرنين العاشر والحادى عشر . وكان من بين هؤلاء جماعات من الأرمن نقلتهم إلى تراقيا . وكانت منطقة أرمينيا منذ القرن الرابع مهدا للحركات التطهيرية المعادية للكنيسة ، ومن أشهرها حركة البيالصة ، وأصبحت مدينة فيليبوبولس مركزا رئيسيا لهم فى تراقيا ، وقد تطورت آراء البيالصة فى القرن العاشر على يد بوجوميل Bogemile فى بلغاريا ، والذى خلع الكتاب البيزنطيون اسمه على هذه الطائفة ، وهم يؤمنون شأن أسلافهم بالاثنينية ، الخير والشر ، أو الله والشيطان ، وسلكوا حياة الزهد والتقشف ، ورفضوا الاعتراف بالنظام الكنسى ، ثم اصطبغت هذه الحركة بصبغة اجتماعية بعد أن انضم إليها كثيرون من فلاحى بلغاريا وراحوا يقاومون كبار الملاك . وقد انتقلت هذه الحركة إلى سائر أنحاء أوروبا وخاصة فرنسا فيما عرف بحركة الألبيجنيين . راجع حاشية ٣٩ ص٢٦ .

وأنظر The New Schaff - Herzog encyclopedia of religious Knowledge vol. II

و Encycl . of religon and ethics . art. Bogmile

و Vasiliev. op. cit., II. p. 383 (المترجم)

وعلى الشواطئ الشمالية للبحر الأسود أظهرت بيزنطة منذ زمن بعيد اهتمامها بهذه المنطقة ، ومارست نوعا من السيادة على ثغر خرسون Cherson الاستراتيجي الموقع فى القرم Crimea . وكانت الدوافع الاقتصادية والسياسية ، شأن الدينية سواء بسواء ، وراء المحاولات الجادة للاحتفاظ بهذه العلاقات الدبلوماسية . ومنذ ذلك الوقت المبكر الذى تحولت فيه الإمبراطورية الرمانية إلى المسيحية ، أخذت البعثات التبشيرية تجوب هذه الأقاليم . ثم ما لبث أن تبع ذلك قدوم الاكليروس إلى شعوب هذه المنطقة ، سواء النازحين منهم أو المستقرين كالخزر Khazars والأجروفينيش Ugro- Finnish وغيرهما . أما الهنغاريون فقد آووا الآن إلى مضاجعهم حول سلسلة جبال الكربات Carpathians بعد تجوال كان طبيعيا أن يصبحوا من خلاله على احتكاك بالمسيحية الأرثوذكسية. وقد ازدهرت التجارة مع مدن الشمال عبر الممرات المائية التى تربط البحر الأسود بالبحر البلطى ، خاصة طريق كييف Kiev نوفجورود Novgorod . كما أن المعاهدات التجارية التى أبرمت فى القرن العاشر ظلت سارية المفعول . وقد قدم رجال من الشمال للعمل كمرتزقة فى الجيش الإمبراطورى ، بل شكلوا فى نهاية القرن العاشر الحرس الإمبراطورى أو ما عرف باسم «الورنك»[١٩] Varangian الذائع

---

١٩- لجأت الإمبراطورية البيزنطية ابتداء من القرنين التاسع والعاشر فى تعمير المناطق التى أقفرت من سكانها ، نتيجة إغارات الصقالبة ،والسلاجقة ، إلى الاعتماد على عناصر أجنبية مختلفة تضم الخزر والبشناق والروس والاسكندنافيين والصقالبة والعرب والأتراك ، ثم امتدت هذه العناصر إلى الجيش حيث أصبح يتكون فى معظمه من المرتزقة ، خاصة بعد الهزيمة التى منيت بها بيزنطة سنة ١٠٧١ على يد السلاجقة فى مانزكرت، وضياع آسيا الصغرى نبع الجند . وكانت العناصر الاسكندنافية بصفة خاصة فى القرنين التاسع والعاشر قد شقت طريقها إلى نهر الدنيبر Dnieber ثم البحر الأسود ، حيث عرفوا فى هذه المنطقة باسم الروس Rhos وغدا الطريق الذى ساروا فيه ، وأصبح طريقا تجاريا من شمال غربى أوروبا إلى جنوبها الشرقى يعرف بطريق الورنك Varangian route . وقد اعتمد الأباطرة البيزنطيون على هذه العناصر الاسكندنافية بدرجة كبيرة فى تكوين الجيش البيزنطى حتى القرن الحادى عشر ، عندما أعلنوا العصيان سنة ١٠٧٩، فعمل الإمبراطور الكسيوس كومنين ، على استبدالهم بجماعات أخرى . وساعدته الظروف السياسية والعسكرية التى جرت فى أقصى غرب أوروبا على النجاح فى مهمته ، ذلك أن أعداداً كبيرة من الأنجلو- سكسون قد خرجت هاربة من بريطانيا بعد الغزو النورمانى لها بقيادة وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ . وقد خدمت هذه العناصر فى الجيش، بل ان الأباطرة جعلوا منهم حرسهم الخاص فيما بعد فى القرن الثانى عشر وشاعت تسميتهم

الصيت . ولما آن لإدارة كييف أن تأخذ شكلها السياسى استقرت العلاقات الدبلوماسية بينها وبين الإمبراطورية . غير أن القسطنطينية لم تمارس فى روسيا أبدا أى نوع من السيادة ، ولكنها كانت مسئولة عن نشر المسيحية الأرثوذكسية وإخضاع الكنيسة الكييفية تحت سيادة بطريركية القسطنطينية ، وعلى هذا النحو أدخل حكام كييف فى طور من الرقى العمدى . ويبين كتاب الوصايا الدبلوماسية الذى وضع فى القرن العاشر ، والخاص بادارة الشئون الخارجية البيزنطية ، أن اهتماما خاصا قد وجه إلى هذه الناحية. وقد لقيت الأميرة أولجا Olga التى تحولت حديثا إلى المسيحية . استقبالا حافلا عند زيارتها للقسطنطينية عام ٩٥٧ وكان للمساعدة التى قدمتها الفرقة الروسية للإمبراطورية فى الحرب البلغارية سنة ٩٧٩ أهميتها ، بحيث جاء تقديرها من جانب بيزنطة بما كان يعد فى تلك الأيام شيئا بعيد المنال ، وهو أن تغدو احدى أميرات البيت الإمبراطورى البيزنطى زوجة لأجنبى ، فتزوج فلاديمير Vladimir أمير كييف من أنا Anna أخت باسل الثانى ، وتعهد هو وشعبه أن يتخذوا المسيحية دينا .

(د) بيزنطة والغرب :

لم يكن التوسع البيزنطى فى الغرب مساويا لما حدث فى الشرق أو بين الشعوب الصقلبية. ففى ايطاليا كان مركز الإمبراطورية يبدو وكأنه محاولة للحفاظ قدر الطاقة على الحالة الراهنة Status quo المضطربة ، وغالبا ما كان يتعرض فى القرن العاشر للتهديد الخطير من جانب حكام ألمانيا السكسون الذين ورثوا العباءة الإمبراطورية عن الكارولنجيين . وقد توج

---

= أنظر A Short history of the U. S. S. R. ed. in two vols. by Acadamy of Sciences of the USSR. Institute of history, vol. I, pp. 34-38 .

وأيضا Ch. Brooke, Europe in the central Middle Ages , pp. 45-46 .

وكذلك Bayens & Moss, op. cit.. 300-301 .

د Thompson & Johnson, op. cit., p. 268 .

د Stephenson . op. cit., pp. 172-182 .

د Runciman. A history of the Crusades. III, p. 118 .

وأنظر أيضا بعده (المترجم)

أوتو الأول Otto I بادئ الأمر ملكا على المملكة الإيطالية[٢٠] regnum Italicum (مملكة الشمال الإيطالى اللومباردية) ثم أعلن بعد ذلك فى عام ٩٦٢ امبراطورا . ورغم أن فرص الوسائل الدبلوماسية كانت متاحة مع الإمارات الصغيرة فى وسط وجنوب إيطاليا ، إلا أن أوتو الأول فشل فى هجومه على الإملاك البيزنطية فى لونجباردیا Longobardia (أبوليا Apolia ) وصقلية (وكانت هذه المنطقة تتكون آنذاك من إقليم كالابريا Calabria فقط فى جنوب إيطاليا منذ أضحت جزيرة صقلية تحت السيادة العربية) . وأضاف إلى فشله هذا فشلا آخر حين أخفق فى الحصول من القسطنطينية على اعتراف بلقبه الإمبراطورى . وقد ترك ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona وأحد مبعوثى أوتو الأول تقريرا مفصلا يتسم بالتحيز والسخرية عن مفاوضات الإمبراطور الطويلة مع بيزنطة ، وكان أقصى ما استطاع أوتو الأول الحصول عليه زوجة بيزنطة لابنه أوتو الثانى تدعى ثيوفانو Theophano التى تنتمى لأسرة من أكبر ملاك الأراضى ، وليست - كما أراد- من البيت الإمبراطورى نفسه . وقد آتت هذه الزيجة ثمرتها حيث أنجبت ثيوفانو ولدا هو أوتو الثالث ، كان بدوره يرغب فى الزواج من أميرة بيزنطية غير أن الموت عاجله فى سن مبكرة عام ١٠٠٢ . وقد أبان قبل موته عن تصوره لإمبراطورية تكون روما حاضرة لها . غير أنه كان يبدو مستحيلا أن يقوم فى الغرب شبيه لتلك الإمبراطورية الرومانية imperium romanum القائمة فى القسطنطينية. ومع إشراقة القرن الحادى عشر ظهر واضحًا للقسطنطينية أنه من المستحيل أيضا بالنسبة لها أن تحتفظ بأى مركز قوى فيما كان يعرف واقعا بالجزء الغربى Pars Occidentalis . وقد

---

٢٠- قام أوتو الأول بحملته الأولى على إيطاليا سنة ٩٥١ بدافع الوقوف أمام زحف ملك برجنديا ودوقى سوابيا وبافاريا عبر ممرات الألب فى إيطاليا الشمالية ، ويعزو المؤرخ المعاصر تشيفالروس Chivalrrous اهتمام أوتو بايطاليا بداءة إلى استنجاد أدلهيد Adelheid أرملة لوثر الحسناء ، به لإنقاذها من مضايقات برنجار الثانى BerengarII ماركيز ، إيفيريا Ivria وملك المملكة اللومباردية فى شمال إيطاليا فيما بعد . وقد أسرع أوتو لتلبية هذا النداء ، وحل المشكلة بالزواج من هذه الحسناء ، وحمل دون مراسم لقب ملك اللومبارديين ، وترك برنجار فصلا تابعا له . انظر C.M.H. vol . III, pp. 194-195 .

و Davis. op. cit., 217-218 .

و Z. N. Brooke. A history of Europe 911-1198, pp. 36-37

شرع باسل الثانى فى إعادة تنظيم الحكم البيزنطى فى ولايتى إيطاليا الجنوبية اللتين اتحدتا الآن تحت سيادة حاكم يعرف باسم قطبان[٢١] Catapan . ولاشك أن فكر باسل الثانى كان يحتوى على مشروع استرداد صقلية من أيدى المسلمين . وإن كانت الحقيقة قد أظهرت أن البيزنطيين كانوا غير قادرين على استعادة سلطانهم فى صقلية ، أو حتى الحفاظ على سيادتهم فى شبه الجزيرة الإيطالية ذاتها ، حيث كان مقدراً أن يصبح النورمان خلفاءهم السياسيين فى الجنوب ، وأن يقتصر النفوذ البيزنطى فى إيطاليا بعد منتصف القرن الحادى عشر على الناحيتين الثقافية والدبلوماسية . غير أن هذه الصورة الأخيرة قد تعطينا انطباعا زائفا يخالف الواقع ؛ فالحقيقة أن الرصيد البيزنطى كان يقف شامخا فى الدوائر الغربية ، ذلك أن الثقة الكاملة فى الإمبراطور البيزنطى يعكسها ذلك التقرير الذى كتبه ليوتبراند عن محادثاته مع نقفور الثانى سنة ٩٦٨، كما أن النغمة الودية التى احتوتها رسالة البابا ليو التاسع Constantine IX فى سنة ١٠٥٤ تبين مدى الأمان الذى كانت تشعر به القسطنطينية ومدى ما تحقق لها من الاحترام طوعا أو كرها ، من جانب جيرانها .

(هـ) السياسة الداخلية : الكنيسة والتعليم :

لاشك أن نجاح بيزنطة العسكرى والبحرى طوال ما يزيد على مائة وخمسين عاما زمن العموريين والمقدونيين ، وهذا الانتشار السريع لآثار حضارتها المسيحية يعود فى الدرجة الأولى إلى تلك الأوضاع التى سادت فى الداخل . لقد كانت الكفاءة المقتدرة وتعدد مناحى الأنشطة ، أبرز قسمات الحياة البيزنطية . فمنذ منتصف القرن التاسع وحتى موت باسل الثانى (١٠٢٥) على أقل تقدير ، أقدمت السلطة الإمبراطورية الأوتوقراطية على احداث اصلاحات ذات أهمية كبيرة فى مجال التشريع والإدارة ؛ ذلك أن باسل الأول كان لديه العديد من المشروعات بهدف «تنقية» القانون القديم. فنشر «الوجيز» Procheiron ثم سرعان ما اتبعه

---

٢١- وهو قائد عسكرى ، لايختلف عن الاكزارخ ، يجمع فى يديه السلطتين العسكرية والمدنية ، اتخذ من مدينة بارى Bari مركزا له . وقد ساعده الاصطراع السياسى القائم فى إيطاليا فى أن يظهر اهتماما معينا بحماية الشواطئ الجنوبية لإيطاليا من هجمات الأسطول الإسلامى .

أنظر Baynes & Moss. op. cit., p. 24

و أيضا Vasiliev, op . cit., I, p. 398 (المترجم)

فى عام ٨٧٩ بـ «المدخل» Epanagoge [٢٢]، وأكمل ليو السادس جهود أبيه باصدار «التشريعات الإمبراطورية» Basilica التى اعتمدت أساسا على التشريعات الباكرة خاصة تلك التى تعود إلى عهد جوستنيان. وتهدف كتب القانون هذه إلى جعل قوانين جوستنيان أيسر تناولا خاصة وأن هذه الكتب قد صدرت باليونانية اللغة السائدة فى الإمبراطورية وقد خضعت هذه «التشريعات الامبراطورية» لكثير من ضروب التعديل والتحسين حتى أصبحت فيما بعد المصدر الأساسى فى هذه المجالات . كما أبدى الأباطرة اهتماما كبيرا فى مختلف النواحى التشريعية . وتمثل ذلك فى كثير مما نشر آنذاك سواء كان يحمل الصفة الرسمية أو غير الرسمية . وكانت القوانين العديدة التى صدرت على امتداد هذه الفترة ، أو «كتاب الوالى» الذى وضعه الامبراطور ليو السادس ، أو الاتفاقيات التجارية ، تتناول التنظيم الفائق للنقابات فى القسطنطينية ، أو الشروط التى يسمح بمقتضاها للتجار الروس بالاقامة فى المدينة ، بل وحتى تلك المشكلة البالغة التعقيد التى تتمثل فى كبار ملاك الأراضى .

وقد ارتبط ابتياع الأراضى بنمو العائلات الثرية التى ظلت حتى الأيام الأخيرة للإمبراطورية تسيطر على مصادر كانت تعد تحديا مستمرا لسلطان الدولة . وكانت حيازة الثروة الزراعية تعتبر امتيازا علمانيا خالصا ، وإن كانت السلطات الاكليروسية قد تراكم لديها هى الأخرى مصادر واسعة من هذا النوع ، خاصة المؤسسات الديوانية الكبيرة ، وغالبا ما كان يحدث ذلك بتغاض أسقفى . ولم تكن السياسة الإمبراطورية تجاه التملك المتزايد للأراضى تسير على نحو ثابت . فقد قام بعض الأباطرة مثل رومانوس الأول أو باسل الثانى بمحاولة جريئة لوقف تيار الحصول على الأراضى من صغار الملاك أو المزارعين بالالتزامات العسكرية الموروثة . وكان ذلك من ناحية وسيلة سياسية لتحديد نفوذ الطبقة الارستقراطية ، ومن الأخرى لضمان الاحتياطى من الجنود الوطنيين . ولما كان باسل الثانى يدرك تماما مدى

---

٢٢- يؤكد بعض الدارسين أن «المدخل» لم ينشر رسميا على الإطلاق. لمعرفة الآراء المختلفة حول هذا الموضوع .

أنظر . Ostrogorsky, History of the Byzantine State, pp. 213-14

وعن تشريعات المقدونيين أنظر H. J. Schehema , in Cambridge Medieval history IV (new ed. 1967), pp. 65 ff.

الخطورة السياسية التى تشكلها هذه العائلات الكبيرة ، فقد حمل «الأقوياء» مسئولية دفع الضرائب عن «الفقراء» (٢٣). بينما نجد نفرا آخر من الأباطرة يقف موقفا متساهلا إزاء هؤلاء «الأقوياء» ، إما لدوافع سياسية معينة ، أو لضعف سلطانهم . ولعل أوضح الأمثلة على ذلك أن نقفور الثانى نفسه جاء من إحدى هذه العائلات الأرستقراطية ، وتراخى فى تطبق قوانين الملكية التى شرعت لمصلحة صغار الملاك. ولما كان قائدا عسكريا من الطراز الأول، فقد أصبح شديد الحساسية للاحتياجات العسكرية ، ومن ثم يتطلع للإقدام على أى شئ من شأنه حماية الجندى - الفلاح. وقد وضع بعض القواعد الخاصة التى تتعلق بالاقطاعات العسكرية لجنود الجبهة الأرمينية الذين سمح لهم باسترداد أراضيهم من «الأقوياء» أو الأديرة، حتى وإن كان قد مضى على ذلك قرابة الثلاثين عاما. كما أن نقفور تصدى بعنف لإقامة مؤسسات ديرانية جديدة بنفس القدر الذى حدد به امتلاك الأديرة للأراضى الزراعية ، بعد أن أدت فلاحتها على نحو سئ إلى الإضرار بخزانة الدولة.

ولاشك أنه بالقضاء على الهرطقة عرفت الكنيسة طريقها إلى الازدهار . ورغم أن الاستخدام الأرثوذكسى للأيقونات لم يمح تلك الظلال المختلفة لذلك المعتقد بين رجال الكنيسة، إلا أن الاتجاهين الكنسيين الرئيسيين فى هذه الفترة تبديا فى النمو المطرد للسلطة الكنسية الصقلبية التى أنشئت مؤخرا ، والتوتر الحادث فى علاقاتها مع روما. وهذه النقطة الأخيرة ترتبط بصفة خاصة باثنين من أشهر أساقفة القسطنطينية ، فوطيوس Photius فى القرن التاسع وميخائيل كريولاريوس Michael Cerularius فى القرن الحادى عشر . ولقد أصبح ،

---

٢٣- لم يكن باسل الثانى هو أول الأباطرة البيزنطيين الذين أقدموا على مثل هذا الإجراء ، فقد طبقه الإمبراطور نقفور الأول فى بواكير القرن التاسع ، حيث حمل الأثرياء مسئولية الانفاق على إعداد وتجهيز الجنود فى مناطقهم ، فلما كان عهد باسل الثانى واشتدت الحاجة إلى الأموال للإنفاق على الحرب البلغارية الطويلة (١٠٠١-١٠١٨) ، أصدر فى عام ١٠٠٢ قراره باحياء هذا الالتزام ثانية . وقد عرف هذا الإجراء باسم «الضمان المتبادل» allelengyon ولو كان قد قدر لهذا الإجراء أن يظل فترة طويلة من الزمن ، لأدى إلى تحطيم قوة كبار ملاك الأراضى من الكنسيين والعلمانيين على السواء . ولكنه ما لبث أن ألغى على يد رومانوس الثالث (١٠٢٨-١٠٣٤) كوسيلة يسترضى بها كبار الاكليروسين والنبلاء .

أنظر Vasiliev, op. cit., I, pp. 348-9 (المترجم)

فى مقدور الكنيسة ، بل استطاعت فعلا أن تتحدى الإمبراطور، على الرغم من قوة مركزه ، فقد كان على يوحنا تزيمسكس أن يعطى وعدا بالغاء القوانين التى اصدرها سلفه والمتعلقة بتحديد الملكية الكنيسة ، وأن يتخلى عن فكرة الزواج المقترح من الملكة الأم ثيوفانو، ذات السمعة القبيحة ، قبل أن يحصل على موافقة أسقف العاصمة لإتمام مراسم تتويجه . كما أن تغير الفن الإمبراطورى فى ناحية التصوير خلال هذه الفترة يدل أيضا على مدى ازدياد نفوذ الكنيسة ، هذا بالإضافة إلى أن الأعمال التشريعية والقوانين تعكس نوعية العلاقة المتشابكة والمتداخلة بين الدولة والكنيسة ، حتى أننا نجد يوحنا تزيمسكس يقول : «لايسعنى إلا أن أعترف أن فى العالم قوتين .. الكنيسة والإمبراطورية . عهد البارى إلى الأولى بهدى الأرواح، وخص الثانية بالسيادة على الأبدان . وإذا تركتا كلتاهما دون معاناة ، فلسوف يهنأ العالم بالرخاء».

وإذ آنست من نفسها قوة وشعرت بالأمان ، تورطت القسطنطينية فى نزاع مع روما كنسيا ودنيويا . وكانت الخلافات العقيدية بينهما حول إضافة الغرب كلمة، و«الابن»[٢٤] filioque إلى مرسوم الإيمان . وكذا اختلاف النظم والتقاليد الكنسية قد زاد سعيرها بذلك الجدل الذى دار حول الاعتراف برسامة فوطيوس أسقفا سنة ٨٥٨ [٢٥]. ومع أن فوطيوس قد مات على

---

(٢٤-٢٥) فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث ، آخر أباطرة الأسرة العمورية ، كان اجناتيوس Ig-natius أسقفا لكرسى القسطنطينية ، ولم يكن على قدر من الثقافة الإنسانية الكلاسيكية أو المعرفة اللاهوتية ، فى نفس الوقت الذى كان هناك شخص آخر يدعى فوطيوس ، الأستاذ بجامعة القسطنطينية ، يعتبر أعظم رجالات عصره علما ومعرفة ، جعل من بيته صالونا أدبيا وعلميا ، وقد دون خلاصة ما كان يقرأه فى الصالون من المؤلفات ، فترك بذلك مؤلفه الذى عرف بـ «المكتبة» Bibliotheca . وبفعل التيارات السياسية المتصارعة داخل القصر الإمبراطورى بين ميخائيل الثالث وأمه ثيودورا وخاله القيصر بارداس ، عزل اجناتيوس وخلفه فوطيوس ، وانقسمت العاصمة إلى معسكرين ودعا الإمبراطور لعقد مجمع كنسى لفض النزاع ، ووجهت الدعوة إلى بابا روما نيقولا الأول ، الذى انتهز الفرصة للتدخل فى شئون كنيسة القسطنطينية عن طريق مندوبيه اللذين بعث بهما لحضور المجمع . ولكن فوطيوس والإمبراطور ، بل واجناتيوس نفسه الذى يناصره البابا، رفضوا جميعا إدعاءات البابا بالسيادة العالمية على الكنائس . وقد عقد نيقولا مجمعا لعن فيه فوطيوس وطالب باعادة اجناتيوس . وزاد النار ضراما تحول بوريس Boris الملك البلغارى إلى المسيحية آنذاك ، وتنافس الكنيستين المرير لبسط نفوذهما على رعية المسيح الجديدة. وكانت الخلافات العقيدية ، كما كانت دائما ، حجر الزاوية فى العداء بين روما والقسطنطين وتباعدهما عن بعضهما؛

وفاق مع روما (٣٦)، إلا أن نقاط الخلاف القائمة بينهما ، وتلك الذكريات الأليمة التى ما تزال تنبعث من فقدان البابوية لبعض الأقاليم الخاضعة لسيادتها سنة ٧٣٢، ظلت كامنة سرعان ما تطفو على السطح عند أول بادرة تسوقها الأقدار ، ورغم السمعة السيئة التى لصقت بأسقف القرن الحادى عشر ، الغطريس ميخائيل كريولاريوس ، إلا أن الانشقاق الأعظم بين الكنيستين لايعود فى الحقيقة إلى عام ١٠٥٤ عندما أمسك الكاردينال همبرت Humbert المندوب البابوى المتعجرف ، بقرار اللعنة وألقى به إلى الأرض فى كنيسة أيا صوفيا ، وراح ينفض عن قدميه ما غبرهما من تراب وهو يهم بالخروج . على أنه يمكن اعتبار سنة ١٠٥٤ بداية الانشقاق «الرسمى» بين الكنيستين ، حيث أبطلت القسطنطينية الصلاة من أجل البابا فى قداساتها ، وهو ما يمثل المظهر العلنى للانشقاق . ولاشك أنه كان من السهل - حسبما رأى الكسيوس الأول Alexius I عام ١٠٨٩- تدارك كل هذه الأمور ، غير أن الأحداث التى جاء بها القرن الثانى عشر ، وتمثلت فى مقدم الصليبين الغربيين ، وبلوغها قمة المأساة فى الغزو اللاتينى للقسطنطينية وأقاليم بيزنطية أخرى ، جعلت من المستحيل وصل ما انقطع .

أما ازدهار التعليم والفن خلال هذه الحقبة من الزمان (٨٤٢-١٠٢٥) فانه يجل عن الوصف ، يطالعنا فى بدايتها الأديب فوطيوس بناديه الذى كان يضم الصفوة من الأدباء

---

= ذلك أن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ لم يرد فيه أى تفسير للروح القدس أو إشارة سوى القول «نؤمن بالروح القدس» فلما ذاعت آراء ماكيدونيوس فى القرن الرابع عن القول بخلق الروح القدس ، دعا الإمبراطور ثيودوسيوس الأول إلى عقد مجمع فى القسطنطينية ، هو المجمع المسكونى الثانى سنة ٣٨١، نوقشت فيه هذه المسألة وأصدر المؤتمرون قرارهم بالإيمان «بالروح القدس المنبثق عن الآب» . وقد أضافت الكنيسة الغربية كلمة «والابن» على مرسوم الإيمان : أى أن الروح القدس منبثق عن الآب والابن ، وظل هذا الجدل مثاراً للنزاع بين كنيستى روما والقسطنطينية إلى أن وقع الانشقاق الأعظم بينهما سنة ١٠٥٤ أنظر . الدكتور اسحق عبيد : روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين سنة ١٢٠٤ ص١-١٩ .

و Barry, The Papal Monarchy , From st. Gregory to Boniface VIII, pp. 124-129 .

و W. Ulmann , A short history of the Papacy in the Mid . Ages, pp. 105-110 .

والدكتور أسد رستم ، الروم ، الجزء الأول ، ص٣٤٩ .

و Vasiliev, op. cit., I, pp. 290-296-7 (المترجم)

٣٦- قارن ذلك بما يذكره الدكتور اسحق عبيد فى كتابه روما وبيزنطة ، ص١٧-١٩ (المترجم)

واللغويين الذين شكلوا في نفس الوقت بواكير البعثات التبشيرية إلى العناصر الصقلبية . وتكشف المخطوطات التي ما تزال باقية عن مدى الإفادة ، أو محاكاة النصوص الكلاسيكية والمتأخرة ، على حين توضح المخطوطات المصورة ، ومنها المزامير الموجودة في باريس ، أو تقويم Menologion باسل الثاني ، الأرضية الواسعة لهذا النسق بما فيه من فن رمزي وواقعي أيضا متأثر بالحقبة اليونانية - الرومانية المتأخرة . ووراء كل ذلك كان يبدو الجهد الإمبراطوري المستمر والاهتمام المتزايد . فقد عمل القيصر بارداس Bardas على تدبير الاعتمادات المالية اللازمة من أجل الجامعة في قصر ماجنورا Magnaura Palace وكان ليو السادس لاهوتيا وشاعرا ، بينما بسط قسطنطين السابع يد العون للمدرسة الزاهرة في تدوين التاريخ ، ووضع بنفسه مؤلفا عن حياة جده باسل . كما أن العرف الدبلوماسي والإمبراطوري قد تم تدوينه، كي تفيد منه الاجيال التالية ، في كتب قيمة عن الإدارة والمراسم الإمبراطورية. ومع أن باسل الثاني كان يتصف بحساسية معينة تجاه ملاحقة المجتمع المثقف ، إلا أنه من غير المحتمل أن يكون ذلك قد ترك بصماته على الآداب والتعليم . ولكن الذي لاشك فيه أن العلماء والإنسانيين قد عادوا سيرتهم الأولى بعد فترة ليست ببعيدة عقب وفاة باسل الثاني عام ١٠٢٥ .

# الفصل الثالث

# تغييـــرات جوهريـــة

# ١٠٢٥-١٢٠٤

١- مفترق الطرق فى القرن الحادى عشر .

٢- إحياء الإمبراطورية زمن آل كومنين .

(أ) ألكسيوس كومننوس (١٠٨١-١١١٨)

(ب) يوحنا الثانى كومننوس (١١١٨-١١٤٣)

ومانويل الأول كومننوس (١١٤٣-١١٨٠)

٣- الانحلال الأول .

# الفصل الثالث
# تغييـــرات جوهريـــة
# ١٠٢٥-١٢٠٤

## ١- مفترق الطرق فى القرن الحادى عشر :

استطاعت الإمبراطورية أن تحتفظ بقوتها وصلابتها منذ حركة الإفاقة الناجحة التى حدثت فى القرن السابع ، وإذا كانت قد فقدت بعضا من أرض فى إيطاليا ، فانها تمكنت من تعويض ذلك بالنجاح الذى حققته فى البلقان ثم الجبهة الشرقية بصفة خاصة. غير أنها إبان القرن الحادى عشر كان عليها أن تواجه عدوا جديدا يتمثل فى الأتراك السلاجقة - الذين انطلقوا داخل آسيا الصغرى- فى الوقت الذى أخذت فيه الشعوب الصلقبية فى منطقة البلقان تزداد عنفا وضراوة وتتعالى عندها النزعة الاستقلالية ، والنورمان فى جنوب إيطاليا يقومون بحملات معادية ضد الإمبراطورية ، بينما تتصاعد فى الغرب الحماسة الصليبية الهوجاء ضد الملاحدة[١]. وإزاء كل هذه الأحداث عجزت بيزنطة عن حماية حدودها . وكان عام ١٢٠٤ إرهاصا بسنة ١٤٥٣ .

فى عيد الميلاد لعام ١٠٢٥ ودع باسل سفاح البلغار دنياه . ساعتها بدا لأعين البيزنطيين جليا أن الإمبراطورية مقدمة على تغييرات بعيدة المدى. وقد ترك لنا ميخائيل بسللوس[٢]

---

١- راجع حاشية ١٦ ص١٢٤ . المترجم .

٢- أدت الحروب التى خاضتها الإمبراطورية فى القرن العاشر وأوائل الحادى عشر ضد المسلمين والبلغار- وغيرهم، إلى أن يتجه الاهتمام كله إلى النواحى العسكرية والدبلوماسية ، وأن يتوارى النشاط العلمى والثقافى . غير أن مجموعة من المفكرين دأبت على الاهتمام بهذه الناحية ، إلى أن كان عهد قسطنطين التاسع الذى أصغى باهتمام لنصائح هؤلاء القوم ، فأعيد تنظيم جامعة القسطنطينية ، وأسند الإشراف على الدراسات الفلسفية إلى قسطنطين بسللوس ، الذى عرف باسمه الرهبانى ميخائيل بسللوس. ولد حوالى سنة ١٠١٨ وعنيت والدته بتربيته على يد معلم خاص ، فأصبح من أعظم رجال عصره فكرا وثقافة ، أخبرنا أنه قرأ لهوميروس وهزيود وهيرودوت وثوكيديس ، وديموستنيز وبلوتارخ وفلاسفة الرواقية وأرسطو وجريجورى=

Michael Psellus ، الذي يعد واحدا من أشهر كتاب العصور الوسطى ، تاريخا لمعاصريه في القرن الحادي عشر، ذكر فيه المصاعب والأخطاء بل وحتى الحماقات الإمبراطورية ، دون أن يومئ إلى أن مستقبل بيزنطة ينبئ بالانحلال السياسي والضياع ، على عكس بعض كتاب القرن الرابع عشر عندما كانوا يدركون أن الغم والفناء نهايتهم المحتومة. وربما كان مواطنو القسطنطينية سنة ١٠٢٥ يعلمون تماما أن مكانة الإمبراطورية لم تعد فى سمتها المرموق ؛ فالظروف الداخلية والأحداث الخارجية كانت تعمل بعناد لإزاحة الإمبراطورية عما تحقق من ازدهار فى القرن العاشر ، والحقيقة فان بذور المشاكل التى كان على الإمبراطورية أن تعانيها الآن ، كانت قد غرست بالفعل وبدأت تزهر فى القرن العاشر ، واتضح ذلك جليا فى الصراع العنيف الذى خاضته الحكومة المركزية ضد ملاك الأراضي الأقوياء .

وكانت السمة المميزة للحكام البيزنطيين فى الفترة ما بين عامى ١٠٢٥-١٠٨١ عندما اعتلى الكسيوس كومننوس Alexius Comnenus العرش، هى أنهم افتقدوا المقدرة والكفاية التى تمتع بها أباطرة البيت الهرقلى أو الأسرة الايزورية أو بعض المقدونيين مثل باسل الأول وسميه الثانى. ولعل هذه الناحية تتضح فيما اكتسبته العائلة المقدونية من ولاء شعبى مد فى عمرها من سنة ١٠٢٥ حتى عام ١٠٨١ ، متمثلا فى قسطنطين الثامن Constantine VIII العجوز المتصابى الذى لايقدر المسئولية، وابنتيه المسنتين زوى Zoe العابثة المتلاقة، وثيودورا

---

= التازيانزى ، وقبل هؤلاء جميعا محبوبه أفلاطون . كان شديد الاعتزاز بنفسه ، فقد كتب يقول إن قسطنطين التاسع كان شديد الإعجاب بفصاحته ، بينما كان ميخائيل السادس يصغى إليه كمن يتذوق العسل ينساب من بين شفتيه ، على حين كان قسطنطين العاشر يملأ قلبه بكلماته وكأنه يرتشف ماء الحياة . أما يودوكيا فقد اعتبرته إلها ! وكان لابد إذن أن يكون قريبا جدا إلى البلاط وأن يصل إلى أعلى المناصب . غير أنه فقد أصدقاءه جميعا فى أخريات حياته ليموت وحيدا سنة ١٠٧٨ . ومن بين أعماله العديدة نجد «المزمنة» Chronographia التى تعد فى نظر المؤرخين من أحسن المصادر المعاصرة عن الفترة الممتدة من موت يوحنا تزيمسكس حتى سنة ١٠٧٧ أى إلى عهد ميخائيل السابع (١٠٧١-١٠٧٨) .

أنظر Psellus, Chronographia ، وقد ترجمت إلى الانجليزية على يد E. R. B. Sewter تحت عنوان Fourteen Byzantine Rulers وأنظر للمترجم : ميخائيل بسللوس من خلال كتابه : التاريخ الزمنى . مجلة كلية الآداب جامعة صنعاء - العدد الثانى ١٩٧٩ .

الراهبة التى أخرجت من الدير كرها لتشارك أختها العرش لمضايقة الأخيرة . ولم يظهر آنئذ قائد عسكرى أو سياسى يمتلك المقدرة أو يسعده قدره بفرض سيادته على الدولة كامبراطور شريك ، أو يتولى المسئولية كاملة . حقيقة كان ميخائيل الرابع Michael IV الزوج الثانى لزوى ، جنديا شجاعا عنيدا ، ولكنه كان يعانى من الصرع. أما جورج ماتياكس George Maniaces الذى كان يشبه إلى حد كبير قسطنطين التاسع Constantine IX زوج زوى الثالث المغلوب على أمره ، فقد لقى مصرعه وهو فى طريقه إلى العاصمة . حتى إذا جاء اسحق كومننوس Isaac Comnenus الذى أظهر نوعا من الكفاية التى اتصف بها بعض أفراد أسرته فيما بعد ، اتبع سياسة معادية فى البداية تجاه البطريرك ميخائيل كريولاريوس ، ثم ثنى ذلك باكتساب عداء الجموع والارستقراطية فى القسطنطينية ، لينتهى الأمر باعتزاله الحكم . وعلى هذا النحو زالت تلك القبضة القوية التى تمثلت فى حكم باسل الثانى الاوتوقراطى ، وازداد نفوذ النبالة يوما بعد آخر . وشهدت الفترة من عام ١٠٢٥ حتى ١٠٨١ صراعا فيما بينهم وأنفسهم حتى تتحقق السيادة لأقدرهم ، : العائلات والموظفون الذين تمركزوا فى العاصمة على الرغم مما يمتلكونه من أراض وامتيازات فى مختلف أنحاء الإمبراطورية، أو الأسر ذات الصبغة العسكرية بقلاعها وضياعها الغنية فى الولايات وإدراكها الواعى لاحتياجات الدفاع عن الإمبراطورية . على أنه مما يستحق الذكر أن أعيان آسيا الصغرى والقوة المخيفة التى كان يملكها أتباعهم ، تعرضوا جميعا للعقاب الصارم بل والضياع على يد باسل الثانى ، وتمت مصادرة أراضيهم ، وعهد بادارة الأمور هناك لفترة طويلة خلال ذلك العهد الى عدد من الوزراء أو الحكام، كانوا يتصفون غالبا بقلة الحيلة أو سوء الحظ . وقد ضمن ميخائيل بسللوس «مزمنته» Chronographia وصفا رائعا لقصة الانتصار التى تحققت للمدنيين على خصومهم أصحاب العقول العسكرية، حيث كان بسللوس يعمل وزيرا ومستشارا لأباطرة عصره ، وساهم بنصيب فى صنع تاريخ زمانه ، وفى بعض الأحيان وصف هذا النزاع بأنه صراع بين الاستقراطية «المدنية والعسكرية» ، ومن بين هؤلاء جاء اسحق الأول كومننوس وروموانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Diogenes اللذان بذلا جهدهما فى سبيل تدعيم وسائل الدفاع عن الإمبراطورية .

وكان لنظام الحكم عند من يسمون بالأرستقراطية «المدنية» بعض الملامح المميزة ، فلم يبد باسل الثانى أى امتعاض كى يظهر نفسه فى صورة ودودة ، وإن كان قد تظاهر بازدراء التعليم (مع أنه كان يطالع أى شئ يسترعى انتباهه مثل الخطط العسكرية)[٣] ، وكنوع من رد

الفعل لخشونة باسل الثاني وفظاظته ، كانت هناك بعض ثمرات يانعات لأنشطة عقلية وثقافية بفضل الرعاية الكاملة التى أولاها إياها المقدونيون الأواخر وخلفاؤهم ، وكان البلاط يمثل مركز هذه الحركة الفكرية ، وعهد بإدارة أمر الدولة إلى رجال على قدر كبير من الفكر من بينهم بسللوس العالم الانسانى ، ويوحنا اكسيفيلينوس[٤] John Xiphilinus . ولهذالم يكن غريبا آنذاك أن يرصد قدر كبير من الأموال العامة لإعادة تنظيم جامعة القسطنطينية تحت سيادة الدولة ، وقد بات واضحا أنه لايوجد هناك من بين المعلمين والدارسين والعلمانيين ورجال الاكليروس والكتاب والفنانين من يحاول الاسفاف أو الدونية، بل على العكس كان كلهم يسعى للنهوض والرقى ، وانطبع ذلك فيما خلفوه من مذكرات وتواريخ ، من تفاسير لاهوتية ومناقشات جدلية ، من تراتيل قداسية وموسيقى ، من كنائس وفسيفساء ، من صناعات عاجية ومنسوجات رائعة .

وإلى جانب هذا كله أخذت الكنيسة هى الأخرى تستحث الخطى نحو القوة . وساعد على ازدياد سلطان كنيسة القسطنطينية ، أن نفوذ الكنائس الأخرى المنافسة لها فى الشرق . أنطاكية والاسكندرية وبيت المقدس ، قد راح يضمحل : فقد فرضت سلطتها على جزء حيوى من عالم الصقالبة ، الذين كان تناولهم للمعمودية المسيحية من يد المبشرين البيزنطيين يعنى خضوعهم للسيادة الكنسية لبطريرك القسطنطينية . وتفجرت الخلافات البعيدة ، وإن لم تكن

---

٣- أنظر Michael Psellus, Chronographia, trans. E. R. A. Sewter, pp. 24 ff. (ch . 30,33,36)

٤- كان أحد ثلاثة من أخلص أصدقاء ميخائيل بسللوس . وبينما عهد إلى الأخير بالإشراف على الدراسات الفلسفية بجامعة القسطنطينية بعد إعادة تنظيمها زمن قسطنطين التاسع ، تولى يوحنا اكسيفيلينوس الإشراف على الدراسات القانونية بها وذلك فى عام ١٠٤٥ . ثم أصبح أسقفا للقسطنطينية فيما بعد (١٠٦٣-١٠٧٥) وقد تم ذلك على غير رغبة منه، حيث كان يفضل البقاء فى سلك الرهبنة التى كانت تستحوذ على فكره ، على العكس من صديقه بسللوس .

أنظر Psellus . Chronographia , VI, 192 , VII 26 .

وراجع مقدمة الترجمة الإنجليزية لزمنة بسللوس ص١٢ وحاشية رقم ١ ص٢٥٤ وأيضا حاشية ص٣٤٣ .

أنظر أيضا Baynes & Moss Byzantinum , p. 217 (المترجم)

بالضرورة جوهرية ، بين كنيستى روما والقسطنطينية ، والمتمثلة فى التقاليد والطقوس الكنسية والمبادئ اللاهوتية ، لتخدم مطامح بطريرك متعجرف ازداد ثقة بنفسه إلى حد الغرور، وعلى نفس القدر من الغطرسة كان الكاردينال همبرت المندوب البابوى الذى جاء إلى القسطنطينية ، ليبحث مع أسقفها هذه المسائل الكنسية المعلقة ، ومن ثم كان لابد أن ينفجر الصراع بينهما فى نفس اللحظة التى كانت الأوضاع تحتم فيها أن تنتهج كل من روما والإمبراطورية البيزنطية سياسة مشتركة حتى يمكن التصدى للزحف النورمانى السائر قدما فى جنوب إيطاليا ، ومرة أخرى أحست بيزنطة بالحاجة إلى إمبراطور قوى، فقد عجز قسطنطين التاسع عن كبح جماح أسقفه المتهور ، بينما ألقى المبعوثون الرومان قرار الحرم الكنسى فى أياصوفيا . ولكن أيا من الطرفين لم يفطن آنذاك الى خطورة الموقف. حقيقة قد لا يكون هذا الصراع الذى حدث فى سنة ١٠٥٤ بالضرورة نهائيا ، وربما كان ممكنا أن يندمل فيما بعد لو أن عداء النورمان والبنادقة وطموحهم كان أقل مما بدا عليه.

وقد ازداد وضوحا نمو سلطان الكنيسة البيزنطية بتلك المحاولة التى أقدم عليها ميخائيل كريولاريوس لإخضاع الدولة للكنيسة على عكس ما جرت به السياسة الإمبراطورية فى الشرق الرومانى . ذلك أن الأسقف لم يقنع بتأكيد استقلاله عن روما ، وأعلن صراحة أن المسائل الروحية تفوق فى أهميتها الأمور الزمنية ، وأن تلك المسائل من اختصاص السلطات الكنسية وحدها ، وهكذا قوض الأسقف تلك المكانة التقليدية للإمبراطور باعتباره راعى الكنيسة وحاميها . بل ان كريولاريوس خطا خطوة واسعة عندما راح يهدد بعزل الإمبراطور ، الذى كان عندئذ اسحق كومننوس، ويبدو أن هذا «العواء» لم يكن أجوفا تماما ، إذ مالبث اسحق أن اعتزل الحكم بعد ذلك بقليل ، وإن كان كريولاريوس نفسه قد فارق الحياة فى نفس الوقت . غير أن ازدياد السلطة الكنسية لم يكن فى حد ذاته شيئا جديدا ، فقد تمثلت من قبل على عهد الإمبراطور ليو السادس فيما يتعلق بمشاكل زواجه ، وزمن يوحنا تزيمسكس بخصوص وعوده التى قطعها على نفسه للبطريرك قبل تتويجه [٥]. ولكن هذه السلطة أضحت شيئا يلفت النظر فى القرن الحادى عشر بسبب تلك العدوانية المفرطة التى اتصف بها ميخائيل كريولاريوس ، والتى لم يكن من السهل كبحها إلا على يد امبراطور مقتدر .

---

٥- راجع قبله ص٤٥ ، وحاشية ٤٨ من نفس الصفحة (المترجم)

اتضح ضعف السلطة المركزية خلال الفترة الممتدة من ١٠٢٥ حتى ١٠٨١ في عدد من النواحي الأخرى ، وزاد من هذا الضعف حقيقة ، إبان الجزء الأكبر من هذه السنوات ، ليس فقط ما اعتور البصيرة الإمبراطورية بل أيضا تلك السياسة المترددة التي اتبعها من بيدهم مقاليد الأمور في القسطنطينية . لقد عرف باسل الثاني جيدا بسياسته الاقتصادية الصارمة وخشونة طباعه ، يظهر رسميا فقط في رداء أرجواني «ويد مرصعة بالجواهر كنوع من التمييز، وكان لديه عدد من الأروقة الحلزونية المتقنة حفرت تحت الأرض ليكتنز فيها تلك الثروة الطائلة التي لايمكن جمعها في الأقبية الإمبراطورية. أما أخوه قسطنطين وابنة أخيه زوى وزوجها قسطنطين التاسع ، فقد كانوا وإياه على طرفي نقيض، فقد انحطت سمعتهم نتيجة إسرافهم الشديد وبذخهم الذي يفوق حد الخيال، وتمثل في ذلك الإقدام على إعادة بناء كنيسة سان جورج الشهيد St. George the Martyr ثم هدم ما بدئ فيه وإعادة البناء مرة ثانية على طراز بالغ الفخامة يقصر دونه التصور . «لقد كان الذهب ينساب من الخزانة كجدول رقراق يتدفق من ينابيع لاينضب لها معين »[٦]. ولقد اعترف بسللوس صراحة بأن ذلك الطيش المهلك «كان نقطة التحول في قدر الدولة». وكان البذخ الإمبراطوري وحده كافيا لإيجاد المتاعب ، ولكن الأمر لم يقتصر على هذا الحد ، فقد شهد الوقت ذاته ارتفاع نفقات الإدارة الامبراطورية وذلك لأن الحكومة كانت تنشئ باستمرار وظائف جديدة في الإدارة المدنية .

وبينما كان الانفاق في الداخل يتزايد ، كان الدخل لأسباب متعددة يتناقص، ولعل أبرز أسباب هذا النقصان ، العجز عن السيطرة على «الأقوياء» ، وهكذا فان تلك الميول المتباينة التي كان من السهل إدراكها حتى على عهد أقوى أباطرة الأسرة المقدونية الأوائل ، قد ترك لها الآن الحبل على الغارب ، وإذا كان باسل الثاني قد جعل المسئولية الجماعية في دفع الضرائب عن الجيران والفقراء أمرا ميسورا ، فان هذه المسئولية توارت بالحجاب على عهد رومانوس الثالث الذي ربما لم يكن له من القوة ما يرغم به «الأعيان» على الاستمرار في تحملها ، وعلى هذا النحو حرمت الخزانة من أحد مصادر الدخل. ومما زاد الطين بلة وأدى إلى نقص الإيرادات بصورة واضحة ، ذلك الإجراء الذي عهد بمقتضاه إلى جماعة الملتزمين بجباية الضرائب ، وكان هذا في حد ذاته فقدانا لمهمة من المهام التي يعد من الضروري أن تضطلع بها

---

٦- أنظر Michael Psellus , Chronographia , trans , E. R. A. Sewter, p. 189 (Ch. 185).

الحكومة المركزية، ومن ثم فان كلا من الولايات والدولة قد عانت من جراء ذلك الأولى، ناءت بما أثقل كواهلها ، والأخرى لم تحصل إلا على النزر اليسير من تلك الضرائب الباهظة .

وكانت معاناة السلطة المركزية فى القرن الحادي عشر أشد إيلاما بسبب الإعفاءات والاستثناءات التى كانت تمنح لبعض الشخصيات . وبهذه النقطة بالذات تحددت معالم الطريق نحو الصورة التى سوف تصبح عليها الدولة البيزنطية فى عهدها الأخير . فقد تمتعت ضياع العلمانيين والاكليروسيين على السواء بامتيازات خاصة مثل الإعفاء من دفع ضرائب معينة ، أو الخدمات العامة الإلزامية . ويبدو أن هذه المسألة كانت شيئا عاديا . لكن الأهم من ذلك أن تمنح الأرض لشخص ما فترة محددة ، عادة ما تكون طيلة حياته . وكان هذا الشخص صاحب الامتياز يتولى إدارة الأرض بنفسه والحصول على ريعها . وقد ظهر أول مثال لهذا النوع فى منتصف القرن الحادى عشر ، حتى إذا كان العقد السابع منه وجد العديد من هذه المنح التى كانت توهب لقاء حفنة من المال ، وإن كان لايوجد حتى الآن أى إشارة إلى التزامات عسكرية ترتبط بهذه الهبة . وخلال العصر البيزنطى الوسيط لم نر مثل هذه الصفقات ، وإن كانت قد حدثت فى فترة مبكرة وهكذا قوضت دعائم السلطة المركزية . وكانت هذه الصورة فى الحقيقة من أهم ملامح الهزال الذى اعتراها . ويجب أن لانخلط بين هذا النوع من المنح ، وبين الهبات الديرانية وريعها الذى يؤول إلى العلمانيين والتى استنها كبار آباء الكنيسة لضمان النمو الاقتصادي للملكية الديرانية . ثم جرى استخدامها كنوع من المكافأة بواسطة السلطة الامبراطورية .

وبتوالى سنى القرن الحادى عشر ازدادت الاحتياجات النقدية ، وقد قوبل العجز المالى الواضح ، بسبب نقص إيرادات الضرائب وبذخ البلاط المتزايد والإنفاق الحكومى ، بفكرة تدل على قصر النظر تتمثل فى تخفيض قيمة العملة . وإجراء على هذه المشاكلة كان من شأنه تخريب الاقتصاد البيزنطى . وكان المركز المرموق الذى بلغته القسطنطينية فى التجارة الدولية، يعود فى الدرجة الأولى إلى الثقة فى قيمة عملتها الذهبية النوميزما Nomisma أو البيزنط bezant . وكان معروفا منذ زمن بعيد أن تخفيض قيمة العملة أخذ يظهر منذ عام ١٠٧١ فصاعدا تحت دعوى الإسراع بعلاج الأزمات المالية عندما فقد البيزنطيون معظم أراضى آسيا الصغرى بسبب استيلاء الأتراك السلاجقة عليها . ومع ذلك فقد أصبح واضحا الآن نتيجة لتحليل التضخم الذى وقع ، أن المسئولية الحقيقية عن هذا التخفيض الهائل للعملة

البيزنطية ، ترتبط بقسطنطين التاسع (١٠٤٢- ١٠٥٥) الذى خفض قيمة النوميزما من أربعة وعشرين كارتا Carats إلى ثمانية عشر[٧] فقط ، بل بلغت قيمتها فيما بعد ما بين أربعة عشر إلى اثنى عشر كارتا على عهد ميخائيل السابع (١٠٧١-١٠٧٨) التلميذ الغبي لبسللوس .

وقد تمكن كبار السياسيين وملاك الأراضى من إثراء أنفسهم بطرق مختلفة ، من ذلك مثلا أن ميخائيل بسللوس كان يمتلك هبات عديدة من الممتلكات الديرانية فى أجزاء متفرقة من الإمبراطورية . وكان العجز عن توفير أية حماية إمبراطورية خاصة (أكثر من الانحسار الهادئ) باعثا على ازدياد الصعوبة فى الإبقاء على صغار الملاك مع الالتزامات العسكرية (أو البحرية) . وتبعا لذلك فقد تحول الفلاح الحر الصغير والجندى- الفلاح بصورة مطردة إلى مجرد مستأجر تابع فى ضيعة كبيرة . ولقد برهن التشجيع الإمبراطورى الناجح لصغار الملاك على أنه من أهم العوامل فى تجديد شباب الدولة منذ القرن السابع وما تلاه ، وأن فقدان هذا العنصر أو اختفاءه كان له تأثيره الواضح على الناحيتين المالية والدفاعية ، كما أنه أدى إلى إحداث تغييرات فى التركيب الاجتماعى للإمبراطورية ، وللمرة الثانية فقد أدت السياسة الحمقاء فى أخريات القرن الحادى عشر إلى التعجيل بهذا التغيير فى محاولة لتدبير الأموال اللازمة على وجه السرعة ، فسمح للجنود الفلاحين بشراء الإعفاء من الخدمة العسكرية مقابل مبلغ معين من المال . ومع ذلك فان الحكومة المركزية حاولت ، الآن وفيما بعد ، إبقاء قبضتها على أولاد المستأجرين التابعين Paroikoi الذين كان عليهم التزامات مالية قبل الخزانة الإمبراطورية ، ولذلك بذلت الحكومة جهودا كبيرة للحيلولة دون استقرارهم فى الضياع الكنسية أو العلمانية حتى لايصبح للملاك حق إدعاء هذه الحقوق .

وخلال الجزء الأكبر من هذه السنوات الواقعة بين عامى ١٠٢٥-١٠٨١ تركزت محاولات العائلات الثرية والوزراء بالسلطة ، سواء كانوا من الطبقة الأرستقراطية أو دونها ، فى حماية أوضاعهم الخاصة بالعمل على إضعاف خصومهم قدر الطاقة . ولا مراء فى أنه داخل دولة تقوم على الحكم الأوتوقراطى مثل الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، فان الأمور كلها تصبح بيد الإمبراطور شريطة أن يكون قويا قادرا . ومن ثم فانه على عهد الامبراطورتين زوى

---

٧- أنظر P. Grierson , Byzantinische Zeitschrift, 47 (1954), pp. 379ff .

وثيودورا ، آخر سلالة البيت المقدونى ، وخلفائهما المباشرين ، ترك العداء القائم بين الحزب الحاكم والعائلات العسكرية بصماته واضحة على الخطوط العامة للسياسة الإمبراطورية . ولعل النقاش قد دار لزمن حول اتساع حدود الإمبراطورية وتحصينها ، ليس فقط على يد الحكام العسكريين قبل عام ١٠٢٥ ، بل بعد ذلك أيضا ، حتى أن قسطنطين التاسع حقق بعض النجاح ، «فقد امتدت الحدود الإمبراطورية طويلا ناحية الشرق ، وضم جزء كبير من أرمينيا »[٨]. ولو وضعنا فى الاعتبار وجهة نظر الأعداء الجدد القائمين على الأقل عند جبهات ثلاث ، لكان من سوء حظ هؤلاء أن الامبراطورية لم تستطع أن تقدم على إهمال دفاعاتها العسكرية والبحرية. أو تتراخى فى دبلوماسيتها . وهنا يتضح أيضا ، كما فى مظاهر أخرى كثيرة ، أن القرن الحادى عشر يمثل نقطة تحول فاصلة فى تاريخ الإمبراطورية .

ففى الشمال كانت قبائل البشناق Patzinaks والغز Uzes والكومان Cumans تنهمر على امتداد حدود الدانوب . وأخذت قوى هؤلاء الغزاة ، التى لم تعد تجابه بلغاريا ، تأتلف داخل الإمبراطورية . وقد جرت محاولات لاغراء هؤلاء البدو على الاستقرار كجحافل تقيم على الحدود ، ولكنهم ظلوا بكل جوارحهم قطاع طرق يمثلون للإمبراطورية خطرا محدقا واستنزافا لمواردها المالية ، وحلفاء متوقعين لأى من أعداء الإمبراطورية . هذا بالإضافة إلى أن العناصر الصقلبية فى الداخل ، كانت هى الأخرى تشكل خطرا كامنا ، فبلغاريا التى كانت قد أنزلت إلى مرتبة الولاية ، أضحت متبرمة ، والإمارات الصقلبية الصغيرة الواقعة فى الشمال الغربى والتى كانت مستقلة حقيقة، مثل زيتا Zeta وكرواتيا Croatia كانت على استعداد لتدعيم استقلالها وإبراز كيانها عن طريق التحول إلى جانب خصوم بيزنطة . ولعله من أوضح الأمثلة على ذلك أن أمير زيتا ضرب القسطنطينية بروما فى عام ١٠٧٥ عندما قبل أن يتلقى التاج من يد البابا جريجورى السابع Gregory VII . ورغم أن هؤلاء الأمراء الصغار كانوا أقل بكثير من أن يصبحوا منغصا مؤلما ، فان الأوضاع عند الادرياتى وما وراءه كانت تتغير بشكل أصبح من المستحيل تجنب تأثيره على بيزنطة ؛ ذلك أن ازدياد قوة المجر والبندقية كان يعنى احتمال أن تصبح كرواتيا أو زيتا أو راسكا Rasca عاملا هاما فى دبلوماسية البحر المتوسط ، بل ربما أيضا تحديا للسيادة الإمبراطورية نفسها كما فعلت صربيا Serbia فى القرن الرابع عشر .

---

٨- أنظر Michael Psellus, Chronographia, trans. E. R. A. Sewter, p. 190 (Ch. 189) .

وإذا كانت الأمور تجرى على هذا النحو فى الغرب ، فان بيزنطة كانت قد تمكنت من تحقيق مكاسب واضحة على الجبهة الشرقية قبل عام ١٠٢٥ . وبناء على المعاهدة التى كانت قد وقعت مع باسل الثانى ، آلت إلى بيزنطة البقية الباقية من أرمينيا بعد وفاة حاكمها سنة ١٠٤٢ ، وهكذا أمست الدولة الحاجزة ولاية بيزنطة . وإن لم يمض على ذلك بضع وعشرون سنة حتى كانت أرمينيا قد دخلت تحت السيادة السلجوقية ، وذلك فى عام ١٠٦٥ على يد ألب أرسلان Alp Arslan وكان هذا نذيرا بالهجمات المنظمة والغزو المرتقب لآسيا الصغرى التى كانت تعد العمود الفقرى للإمبراطورية. ذلك أن الأتراك السلاجقة الذين قدموا من أواسط آسيا ، نجحوا فى السيادة على فارس وبسطوا سلطانهم العسكرى على الخلافة [٩]. وشرعوا فى مهاجمة الولايات الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية ، وحققوا تقدما كبير يفوق مالقيوه

---

(٩-١٠) السلاجقة مجموعة من القبائل التركية ، تقيم فى منطقة التركستان أو بلاد ما وراء النهر ، واشتقت اسمها من الزعيم الذى عمل على وحدتها وهو سلجوق بن دقاق وذلك فى أواخر القرن العاشر الميلادى. واعتنقوا الإسلام وتحمسوا له بشدة وخاصة مذهب أهل السنة . وقد ازدادت قوتهم فى القرن الحادى عشر وعملوا على الاستيلاء على المناطق المجاورة وبسطوا سيادتهم على خراسان . وفى عام ١٠٣٧ أعلن قيام دولة السلاجقة وتولى طغرل مهام السلطة . وبعد مرور ثلاث سنوات فقط حصلوا من الخلافة العباسية على الاعتراف بدولتهم . وبعد أن بسطوا سيطرتهم على إيران ، ودخل طغرل بغداد سنة ١٠٥٥ لينتهى بذلك نفوذ بنى بويه الشيعى من العاصمة السنية ، والذى استمر ما يزيد على قرن من الزمان . ومنذ هذا التاريخ أخذ السلاجقة يحكمون فى بغداد باسم الخلافة العباسية . وقد عاشت الدولة السلجوقية أزهى فترات قوتها زمن السلطان ألب أرسلان وابنه ملكشاه ووزيرهما نظام الملك ، حيث امتدت حدود الدولة من خوارزم شمالا إلى حدود اليمن جنوبا ، ومن حدود الصين شرقا إلى سواحل البحر المتوسط غربا . حتى إذا كانت سنة ١٠٩٢ ومات ملكشاه ، وكان قد سبقه إلى الموت قتيلا وزيره نظام الملك ، دخلت الدولة السلجوقية فى طور من الضعف والانقسام بسبب النزاع على العرش ، وينتهى الأمر بوجود سلاجقة العراق وسلاجقة سوريا وسلاجقة الجزيرة . وقد حدث هذا الانقسام فى الوقت الذى دهمت فيه الحروب الصليبية العالم الإسلامى ، مما كان له أبعد الأثر فى نجاح الحملات الصليبية فى أول الأمر. وللمزيد من التفاصيل عن السلاجقة أنظر : دكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق دكتور حسن محمود ، ودكتور أحمد الشريف . العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ص٥٤٢-٦٣٦ (المترجم)

جنوبا في حربهم مع الفاطميين في مصر . ورغم أن السلاجقة سرعان ما انقسموا على أنفسهم، إلا أنهم أوقعوا بالإمبراطور البيزنطي ، الذي حاول طردهم من آسيا الصغرى ، هزيمة مروعة (في موقعة منزكرت سنة ١٠٧١) ، وإن كانوا قد أبدوا رغبتهم في التوصل معه إلى معاهدة مقبولة . وربما كان ذلك مدعاة كي تستجمع الإمبراطورية قواها . ولكن الذي حدث أن أنصار أسرة دوكاس Ducas في القسطنطينية أقدموا على عزل الوجيه الكبادوكي الإمبراطور رومانوس الرابع Romanus IV منتهزين فرصة غيابه على رأس تلك الحملة . ورفعوا إلى العرش بدلا منه شابا مولعا بالقراءة ، بدا واضحا أنه غير جدير بهذا المنصب هو ميخائيل السابع دوكاس Micheal VII في الوقت الذي كان فيه الأتراك قد رفضوا شروط المعاهدة المقترحة للسلام ، ولم يجدوا أمامهم أي صعوبة تعوق توغلهم داخل آسيا الصغرى .

وكأن هذه الأخطار الحادثة في الشرق لم تكن كافية ، فقد شهد نفس العام (١٠٧١) سقوط مدينة باري Bari آخر المعاقل البيزنطية في الغرب في جنوبي ايطاليا في أيدي النورمان. هنا أيضا كان يوجد عدو لايقل خطرا عن السلاجقة ، طموح ، مخاتل ، داهية . فما أن تم للنورمان تقويض السيادة البيزنطية على اليابسة حتى انتزعوا صقلية من أيدي العرب ، ولما كانوا غير قانعين بذلك الجزء الكبير الذي يشكل الأملاك البيزنطية القديمة في إيطاليا ، فقد حولوا أنظارهم الآن تجاه بلاد اليونان نفسها . ولم يكن أمام بسللوس ، حتى وسط مديحه للإمبراطور الشاب ، إلا أن يعترف بأن الأمور قد وصلت «إلى الدرك الأسفل من الانحطاط» وإن كان من الصعب أن نعزو ذلك كله إلى ميخائيل ومؤدبه ، كما فعل مؤرخ بيزنطي آخر[١١]. فقد كانت جذور تلك المتاعب تكمن في تلك السياسة العقيمة التي أديرت بها أمور الدولة في الداخل وما صحبها من ازدياد نفوذ الأعيان وسلطانهم ، في نفس الوقت الذي واكب لسوء الحظ أعداء أقوياء في الخارج : الأتراك السلاجقة في الشرق ، والنورمان في جنوب إيطاليا .

---

١١- أنظر John Scylitzes, History (Migne, Patrologia G. vol. 122. col. 846).

وقارن Michael Psellus, Chronographia, trans. E. R. A. Sewter, p. 284 (ch. 7)

## ٢- إحياء الإمبراطورية زمن آل كومنين :

### (أ) الكسيوس كومننوس (١٠٨١-١١١٨) :

باعتلاء الكسيوس كومننوس Alexius Comnenus العرش في سنة ١٠٨١ قفزت الأرستقراطية العسكرية الظافرة إلى المقدمة . فمن بين القادة العسكريين المبرزين كان الكسيوس أقدرهم ، ضابطا وسياسيا ودبلوماسيا ، أدت جهوده وحده ونجاحه فى إقامة أسرة على العرش إلى تأخير انحلال الإمبراطورية إلى ما يزيد على مائة سنة آتية .

وعلى الصفحات الأخيرة لـ «مزمنة» بسللوس تبدو الصعوبات التي كانت تواجه الحكومة في ستينيات القرن الحادي عشر وسبعينياته ، رغم أنه حاول جاهدا أن يتجاوز عن سيئات أصدقائه وحُماته، أسرة دوكاس. أما المشاكل الملحة التى عنت لألكسيوس فقد تضمنها ذلك التقرير الذى كتب عن عهده بيد ابنته الأميرة أنا كومننا Anna Comnena وهكذا تنعكس بكيفية تثير الدهشة سمات كل من هاتين الفترتين في هذين العملين المتقنين والمختلفين : «المزمنة» Chronographia بأباطرتها الأحد عشر والإمبراطورتين المسنتين بما تثيرانه من ملل وازدراء ، فى فترة لاتتجاوز ست وخمسين سنة فقط ، وال «الكسياد » Alexiad التى تحتلها شخصية رئيسية واحدة لـ «أبى الإمبراطور» الذى ظل يحكم بلا انقطاع طيلة سبع وثلاثين سنة قبل أن يتوفاه الموت عام ١١١٨ .

شغل ثلاثة من أفراد آل كومنين ، الأب والابن والحفيد ، الفترة ما بين عامى ١٠٨١-١١٨٠ ، وكانت شخصياتهم ومنجزاتهم تظهر للعيان خادعة ، إذ عصبوا أعين الناظرين عن تلك التغييرات الجوهرية فى العالم البيزنطى، فقد ولى النظام الحكومى والدفاعى السابق ، وازداد نماء العناصر الإقطاعية والانفصالية ، ذلك أن الحقبة البيزنطية المتأخرة كانت تمثل عصر الارستقراطية العسكرية الإقطاعية ، حيث بات واضحا أن الزعامة العسكرية والسياسية التى تنتمى إلى العائلات الثرية من كبار ملاك الأراضى ، هى وحدها القادرة على استخدام مثل هذه الموارد المتاحة ، وهى التى مكنت بيزنطة فى زمن معين من أن تحافظ إلى حد ما على مكانتها فى مواجهة القوى اللاتينية والصقلية المتزايدة ، والتصدى للحكام المسلمين فى الشرق الأدنى .

ولم تكن أنا كومننا مبالغة عندما قالت على لسان ألكسيوس : «لقد وجدت الإمبراطورية محاطة من كل ناحية بالبرابرة ، فى الوقت الذى نضبت فيه مواردها تماما ... ولعلكم تعرفون

جميعا تلك الهجمات التى يقوم بها الفرس (الأتراك) وإغارات السكيزيين Scythians (البشناق Patzinaks)، ولايمكن أن يكون قد غاب عن ذهنكم تلك الرماح التى شحذت ضدنا من لونجيبارديا[١٢] Longobardia (الإقليم البيزنطى القديم فى جنوب إيطاليا) . ولم تكن المسألة بقاصرة على خزانة خاوية وجدها ألكسيوس ، أو عملة انهارت قيمتها ، أو حكومة تقوض سلطانها ، بل فوق كل هذا حلقة من الأعداء تحيط بالإمبراطورية فى إيطاليا والبلقان وآسيا الصغرى. على أن الخطر المدلهم فى زمانه كان يكمن بصفة أساسية فى الغرب (النورمان والمدن البحرية الإيطالية) ، بعد أن كان الضياع قد حل بالشرق فعلا عند اعتلائه العرش. فقد أصبح الجزء الأكبر من آسيا الصغرى واقعا الآن فى قبضة الأتراك . وكان لهذه الأحداث آثارها الخطيرة على الموارد الاقتصادية والعسكرية والبحرية بالنسبة لبيزنطة ، ذلك أن فقدان هذه المنطقة لم يكن يعنى فحسب انحسار الحدود الشرقية ، بل مزيدا من الصعاب أمام الإمبراطورية فيما يتعلق بمسألة التجنيد العسكرى . هذا العوز فى القوى البشرية ترك أيضا بصماته الواضحة على القوة البحرية البيزنطية فى وقت كانت الإمبراطورية فيه لايمكن أن تقدم على إهمال أسطولها البحرى أو التجارى . هذا على حين كانت المتاعب المالية أمرا مقررا من قبل ، ولم تكن بحاجة إلى مزيد من الانهيار يأتيها عن طريق الكساد التجارى أو انخفاض الرسوم الجمركية .

انحصر اهتمام الكسيوس بادئ ذى بدئ فى السياسة الخارجية خاصة الناحية الدفاعية سواء بالوسائل الدبلوماسية أو العسكرية ، ذلك أنه توج فى أبريل ١٠٨١ وما لبث أن دخل فى مفاوضات مع السلاجقة فى آسيا الصغرى «الأتراك الملاحدة»[١٣] من منطقة تمركزهم الآن فى نيقية Nicaea ، وكان كل ما استطاع التوصل إليه فيما يتعلق بهذه الناحية الاعتراف بادعاءاتهم فى آسيا الصغرى على أمل أن يوقفوا زحفهم داخلها حتى يصبح مطلق اليد فى مواجهة الهجوم النورمانى . وكان النورمان بعد أن أمنوا مواقعهم فى جنوب إيطاليا ، قد اتجهوا الآن تحت رعاية روبرت جويسكارد Robert Guiscard ناحية بيزنطة[١٤] ، رغبة منه فى

---

١٢- أنظر Anna Comnena . Alexiad VI 3 (trans E.A.S. Dawes. pp. 141-142).

١٣- راجع حاشية ١٦ ص١٢٤ المترجم .

١٤- للوقوف على أصل النورمان وهجراتهم واستقرارهم فى جنوب إيطاليا وصقلية ومشروعاتهم الواسعة للاستيلاء على الأراضى البيزنطية بما فيها القسطنطينية .أنظر =

أن يصبح إمبراطورا رومانيا . وحقيقة أنجبته نورماندي، ولكنه نشأ وترعرع بيد الآثام»[١٥] ومما لاشك فيه أن البيزنطيين تقبلوا بصدق ذلك الوصف الذي جرى به قلم أنا كومننا عن روبرت جويسكارد ، ولم تكن تعوزهم الأسباب لذلك ، فقد هاجم جويسكارد بلاد اليونان ومقدونيا محققا بعض النجاح رغم الجهود المشتركة التى بذلها البنادقة مع الكسيوس . ولم يؤد موته المفاجئ عام ١٠٨٥ إلا إلى تأجيل الصدام فقط بين القسطنطينية والنورمان . وقد كشفت هذه الأحداث بجلاء عن عوامل معينة تعد على قدر كبير من الأهمية فى مستقبل العمل الدبلوماسى البيزنطى ، فالقوى الصغيرة والعديدة فى منطقة البلقان كانت على استعداد لإعطاء ولائها لمن يدفع بسخاء ، ولهذا كان لابد أن تراقب باهتمام، وأصبح من الضرورى معالجة ذلك العجز الذى يعتور البحرية البيزنطية بمساعدة القوى البحرية المجاورة مثل البندقية، مع العلم بأن ذلك كان شيئا باهظ التكاليف . فقد كان على الكسيوس أن يمنح البنادقة امتيازات تجارية واسعة داخل الإمبراطورية كلها ، إلى الحد الذى أضحوا فيه أعلى كعبا من التاجر البيزنطى العادي. وكان هذا غرسا لبذور المشاكل التى آتت أكلها فيما بعد حسدا بيزنطيا لهؤلاء المتطفلين اللاتين ، فى الوقت الذى أثارت فيه حفيظة منافسى البندقية من المدن الإيطالية الأخرى ودفعتهم للعمل من أجل الحصول على حقوق مماثلة لقاء ما يقدمونه من خدمات .

وبوفاة جويسكارد سنة ١٠٨٥، وهزيمة البشناق الساحقة فى عام ١٠٩١ ، وانقسام سلطنة السلاجقة الروم فى آسيا الصغرى عقب وفاة سليمان [١٦]، أصبح المجال مفتوحا أمام الكسيوس ليبذل كل جهده لاستعادة بعض أراضى الإمبراطورية . غير أن الأوضاع ما لبثت أن تغيرت بشكل جذرى بالنسبة للبيزنطيين والأتراك على السواء بفعل القنبلة التى فجرها الغرب ممثلة فى الحملة الصليبية الأولى .

---

أنظر D. Douglas, William the Conqueror , pp. 15-30 .

و Thompson & Johnson, op. cit., pp. 142 , 385 .

وأيضا Pirenne, op. cit., pp. 178-179 . (المترجم)

١٥- Anna Comnena, op. cit., p. 26 (1-10) .

١٦- هو سليمان بن قطلمش، أول من تولى سلطنة سلاجقة الروم، وقد توفى عام ١٠٨٦ ، وخلفه ابنه قلج أرسلان وتعرضت السلطنة آنذاك لخطر الانقسام ، ولعبت الدبلوماسية البيزنطية دوراً كبيراً فى إحداث هذا الشقاق . أنظر دكتور سعيد عاشور، الحركة الصليبية الجزء الأول ص١١٩ . Runciman, op. cit., I, pp. 64-65 (المترجم)

ويكمن السبب الرئيسى لذلك العداء المتبادل بين اليونان والصليبيين اللاتين فى تلك الهوة الواسعة التى تفصل بين أهداف كل منهم . فالحركة الصليبية فى الغرب لقيت التشجيع من جانب أعلى سلطة كنسية هناك . فقد بشر بها ودعا إليها البابا أوربان الثانى Urban II فى مجمع كليرمونت الذى عقد فى عام ١٠٩٥ ، ورغم أن الأراضى المقدسة قد ظلت لقرون طويلة فى أيدى الكافرين (١٧) ، إلا أن حركة الحج المسيحى سارت قدما واطراداً إلى الأراضى المقدسة. والآن اتجهت الحماسة الدينية المضطرمة فى العالم اللاتينى لطرد المسلمين من هذه المناطق ، بالإضافة إلى سحر اكتساب أراضي جديدة ، واعتبارها منفذا للمشروعات البحرية والاستعمارية . وكان من الطبيعى أن تتوق البابوية فى ثوبها الاصلاحى إلى تحرير بيت المقدس ، ولكنه ليس ببعيد أيضا أن يكون عقلها قد احتوى فكرة مد نفوذها الكنسى إلى الشرق حتى يلتئم ذلك الصدع الرسمي بين كنيستى روما والقسطنطينية .

وكان ألكسيوس نفسه يرغب فى القضاء على هذا الشقاق ، وقد أبدى فى إحدى رسائله إلى أوربان الثانى دهشته فى إسقاط اسم البابا من الصلوات والقداسات ، وأعلن أنه ما من شك فى أن المياه يجب أن تعود إلى مجاريها. ومع ذلك فانه كان يأبى تماما التسليم بامتداد السلطان البابوى إلى أقاليم تابعة أصلا لأسقفيات أخرى ، يضاف إلى هذا أنه قد أظهر من حين لآخر رغبته الأكيدة فى الحصول على جماعات من المرتزقة أو قوات احتياطية من الغرب ، لالكى تذهب مباشرة إلى البيت المقدس . فقد كانت لديه احتياجات أكثر إلحاحا تتعلق بالإمبراطورية نفسها أولا . وكانت التقاليد الإمبراوطورية والاحتياجات الملحة تجعل من المستحيل على امبراطور بيزنطى أن يدرك مغزى حملة صليبية فى الشعور الغربى، ذلك أن الشرق الرومانى كان يختلف عن الغرب على الأقل فى ناحيتين أساسيتين : فالحرب مع الكافرين(١٨) كانت قد أصبحت بالنسبة لبيزنطة ، ولزمن بعيد ، ضرورة يومية تدور رحاها بصفة أساسية نتيجة اعتبارات تتصل بالسياسة الإمبراطورية . ولذا فان الزحف مباشرة إلى بيت المقدس كان يعد ضربا من العبث، إذا ما كان يعنى ترك مؤخرة الجيش فى آسيا الصغرى دون حماية كافية. وكان من الضرورى ، إذا رئى ذلك ، التوصل إلى اتفاق مع المسلمين إذا

---

١٧- أنظر حاشية ١٦ ص١٢٤ (المترجم)

(١٨-١٩) أنظر حاشية ١٦ ص١٢٤ (المترجم)

ما دعت الأحداث فى مناطق أخرى إلى مثله. كاشتعال الثورة فى البلقان ، أو قيام النورمان بهجوم غادر ، وفوق هذا وذاك فان الظروف الجغرافية والتقاليد كانت تؤكد بجلاء أن الحرب مع الملاحدة(١٩) فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين إنما تقع فى المقام الأول على كاهل الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وليست مسئولية العالم المسيحى بعامة .

من أجل هذا لم يكن غريبا أن تنشأ الصعاب، غير أنه نتيجة للسياسة الحكيمة والدبلوماسية التى اتبعها الكسيوس ، أمكن عبور الصليبيين إلى آسيا الصغرى مع تجنب الصدام بين الطرفين . ولاشك أن عبور هذه الجماعات ، سواء كانوا من الحجاج غير المسلحين (وهم غالبا من الرعاع) أو القوات الإقطاعية ، كان يتطلب توفير السفن والغذاء والأدلاء والحراس، مما ألقى بدوره تبعات جسيمة على الأقاليم والموارد البيزنطية . ولما كان الكسيوس يرتاب فى نيات الزعماء اللاتين فقد حاول توضيح موقفه وتأمين مركزه بأن ينتزع منهم يمينا بأنهم سوف يعيدون للإمبراطورية الرومانية كل المدن والقرى والقلاع التى يستولون عليها والتى كانت قبلا تحت السيادة الإمبراطورية» (٢٠). ولعبت الأقدار بالاتفاق مع الادلاء البيزنطيين دورا كبيرا فى عبور القوات الصليبية آسيا الصغرى والتوغل فى شمال سوريا ، حتى إذا نجح الصليبيون فى احتلال أنطاكية عام ١٠٩٨ كان ذلك نقطة تمثل مفترق الطرق وتميط اللثام عن الأهداف والسياسات العدائية . فقد كانت أنطاكية قبل ذلك بقليل تحت السيادة البيزنطية (٢١)، ومن ثم توقع الكسيوس أن يعيدها الصليبيون إليه ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، إذ أصبحت فى حوزة بوهمند Bohemund ابن عدوه اللدود روبرت جويسكارد ، والذى أقام لنفسه إمارة أنطاكية . وقد أعقب ذلك مزيد من النجاح للقوات الصليبية حيث تمكنت من تأسيس إمارة الرها Edessa ومملكة بيت المقدس وأخيرا إمارة طرابلس (٢٢).

---

٢٠- أنظر Anna Comnena, op. cit., p. 261 (X,9) .

٢١- كانت أنطاكية قد خضعت للدولة البيزنطية إبان التوسع الذى شهده القرن العاشر وأوائل الحادى عشر زمن الأسرة المقدونية . وقد استمرت تحت أيديها حتى استردها السلاجقة ثانية عام ١٠٨٥ (المترجم)

٢٢- للمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الأولى ومدى نجاحها فى بلاد الشام والعلاقة بين =

كان بوهمند فى نظر القسطنطينية وغد هذه الناحية ، فقد كان من غير المؤكد منذ اللحظة الأولى لظهوره على مسرح التاريخ فيها ، أنه يحمل فى نفسه أية وأمنيات طيبة للإمبراطورية الرومانية» . وبصفات جمعت بين الإقدام فى تردد والخبث والحقد ، راح بوهمند يتنازع مع جيرانه الصليبيين والأتراك والبيزنطيين على قدر سواء . ولما اضطر للعودة إلى الغرب من أجل الحصول على المدد ، لعب دورا كبيرا فى نشر تلك القصة التى تشيع أن البيزنطيين قد غدروا بالصليبيين ، بل إنه اقترح على البابا غزو القسطنطينية نفسها . ومن ثم فلاريب أن تأكدت الشكوك البيزنطية . وقد هاجم بوهمند بلاد اليونان سنة ١١٠٧ ولكنه هزم وازداد مركز بيزنطة هناك رسوخا . وتمكن الكسيوس من تحقيق التوازن فى البلقان ، ذلك أنه باعترافه بأهمية الدور السياسى الذى تقوم به هنغاريا فى البلقان وبحر أدريا ، مهد السبيل لزواج ابنه ووريثه يوحنا من أميرة هنغارية . وهكذا أصبح الآن قادرا على إعداد حملة ضد السلاجقة فى آسيا الصغرى .

ولم تكن الوسائل التى لجأ إليها الكسيوس قاصرة على السياسة والدبلوماسية فى علاقاته الخارجية ، رغم أنه عمد إلى إثارة بعض القوى ضد بعضها الآخر ، ولكن فطنته ودهاءه استخدما بصورة عملية لإعادة الرخاء فى الداخل . وقد تركت أنا كومننا على صفحات مؤلفها صورة للإمبراطور تفيض بالود والألفة ، ربعة مكتمل البنيان ، كث اللحية ، فصيحا رغم لثغة لسانه فى حرف الراء ولعثمة خفيفة ، إداريا حازما . يدين لوالدته أنا دالاسنا Anna Dalassena بالكثير ، سواء فى ارتقائه العرش أو فيما بعد ، فقد كانت امرأة مهيبة تقدم بها السن ، ذات شخصية طاغية ، أعادت القانون والنظام إلى البلاط ، فقد وضعت جدولا صارما للمواعيد يتضمن الصلوات والتسابيح ، ووقتا محددا لتناول الإفطار ، وتخمد عند الباحثين

---

= زعمائها والإمبراطورية البيزنطية، أنظر أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، لمؤلف مجهول ، وقد نقله إلى العربية الدكتور حسن حبشى ، وراجع للدكتور حبشى أيضا : الحرب الصليبية الأولى . القاهرة ١٩٥٨، دكتور جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى . القاهرة ١٩٦٧، الدكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية الجزء الأول : القاهرة ١٩٦٣، ارنست باكر : الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى . ص٢٩-٤٥ .

وأيضا Runciman , op . cit. I, pp. 121-326

عن اللذة مجرد «النظرة الأولى» . وقد تلاشت تدريجيا الصورة التي رسمتها لها أنا كومننا على عكس ما جرت به الشائعات فجأة في وقت لاحق حول وقوعها تحت تأثير راهب هرطوق ينحدر من أصل روماني ، يعبد الشيطان ويتوجه في صلواته إلى كلب أسود صغير . وكان من الطبيعي أن لايضخم ذلك في الـ «الكسباد» ، حيث كان لابد من إبراز أرثوذكسية البيت الإمبراطوري . لقد كان الكسيوس على علم تام بكل واجبات منصبه الإمبراطوري بما في ذلك الحفاظ على الإيمان الحق .

وفي سبيل مواجهة الاحتياجات المالية الملحة ، أقدم الكسيوس على رهن «بعض الأملاك الكنسية التي لم تكن تؤدي غرضا معينا ، بل جرت عليها يد الجدب والإهمال . وكان طبيعيا أن يؤدي هذا إلى توتر العلاقة بينه وبين الكنيسة حتى عدل عن ذلك . وقد لجأ أكثر من مرة إلى تسليم أملاك الكنيسة إلى العلمانيين للقيام بأمرها (وقد عرف هذا بـ «هبة» Char-isticium ويمكن القول بوجه عام أن ألكسيوس لم يخرج عن الإجراءات التقليدية ، وأنه - شأن سلفه الأشهر قسطنطين العظيم - كان يتوق إلى اجتثاث الهرطقة وإرساء وحدة العقيدة في الدولة. ولقد أدار بنفسه من وراء ستار ، دفة الجدال مع زعماء البوجوميلية الثنويين [٢٣]، خلال المجمع الذي عقد لمناقشة تلك الآراء ، وإن لم تكلل جهوده بالنجاح الكامل ، إلا أنه كان أسعد حظا مع بعض الغاوين مثل يوحنا الإيطالي John Italus الذي كان تلميذا متحمسا لأفلاطون وأرسطو وقد جئ به لمناقشة الرأي حول خلطه بين الفلسفة الوثنية والعقيدة المسيحية، على غرار ما كان يفعل بعض معاصريه في الغرب .

هكذا كانت تجري أنشطة ألكسيوس في الداخل . ولم تكن حياته قاصرة على الحرب والدبلوماسية ، وتجلت فطنته في سياسته الداخلية التي تركزت بصفة أساسية في مشاكل المال والدفاع . وقد استخلصت سياسته عظتمها بمهارة فائقة من خلال ذلك الشعب المنكود ، سواء تم ذلك عن طريق الضرائب الباهظة أو الخدمات الإلزامية . ولم يعد الجندي الفلاح الصغير يمثل عماد الجيش ، فقد أضحى المرتزقة الأجانب أو حتى الأهالي ، لزمن طويل ، يعملون في الخدمة العسكرية ويكونون عنصرا تتزايد أهميته . واستخدم كذلك نظام «الميرة» Pronoia وهو عبارة عن ضيعة تمنح لقاء الخدمة العسكرية أو البحرية . وهذا النظام الذي كان قد جرى العمل

---

٢٣- راجع حاشية ١٨ ص١٢٧ (المترجم)

به منذ منتصف القرن الحادى عشر . لم يكن يتضمن آنذاك هذه الالتزامات التى يبدو أنها ظهرت لأول مرة فى عهد ألكسيوس ، ربما «قبل عام ١١١٩». هذا الشخص الموهب يشار إليه غالبا بـ «الجندى» stratiotes وكان يجهز ويعد بصبحة فرقته العسكرية ، وقد جاء أصلا من توليفة اجتماعية تختلف عن الطرق الأساسية التى ينتمى إليها الجنود المرابطون الفلاحون ، وهو يتسلم دخل الضيعة بما فيه الضرائب والالتزامات الخاصة بمستأجريه . وفى الحقيقة فقد أدى هذا الإجراء المالى إلى إيجاد نوع من أهم أنواع الهبة اثارة . كانت تقدم فى هذه الفترة للشخص مدى الحياة دون أن تخضع للتنازل أو الهبة .

على هذا النحو فضل الكسيوس أن يقيم بصورة محكمة تلك العناصر الاجتماعية التى حاول أباطرة بيزنطة فى الحقبة الوسيطة إخماد جذوتها ، ولعل أبرز ما تتسم به سياسته فى الداخل والخارج ، انتصار الأرستقراطية العسكرية ، وفيها تكمن قوتها وضعفها ، لقد كان الاقطاع البيزنطى نتاجا طبيعيا للتطور الداخلى ، ولم يكن وارداً أو مقتبساً من الغرب ، ومن المحتمل أن تكون العناصر الصليبية قد تركت بصماتها عليه ، ذلك أن إقامة عدد من الإمارات اللاتينية فى فلسطين وسوريا ، وتدفق الفرنجة عبر الإمبراطورية البيزنطية خلال القرن الثانى عشر ، يرتبط بجعل الإقطاع الغربى مألوفا لدى البيزنطيين . لقد التقى العالمان ، وكان لابد أن يأخذ كل منهما عن الآخر. فيمين الولاء الذى انتزعه الكسيوس من الزعماء الصليبيين فى القسطنطينية يشبه بكيفية مستهجنة ذلك الذى كان يربط بين السيد والفصل [٢٤]، على الرغم من أنه لايتضمن بطبيعة الحال تلك التعهدات التى كان يحتويها عقد الإقطاع الغربى . لقد ارتضى الكسيوس وانتقى أحسن الأساليب فى الإدارة الإمبراطورية والسياسة الخارجية ، بحيث لم يترك لولده يوحنا وحفيده مانويل حرية الاختيار ، بل كان عليهما أن يسلكا نفس السبل التى وضعها مؤسس الأسرة .

---

٢٤- تعود جذور الولاء الشخصى فى العلاقة التى تربط بين السيد الإقطاعى والفصل إلى أواخر العصر الرومانى وبدايات المجتمع الجرمانى ، ذلك أن النظام الرومانى القديم الخاص بالحماية Patrocinium حيث يحيط أحد الأثرياء، صاحب النفوذ نفسه بمجموعة من الأتباع Clientes يعتبر نفسه حاميا لها Patronus وتطلب هى عونه وتأييده، دفعا لأخطار متوقعة فى الداخل أو الخارج ، كان هذا النظام سائدا بصفة خاصة فى فترة الفوضى التى تعرضت لها الإمبراطورية فى عصرها الأخير . كما أن زعيم القبائل الكلتية من غالة كان يسيطر على مجموعة كبيرة من الأتباع يعيشون تحت رعايته وطوع أمره ، كما أن كلمة فصل (Vassal) =

## (ب) يوحنا الثانى كومننوس (١١١٨-١١٤٣) :

## ومانويل الأول كومننوس (١١٤٣-١١٨٠)

فى عام ١١١٨ مات الكسيوس كومننوس ، كما عاش محاطا بنسوة ذات شخصيات طاغية ، ولكنه كان حتى اللحظة الأخيرة وهو على فراش الموت يحتفظ برجاحة عقله ، فرفض الاعتراف بادعاء ابنته أناكومننا بأحقيتها فى وراثة العرش. وباعتلاء أخيها ومنافسها يوحنا ، الذى كان لديها مقيتا ، عرش الإمبراطورية ، تولت إلى الظل موهبتها التاريخية ، ومن ثم فليس هناك تاريخ بجعل من يوحنا الثانى الشخصية الرئيسية على صفحاته . لقد كان حاكما يبعث على التقدير ، تنطوى نفسه على أخلاق هى النبالة فى حياته الخاصة وبلاطه ، فى حديثه واصفائه ، فى سلوكه وخلاله . وكان اعتداله كما كانت مبادئه ، واضحا بينا (بما يذكرنا بصفات جدته آنا دالاسنا). وعلى نفس القدر كان يتمتع بالحذر والمثابرة مما جعله قادرا على اتباع سياسة أبيه الكسيوس . لقد كانت الواقعية جوهر سياسته .

---

= Vassus من المحتمل أنها تعود فى أصلها إلى جذور كلتيه. وكان يطلق على ذلك النظام الذى وجد عند الجرمان ويختص بالولاء بين المحاربين «الحامية» أو «الاتباع» Comitatus ومن أهم سماته التى ظهرت بوضوح فى العلاقة الإقطاعية بين السيد والفصل اليمين الرسمى بالولاء الشخصى لزعيم الجماعة المحاربة . وكانت العلاقة التى تربط بين السيد والفصل فى النظام الاقطاعى الغربى فى العصور الوسطى ، فى جوهرها ذات صفة تعاقدية وإن لم يكن ذلك بصورة مدونة فعلا ، ذلك أن السيد كان يتوقع من فصله أن يؤدى له خدمات بعينها وأن يدفع له ضرائب معينة ، وهكذا الفصل كان يرى أن على السيد تجاهه نوعا من الواجبات عليه أن يؤديها ، من بينها أن يوفر القوة العسكرية الكافية للدفاع عن إقطاعه وقلعته . للمزيد من التفاصيل عن النظام الإقطاعى فى الغرب فى العصور السطى .

أنظر F. Ganchof, Feudalism, 1976 .

و G. A. Hodgett, A Social and Economic history of Medieval Europe, pp. 24-35 .

وأنظر أيضا H. Pirenne, Ecnomic and Social history of Medieval Europe, pp. 58-66

وكذلك Thompson & Johnson op. cit., pp. 290-351 P. Vinogradoff, Feudalism (C. M. H. vol. III, pp. 458-484) وله أيضا بالاشتراك مع الأستاذ كوبلاند : الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، ١٩٥٨ وللأستاذ كوبلاند كذلك : القنية والإقطاعية فى تاريخ العالم الذى أشرف على نشره السيرجون هامرتن . المجلد الخامس ، ص٣-٢٢ ، ودكتور اسحق عبيد : الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع . بيروت ١٩٧٥ (المترجم)

انقضى القرن الثانى عشر تقريبا بين عهدى يوحنا وابنه مانويل ، وشهدت بدايته قيام أسرة كبيرة على العرش تمثل الأرستقراطية العسكرية لكبار ملاك الأراضى ، كما شهدت نهايته الانهيار السريع للأسرة ذاتها ، والذى يمكن اعتباره الانحلال الأول للإمبراطورية البيزنطية ، وكانت مقاومة اللاتين فى سبيل الإبقاء على موطئ القدم الذى انتزعوه بصعوبة فى سوريا وفلسطين ، وإبعاد دائرة القوى الاسلامية التى تطبق على إماراتهم الصغيرة المتباعدة ، تسير جنبا إلى جانب نضال بيزنطة من أجل الحفاظ على مركزها فى عالم البحر المتوسط .

وكان الخط الواضح الذى جرت عليه سياسة يوحنا الثانى ، ومانويل الأول ، الإدراك التام أن المطامع البعيدة لحكام صقلية النورمان ، الذين كانت سياستهم تستهدف غزو القسطنطينية، أصبح يضطلع بها الآن الملك الألمانى برباروسا Barbarossa الذى قوى قبضته عن طريق زواج ابنه هنرى السادس Henry VI من قنسطانسا Constance وريثة عرش المملكة الصقلية (٢٥). ولعل الخلاف فى سياسة يوحنا ومانويل حول الاهتمام بالشرق ، يعود إلى اختلاف شخصية كل منهما عن الآخر ، والظروف التى كانت تحيط بكليهما ، فقد أبدى مانويل اهتماما أكثر من يوحنا بالغرب خاصة ايطاليا ، ولكن هذا لايمكن أن يخفى الحقيقة الواضحة من أنهما واجها نفس العدو وأنهما استطاعا (رغم الكارثة العسكرية التى حدثت سنة ١١٧٦)(٢٦) تحقيق انتصار كبير فى الشرق

تركزت مشكلة يوحنا مع النورمان إلى حد ما فى أنطاكية الصليبية التى أسسها بوهمند ومازالت تحكم بواسطة أسرة هوتفيل Hauteville ولكنه فى الوقت نفسه كان عليه أن لايغمض عينيه عما يجرى فى صقلية ، وأن يرقب بحذر كامل تحركات القوى الأخرى فى الغرب والبلقان وهنغاريا . ومن أجل حماية نفسه فى البلقان أوقع بالبشناق هزيمة قاسية عام ١١٢٢ كانت القاضية ، وأجبرت صربيا Serbia على الاعتراف بسيادته ، وأقيمت علاقات محدودة ، وإن لم تكن مزعزعة مع المجر ، وكانت الزوجة الأولى ليوحنا هنغارية ، وما أن توج روجر الثانى Roger II ملكا فى بالرمو Palermo فى سنة ١١٣٠ وأصبحت قوة النورمان فى جنوب إيطاليا لايمكن تجاهلها حتى كان هذا فى حد ذاته تحذيرا للملوك الألمان والأباطرة البيزنطيين على السواء ، جعلهم يقتربون من بعضهم لمواجهة ذلك العدو المشترك ، وتمثل هذا

---

٢٥- أنظر بعده .

٢٦- أنظر بعده .

فى نوع من التفاهم الذى بقى إلى السنوات الأولى من عهد مانويل ، ولقد راح يوحنا يدنو أيضا من البابوية ، وأشار فى أكثر رسائله جدلا والتى يعوزها الوضوح إلى السيفين، والتى لابد أنها تعنى أن للبابا السيادة الروحية ، بينما يختص الإمبراطور الرومانى (أعنى البيزنطى) بالسيادة الزمنية .

لم يكن وضع الصليبيين اللاتين فى الشرق مأمونا ، حتى دون أن تدخل فى الاعتبار رغبة إمبراطور بيزنطى قوى فى اتمام ادعاءاته بالسيادة، بينما تبنت الممالك المسيحية الأرمينية فى إقليم طورس بصفة عامة اتجاه العداوة الحذرة ، فى الوقت الذى حاولت فيه الإمارات الصليبية أن توجد فيما بينهما توازنا كان يبدو عسيرا ، وذلك بالحفاظ على مواقع أقدامهم وتوسيع دائرتها ، خاصة وأن الخلافات كانت قائمة بين الأمراء المسلمين ، على حين بدت القسطنطينية منهمكة فى ميدان آخر ، ومع ذلك فانه بقدم الثلاثينيات أخذت الأخطار تلقى ظلالها ، فظهرت مشاكل الوراثة فى كل من أورشليم وأنطاكية ، حيث توفى حاكماهما سنة ١١٣١ دون أن يعقبا وريثا ذكرا ، وفى الشمال كانت قوة زنكى أتابك الموصل تزداد باستمرار ، وفوق هذا وذاك أقدم يوحنا كومنتوس على استخدام الوسائل العسكرية والدبلوماسية للحصول على نتائج طيبة ليس فقط بين جيرانه فى الشمال والغرب ، بل فى اسيا الصغرى مع إمارة الدانشمنديين Danichmends (الذين كانوا يمثلون فى هذه الفترة عدوه التركى الرئيسى أكثر من سلاجقة قونية Iconium) كما أنه قام بهجوم ناجح على مملكة أرمينيا الصغرى فى كيليكيا Cilicia .

وفى أغسطس ١١٣٧ أتى الإمبراطور البيزنطى أنطاكية ، وأكد بنجاح حقوقه فى السيادة على حاكمها الفرنجى زوج الأميرة النورمانية وريثة أنطاكية . وكان من الأهمية بمكان فيما يتصل بذلك الصدع الهائل الحادث فى القضية المسيحية أن يوحنا لم يستطع أن يحرز أى تقدم عملى تجاه الملحدين[٢٧] فى شمال سوريا ، ويعود ذلك فى الدرجة الأولى إلى الافتقار إلى المساعدة اللاتينية . وفى سنة ١١٤٤، وهى السنة التى أعقبت موته المفاجئ نتيجة جرح أصابه أثناء رحلة صيد ، تمكن زنكى المسلم من الاستيلاء على الرها ، مما كان دافعا لقيام الحملة الصليبية الثانية الفاشلة عام ١١٤٧ [٢٨].

---

٢٧- أنظر حاشية ١٦ ص١٢٤ (المترجم)

٢٨- قوبلت أنباء سقوط الرها فى أيدى المسلمين بردود فعل عنيفة فى الأوساط الأوروبية ، فقد عهد =

وسط هذه الأحداث انتقل التاج البيزنطى إلى مانويل الابن الرابع ليوحنا وشأن بطل الملحمة البيزنطية ديجنيس أكريتاس Digenis Akritas سيد البر الذى يعود فى أصله إلى شعبين ، كان مانويل كومننوس ينتمى لعالمين . وليس من حق الخيال أن يسبح متصورا فارقا كبيرا أو تناقضا مع أباطرة الأسرة السالفة مثل جوستنيان أو قسطنطين السابع بورفيروجنتيوس ، فقد كان مانويل حاكمًا بارعًا ، جنديًا ودبلوماسيًا ورجل دولة ، اقتنع بصلاحية ذلك التقليد البيزنطى الممتد عبر هذه القرون الطويلة عن السيادة العالمية وأصالة العرف الإمبراطورى . يبدى حماسا غير محدود للرهبانية (فى مكانها الصحيح) واهتماما بالغا بالجدال اللاهوتى . وقد كانت أمه هنغارية ، وأزواجه من الغرب ، أولاهن برتا Bertha من سولزباخ Sulzbach أخت زوجة كونراد Conrad الملك الألمانى ، ثم مارى Mary فاتنة أنطاكية ، وقد شجعت

---

= البابا إلى القديس برنارد St. Bernard بالدعوة لحملة صليبية جديدة ، وقد كتب برنارد يقول إنه نتيجة لاستجابة المسيحيين فى الغرب لدعوته ، أقفرت المدن والقرى من ساكنيها ، حتى أن ملكين من أشهر ملوك أوروبا آنذاك ، أمكن استمالتهما لحمل الصليب هما لويس السابع Louis VII ملك فرنسا وكونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا . وفى ربيع ١١٤٧ قاد الملكان قواتهما عبر الطريق البرى القديم الذى سلكه الصليبيون فى اتجاه الدانوب إلى القسطنطينية . وسار الجيش الألمانى قدما حتى يتجنب الاتصال بالجيش الفرنسى ، ولم يترك قرية أو مدينة مر بها إلا أتى عليها تخريبا وتدميرا ، حتى أن جيش الفرنسيين الذى سلك نفس الطريق من بعد ، كان يعانى المجاعة لإقفار هذه المناطق على أيدى الجيش الألمانى الذى تركها قاعا صفصفا . وكان الإمبراطور البيزنطى قد أخذ حذره فأمر باعداد التحصينات اللازمة للتصدى لهذا الخطر ، خاصة وأن لويس السابع ملك فرنسا كان على صلة وثيقة بأشهر أعداء بيزنطة روجر الثانى ، الذى قام أثناء سير هذه الحملة بحصار الجزر البيزنطية فى البحر الأدرياتى وغزا بلاد اليونان وخرب طيبة وكورنثة وأثينا ، وعلى أية حال فقد وصل الملكان إلى بلاد الشام عام ١١٤٨ ، حيث استقبلهم الأمراء الصليبيون بفتور واضح. وكل ما استطاعت أن تفعله الحملة أنها ألقت حصارها على مدينة دمشق دون أن تنجح فى اقتحام المدينة . وقد كتب كونراد الثالث يصف الهجوم على المدينة بما يدل على مدى التخاذل والتفرق والخيانة بين الأمراء الصليبيين وأنفسهم ، وقد حاول الصليبيون نفس المحاولة مع عسقلان ، غير أنهم لم يكونوا أسعد حظا منهم عند أسوار دمشق. وهكذا حققت الحملة الصليبية الثانية فشلا ذريعا .

أنظر Runciman, op. cit. II, pp. 247-278

والدكتور سعيد عاشور: الحركة الصليبية، الجزء الثانى ص٦٢١-٦٣٧، ارنست باركر : الحروب الصليبية. ص٩٠-٩٦ (المترجم)

التجارة ، وحسن الادارة والظروف السياسية على تدفق عدد كبير من الغربيين على حوض البحر المتوسط الشرقي ، وعلى الإمبراطورية البيزنطية نفسها . بل ان الكثيرين منهم قد آثروا الاستقرار هناك ، وعلى الرغم من أن مانويل كان على معرفة تامة بقدر الإمبراطورية البيزنطية إلا أنه كان يحمل في نفسه هوى معينا تجاه اللاتين وعاداتهم ، وغالبا ما كان يرى وهو يمارس حياة عادية بعيدة عن الأشكال الرسمية في قصر بلاخرني[٢٩] Blachernae في القسطنطينية، بل لقد شارك بنفسه في المبارزة ، وخطا خطوات واسعة في سبيل توطيد صداقته بالغربيين ، ولعل أوضح الأمثلة على ذلك علاقته مع بلدوين الثالث Baldwin III ملك بيت المقدس وكونراد الثالث ملك ألمانيا . وكان يبعث البهجة في نفوس أصدقائه برقي سلوكه وحسن ضيافته (والتي أخذت شكلا عمليا ، حيث كان على قدر كبير من المعرفة الطبية ، فراح يرعى كونراد الثالث عندما نزل به المرض سنة ١١٤٧) وهكذا فقد كان عهده في بعض جوانبه يبشر بالعالم الإيجي للعصور الوسطى المتأخرة .

ومع هذا فان مانويل كان في تحيزه إلى جانب اللاتين يبغي اتقاء خطر أعدائه من ناحية الغرب، خاصة وأن مشاكله كانت في جوهرها هي التي واجهت من قبل أباه وجده . ولقد أورد المؤرخ نيقتاس الخونياتي[٣٠] Nicetas Choniates في كتابه السابع الكثير حول هذا

---

٢٩- أحد القصور الإمبراطورية الشهيرة ، أقيم على أحد تلال القسطنطينية الذى تشغله ضاحية تحمل نفس الاسم وتقع على القرن الذهبي ، وإلى جوار القصر توجد كنيسة العذراء ، وهذه المنطقة يقوم فيها الآن حي «الباب المائل» Egrtkapou, Eyri Kapu .

أنظر Millingen , Constantinople, pp. 28-53. (المترجم)

٣٠- نيقتاس أكوميناتوس Nicetas Acominatus ، اشتهر باسم نيقتاس الخونياتي نسبة إلى مدينة خوناى Chonae في فريجيا بآسيا الصغرى ، ويحتل مكانة مرموقة من المؤرخين في القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر . ولد حوالي منتصف القرن الثاني عشر وارتحل إلى القسطنطينية حيث تلقى تعليمه تحت رعاية أخيه الأكبر ميخائيل ، وبينما سلك الأخير درب الدراسات اللاهوتية والمناصب الكنسية حتى أصبح رئيسا لأساقفة أثينا ، اختار نيقتاس ميدان الدراسات الإنسانية ، وحقق في ذلك نجاحا كبيرا واكتسب تقدير واحترام أسرة الجيلوس ، بحيث أصبح مقربا من البلاط ووصل إلى أعلى المناصب . ولما سقطت القسطنطينية في أيدي الصليبيين سنة ١٢٠٤ خرج منها كارها حيث وجد مأواه عند أباطرة نيقية ، وقد رد عليه الإمبراطور ثيودور لاسكاريس مكانته واحترامه ، وعاش مكرما حتى مات في نيقية سنة ١٢١٠ . ومن أشهر الأعمال التي=

الموضوع بالذات وحول كياسة مانويل السياسية . ولابد أن العجب كان سيأخذ بفكره لو أنه قرأ حكم بعض الدارسين المحدثين القائل بأنه «إذا كان هناك أحد يمكن أن يلقى على أكتافه تبعات كارثة سنة ١٢٠٤ فهو مانويل كومننوس» لقد أوضح نيقتاس أن مانويل كان ينظر بعين الاعتبار إلى القوة الهائلة للدول اللاتينية ، شأن المزارع الفطن الذى يحاول أن يقتلع الأشواك وهى بعد صغيرة ، وأبان أن الإمبراطور كان يخشى أن تجد الإمبراطورية نفسها وقد أصبحت بغير حليف فى مواجهة ذلك الائتلاف الغربى القوى ، ولو قدر لسفينة الدولة أن تفقد ربانها ، أعنى مانويل ، لابتلعها اليم . هذا الحديث الذى جرى به قلم نيقتاس كتب بعد النازلة التى حلت بالإمبراطورية عام ١٢٠٤ . وكان نيقتاس يعلم جيدا ما الذى يحدث عنه .

على أننا نجد فى سياسة مانويل الكثير من الأمور التقليدية ، ومع ذلك فقد كانت لها بعض الملامح غير العادية التى أثارت كوامن الطموح الجامح غير الواعى وخاصة فيما يتعلق بمشروعاته الإيطالية ، ولكن يبدو أن الظروف التى أحاطت به لم تترك له مجالا للاختيار بل أملت عليه ما ظهر واضحا فى سياسته تجاه الغرب ، فقد كان من الأمور الجوهرية أن يحقق مانويل نوعا من التعايش السلمى Modus Vivendi مع القوى الغربية .بدأ مانويل سياسته بتدعيم التحالف الذى كان قائما بين أبيه وألمانيا ، وإن كانت عدواتهما المشتركة لملك النورمان لم تترجم إلى واقع عملى فى الغرب نتيجة للحملة الصليبية الثانية التى دعا إليها فى اكتئاب برنارد Bernard قديس كليرفو Clairvux بسبب تحطيم إمارة الرها الصغيرة ، وقد حمل كونراد الثالث . الحليف الألمانى لمانويل ، الصليب وشاركه فى ذلك الملك الفرنسى لويس السابع الذى كان صديقا لروجر Roger ملك النورمان فى صقلية ، وقد كان معروفا أن هذين

---

خلفها لنا Historia فى عشرين كتابا تتناول الفترة الممتدة من اعتلاء يوحنا كومننوس العرش وحتى الأيام الأولى للإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية (١١١٨-١٢٠٦) .ويعتبر «تاريخ» نيقتاس عملا فريدا لابدانيه آخر فى المعلومات التى يقدمها عن عهدى مانويل ، وأندرونيكوس ، وأسرة انجيلوس ، والحملة الصليبية الرابعة ، والاستيلاء على القسطنطينية .

أنظر . Vasiliev. op. cit., II. pp. 492-495

و . Baynes & Moss, op. cit., pp. 237. 265-266

وأيضا Runciman, op. cit., pp. 13. 122-123 (المترجم)

الملكين يشغلان نفسيهما بالنقاش حول الرغبة فى الاستيلاء على القسطنطينية كنوع من فتح الشهية لوجبتهم الدسمة التى سوف يلتهمون فيها الشرق . غير أن الحملة الصليبية الثانية لقيت الفشل الذريع ، نتيجة الخلاف المستمر بين قائديها من ناحية ومن الأخرى أنها وجهت كل قواها ضد دمشق ، التى عادة ما كانت تربطها علاقة المودة مع الصليبيين ، بدلا من الاتجاه ضد حلب فى الشمال حيث يكمن التهديد الحقيقى ممثلا فى نور الدين أحد أبناء زنكى. والذى ما أن وافى عام ١١٥٤ حتى استولى على دمشق ، وسرعان ما ترددت أصداء أجراس الفناء للممالك الصليبية ، عندما نجح قائداه شيركوه وصلاح الدين فى السيادة على مصر ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز [٣١]. ولن تلبث حلقه الحصار الإسلامى أن تطبق على الصليبيين عندما يتمكن صلاح الدين من توحيد الإمارات الإسلامية .

---

٣١- راجع حاشية ٢٨ ص.١٦٠-١٦١ . وكان ملوك بيت المقدس يدركون أن توحيد مصر والشام تحت قيادة إسلامية واحدة سوف يضع الصليبين فى موقف حرج ولهذا قام بلدوين الثالث بالاستيلاء على عسقلان سنة ١١٥٢ للوقوف فى وجه نور الدين محمود إذا فكر فى الزحف على مصر . بل ان فكرة الاستيلاء على مصر من جانب الصليبيين كانت واردة فى حساباتهم منذ قيام مملكة بيت المقدس الصليبية . وقد عجلت الأحداث فى مصر بوقوع الاصطراع بين نور الدين والصليبيين من أجل الفوز بها ، حيث كانت الخلافة الفاطمية قد غلت أيديها بفعل وزرائها . وقد شهد عهد العاضد الفاطمى آخر الخلفاء المرحلة الأخيرة أيضا من التنافس القائم فى الداخل وصولا إلى كرسى الوزارة بين شاور وضرغام . فلما نجح الأخير فى خلع منافسه ، استنجد شاور بنور الدين محمود ، الذى أسرع بإرسال قواته وعلى رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين . وتمكنت الحملة من القضاء على ضرغام الذى كان بدوره قد بعث يستنجد بملك بيت المقدس عمورى Am-alaric ، غير أن شاور لم يف بعهوده لنور الدين ؛ وواصل عمورى الذى جاء جيشه إلى مصر عام ١١٦٤ وحاصر قوات شيركوه فى بلبيس ، ثم تم الاتفاق بينهما على أن يرحلا معا عن مصر . وقد أدرك الجانبان أهمية مصر ومن ثم فان نور الدين لم يلبث أن بعث قائده من جديد سنة ١١٦٦، فلحق به عمورى بناء على استصراخ شاور ، وقد توغل الفريقان جنوبا حتى قرية «البابين» قرب المنيا ، حيث دارت معركة هزم فيها الصليبيون وارتدوا إلى القاهرة ، بينما زحف أسد الدين شيركوه إلى الاسكندرية ، وعلى الفور جمع عمورى قواه وفرض الحصار على المدينة ، وتم الاتفاق للمرة الثانية على جلاء الجيشين عن مصر ، وإن كان عمورى قد حصل على بعض الامتيازات هذه المرة. وقداتفق عمورى مع الإمبراطور البيزنطى على إرسال حملة مشتركة للاستيلاء على مصر . ولكنه قاد جيشه فجأة دون انتظار لوصول القوات البيزنطية ، واتجه إلى مصر ، وأحدث مذبحة مروعة فى بلبيس ، ولم يجد شاور وسيلة لوقف هذا الزحف إلا باشعال النيران فى الفسطاط.=

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه أحداث الحملة الصليبية الثانية هذه، كان الإمبراطور البيزنطي يحاول جاهدا أن يبقى ولو على الأقل على اتصال بالأحداث التي تدور في الشرق، ولكن نشاط النورمان العدائي كان يسبب له أرقا دائما، فقد هاجم روجر الثاني بلاد اليونان، وجرت محاولة إثارة المتاعب والاضطرابات في المجر وصربيا، ورغم هذه الحملة الصليبية الثانية فقد حافظ مانويل على أواصر الصداقة مع كونراد الثالث، بل تمكن أيضا بمساعدة البنادقة من استعادة كورفو Corfu من النورمان. وتصور مانويل بوضوح مدى فعالية السياسة الإمبراطورية في استرداد إيطاليا أو جزء منها ومدى الدسائس الغربية التي تحول دون ذلك. وقد جاء في التقرير البيزنطي عن المعاهدة التي وقعت مع كونراد في سالونيك Thes-salonica سنة ١١٤٨ أن «الإمبراطور ذكره (كونراد) بتلك المسائل التي تعهد آنفا بتنفيذها، يعني أنه سوف يسترد إيطاليا كبائنة للإمبراطورية ايرين[٣٢] Irene التي باعتبارها تمت إليه بصلة النسب، قد خطبها إلى الإمبراطور، غير أن هذه الفقرة من التقرير لم ترد في المصادر الغربية، وتدور أهميتها أساسا حول ما تعنيه كلمة «إيطاليا». هل تعني جنوب إيطاليا فحسب أم إيطاليا كلها.

وفي عام ١١٥٢ مات كونراد، ولم يكن خليفته فردريك الأول Frederick I يرغب في الاتفاق مع الإمبراطور البيزنطي، حيث كانت لديه فكرة السيطرة بنفسه على إيطاليا، بما فيها المملكة الصقلية في الجنوب، وقد وعد البابا يوجنيوس الثالث Eugenius III بأنه لن يتخلى عن «أية منطقة» على هذا الساحل لملك اليونان. ومن ثم فان مانويل مالبث أن شن هجومه في إيطاليا بمساعدة الثائرين النورمان عقب وفاة روجر الثاني مباشرة سنة ١١٥٤. وقد وجد مانويل نفسه محاطا بالخصوم من كل جانب حيث وقفت ألمانيا منه موقف عدائيا،

---

= وقد ظلت النار تأكلها طيلة أربعة وخمسين يوما، وكتب العاضد بنفسه إلى نور الدين يستصرخه، وعلى هذا النحو قدمت القوات النورية للمرة الثالثة بقيادة شيركوه وصلاح الدين، وتم لها الانفراد بالسيطرة على مصر وقتل شاور وتولى شيركوه الوزارة. انظر: ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٣٦-٤٠، الدكتور نظير سعداوي: التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، ص٧-١٥، الدكتور عبد المنعم ماجد: الناصر صلاح الدين الأيوبي ص٥١-٦١، الدكتور سعيد عاشور: الحركة الصليبية، الجزء الثاني. ص٦٧٩-٧٠١ Runciman, op. cit., II, pp. 362-400 (المترجم)

٣٢- وهي برتا من سولزباخ، سميت بايرين عند زواجها من مانويل.

وتزايدت الشكوك ، وقام وليم الأول ملك النورمان بهجوم مضاد ، ولم يكن الإمبراطور بقادر على تدعيم مكاسبه فى أبوليا بالعون العسكرى أو البحرى ، وأمست نقوده ودبلوماسيته عاجزة عن تحقيق أى شئ . غير أنه فى سنة ١١٥٨ وقعت الإمبراطورية البيزنطية هدنة مدتها ثلاثين سنة مع الملك النورمانى. ولاشك أن مانويل قد أدرك الآن عدوه الحقيقى ، فخلال سنى حكمه الأخيرة كان فردريك بربار وسا Frederick Barbarossa يمثل خصمه العنيد .

فشل مانويل فى سياسته الإيطالية ، وأثارت هذه السياسة موجات كثيرة من السخط والاعتراض . كما أن موارده المالية لم تكن لتسمح بأى نوع من الإحياء للإمبراطورية الرومانية وهنا فقد قاد مانويل طموحه لمحاولة تحقيق مشروع خيالى أثبتت الأحداث أنه يعد ضربا من المستحيل شأن ما كان يحلم به الصليبيون فى سوريا وفلسطين . هذا الاتجاه كان قصير الأمد ويجب عدم المبالغة فى دلالته . وعلى أية حال فان الدبلوماسية الكامنة وراء ذلك لم تكن جوفاء ، فلو أن بيزنطة كانت تبغى تدعيم نفوذها وسط هذه التحالفات الأوروبية المعقدة المتشابكة ، لكان عليها أن تناور من أجل الحفاظ على مركزها ، ومواجهة أعدائها الذين لم يكن هناك أدنى شك فى حرصهم على غزو بلاد اليونان التى تعد جزءا من الإمبراطورية .

وعلى العكس من ذلك ، كللت جهود مانويل فى الشرق بالنجاح إلى حد بعيد فقد واصل هنا سياسة أبيه من قبل ، على نفس النحو فى عداوته مع النورمان فى إيطاليا ، غير أنه إذا كانت العراقيل قد جابهته فى الغرب نتيجة قوة فردريك بربار وسا المتزايدة ، فان الأحداث فى الشرق قد ساعدته بسبب ضعف الإمارات الصليبية اللاتينية ، فقد راح مانويل ، كما فعل يوحنا ، يؤكد سيادته أولا على الأمير الأرمنى فى كيليكيا (سنة ١١٥٨) . ثم توجه تلقاء أنطاكية ، عندما كان على رينالد Reynald ، زوج أميرة أنطاكية ، أن يعترف بسيادة مانويل، وأن يسعى إلى معسكره وقد طوق عنقه بحبل . وكان خضوع أنطاكية على هذا النحو يمثل المذلة بعينها ، وتمثل ذلك ليس فقط فى التعهد بتقديم العون العسكرى للقسطنطينية ، بل امتد إلى ذلك الحق الذى كان معقد الفخار ومثار الجدل وهو رسامة بطريرك ذلك الكرسى الاسقفى العتيد ، وكان هذا يعنى أسقفا يونانيا . وقد ترك دخول مانويل أنطاكية سنة ١١٥٩ انطباعا هائلا على نفوس معاصريه ، وهم يرونه يمتطى صهوة جواده الذى ازدان بكل الأشعرة الامبراطورية ، يتبعه (من بعيد) بلدوين الثالث Balduin III الذى قدم إلى الشمال ووضع نفسه تحت حماية مانويل . «ولقد استحث من بيت المقدس خطاه وجاءنا يقر بسيادة الإمبراطور» بينما سار أمير أنطاكية بحذاء جواد مانويل . وقد بدا الأمر على هذا النحو كما

لو كانت السيادة البيزنطية سوف تحقق شيئا من الالتئام والوحدة للشرق المسيحى وتتوج الدبلوماسية الهادئة والجهود العسكرية الالكسيوس الأول ويوحنا الثانى . ولعل أبرز ما يوضح المكانة التى ارتقاها مانويل فى الشرق الصليبى ، أن يحتل اسمه مكان الصدارة فى سجل كنيسة الميلاد فى بيت لحم عام ١١٦٩ ، ليليه من بعد ملك بيت المقدس .

وتمكن مانويل من أن يحرز نجاحا مماثلا على الجبهة الشمالية عند هنغاريا ، حيث سعى ، شأن أبيه ، للتدخل فى النزاع الدائر من حول العرش ، بل لقد خطا هنا خطوات واضحة حيث وضع نصب عينيه السيطرة على المنطقة كلها ، فاقترح حلا جديدا لإنهاء العداوة القديمة بين المجر والقسطنطينية ، وذلك عن طريق زواج وريث العرش الهنغارى «بيلا» Bela من ابنة مانويل ، وأن يخلع عليه لقب «السيد» Despot وأن يعتلى من بعد العرش الإمبراطورى. وهكذا وضع مانويل خططه كى يدخل هنغاريا ضمن دائرة الإمبراطورية . إلى أن تغيرت هذه الخطط بمولد ابنه . ولازمه التوفيق أيضا فى صربيا حيث نجح فى إبقاء سيادته على ستفن نمانيا Stephen Nemanya مؤسس أشهر أسرة حكمت صربيا ، «الزوبان الكبير»[٣٣] the Grand Zupan ودشن ذلك بدخوله القسطنطينية بصورة مسرحية تشبه تلك التى أداها من قبل عند مجيئه إلى أنطاكية .

لكن على الرغم من توالى انتصارات مانويل ، إلا أن مركزه أصبح أشد حرجا ، فقد أضيرت البندقية بصفة خاصة إلى حد كبير من جراء ازدياد سلطته فى البلقان ، وضم الساحل الدلماشى ، وهجومه على أنكونا Ancona وانعكس ذلك فى محاولة مانويل تدعيم مركزه بالتحالف مع جنوه Genoa فى عام ١١٦٩ وبيزا سنة ١١٧٠ . وساد الإمبراطورية كلها شعور العداء تجاه البندقية التى كانت امتيازاتها التجارية تمثل عبئا ثقيلا وتلقى استياءً شديداً ، وفوق هذا فقد تزايد الشعور ضد اللاتين بصفة عامة ، وفى سنة ١١٧١ قبض على كل البنادقة وصودرت بضائعهم وسفنهم وكان لابد أن تندلع الحرب بين الطرفين ، ولم تعد العلاقات بينهما إلى ما كانت عليه إلا بعد أن أعيدت الامتيازات ثانية ودفعت التعويضات ربما على عهد (أندرونيكوس) الأول Andronicus .

---

٣٣- عاش الصرب - على عكس البلغار - حتى القرن الثانى عشر فى أقاليم منفصلة ، يطلق على كل منها اسم زوبى Zupy على رأس كل منها زوبان Zupan. حتى إذا كان هذا القرن الثانى عشر ، أقاموا أول وحدة سياسية جمعتهم تحت زعامة ستفن الذى أصبح الزوبان الكبير .

أنظر Baynes & Moss, op. cit., pp. 358-359, Vasiliev, op. cit p. 609 المترجم

واكب نجاح مانويل فى الشرق اللاتينى وهنغاريا ، تدهور مستمر فى نفوذه فى الغرب حيث اكتسب عداء البندقية ، وفشل فى تحقيق التعاون مع البابوية ، وابتلى بعدو ماهر حقود هو فردريك برباروسا الذى دفع سلطان قونية إلى الثورة ضد مانويل ومد له يد المساعدة ، ولقى مانويل نتيجة لذلك هزيمة ساحقة عند ميريوكفالوم Myriocephalum فى آسيا الصغرى سنة ١١٧٦ . ووسط نشوة النصر هذه أرسل فردريك الأول إلى مانويل رسالة تقطر احتقارا تتضمن خضوع ملك اليونان Rex Grecorum للإمبراطور الرومانى ، وأعلن فردريك نفسه وريثا للأباطرة الرومان ، وادعى أن ذلك يتضمن السيطرة على «المملكة اليونانية» regnum Gre-ciae . هكذا أودت مشروعات مانويل بموارده المالية وبرهنت على استحالة السيطرة على كل من أوروبا والشرق الأدنى فى مواجهة الدول الغربية المسيحية الناشئة ، وطوق القوى الإسلامية. ولكن هذا لاينفى أن انجازاته ، خاصة فى مجال الدبلوماسية ، تستحق التقدير . كما أن سياسته الخارجية رغم ما يمكن أن يقال عن أنماطها التقليدية ، تظهر بعض الملامح والسمات الأساسية . ومن أوضح الأمثلة على ذلك محاولته غزو الأملاك الإمبراطورية القديمة هى إيطاليا عن طريق العمل العسكرى المباشر ، أو مشروعه الجدير بالاعتبار (وذلك قبل أن يولد له ابنه) والخاص بتوحيد عرشى المجر والإمبراطورية فى شخص صهره بيلا . أو حتى فى اقتراحه الخيالى على البابا اسكندر الثالث Alexander III باعادة الوئام بين الكنيستين اليونانية واللاتينية فى مقابل التأييد البابوى لإعادة توحيد الإمبراطورية .

أما فى الداخل ، فان الحالة الاقتصادية للإمبراطورية ، وتزايد الهوة بين المستأجرين والطبقة العسكرية الحاكمة ، والضرائب الباهظة ، وتسرب التجارة إلى أيدى التجار الأجانب ، وهبوط الرجال الأحرار إلى مرتبة القنية بل حتى إلى مستوى العبودية . كل هذا كان مصحوبا بالسير السريع نحو نظام اقطاعى أضعف سلطة الدولة ، ولقد كانت حكومة مانويل الشخصية الفائقة ، بل يمكن القول حقيقة أنها سياسة أباطرة آل كومنين الثلاثة ، الكسيوس ويوحنا ومانويل هى التى حفظت امبراطورية كانت الأحداث قد أثبتت أن الزمن قد عفا عليها رغم ما كانت تؤديه كدولة حاجزة ، وكموطن لحضارة متميزة .

## ٣-الإنحلال الأول :

باختفاء مانويل الأول صاحب الشخصية القوية الجذابة واعتلاء ابنه القاصر الكسيوس الثانى Alexius II العرش ، برزت بوضوح الاتجاهات التى كانت قائمة فى الحياة البيزنطية

فى القرن الثانى عشر . فاكتملت صورة الخطر اللاتينى، ليس فقط بهجوم من الخارج ، بل بتسرب ماكر فى الداخل . فقد امتلأت بيزنطة باللاتين على اختلاف نوعياتهم ، من المعدمين إلى التجار الثقاة ، هذا إلى جانب ارتباط بعض العائلات الإقطاعية فى الغرب بروابط الدم أو الصداقة مع البلاط البيزنطى . ولقد كان واضحا تماما أن سلطان الأسر المالكة للأراضى على عهد آل كومنين قد ازداد قوة وفعالية ، ويعزى ذلك جزئيا إلى ما حصلوا عليه هبة من أراض فيما عرف بنظام «الميرة» Pronoia وهى الهبة التى عادة ما كانت تحمل معها المزيد من الحقوق والامتيازات المالية والقضائية . هذا النظام الذى كان قائما وراء الحدود انتشر فى الامبراطورية مع سنة ١٢٠٤ حيث أحس الصليبيون عقب استيلائهم على الأراضى أنهم كما لو كانوا فى ديارهم ، ولم يبد البيزنطيون فى بلاد اليونان من جانبهم أى صعوبة فى فهم وضعهم باعتبارهم أفصالا لسادتهم اللاتين .

لقد كان مانويل كومننوس حاكما ودودا ، يتحرك بحرية بين اليونان واللاتين سواء ، ولكنه كان عاجزا عن مساندة المد المرتفع لموجة العداء تجاه اللاتين أو التصدى للتضاؤل المستمر فى السلطة المركزية ، وبموته غدا ضعف الإمبراطورية البيزنطية واضحا للعيان وضوحه فى الإمارات الصليبية اللاتينية فى سوريا فلسطين . فقد راح كلاهما يهوى حقيقة خلال زمن يسير وإن تباينت الأسباب عند كل منهما : الإمبراطورية نال منها الغرب المسيحى ، والإمارات الصليبية غلبها على أمرها عدوها المسلم القوى صلاح الدين .

لم يلبث حكم ذلك القاصر وأمه اللاتينية الكريهة لدى الجميع أن انتهى بقتلهما على يد أندرونيكوس الأول Andronicus ابن عم مانويل ولم يحدث أن التقى أندرونيكوس بمانويل أبدا ، بل عاش حياة ملؤها القلق طاف فيها قصور الحكام فى الشرق الأدنى . وبسحره الذى يذهب بالألباب وفتنته ، أوقع فى هواه ثيودورا كومننا Theodora Camnena أرملة بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، وأغراها بالهروب معه . ولما كان رجلا طاعنا فى السن (بلغ من العمر خمسة وستين عاما عند اعتلائه العرش) فقد استطاع أن يكسب حب وعطف الفرنسية اليافعة ، ذات الثلاثة عشر ربيعا ، أجنى أنا Agnes Anna ويتزوج منها بعد أن قتل زوجها الصبى الكسيوس الثانى . كان أندرونيكوس يمتلك الشجاعة لما هو مقدم عليه ، وقد عاد ثانية إلى اتباع سياسة الحقبة البيزنطية الوسيطة . غير أنه كان من الصعب حتى على باسل الثانى نفسه أن يحقق نجاحا ما عند نهاية القرن الثانى عشر ، فكيف وأندرونيكوس لم يكن

يمتلك جلد باسل ومقدرته على ضبط النفس . وقد اتجهت سياسته أساسا إلى تطهير الإدارة ، واقتلاع العناصر اللاتينية فى الإمبراطورية وتدعيم السلطة المركزية بتقليم أظافر الارستقراطية العسكرية . ولكن أيا من نواحى سياسته هذه كان يذهب سدى نتيجة أساليبه التعسفية الهوجاء . وقد شهدت القسطنطينية قبل مقدمه إليها هجوما عنيفا شنه الدهماء فى العاصمة على كل الأجانب المقيمين بها بلا تمييز ، «أولئك اللاتين الملاعين». ولم يتوان أندرونيكوس عن إيجاد نظام للحكومة المركزية والولايات لإصلاح الإدارة ، وكان الشعار الذى اتخذه لنفسه فى هذا العمل «إذا لم تقلع عن فساد الإدارة حرام عليك الحياة». وأقدم على سحب الامتيازات التى كانت قد منحت لكبار الملاك ، ولما كان يخشى على حياته ، لم يجد بدا من اللجوء إلى العنف ، واتخذ موقفه تجاه العائلات الكبيرة شكل الإعدام والإبادة التامة ، وهكذا جردت الإمبراطورية من القادة العسكرين الذين كانت الدولة فى أشد الحاجة إليهم .

شملت السياسة العدائية لأندرونيكوس كلا من القوى الغربية التى كان من الضرورى التوصل إلى تراض معها ، والأرستقراطية الزراعية التى كان لدى أفرادها وحدهم الموارد التى تمكن الدولة من إنجاز مهامها الدفاعية . وقد قامت المجر بهجوم استولت فيه على دلماشيا وأجزاء من كرواتيا Croatia وسيرميوم Sirmium ، وتنكر ستفن نمانيا ملك الصرب (راسكا Rasca (الجبل الأسود) وزيتا Zeta) لولائه السابق ، واحتل الصقليون النورمان كورفو والجزر اليونانية الأخرى ثم زحفوا لنهب سالونيك (عام ١١٨٥). أما فى داخل الإمبراطورية فإن موجة العداء الكامنة فى نفوس كبار الملاك الزراعيين قد عبرت عن نفسها بجلاء على يد أحد أفراد أسرة كومنين نفسها ، وهو اسحق Isaac الذى أقام نفسه حاكمًا مستقلا فى قبرص ، ويعد هذا دليلا واضحا على الاتجاهات الانفصالية الدقيقة فى بيزنطة والتى قفزت إلى السطح خلال الحملة الصليبية الرابعة وما بعدها .

ولاشك أن الرعب الذى اتسم به عهد أندرونيكوس وأنباء الانتصارات التى حققها النورمان، مهدت السبيل فى العاصمة لسقوط أسرة كومنين فى عام ١١٨٥ . وشغل العرش البيزنطى خلال الفترة الممتدة ما بين عامى ١١٨٥ ، ١٢٠٤ بأفراد من بيت أنجلوس Angeli الذين لم يكن لأحد منهم حسن سياسة يوحنا أو مانويل كومننوس ، وإن لم يكونوا فى ذواتهم غير ذى قيمة على الإطلاق . غير أن الفساد القديم عاد القهقرى إلى الحكومة. والآن ازدادت أعداد الثيمات Themes على الرغم من أنها كانت قد تقلصت عن سابق شكلها كوحدات إدارية قوية . أما الخطر الحاسم فقد تمثل الآن فى الضيعة الكبيرة الخاصة ونظام «الميرة» -Pro

noia، وزاحمت سلطة كبار الملاك الأقوياء سلطة الحاكم الإقليمي . وكان هذا إرهاصا بما سوف يشهده العصر الوسيط المتأخر من الإمارات أو الاقطاعيات المستقلة .

وفي الشمال . فشلت بيزنطة في إخماد جذوة الوطنية أو الاتجاه الانفصالي في بلغاريا منذ أدمجت عام ١٠١٨ في الإمبراطورية . فقد قامت مملكة مستقلة ، هي الإمبراطورية البلغارية الثانية على يد الزعماء المحليين الذين ربما انحدروا من أصل بلغاري – ولاشي -Bulgaro Wallachian ودعوا أنفسهم «أباطرة» كل بلغاريا ولاشيا، ووجدوا تأييدا من كثير من العناصر المتبرمة . وقد أعلنوا سخطهم سنة ١١٨٥ لعدم منحهم هبات معينة في صورة «ميرة» Pronoia حيث يمكننا أن ننظر إلى هذا النوع من الهبة هنا ، ليس باعتباره نمطا من الاتجاهات الإقطاعية ، بقدر ما هو محاولة لترضية هؤلاء المتبرمين ، ويمكننا أن نلاحظ أن هذه الهبات لم تكن تمنح فقط لملاك الأراضي البيزنطيين ، أو السادة اللاتين الإقطاعيين مثل عائلة مونتفرات Montferrat بل إلى عناصر الكومان Cumans في البلقان ، وهم الذين كانت ثرواتهم تنحصر أساسا في القطعان وليست الأرض . وقد عجز الإمبراطور البيزنطي اسحق الثاني أنجلوس Isaac II Angelus عن إخماد الثورة ، وتم تتويج آسن Asen «إمبراطورا» بلغاريا في سنة ١١٨٧ على يد أسقف ترنوفو Trnovo وهي الأسقفية التي دشنت حديثا ، ولعل ما كان يجري في البلقان الآن على هذا النحو يعد دليلا واضحا على التفسخ الحادث في الإمبراطورية، ومدى قوة الأعيان المحليين .

اتخذ التهديد اللاتيني شكلا مزدوجا ، فالغزاة النورمان الذين قاموا بهجومهم عام ١١٨٥، وعاودوا إغارتهم الآن ثانية على اليونان وخربوا سالونيك . غير أنهم طردوا من اليابسة ، حيث لم تكن الإمبراطورية قد فقدت تماما كل قواها العسكرية ، ولكنهم احتفظوا بجزيرتي كفالونيا Celphalonia وزاكينثوس Zacynthus يضاف إلى هذا أن التهديد تمثل من جديد في حملة صليبية أخرى ، جاءت في وقت كانت فيه بيزنطة تعاني الضعف من جراء حرب أهلية وحملات عسكرية في البلغار وبلاد اليونان ، وإمبراطور لايمتلك المقدرة الكافية لإدارة أمورها . وكان على بيزنطة أن تواجه بهذا الوهن في سنة ١١٨٩ اقتراب مجئ الحملة الصليبية الثالث التي تم تجهيزها عقب سقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧ .

كان وضع الشرق اللاتيني قد أخذ يترنح منذ الحملة الصليبية الثانية في عام ١١٤٧ . فقد عجزت مملكة بيت المقدس ، بعد سلسلة من الملوك ذائعي الصيت ، عن إقامة أسرة مستقرة في الحكم، كما أن الصراع المستمر بين بيزنطة واللاتين ، وبين هؤلاء وأنفسهم ، جعل من

المستحيل تحقيق مكاسب جديدة . ولم تفعل حملة جديدة[٣٤] قادها ثلاثة من ملوك أوروبا الغربية شيئا لتحسين هذه الأوضاع المتردية ، على الرغم من أن ريتشارد الأول Richard I ملك انجلترا ، الجندى المقتدر والسياسى الأريب عند الضرورة ، كان قادرا على توقيع معاهدة مع صلاح الدين سنة ١١٩٢ ، استخلص بها شريطا ساحليا ضيقا يتضمن عكا وصور، والسماح للمسيحيين بزيارة الأماكن المقدسة . ولقد كانت رحلات الصليبيين سواء تلك التى

---

٣٤- ارتاعت أوروبا ، والبابوية بصفة خاصة ، لدى سماعها بأنباء استرداد المسلمين لبيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٨٧ . وقد هئ لهذه الحملة منذ البداية كل أسباب النجاح ، غير أنها كانت تحمل معها أيضا بذور فشلها . فقد كان على رأسها أعظم ملوك أوروبا آنئاك ، فردريك بربارossa امبراطور ألمانيا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا . وهذا التشكيل القيادى فى حد ذاته كان عنوانا بارزا على النتائج التى لابد أن تنتهى إليها الحملة من فشل . فالعداء كان كامنا فى نفوسهم جميعا تجاه بعضهم البعض ، كما أن شعوبهم نفسها لم تكن تحمل لبعضها أى نوع من دلائل المودة . وليس أدل على ذلك من أن الملك الألمانى اتخذ سبيله عبر الطريق البرى إلى القسطنطينية ، التى كانت ترتعد فرقا وهلعا من المصير الذى ينتظرها لو تخلى فردريك عن صليبيته وعاودته فكرة السيطرة على العاصمة البيزنطية ، غير أن الجيش الألمانى عبر البسفور إلى آسيا الصغرى حيث لقى فردريك مصرعه غرقا فى أحد أنهار كيليكا ، فانفرط بذلك عقد الجيش الألمانى ، حيث عاد عدد كبير من فرسانه إلى بلادهم ، بينما انضمت فلوله تحت زعامة دوق سوابيا إلى القوات الإنجليزية والفرنسية أمام أسوار عكا . حيث كان الجيشان، الإنجليزى والفرنسى ، قد ألقيا مراسيهما هناك سنة ١١٩١ بعد أن استولى ريتشارد فى طريقه على قبرص. وقد ظل الصليبيون على حصارهم لعكا قرابة عام كامل حتى سقطت فى النهاية رغم ما بذله صلاح الدين من جهود لتقوية وتدعيم حاميتها وتحصيناتها . وكان احتلال عكا وتدمير عسقلان هى النتيجة النهائية التى تحققت على يد ثلاثة جيوش أوروبية . ولم يلبث فيليب أن عاد إلى فرنسا ، تاركا ريتشارد وحده فى الشرق ، ورغم أن الملك الإنجليزى قد قام بعدة أعمال عسكرية خلعت عليه لقب «قلب الأسد» . إلا أنه فشل فى استرداد بيت المقدس ، وانتهى الأمر بعقد صلح الرملة مع صلاح الدين سنة ١١٩٢ ، ليعود بعد ذلك ريتشارد إلى بلاده ، وليقع أسيرا فى يد الملك الألمانى هنرى السادس أثناء عودته ، على أن أهم النتائج التى ترتبت على هذه الحملة ، ما تولد لدى أوروبا من اقتناع كامل بأن مصر هى التى تلعب الدور الرئيسى فى فشل هذه الحملات ، وأنه لابقاء للإمارات الصليبية فى الشام إلا بالاستيلاء على مصر ، وهذا ما حاولته الحملات التالية أنظر Runciman , op. cit., pp. 3-75 والدكتور سعيد عاشور الحركة الصليبية ، الجزء الثانى ص٨٣٧-٩٠١ ارنست باركر : الحروب الصليبية ص١٠٩-١١٩ الدكتور نظير سعداوى : المصدر السابق ص٢١٥-٢٦٣ F. Barlow, The Feudal Kingdom of England , pp. 353-66 (المترجم)

جاءت عن طريق البر أو التى اتخذت سبيلها فى البحر ، تمثل للبيزنطيين نحسا وقدرا مشئوما. فقد سلك الألمان سبيل البحر عبر البلقان ، وأدت عداوة مليكهم فردريك بربا روسا ، العدو الكنود للبيزنطيين ، إلى حالة من التوتر الشديد إلى الحد الذى طلب إلى البابا أن يبارك حملة صليبية ضد الإمبراطورية البيزنطية . ولكن موت فردريك المفاجئ فى آسيا الصغرى عام ١١٩٠ منح بيزنطة فرصة موقوتة . أما ريتشارد ملك انجلترا فقد ركب البحر وهو يحمل فى نفسه قدرا متساويا من النوائب للقسطنطينية ، حيث استولى فى طريقه على قبرص من اسحق كومننوس ، وهكذا انتقلت الجزيرة ، التى كانت قد خرجت من قبل عن سلطان الحكومة المركزية، من أيدى اليونان إلى قبضة اللاتين .

ارتد فشل الحملة الصليبية الثالثة إلى بيزنطة . فقد أصبح واضحا مدى الصعوبات التى تعترض طريق الحفاظ حتى على ما تبقى من الإمارات الصليبية فى سوريا وفلسطين ، وراح اللاتين يعيدون النظر ثانية فى خططهم ويقلبون وجوههم هنا وهناك ، واصطبغ مفهوم تجريد حملة صليبية ضد الخارجين عن الإيمان فى ذهن العالم المسيحى المعاصر ، بفكرة أن أية دعوة صريحة بالتخلى عن الحرب المقدسة لايمكن أن ترد على بال . ودارت المناقشات البراقة ، ووجدت المادة المناسبة التى تستطيع أن تقدم الدعم للقيام بهجوم على القسطنطينية كخطوة أولى نحو تحقيق تقدم فعال . وكان الغرب قد اعتاد لزمن بعيد أن يعزو فشل الحملات الصليبية إلى العداء المزعوم من جانب البيزنطيين الذين يفترض فيهم الغدر والخيانة .

تزعم الملك الألمانى هنرى السادس Henry VI ابن بربا روسا ، القيادة الآن ، وكان يعتبر وريثا للنورمان الصقليين فى أكثر من ناحية ، فعن طريق الزواج أصبح له حق السيادة على أملاكهم وقد تمكن فى سنة ١١٩٤ من القضاء على خصومه حيث تم تتويجه فى بالرمو . وأظهر ميله الطبيعى والتقليدى لاتباع سياستهم الشرقية التى كانت تأخذ بين يدى الإمبراطورية الغربية شكلا أكثر طموحا ، لايقبل بغير السيطرة على العالم المسيحى . وكانت الخطوة الأولى فى سبيل ذلك غزو بيزنطة أو بتعبير آخر السيطرة عليها ، وواتته الظروف عندما أطيح باسحق الثانى من فوق العرش سنة ١١٩٥ ، وكانت ابنته قد تزوجت من فيليب Philip أخى هنرى فاتخذ من تلك الأحداث تكئة للتدخل فى شئونها ، وطالب بجزية ضخمة من الذهب عرفت فى بيزنطة بالضريبة «الألمانية» . أما بالنسبة للشرق الأدنى فقد كان هنرى يعد لحملة صليبية جديدة ، وحصل على اعتراف بسيادته من قبرص وأرمينيا الصغرى . غير أن مشروعاته هذه طواها الزمن بموته سنة ١١٩٧ . فحرم ذلك القضية الصليبية من زعيم كان يبدو قادرا على توحيدها وتوجيهها . ولكن هذا أيضا لم ينج القسطنطينية .

# الفصل الرابع

# الصدام بين الشرق والغرب

# ١٢٠٤ - ١٤٥٣

١- الغدر اللاتينى والدبلوماسية البيزنطية (١٢٠٤-١٢٦١)

٢- التنافس المسيحى والحروب الأهلية البيزنطية (١٢٦١-١٣٥٤)

٣- الغزو التركى وسقوط بيزنطة (١٣٥٤-١٤٥٣)

# الفصل الرابع

# الصدام بين الشرق والغرب

# ١٢٠٤-١٤٥٣

## ١- الغدر اللاتيني والدبلوماسية البيزنطية ١٢٠٤-١٢٦١

كانت مصر أول أهداف الحملة الرابعة ، ولكن وجهتها ولبت أولا إلى زارا Zara المدينة المسيحية الواقعة على الساحل الدلماشي ، والتى كانت البندقية تعتبر نفسها أحق بالسيادة عليها من المجر التى تنافسها ذلك الادعاء . ثم اتجهت بعدئذ إلى القسطنطينية بحجة اعادة امبراطور أسرة أنجلوس المخلوع إلى عرشه [١] ، وليس من العسير تعليل تحويل وجهة هذه

---

١- أقدم ألكسيوس الثالث Alexius III على عزل أخيه اسحق الثانى أنجلوس فى سنة ١١٩٥ ، بعد أن سمل عينيه ، وزج به وبابنه الذى يسمى هو الآخر الكسيوس فى أحد الأديرة ، غير أن ألكسيوس الابن تمكن من الفرار بعد مضى سنوات قليلة ، إلى صهره فيليب السوابى ملك ألمانيا ، يطلب إليه تقديم العون لاستعادة العرش . ولما كان فليب مشغولا آنذاك فى صراع عنيف من أوتو دوق برنسويك من أجل العرش الألمانى فقد أرسل سفارة من لدنه إلى الصليبيين فى زارا يدعوهم للإبحار إلى بيزنطة لإعادة ألكسيوس الصغير وأبيه اسحق الثانى إلى العرش ، وهم فى طريقهم إلى الشرق . وفى مقابل ذلك تعهد الكسيوس بتقديم تنازلات فادحة ، حيث وافق على ضم الكنيسة الشرقية إلى كنيسة روما ، وأن يدفع إلى البنادقة ما تبقى من دين لهم عند الصليبيين (٣٤,٠٠٠ مارك) ، وأن يقدم الأموال والعتاد والمؤن وعشرة آلاف مقاتل للمساهمة فى قهر سلطان الأيوبيين فى مصر والقضاء على قوتها العسكرية . وأن يجهز خمسمائة جندى للعمل كحرس دائم فى الأراضى المقدسة وإذا كان هذا هو السبب المباشر الذى قاد الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية، إلا أنه لم يكن السبب الرئيسى، فقد لعبت البندقية ودوجها هنرى داندلو H. Dandolo دورا بارزا فى تغيير خط سير الحملة ، وكان لديها من الأسباب الكثير الذى يدفعها إلى ذلك. للمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الرابعة أنظر : مذكرات روبرت كلارى Robert Clari الذى شارك فى هذه الحملة منذ بدايتها ، وقد نقلها إلى العربية مع مقدمة وافية الدكتور حسن حبشى تحت عنوان «فتح القسطنطينية» القاهرة ١٩٦٤ . وانظر كذلك: شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة دكتور أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ص٣٩-٤٨ ، الدكتور اسحق عبيد : روما وبيزنطة ، ص٢٠٥-٢٥٢، ودكتور سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، الجزء الثانى ص٣٠٥-٣٥٢ ، ارنست باركر : الحروب الصليبية ، ص١٢٠-١٣٤ ، وأيضا Runciman op. cit., pp. 107-131

و Stephenson , op. cit., pp. 411-415 .

و Thompson & Johson . op. cit., pp. 540-547 (المترجم)

الحملة إلى عاصمة الإمبراطورية البيزنطية . ولكن الذى يثير الدهشة أن يتأخر ذلك إلى هذا الوقت . فالبندقية بدافع الحقد والحسد لمنافستها فى الشرق ، كانت ترغب فى تأمين تجارتها ، بالإضافة إلى امتعاضها من المحاولات البيزنطية الأخيرة للحد من امتيازاتها الواسعة. هذا إلى أن القوى الأخرى فى الغرب أبدت استياءها إزاء شعور العداء السائد ضد اللاتين . يضاف إلى ذلك ما شاع وتأصل فى نفوس الغربيين من أن البيزنطيين مسئولون مسئولية كاملة عن الإخفاق الذى لازم الحملات الصليبية . ولم يكن الاستيلاء على القسطنطينية فكرة مستحدثة، وقد بدت الآن بوجه خاص فكرة تجذب الاهتمام فى حينها. ومنذ البداية كان هناك عامل دنيوى لعب دوراً بارزاً فى الحركة الصليبية الغربية ، والآن بات واضحا أن الإمبراطورية البيزنطية تقدم لحركة الاستعمار اللاتينى ميدانا أكثر أمنا وأوفر ربحا من فلسطين وسوريا . غير أن احتلال القسطنطينية والتقسيم الجزئى للإمبراطورية البيزنطية كان يحمل فى طياته على المدى الطويل آثاراً بعيدة وخطيرة على القضية الصليبية ، فقد حولت الصليبيين الغربيين عن سوريا وفلسطين ، والأهم من ذلك . أنها وسعت الصدع بين شطرى العالم المسيحى فى الشرق والغرب، مما أدى بالتالى إلى ازدياد الخلف بين القوى المسيحية التى راحت تزداد ضعفا فى مواجهة عدو ملحد[٢] أشد خطرا هو الأتراك العثمانيين .

استغلت الحملة الصليبية الرابعة بلا هوادة صعاب أباطرة أسرة الجلوس الذين كانوا غير قادرين بالمرة على الوفاء بالتزاماتهم المالية ومساعداتهم العسكرية . فتم الاستيلاء على القسطنطينية عنوة من جانب المسيحيين اللاتين ، وما لبثت أن تعرضت للنهب والسلب بعدئذ ، وأقدم «الصليبيون » على تقسيم العاصمة ، أو بالأحرى ما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية فيما بينهم، ثم بدأوا فى الغزو المنظم لما منح لهم من أراض جديدة لم يفرضوا عليها سيطرتهم بعد. ونتيجة لذلك فقد ظهرت إلى الوجود امبراطورية لاتينية وعدد من الإمارات اللاتينية . وخلال فترة قصيرة من الزمن تمكن اللاتين من السيطرة على تراقيا وسالونيك والجزء الأكبر من بلاد اليونان وعدد من الجزر فى بحر إيجة . وقد قسمت هذه المناطق فيما بينهم جميعا مع ما ظهر لديهم من أهداف متعارضة حول الادعاءات الإقليمية والامتيازات التجارية، متبعين فى ذلك سياسة كانت غالبا ما تختلف تماما فى الأيام الأولى على أية حال ، مع الرغبات الأكثر مسالمة لدى الكرسى الرسولى. ولم يستطع هؤلاء اللاتين أن يقدموا بديلا عمليا عن الحكم الاوتوقراطى لإمبراطور فرد، وراحت أراضيهم خلال العصور الوسطى المتأخرة تلتهم تدريجيا بأيدى جيرانهم العديدين وبصفة خاصة الصرب والبيزنطيين والأتراك العثمانيين .

---

٢- راجع حاشية ١٦ ص١٢٤ (المترجم)

ولكن اللاتين مع ذلك كانوا عاملا مؤثرا فى العالم الإيجى طيلة ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان . فالمنافسة السياسية الضارية صحبتها الاتصالات الشخصية المثمرة ، والاهتمام المتبادل بالحضارات الخاصة بكل منهما ، والاختلاط الذى لايمكن تجنبه ، حيث شهد القرن الثالث عشر البلاط الفرنجى فى كل من أثينا Athens وطيبة Thebes والبلوبونيز Pel-oponnese يهنأ بحياة متألقة وإن كانت قصيرة العمر . وقد حاول السادة الجدد فى مجموعهم أن يتعاملوا بحكمة واعتدال مع رعيتهم المقهورة ، فاستمر كثير من كبار ملاك الأراضى اليونان يحتفظون بأملاكهم ، ولكن باعتبارهم أفصالا لسادتهم الغربيين ؛ ذلك أن النظام الاقطاعى ، كما يفهمه الغرب ويمارسه، انتقل إلى بلاد اليونان . وقد راح وليم فيلهاردوان William Villehardouin (توفى عام ١٢٧٨) الحاكم الفرنسى للبلوبونيز ، وقد وقد وقع أسيرا فى يد البيزنطيين ، يوضح للإمبراطور البيزنطى أنه يستطيع دفع فدية ، ولكن لايمكنه التخلى عن أراضيه الفصلية ، حيث يقول ، «سيدى الإمبراطور، هب أنى أمضيت فى سجنك ألفا من السنين ، فلست بقادر على أن أغير من وضعى شيئا . لقد تم الاستيلاء على المورة Mores بقوة السلاح .. على يد أبى وأصحابه والشجعان الآخرين من رجال فرنسا، وقد تداولوا الحكم فيما بينهم طبقا للقانون ووفقا للتقاليد التى تقضى بأن الأرض يرثها ذرياتهم»[٣] وكانت القلاع التى اضطر وليم فى النهاية لتسليمها إلى ميخائيل الثامن Mi-chael VIII هى تلك التى استولى عليها بنفسه (مثل ميسترا Mistra أو مونمفازيا Mo-nemvasia) ورغم أن الإمارات اللاتينية الكبيرة لم تعمر طويلا ، إلا أن اللاتين حافظوا ، أو امتلكوا ، عدداً من المواقع الاقتصادية على قدر كبير من الأهمية، إما لكونها محطات عبور أو لنوعية منتجاتها ومن أوضح الأمثلة على ذلك مناجم الشبة الغنية فى فوكايا Phocaea عند مدخل خليج سميرنا Smyrna التى منحت للجنوية سنة ١٢٧٥ ، وأثرى آل جاتلوزى[٤]

---

٣- أنظر Chronicle of the Morea, Greek Version ed., J. Schmitt (London 1904) , Verses 2455-4301, French Version ed. J. Longnon (Paris 1911) , pp. 116-17 . English translation by H. E. Lurier Columbia univ. Press 1964).

٤- شهد القرنان الثالث والرابع عشر نوعا من المنافسة المحمومة بين البندقية وجنوه من أجل الاستئثاربالنفوذ الاقتصادى فى القسطنطينية والبحر الأسود ومنطقة المضايق،وزاد من حدة هذه المنافسة خروج البندقية فائزة بنصيب الأسد نتيجة للحملة الصليبية الرابعة، ولهذا سعت جنوة جهدها للحصول على امتيازات مساوية داخل الإمبراطورية، وساعدت الحروب الاهلية التى وقعت بين المتنافسين على عرش القسطنطينية من=

منها ثراء طائلا . واشتهرت طيبة والمورة بصناعة الحرير وغزله . وسيطرت عائلة Gattilusii سانودى Sanudi من البندقية على ناكسوس Naxos ومدت نفوذها إلى الجزر المجاورة وتعهدت بالعناية التامة ، التجارة فى تلك المنطقة .

وهكذا اتجه الغزو اللاتينى إلى ترويج النشاط الاقتصادى ، ذلك أن انعاش التجارة كان من أهم اهتمامات الغزاة أنفسهم ، كما أن الناحية التجارية فى الحقيقة كانت من أول الدوافع تحريضا للهجوم على الأمبراطورية . وغالبا ما حجبت الدسائس والصراعات الأسرية إلى حد ما تلك الأنشطة السلمية التى كانت تجرى على مر الأيام ، والتى اعتمدت فى وجودها الحقيقى على بعض الفهم المتبادل بين اليونان واللاتين .

وبسقوط العاصمة البيزنطية سنة ١٢٠٤ بعد عمر طويل امتد بها ثمانية قرون متواصلة تصدعت الإمبراطورية منقسمة إلى مملكتين يونانيتين : مملكة ابيروس Epirus فى الشمال الغربى من بلاد اليونان وتضم ابيروس وجزءا من ألبانيا ، ويعتلى عرشها ثيودور انجلوس Theodor Angelus ، ومملكة نيقية Nicaea فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى وتخضع لثيودور لاسكاريس Theodore Lascaris الذى أصهر إلى الأسرة الانجلية . وعلى الشواطئ الجنوبية الشرقية للبحر الأسود كانت تقوم أيضا مملكة طرابيزون Trebizond اليونانية تحت سيادة أحد فروع أسرة كومنين ، وإن كانت هذه المملكة الأخيرة قد قامت فى الحقيقة بمساعدة جورجيا Gorgia قبل غزو القسطنطينية . ورغم أن هذه الممالك جاءت بشكل ما نتيجة الأحداث التى وقعت سنة ١٢٠٤ إلا أنها تعكس حقيقة تلك الاتجاهات الانفصالية التى كانت سائدة بين العائلات البيزنطية القوية . وقد راحت المملكة ذات الحكم المطلق فى ابيروس ومملكة نيقية تدعيان حق ميراث العباءة الإمبراطورية ، أما المنافس الثالث من حول العرش فكان الملك

---

= ضرام هذا الصراع وتمثل ذلك بصورة واضحة فى الصراع الذى قام بين يوحنا الخامس (١٣٤١-١٣٩١) ويوحنا السادس كانتا كوزينوس (١٣٤٧- ١٣٥٤)، حيث كان لجهود المغامر الجنوى فرانسسكو جاتلوزيو Franeceso Gattilusio أبعد الأثر فى انتصار يوحنا الخامس ، الذى كافأه على ذلك باعطائه يد أخته وجزيرة لسبوس Lespos صداقا لها. وقد ازداد نفوذ عائلة جاتلوزى فى لسبوس حتى أن قسطنطين الحادى عشر آخر أباطرة بيزنطة أصهر إليها حيث تزوج احدى بناتها .

أنظر : شارل ديل البندقية ، ص٥٤ و Vasiliev op. cit., II, p. 589

وأيضا Denys Hay, Europe in the Fourteenth and Fifteeth Centuries, p. 247 (المترجم)

البلغارى القدير يوحنا الثانى آسن John II Asen (١٢١٨-١٢٤١). وأخذ هؤلاء الثلاثة جميعهم يناضلون من أجل تأكيد ادعاءاتهم بتوسيع حدودهم وفرض سيادتهم على القسطنطينية بالحرب تارة والدبلوماسية أخرى .

وسرعان ما خرجت بلغاريا من حلبة السباق بعد موت يوحنا آسن . على حين عملت الخلافات الأسرية على إضعاف ابيروس التى ما لبثت أن غرقت فى خلافاتها مع جيرانها اللاتين . أما نيقية فكانت لأكثر من سبب صاحبة اليد الطولى ؛ ذلك أنها من الناحية العملية كانت تعتبر مملكة أقوى وأشد تماسكا من تلك الإمبراطورية المنهارة، وتمثل ذلك فى أسرة لاسكاريس التى اتصف ملوكها بالفطنة والثقافة ، وعملوا بعناية فائقة على تنمية مواردهم الداخلية ، ووجدوا لديهم الفرصة السانحة لتشجيع النواحي الثقافية ، واستغلوا بمهارة أخطاء منافسيهم لتحقيق مصالحهم ، وحظوا على أية حال بالتأييد المحدود من جانب الاتراك السلاجقة فى قونية Iconiun وحكام طرابيزون اليونان ، وكان كلاهما يدرك تماما الآثار الناجمة عن التحركات المغولية التى كانت آخذة فى تغيير الشكل السياسى للشرق الأوسط ، وقد نجحت الأسرة اللاسكارية من قاعدتها القوية بآسيا الصغرى ، فى تثبيت أقدامها بمهارة فائقة فى أوروبا ، مقدونيا وتراقيا وسالونيك. فلما مات ثيودور الثانى لاسكاريس عام ١٢٥٨ ، مخلفا وراءه على العرش وريثا قاصرا ، حسمت المسألة على يد انسان «لطيف المعشر ودود، وإن كان فى غير حياء ، هو ميخائيل باليولوجوس Michael Palaeologus الذى كان قادرا بكفاءة على أن يجنى ثمار غرس اللاسكاريين . ففى سنة ١٢٥٩ وفى موقعة بلاجونيا[٥] Pelagonia حقق انتصارا حاسما سحق به عصبة ابيروس التى كانت تضم فرنجة المورة ومانفرد Manfred ملك صقلية ، وحاول أن يدعم قواه بحلف بحرى ضد البندقية ، المحرض الأساسى والمستفيد الرئيسى من الحملة الصليبية الرابعة، فعقد تحالفا مع الجنوية فى مارس ١٢٦١ منحهم بمقتضاه امتيازات تجارية واسعة لقاء وعدهم إياه بالمساعدة. ولم يلبث أن تحققت له الخطوة الأخيرة فى ٢٥ يولية ١٢٦١ حيث استرد القسطنطينية ثانية ، ودخل ميخائيل الثامن المدينة بعد أيام قلائل فى موكب الخاشعين . واتجه إلى دير ستوديوس ومنه إلى كنيسة أيا صوفيا ، وقدر لأسرته أن تحكم من القسطنطينية الإمبراطورية البيزنطية بعد إحيائها قرابة قرنين من الزمان حتى أتاها الغزو العثمانى فى القرن الخامس عشر[٦].

## ٢- التنافس المسيحى والحروب الأهلية البيزنطية ١٢٦١-١٣٥٤

تبدلت إمبراطورية الباليولوجيين فى امتدادها الإقليمى خلال فترة الوجود القلق والمضطرب التى عاشتها . ففى سنة ١٣٦١ كانت تضم شمالى غرب آسيا الصغرى ومعظم تراقيا ومقدونيا وبعض الجزر وتفرض سيطرتها على ابيروس وكذا أربعة قلاع رئيسية كانت ما تزال فى بلاد اليونان الفرنجية . وعلى الرغم من أنها جهدت كى توسع رقعة أراضيها بعد سنة ١٢٦١ ، وخاصة فى البلوبونيز ، إلا أنه لم يكن بمقدورها أن تبعث إلى الحياة أى نظام حكومى فعال يتمركز فى القسطنطينية . وكان عليها أن تعود مرة ثانية إلى تلك الوسيلة الفعالة التى تتمثل فى نظام الهبات الاقطاعية . ومن ثم فانه بدلا من الاعتماد على الولايات الثغرية Themes التى يتولى إدارتها حكم مسئولون أمام السلطة المركزية ، وجد عدد من المقاطعات منحت عادة لأفراد البيت الامبراطورى أو أسرة الإمبراطور الشريك. وقد بقيت للقسطنطينية مكانتها المرموقة ، وظلت عاملا يحسب حسابه فى السياسة الدولية ، ولاشك أن الموقع الجغرافى وحده كان يدعم ذلك. وإذا كانت الإمبراطورية ماتزال غنية بثرواتها ، إلا أن هذه الثروات لم تعد فى أيدى البيت الإمبراطورى ، ولكنها أصبحت فى حوزة العائلات القوية والمؤسسات الكنسية الكبيرة ، وأصبحت الهبات من الأراضى والتى منحت أصلا تبعا لنظام «الميرة» Pronoia فى مقابل الخدمة العسكرية وراثية متحررة من الالتزامات التى كانت تقترن بها. هذا التغيير ترك آثاره الواضحة على الجيش الذى أصبح الآن يتكون فى معظمه من المرتزقة مما شكل عبئا ثقيلا على الخزانة. وفى الوقت ذاته لم يعد للأسطول البيزنطى من الناحية العملية وجود ، وولت القسطنطينية وجهها شطر الجنوية تعتمد عليهم. ولما وجد البحارة البيزنطيون أنفسهم بلا عمل ، انضموا للقراصنة الأتراك الذين كانوا سوط عذاب فى البحر الإيجى خاصة حول الأقاليم الساحلية فى آسيا الصغرى . أما الخزانة الإمبراطورية فلم تعد تحصل إلا على جزء تافه جداً من إيراداتها السابقة ، وانحط المزارعون المحليون والفلاحون فى بعض الأحيان إلى حد الفاقة بسبب ويلات الحرب ولم يعودوا قادرين على الوفاء بالتزاماتهم، وغالبا ما كان عظيم الأقليم يقوم بجمع ما يزيد عن الدخل المحلى، وأصبح

---

٥- فى الطرف الغربى من مقدونيا بالقرب من مدينة كاستوريا Castoria (المترجم)

٦- أنظر دكتور اسحق عبيد : الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغوس ١٢٦١-١٢٨٢ (المترجم)

المصدر الوفير للدخل ، وهو الضرائب الجمركية والمكوس ، يصب الجزء الأكبر منه الآن فى جيوب الإيطاليين خاصة الجنوية داخل الأراضى البيزنطية ، بينما حلت «النقود الجيدة» للجمهوريات الإيطالية محل البيزنط Bezant ، العملة الذهبية البيزنطية ، التى كانت تستخدم فى التجارة الدولية .

كانت المشكلة التى واجهت الحكومة البيزنطية بعد سنة ١٢٦١ ، النقص الكامل فى الموارد المادية ، وقد وجدت أن الدبلوماسية وحدها تعد لغوا لاغناء فيه إذا لم تظاهرها المقدرة العسكرية والبحرية الملائمة ، ولما كانت لاتستطيع أن تفرض سيادتها حتى على أراضيها ، لم يكن أمامها خيار ، ومن ثم كان عليها أن تعانى بل وأن تعتمد فى نهاية الأمر على كبار ملاك الأراضى والحكام المحليين المستقلين حقيقة . وتفاقمت المشاكل الداخلية وازدادت تعقيدا من جراء الحروب الأهلية التى شغلت فترات طويلة من القرن الرابع عشر ، والضغط المستمر من الخارج منذ عام ١٢٦١ فصاعدا خاصة من جانب شارل كونت انجو Charles of Anjoa والصرب وأخيرا الأتراك العثمانيين .

وقد حجب البريق الخادع الذى أحاط بميخائيل الثامن الضعف الكامن والجوهرى للإمبراطورية العائدة ولكن لزمن يسير ، ذلك أنه استطاع بدبلوماسيته الحاذقة أن يكف أذى الأخطار المحدقة بالإمبراطورية ، وكان شارل كونت أنجو قد نصب نفسه ملكا على مملكة صقلية ، بعد أن أوقع الهزيمة بأسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen سنة ١٢٦٦ [٧] ، وأراد أن

---

٧- فى عام ١٢٥٠ مات الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى ، وكان الصراع بين البابوية والإمبراطورية قد بلغ المدى ، وصمم البابوات على تحطيم الإمبراطورية ، والقضاء على أسرة الهوهنشتاوفن تماما . وكان فردريك قد ترك ألمانيا لابنه كونراد الرابع ، وعهد بصقلية إلى ابنه غير الشرعى مانفرد ، وعلى الفور قام البابا انوسنت الرابع بالتفاوض مع هنرى الثالث ملك انجلترا من أجل المناداة بابنه ادموند Edmund ملكا على مملكة النورمانية فى صقلية وجنوب إيطاليا بدلا من أسرة الهوهنشتاوفن على أن يصبح فصلا بابويا . ولكن مانفرد تمكن فى عام ١٢٥٥ من استعادة سلطانه على صقلية . غير أن البابا أوربان الرابع وخليفته كلمنت الرابع ، نجحا فى استمالة شارل كونت أنجو ، وهو أخو لويس التاسع ملك فرنسا ، واقناعه بالقدوم لاعتلاء عرش النورمان فى صقلية ، على أن يكون فصلا تابعا للبابا . ولم يلبث ذلك الأمير الفرنسى الطموح أن غزا مملكة مانفرد عام ١٢٦٢ ، وأوقع به هزيمة مروعة عند بنفنتو Benevento سنة ١٢٦٦ خر فيها مانفرد صريعا . أنظر Thompson & Johnson, op. cit. pp. 428-429

وأيضا . D. Waley , Later Medieval Europe from St. Louis to Luther, pp. 36-38

وكذلك . W. Ullmann, A short history of the Papecy in the Middle Ages , p. 264

وراجع أيضا Barry, the Papal Monarchy, pp. 351-368 (المترجم) .

يد سلطانه إلى بلاد اليونان والإمبراطورية البيزنطية ، فكون تحالفا ضد ميخائيل الثامن ضم البابوية ، وبلدوين الثانى Balduin II الإمبراطور اللاتينى السابق للقسطنطينية ، ووليم فيلهاردوان (الذى كان قد هزم آنفا على يد ميخائيل الثامن فى المورة) وكان واضحا أن هذا الحلف يشكل خطورة كبيرة على الإمبراطورية . غير أن الإمبراطور البيزنطى تمكن بمهارة فائقة من أن يوجه القبيلة الذهبية Golden Horde وهولاكو Hulagu خان المغول ضد بلغاريا وسلاجقة الروم، والمجر ضد الصرب ، وبهذا الأسلوب جابه أعداءه فى آسيا الصغرى والبلقان . ومد يد الصداقة إلى أخى شارل، لويس التاسع Louis IX الذى كان يتدبر أمر حملة صليبية[٨] ، وقدم العون إلى الصقليين الذين كانوا يضمرون العداء لحاكمهم الأنجوى حتى اشتعلت الثورة فى الجزيرة ونجح الثائرون فى نقل التاج إلى بطرس صاحب أرغونة Aragon الذى أمكن لميخائيل الثامن أن يصل إلى اتفاق معه . وكان الامبراطور يعتقد أن من الصواب اكتساب البابوية ، فسعى إلى ذلك بوعد قدمه فى مجمع ليون[٩] Lyone الذى عقد سنة ١٢٧٤ حول إعادة الوحدة إلى الكنيسة .

هكذا عصف ميخائيل بمشروعات شارل ، ولكن ذلك كلفه الكثير من النواحى المالية وغيرها ؛ ذلك أن تقربه إلى روما لقى معارضة شديدة من جانب جيرانه الأرثوذكس ، خاصة بلغاريا التى سادها شعور جارف ضد القسطنطينية ، ولم يكن الاحتجاج فى داخل

---

٨- عن الحملة الصليبية السابعة التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا ، إلى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر ، أنظر : مذكرات جوانفيل عن القديس لويس ترجمة الدكتور حسن حبشى ؛ دكتور محمد مصطفى زيادة ؛ حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، دكتور جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر : هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور ، ودكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، الجزء الثانى ، ص١٠٥١-١٠٧٥ ، Runciman . op . cit., III. pp 255-274 (المترجم) .

٩- عقد تحت رئاسة البابا جريجورى العاشر ، وحضره خمسمائة أسقف وسبعون من مقدمى الأديرة وقرابة الألف من رجال الاكليروس على اختلاف مراتبهم ، بالإضافة إلى ملك أرغونة ، وتبادل المسائل الخاصة بالتنظيمات الكنسية فى الغرب وشغلت الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية جانبا من مناقشاته . انظر عن ذلك المجمع . وأيضا Ullmann , op. cit., pp. 240-241.

Barrt, op. cit., pp. 265-266 C. M. H. vol . VI, pp. 192-3 .

وراجع كذلك : دكتور أسحق عبيد : الإمبراطورية البيزنطية فى عصر باليولوغوس ١١٣-١١٦ ، ١٢٨-١٣٠ (المترجم) .

الإمبراطورية بأقل منه خارجها . حقيقة أن الجموع وقد جئ بها فى التاسع من يناير سنة ١٢٧٥ إلى الكنيسة الإمبراطورية فى القسطنطينية ، راحت تنشد صلاتها باليونانية واللاتينية ، واحتفل بذكرى جريجورى «الحبر الأعظم للكنيسة الرسولية والبابا المسكونى». ولكن الشعور الذى كان ينتاب الجميع فاهت به أخت الإمبراطور التى ورد عنها قولها «خير لإمبراطورية أخى أن تندثر على أن تبيد العقيدة الأرثوذكسية ». وقد أصبحت محاولة التوحيد هذه بين روما والقسطنطينية ورقة إمبراطورية بليت من كثرة المزايدة عليها خلال الحقبة الباليولوجية ، غير أنه بعد عام ١٢٠٤ كان كثير من البيزنطيين يفضلون الخضوع للملحدين على هجران ما كانوا يعتبرونه تقاليد مقدسة لكنيستهم عبر فترة طويلة من الزمن . فلما أمكن رد أعدائهم ، عزا البيزنطيون الفضل كله إلى الكنيسة الأرثوذكسية التى ازداد سلطانها وعظمت مكانتها .

ولكن المكانة الدولية التى بلغتها الإمبراطورية على عهد ميخائيل الثامن لم يقدر لها الاستمرار من بعد ، ولم يكن ذلك راجعا إلى ضآلة شأن الأباطرة البيزنطيين الذين كان بعضهم، مثل يوحنا كانتاكوزينوس John Cantacuzenus أو مانويل الثانى Manuel II ، رجالا على قدر كبير من الكفاءة والموهبة ، ولكنه يعود فى الدرجة الأولى إلى استحالة إعادة السلطة المركزية القوية فى مواجهة النزعات الانفصالية الإقطاعية ، والعوز الكامل فى الموارد المالية اللازمة لمجابهة العدو الصربى فى البلقان والعثمانى فى آسيا الصغرى . ورغم الأزمات الخطيرة التى كانت تتهدد الإمبراطورية ازدهر النشاط الثقافى وارتفعت حرارة الجدل الدينى . فقد ظلت بيزنطة على عهدها دائما تشهد جدلا عقيديا بين مختلف الفرق الكنسية ، والتى غالبا ما كانت تأتلف مع مثيرى الفتن السياسية ، حتى إذا كان القرن الرابع عشر ازدادت التعقيدات حدة بسبب ذلك الإحساس الحقيقى الواضح بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية السيئة ، خاصة فى مدينة سالونيك التى ظلت لسنوات عديدة فى منتصف القرن الرابع عشر تحكم (إذا جاز هذا التعبير) بواسطة مجلس من الأهالى. وكان التطاحن يجرى على أعلى المستويات ، فقد اختصم الإمبراطور العجوز أندرونيكوس الثانى Andronicus II (١٢٧٢-١٣٢٨) مع حفيده ووريثه وسميه أندرونيكوس الثالث الذى رفع السلاح فى وجه جده. فلما قضى الحفيد نحبه سنة ١٣٤١، اندلعت الحرب الأهلية مرة أخرى بين الوزير الأول يوحنا كانتاكوزينوس والوصية على العرش. وتم التوصل إلى نوع من التعايش السلمى القلق بتتويج

كانتا كوزينوس إمبراطورا باسم يوحنا السادس John VI على يد بطريرك القسطنطينية فى عام ١٣٤٧ ، وتبع ذلك بالتالى ازدياد نفوذ أسرته وسلطانها . وفى الوقت ذاته كان الحنق يعتصر نفس الإمبراطور الصغير يوحنا الخامس باليولوجوس وينمو معه حتى تمكن فى النهاية بمساعدة الجنوية من إجبار كانتا كوزينوس على الاعتزال سنة ١٣٥٤ ، ولكن على الرغم من أن الإمبراطور يوحنا كانتا كوزينوس سلك درب الرهبانية وعرف باسم يواصف Joasaph وقضى معظم عمره الباقى فى الكتابة التاريخية واللاهوتية إلا أنه ظل يتدخل فى شئون الكنيسة والدولة حتى توفاه الموت سنة ١٣٨٣ .

وقف التفسخ الداخلى الذى شهدته الإمبراطورية البيزنطية حائلا منيعا دون أية محاولة تبذل لمد رقعة أراضيها المتضائلة ، واهتبل الخصوم فى الخارج هذه الفرصة لمناصرة فريق ضد آخر . وكان على بيزنطة فى القرن الرابع عشر أن ترقب بعين الخوف كلا من الصرب فى البلقان والأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى ؛ فقد نهلت صربيا الكثير من الحضارة العريقة لجارتها القريبة وبدأت تلعب دوراً بارزاً وقيادياً فى السياسة البلغارية زمن ملوكها النمانياويين Ne-manici خاصة على عهد ستفن دوشان Stephen Dusan (١٣٣١-١٣٣٥) . وقد تمكنت صربيا نتيجة المكانة التى حققتها على يديه من أن تستغل بنجاح تلك الحرب التى دارت بين يوحنا الخامس باليولوجوس ويوحنا كانتا كوزينوس ، وأفادت من الهلع الذى انتاب الإمبراطورية بسبب المطامع الهنغارية . وبلغت قوة دوشان حدا راودته فيه الأحلام حول إمكانية خلع الإمبراطور الباليولوجى، وداعبته الآمال فى إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية. وقد امتدت حدوده لتشمل إلى جوار الأراضى التى كانت تحتلها أصلا القبائل الصربية ، ألبانيا وابيروس ، وتساليا Thessaly ومقدونيا Macedonia (رغم أنه لم يحتل مطلقا مدينة سالونيك الهامة) ، بينما أصبحت بلغاريا فى الواقع دولة تابعة . ومن ثم فانه عندما كتب إلى الدوج سنة ١٣٤٥ راح يسمى نفسه«سيد كل الإمبراطورية الرومانية تقريبا». ولقد تحالف فى أول الأمر مع يوحنا كانتا كوزينوس ، ثم لم يلبث أن عاداه ووقف ضده تخوفًا من ازدياد قوته. وفى عام ١٣٥٥ مات ستفن دوشان وهو فى أوج عظمته قبل أن يصبح قادرا على مهاجمة القسطنطينية ، أو قيادة حملة صليبية ضد الأتراك ، وليس من المؤكد إن كانت جهوده قادرة على أن تحقق نجاحا مستمرا ؛ ذلك أن مملكته حتى هذه الآونة لم تكن قد تقدمت بالدرجة الكافية لتحمل أعباء إمبراطورية أو حماية هذه الأراضى التى اكتسبتها مؤخرا .

وهكذا كانت الدول البلقانية فى العصور الوسطى المتأخرة قوية إلى الحد الذى كان بمقدورها فيه أن تتجنب الانضواء من جديد تحت لواء الإمبرطورية البيزنطية العائدة ، ولكن أحداً منها فى الوقت ذاته لم يكن يملك القوة الكافية لفرض أى نوع من الوحدة على العناصر المسيحية المتنافرة فى البلقان والبحر الإيجى .

## ٣- الغزو التركى وسقوط بيزنطة ١٣٥٤-١٤٥٣

كان الأعداء القدامى للإمبراطورية من الأتراك فى آسيا الصغرى يشكلون السلطة السلجوقية فى قونية (أو سلاجقة الروم) وإمارة الدانشمنديين، ثم تغيرت هذه الأوضاع فى غضون القرن الثالث عشر نتيجة الزحف المغولى، فاختفت سلطنة قونية ككيان سياسى فعال ونشأ عدد من الإمارات الصغيرة فى غرب آسيا الصغرى مستغلة فرصة انشغال الإمبراطورية البيزنطية بمصالحها فى أوروبا . وقد قامت معظم هذه الإمارات على صفة الجهاد وعمرت بواسطة المرابطين فى العالم الإسلامى وكان جنودها يحاربون من أجل الإيمان ، وقد هاجموا الأقاليم البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وأغار قراصنتها[١٠] على المياه الإيجية ، يعززهم البحارة البيزنطيون العاطلون . وفى الشمال الغربى من آسيا الصغرى، وعلى جزء من بيثينيا Bithynia البيزنطية قديما ، قامت إمارة عثمان ، التى احتلت مركزا استراتيجيا يتحكم فى الطرق القادمة من القسطنطينية إلى آسيا . ولهذا السبب كان العثمانيون يحتلون موقعا ممتازا أفادهم فى غزواتهم القادمة لأوروبا ، كما أنهم كانوا قد أصبحوا على دراية تامة بالنظم الإدارية الإسلامية والتقاليد الثقافية، حتى أن إمارتهم لم تبق مجرد رباط بل تطوروا بنظمها لتصبح قاعدة تبنى عليها إمبراطورية .

وكانت القوى المسيحية والإسلامية قد اعتادت أن تتحالف فيما بينهما تبعا لمقتضيات الأمور ، ويشهد على ذلك أنه فى منتصف القرن الرابع عشر كانت الإمارة العثمانية قد ثبتت أقدامها فى آسيا الصغرى، فاتجه يوحنا السادس كانتا كوزينوس إلى أميرها أورخان Orchan

---

١٠- هذا التعبير يعبر عن رأى المؤلفة ، وقد لجأ إلى استخدامه كثير من الباحثين الأوروبيين الذين يتناولون تاريخ العلاقات بين بيزنطة والغرب من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى ، دون إدراك كامل لفكرة الجهاد أو الغزو فى الإسلام (المترجم)

يطلب عونه فى الحرب الأهلية الناشئة مع يوحنا باليولوجوس ، وأعطاه يد ابنته ، فأمده أورخان بفرقة قوية من الجحافل العثمانية ساعدته فى تراقيا ، ويعتبر اشتراك الأتراك العثمانيين فى الحروب الأهلية البيزنطية على الأرض الأوروبية بداية استقرارهم فى أوروبا ، فاحتلوا غاليبولى Gallipoli فى سنة ١٣٥٤ ، ومن هذه القاعدة راحوا يباشرون غزوهم المنظم لمنطقة البلقان .

وبعد اعتزال يوحنا السادس عام ١٣٥٤ ، أجبر يوحنا الخامس باليولوجوس ابنه متى كانتاكوزينوس Matthew Cantacuzenus على التخلى عن ادعاءاته فى العرش، ولكنه فى الوقت ذاته أظهر تعقله بالاعتراف بابن آخر لكانتاكوزينوس حاكما على المورة . وكان شغله الشاغل على امتداد عهده الطويل، فقد مات سنة ١٣٩١ ، كيف يمكن وقف الزحف العثمانى فى البلقان . يضاف إلى هذا أن موارد التاج البيزنطى كانت تعانى النضوب بشكل واضح ، بينما كانت المورة ، أكثر أجزاء الإمبراطورية ازدهارا ، تعد فى حقيقة الأمر إمارة مستقلة . من أجل هذا سعى يوحنا للحصول على المساعدة من الغرب، غير أنه لسوء الحظ كانت أول المطالب الملحة الآن. وكما كانت سابقا ، التوصل إلى تفاهم مع البابوية ووحدة كنيستى روما والقسطنطينية . وكان القليلون من ذوى البصيرة يدركون ضرورة تحقيق ذلك ، على حين ظلت الغالبية، تؤيدها الكنيسة الأرثوذكسية القوية ، على عنادها لمثل هذه السياسة، ومن ثم لم تثمر مقترحات يوحنا التى عرضها سنة ١٣٥٥ [١١]. فلم تقدم البابوية على تقديم مساعدة فعالة ، ورفض البيزنطيون النظر فى مسألة إعادة الوحدة للكنيسة . وتزايدت شدة الضغط الذى تتعرض له الإمبراطورية ، فارتحل يوحنا الخامس متضرعا إلى البلاط الهنغارى ولكن

---

١١- نتيجة للظروف السياسية والعسكرية السيئة التى كانت تعانى منها الإمبراطورية من جراء الضعف الاقتصادى والضغط الخارجى المستمر تخلى أباطرة بيزنطة عن كثير مما كان يعد تقليدا ثابتا لايبغون عنه حولا ، أعنى بذلك المصالحة مع البابوية إلى حد الخضوع لها على النحو الذى حدث فى مجمع ليون الثانى سنة ١٢٧٤ والذى سبقت الإشارة إليه ، والآن يعيد يوحنا الخامس نفس الدور فيصدر سنة ١٣٥٥ ميثاقا Chry-sobull يعلن فيه الطاعة التامة لروما، ويقترح إنشاء قصادة رسولية فى القسطنطينية تشرف على التعيينات الاكليروسية ، كما وعد بإرسال ابنه رهينة إلى أفنيون (حيث كان يوجد البابوات آنذاك تحت سيادة الملك الفرنسى)، فى مقابل تنظيم حملة صليبية يتولى هو قيادتها بنفسه . غير أن ذلك كله لم يجده نفعا : انظر : دكتور أسد رستم : الروم ، الجزء الثانى ص٢٤٦ .

الفشل حالفه بسبب الخلاف الكنسي. ولما كانت الآمال تداعب يوحنا في المساعدة الصليبية ، استحثه ابن خالته كونت سافوى Savoy الذي قدم إليه في عام ١٣٦٦ ، ولم تمض على ذلك ثلاث سنوات حتى كان يوحنا نفسه (الذي كانت أمه تعود إلى أصل لاتيني) قد جاء إلى روما ، وفي أكتوبر سنة ١٣٦٩ تحول إلى العقيدة الكاثوليكية ، بينما راح أسقفه في الوقت ذاته يحض البيزنطيين والأرثوذكس في البلاد الأخرى، على أن يقاوموا بثبات مثل هذه الحركة.

وبينما تجرى هذه الأحداث ، كان العثمانيون بزعامة مراد الأول Murad I (١٣٦٢-١٣٨٩) يوسعون دائرة أراضيهم الأوروبية على حساب الصرب وبيزنطة ، وكان النجاح الذي يحققونه الآن وأهدافهم الآتية تتمثل في نقل السلطان لبلاطه من آسيا الصغرى إلى تراقيا ، ومنذ حوالى عام ١٣٦٥ فصاعدا استقر البلاط العثماني في أدريا نوبل Adrianople وعلى حين كان يوحنا الخامس يدور حول نفسه في أوروبا ويودع نفسه رهينة لدى الكنيسة الرومانية، كان العثمانيون يزحفون داخل مقدونيا . ولما كان الصرب قد انقسموا إلى إمارات متفرقة. فقد منوا بهزيمة فادحة سنة ١٣٧١ ، ثم قضى عليهم تماما في سهول قوصوه Kosovo عام ١٣٨٩ (معركة مرج الشحارير) . حيث أعلنوا بعدها خضوعهم للعثمانيين وكان عليهم أن يدفعوا الجزية وأن يعملوا في الخدمة العسكرية . ولم يكن أمام بلغاريا من سبيل إلا الاعتراف بسيادة الأتراك ، وأمست بيزنطة من الناحية العملية مرتبطة بالأتراك ولم يكن إمبراطورها يعدو مجرد فصل اقطاعي عليه أن يؤدي الالتزامات العسكرية .

ورغم كل ذلك فان الإمبراطورية البيزنطية كانت قادرة على المقاومة حتى منتصف القرن الخامس عشر ، يؤيد ذلك عاملان : أولهما أن القسطنطينية كانت تعتبر قلعة حصينة ، والآخر أن المد التركي انحسر دون توقع في آسيا الصغرى سنة ١٤٠٢ (١٢) . وقد بدا واضحا خلال هذه الفترة أن بيزنطة قد فقدت مكانتها السابقة في حلبة السياسة الدولية ، فتضاءلت حدودها ولم تعد قادرة حتى على إدارة جزء صغير كان ما يزال باقيا بأيدي اليونان ، ولم تنقطع الخلافات الداخلية التي اكتوت بنيرانها العائلة الإمبراطورية ، حيث كان أندرونيكوس الرابع Andronicus IV على خلاف دائم مع أبيه يوحنا ، وشارك في هذا النزاع الجمهوريتان الإيطاليتان البندقية وجنوه اللتان كانت لهما مصالحهما الحيوية في الشرق . يضاف إلى كل هذا أنه كان عليها في الوقت ذاته أن تراعي بحكم الضرورة مطالب سيدها القوي السلطان

---

١٢- أنظر بعده ص١٩١ .

العثماني ، ومن ثم فقد بدا شيئا محيرا أن تحتفظ الامبراطورية لنفسها مع كل ذلك حتى بمجرد وجود شاحب لزمن طويل .

وباستثناء أراضيها في المورة . كانت الإمبراطورية تتكون فقط من القسطنطينية وعليها كان يحكم مانويل الثانى Manuel II من ١٣٩١ - ١٤٢٥ وتبعا لما يرويه المؤرخ البيزنطى دوكاس[١٣] Ducas ، راح السلطان العثمانى يخاطب مانويل بقوله : «أغلق عليك أبواب المدينة واحكم داخلها ، فكل ما وراء الأسوار ملك لى ». ولما كان على ثقة مما يعنيه فقد أقدم على جعله حقيقة مؤكدة . فأصبحت القسطنطينية فى الواقع محاصرة ؛ حيث استولى السلطان بايزيد Bayezid على تساليا عام ١٣٩٣، وبدأ العثمانيون فى التوغل جنوبا داخل المورة ، أما بلغاريا التى كانت قد أضحت دولة تابعة ، فقد جرى احتلالها وسقطت عاصمتها ترنوفو Tronvo فى السنة نفسها ، وأخذت دوبرجا Dobrudja وأصبح الدانوب تحت السيادة التركية. ومع أن التوغل العثمانى داخل بلاد اليونان كانت له آثاره على المصالح الإيطالية شأن البيزنطية، إلا أنه كان من المحتمل أن تظل أوروبا اللاتينية دون حراك، ولكن اخضاع بلغاريا والاقتراب من الدانوب كان خطرا يهدد المجر، وقد نجح ملكها سيجيسموند Si-gismund فى حشد حملة صليبية من مختلف البلدان الأوروبية ، غير أن هذه القوة المسيحية فرق شملها عند نيقوبوليس Nicopolis فى عام ١٣٩٦، واستمر تقدم الأتراك داخل بلاد اليونان .

عند هذا الحد شرع مانويل الثانى ، كما فعل أبوه من قبل فى الطواف حول عروش العالم اللاتينى يطلب العون ، لا من أجل استعادة بيت المقدس ، ولكن لإنقاذ المدينة التى ظلت قرونا طويلة حصن الأمان فى الشرق لعالم المسيحية، وقد أثار المأزق الحرج الذى انتهى إليه مانويل

---

١٣- هو المؤرخ البيزنطى ميخائيل دوكاس Michael، ولد فى آسيا الصغرى ، وعمل معظم حياته فى خدمة حكام جزيرة لسبوس من الجنوية ، وإن كان قد ظل على صلته الوثيقة وتعاطفه مع البيزنطيين ، وأبدى أسفه البالغ - فى تاريخه - لهذا التردي الذى هوت إليه الإمبراطورية . وقد وضع تاريخا دقيقا للفترة الواقعة بين عامى ١٣٤١-١٤٦٢ ، أى منذ اعتلاء يوحنا الخامس العرش ، حتى سقوط لسبوس فى أيدى الأتراك العثمانيين ، وإن كان قد قدم لتاريخه بمدخل مختصر منذ بدء الخليقة . غير أنه تناول عهود الباليولوجيين الثلاثة الأخيرين بالتفصيل ، مما يعد لاغنى عنه لأي باحث فى تاريخ هذه الفترة .

أنظر . Vasiliev, op. cit., pp. 691-2

وكذلك . Baynes & Moss, op. cit., p. 233

ومركزه الإمبراطوري شعور العطف في كل مكان ، حتى أن آدم Adam حاكم أوسك Usk ، تلك الجزر البعيدة في الغرب، راح يبكي «مجد روما الضائع» ، ولكن شعور العطف ذلك ظل مجرد إحساس فقط ، وكان لابد لمانويل أن يدرك تلك اللامبالاة التي اتسم بها حكام الغرب. وسرعان ما جاءته الأنباء تفيد أن السلطان العثماني بايزيد قد أثار غيظ العاهل المغولي تيمور Timur بطمعه في المناطق الشرقية الواقعة على الحدود ؛ ذلك أن بايزيد انتقل بعد معركة نيقوبوليس إلى الشرق باتجاه الفرات ، متصورا إقامة إمبراطورية إسلامية عالمية . وكان مثل هذا الطموح يثير تيمور الذي اعتبر قدوم بايزيد إلى الشرق الإسلامي تهديدا لنفوذه، من أجل هذا شن تيمور هجوما على العثمانيين وأوقع بهم هزيمة حاسمة عند أنقرة Ankara سنة ١٤٠٢، ووقع بايزيد نفسه أسيرا ، واندلعت الحرب الأهلية داخل السلطنة العثمانية . ولكن بيزنطة والإمارات المسيحية الأخرى كانت على قدر كبير من الضعف والتفرق حتى أنها لم تستطع أن تنتهز هذه الفرصة التي سنحت لها بهزيمة عدوها. وبدلا من أن تأتلف جميعها في جبهة واحدة ، راحت كل منها تسعى لتحقيق مصالحها الخاصة بالتدخل في الصراع الأهلي العثماني . فلما تمكن السلطان محمد الأول من القضاء على منافسيه ، كرس جهده لتقوية الجبهة الداخلية ، مما أعطى للإمبراطورية البيزنطية فرصة تلتقط فيها أنفاسها ، وأصبح مانويل على وفاق مع عدوه ، وتجاذب الرجلان أطراف الحديث، وتبادلا المجاملات ، وإن كان كل منهما قد ظل على ظهر يخته في مياه البسفور. وكانت ميسترا Mistra في شبه جزيرة المورة ، معقل كل ما تبقى من الحضارة البيزنطية، وراح دارسوها ومفكروها يحاولون جاهدين إبراز قيمة تقاليدها الهللينية . ومما هو جدير بالذكر أنهم في ذلك الوقت الذي كان وجودهم فيه مزعزعا ، راح البيزنطيون في المورة يطلقون على أنفسهم «الهللينيين» وليس «الرومان» كما اعتادوا من قبل أن يفعلوا ، ولكن كانت هناك قرون عديدة لابد أن تنقضي قبل أن يصبح الشعور القومي اليوناني قادرا على التعبير عن نفسه في كيان سياسي مستقل.

أظهر مراد الثاني خليفة محمد الأول عزمه الواضح منذ البداية على امتلاك القسطنطينية . وقام الإمبراطور البيزنطي الآن وللمرة الأخيرة بزيارة إيطاليا ، وحاول بهذه المناسبة أن يغري بطريرك القسطنطينية وبعض رجال الإكليروس اليوناني بصحبته . وفي سنة ١٤٢٩ تم إعلان وحدة الكنيستين باليونانية واللاتينية في دومو Duomo في فلورنسا Florence حيث عقد مجمع كنسي عام . وبغض النظر عن ضمان المساعدة العملية، فان هذا العمل أثار استياء البيزنطيين ونفوز عناصر الصقالبة الأرثوذكس خاصة روسيا ، وشهدت البلقان الخطوة الأخيرة لهذه الأحداث ، فقد دخلها في عام ١٤٤٣ ملك المجر وجورج برانكوفتش George Bran-

kovic الصربى ويوحنا الهونيادى John Hunyadi أمير تراتسلفانيا Transylvania يؤيدهم الزعيم الألبانى اسكندر بك Scenderbeg وقد حاول مراد الثانى فى بادئ الأمر أن يوقع الفرقة فى صفوف أعدائه عن طريق عقد معاهدة معهم سنة ١٤٤٤ ، غير أن المجر نقضت شروط الهدنة بتحريض من البابوية ، وتقدم ملكها باتجاه البحر الأسود ليلقى هزيمة فادحة فى ورنة (ڤارنا) Varna .

وفى عام ١٤٤٨ اعتلى العرش قسطنطين الحادى عشر Constantine XI آخر إمبراطور بيزنطى ، وبينما حكم أخوه فى المورة كان هو سيد العاصمة . وقد ظل البيزنطيون ، حتى ومحمد الثانى العثمانى يدق أبواب القسطنطينية ، يمقتون أى تسوية مع روما ، واحتفظ دوكاس فى تاريخه بهذه الكلمات التى تقول إنهم يفضلون أن يروا عمائم المسلمين وسط العاصمة على أن يشهدوا قلنسوات اللاتين . ووقف بعض الجنوية يؤيدون حلفاءهم حتى النهاية، وإلى جوار الإمبراطور الجسور ماتوا وهم يحاربون . ولم يكن لدى البيزنطيين من الأسلحة ما يمكنهم من التصدي للمدفعية التركية الحديثة . وكان على العدو أن يمضى فترة طويلة أمام تحصينات العاصمة ليتمكن من دكها. ولما لم يستطع المسيحيون ترميم الثغرات اعتلت طلائع الانكشارية بنجاح أسوار المدينة فى التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣ . وكان فى حوزة العثمانيين أربعة أسلحة لم يكن من السهل التغلب عليها : المهارة العسكرية الفائقة، والموارد الوفيرة ، والتفسخ الذى أصاب الحكام المسيحيين ، والأوضاع الداخلية فى الإمبراطورية البيزنطية .

أما مملكة طرابيزون وما تبقى من أملاك للإمبراطورية فى المورة ، فقد قدر لها أن تظل من بعد لسنوات قليلة ، حتى إذا كانت نهاية القرن أصبحت كل الإمبراطورية البيزنطية القديمة تقريبا فى أيدى المسلمين . وهكذا قامت للمرة الثانية إمبراطورية تمتد من الفرات إلى الدانوب. وقد تباينت الآراء فى العالم الإسلامى حول تفسير هذه الأحداث ، حيث بدت للبعض عملا من أعمال الجهاد قام به جنود الإيمان ، على حين نظر إليها بعض آخر باعتبارها تحقيقا لما كان يتوق إليه المسلمون الأول . أما بالنسبة للعالم المسيحى ، فاذا كان قد تهدم الكثير ، فان ما بقى كان يعدله ، فالمدينة التى أعيد بناؤها بشكل فخيم كانت مركزا هاما للمسلمين والمسيحيين على السواء ، وظلت مستقر البطريرك ، وأصبحت الكنيسة الأرثوذكسية الآن الوصى الوحيد على الحياة الثقافية والعقيدية للرعايا الصقالبة واليونان، وأضحت الأبروشيات المحلية الملاذ الوحيد للمسيحيين فى الإمبراطورية العثمانية. لقد كان على الكنيسة الآن ، بعد أن ولت أيام العصر البيزنطى ، أن تعمل دون عون الإمبراطورية وأن تعتمد على نفسها .

## مراجع عامة

- **Ahrweiler. (H)**. Byzance et la mere : la marine de guerre, la Politique et les institutions maritimes de Byzance aux VIIe XVe siecles (Paris 1966) .

- **Baynes (N.H.)** The Hellenistic Civlisation and east Rome, (O.U.P. 1946).

- TheThought- World of East Rome, (O.U.P. 1947) , reprinted in Byzantine studies and other Essays (London 1955) .

- The Byzantine Empire (London 1925) .

- ________ and Moss (H. St. L.B) Byzantium (oxford 1948).

- **Brehier (L.)** Le Monde Byzantine (3 vols. Paris 1947-50).

- The Cambride Medieval History , vol . IV in two parts,

The Byzantine Empire 717-1453, pt. I, Byzantine and her Neighbours 1966) and pt. II. Government, Church and Civilisation 1967).

- **Diehl (C.)** Byzantium : Greatness and Decline (New Brunswick 1957) . is a tranlation of a stimulating essay. Byzance, grandeur et decadence, (1919) .

- **Dvornik (F.)**, The Photian Schism (C. U. P. 1948).

- **Ostrogorsky** (G), History of the Byzantine State (Blackwell, Oxford 1956).

- **Runciman (S.)** A history of the Crusades, 3, vols. (C. U. P. 1951-1954).

- **Vasiliev (A. A.)**, History of the Byzantine Empire (Madison 1952) .

# الفصل الخامس

# الكنيسة والدولة

## الحكومة الإمبراطورية

# الفصل الخامس

# الكنيسـة والدولـة

## الحكومة الإمبراطورية

ترتبط الإمبراطورية البيزنطية ارتباطا وثيقا بالإمبراطورية الرومانية imperium rom-anum في عراقتها المتأخرة ، وورثت تقاليد تحتوى على عناصر ليست فقط رومانية ، بل هلنستية Hellenistic وشرقية ذات فعالية كان قد تم التسليم بها جدلا فى العالمين الرومانى والبيزنطى . وهذا يبرز لنا كثيرا من مظاهر سياسات الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى العصور الوسطى ، التى اصطلح على وصفها بـ «التمشرق» على ضوء علاقاتها بجيرانها الشرقيين. ولاشك أن بيزنطة قد تأثرت بهؤلاء الجيران عن طريق الاتصال المباشر فيما بينها وبينهم. ولكن بعض الملامح الشرقية البارزة فى مفهومها عن السلطة الإمبراطورية كان موروثا عن روما ، وإن كانت فى أصولها قد استمدت من تقاليد ضاربة فى القدم تعود إلى حضارات العالم القديم ، مثل الهلنستية والفارسية والآشورية والبابلية والعبرية والمصرية . حتى إذا جاء القرن الثالث الميلادى كانت حكومة العالم اليونانى- الرومانى قد أصبحت ملكية ، واقترن حكامها تماما بمبدأ الألوهية وادعاء الإمبراطورية العالمية . وكانت روما القديمة حقيقة قد ودعت منذ زمن بعيد أيامها الجمهورية ، وغدت العاصمة الرئيسية لإمبراطور كان يعتبر راعيا ومنعما ومخلصا لشعبه ، تقدم إليه كل آيات التبجيل والتقديس ، فلما تم الاعتراف بالمسيحية كان لابد أن تطرأ بعض التغييرات ، ذلك أن الإمبراطورية الرومانية أقدمت فى بداية القرن الرابع على التسامح مع المسيحية ، ثم اتخذتها من بعد عقيدة رسمية . وقد ترك هذا الاعتراف بالحقوق المسيحية آثاره واضحة على الحكومة فى الجاهين ، فالمفاهيم الهلنستية عن السلطة الإمبراطورية كان لابد أن يعاد النظر فيها وأن توضع من جديد فى إطار العقيدة والأفكار المسيحية ، كما أن الكنيسة المسيحية بمتطلباتها الخاصة وادعاءاتها بالسيادة على كل فرد ، كان لابد من دمجها فى إطار أداة الحكم .

أما فيما يتصل بالسلطان الإمبراطورى فانه لم يكن من الصعب ملء هذه الهوة . وتعكس مفاهيم العصور الوسطى المبكرة الأساليب الهلنستية والسلفية ، فلم يعد ينظر إلى الإمبراطور باعتباره الها ، بل أصبح يرى فيه، وكان هذا هو نفس الشئ تقريبا بالنسبة للاغراض العملية،

إنسانا مقدسا اختير من الله ليكون ممثلا له على الأرض . وكما أن الإله واحد، فلابد أن يكون هناك إمبراطور واحد يصبح له بمرور الزمن سيادة العالم وحكما عالميا ، وتفيض الآداب والأعراف البيزنطية بتوضيح هذه الصلة الوثيقة بين الله ونائبه . وخلافا لوجهة نظر القديس أوغسطين[١] St Augustine عن المدينتين وغربة هذا العالم ، يؤكد تاريخ الإمبراطورية البيزنطية على امتداده نظرية القرن الرابع التى أرسى دعائمها يوساب[٢] Eusebius والتى تقول بأن رسالة المسيحية أن تحل على الأرض مملكة مسكونية . وقد بدا لائقا لأعين البيزنطيين تشبيه المسئوليات الإمبراطورية بتلك التى تتعلق بالقديس بطرس ، «فحيث أن الله قد عهد إلينا بحكم الإمبراطورية ، كما قضت بذلك مشيئته ، فقد أمرنا أيضا ، كما أمر بطرس أمير الرسل ، أن نطعم شعبه المؤمن »[٣] .

وكان الإمبراطور يحاط بمراسم ذات مسحة دينية ، وترتبط بالطقوس الكنسية ، فقد أهدى الجانب الأيسر من العرش الإمبراطورى للمسيح ، وكان يترك شاغرا فى المناسبات الكبرى مثل الأعياد أو الاحتفالات الكنسية ، ولكن الامبراطور كان يشغله باعتباره ممثل المسيح على الأرض ، عند استقباله للسفراء . ويؤتى بالنور وتوقد النار ويحرق البخور بين يديه في مناسبات معينة . وكان أمرا عاديا أن يبخر هو نفسه فى الكنيسة . وفوق هذا وذاك فان مكانته فى الحياتين الدينية والزمنية تتضح من تلك الهتافات التي تطلق من أجله ، وكانت أشبه بالترانيم أو التسابيح الخاشعة (لعل أقرب هتاف لها ما نردده «حفظ الله الملكة» الذى يعد نوعا من الهتافات) . ولقد كانوا يؤكدون باستمرار على مركز الإمبراطور باعتباره الممثل المباشر لله، ومن ثم كان يجرى الترحيب به على هذا النحو في كل الاحتفالات التي كانت تقام إما فى الهيدروم أو فى كنيسة أيا صوفيا . وكانت التسابيح التي يترنم بها عند الاحتفال بأحد العنصرة ، وتتكلم عن الروح القدس بحديث متقد ، تنصب على الإمبراطور ، كما أن التهليل الذى يجرى ليلة عيد الميلاد ، كان يرتبط بالتسابيح والعظات التى خصصت لهذا الوقت من العام ، «ألا فليحفظ المسيح، واهب كل الحياة ، عهدك وعظمتك ، وليدفع الأمم عبر كل العالم لتسعى إليك تقدم الجزية لسلطانك ، كما قدم المجوس الهدايا إليه [المسيح]

---

١- أنظر قبله (المترجم)

٢- أنظر قبله (المترجم)

٣- Ecloga, Preface

هذه الترانيم كان يصدح بها كورس خاص، بعضه كنسي، وبعض تدعمه الأحزاب السياسية القديمة في المدينة ، ويحتوي كتاب المراسم Book of Ceremonies الذي صنفه قسطنطين السابع في القرن العاشر ، على مادة وفيرة حول مراسم البلاط الإمبراطوري . وتكشف مقدمة الكتاب عن مدى ارتباط الإمبراطور البيزنطي بالمسيح ، فهو «المحب للمسيح» Phi-lochristos صديق المسيح. ويبين بوضوح أن هذه المراسم كان لها قدرها وقيمتها لأنها ترمز إلى أن النظام القدير في الإمبراطورية الذي يعكس الإبداع الإلهي ، قد أنعم به الخالق على العالم أجمع .

وكان الإمبراطور البيزنطي ، الذي يعتبر نفسه خليفة قسطنطين العظيم ، الحواري الثالث عشر ، يعتلي العرش من الناحية النظرية فقط بالانتخاب ، أما من الناحية العملية فكان اختياره يتم وفقا لقواعد مختلفة. فهو إما يختار من قبل الإمبراطور الجالس على العرش في حياته ، أو يتولى زمام الأمور بعد اقصاء أو عزل الإمبراطور الحاكم ، أو يدعى السلطة كامبراطور شريك . وكان من المألوف أن يعلن اختياره بواسطة الشعب والسناتو والجيش ، ومن بين هؤلاء جميعا كان الجيش أهم هذه العناصر على الإطلاق . أما مسألة نجاحه فكان ينظر إليها على أنها علامة التأييد الإلهي ، وقد اعتاد البيزنطيون أن يرتضوا ما حدث . ولكن الإله لحكمة يعلمها قد لايهب عونه دوما للأباطرة الخيرين . وهناك فقرة في «الرسائل المنسوبة خطأ إلى اثناسيوس Spuria Athanasiana يسأل فيها الله كيف سمح لطاغية مثل فوقاس Phocas أن يصبح إمبراطورا في بداية القرن السابع ، فأجاب «لأني لم أجد من هو أسوأ» . وهذا بالطبع يعد استثناء ، فالبشر لايدخلون بصفة مستمرة في تجربة قاسية كهذه لمعرفة مدى صبرهم وحقيقة إيمانهم . ومنذ القرن السابع أخذ مبدأ الوراثة في الحكم طريقه إلى الاستقرار ، وأصبح أمرا مألوفا أن يتوج واحد أو أكثر من أبناء الإمبراطور الجالس على العرش في حياة أبيهم. ولم يؤد وجود أكثر من امبراطور شريك إلى انهيار وحدة الحكم الإمبراطوري ، وهذا المبدأ يعود إلى أيام المواطن الأول زمن أوغسطس Augustus الذي لم يعقب ذكرا وكانت له ابنة واحدة . وقد حمت عادة المشاركة في الحكم هذه مسألة الخلافة ، ولعلها استخدمت أيضا لتضع السلطة في يد حاكم راشد قوي عند وجود قاصر على العرش ، أو لتضمن هيبة الحكومة إذا ما كان الوريث الإمبراطوري امرأة أو رجلا يفتقد الموهبة السياسية ، ومن ثم فقد كان هناك أباطرة عديدون في وقت واحد ، ولكن السلطة كانت تتركز في يد واحد فقط من بينهم، هو

السيد المطلق ، الذى أصبح يعرف منذ القرن السابع بالملك Basileus ، وبعد تتويج شارل العظيم Charles the Great في الغرب، لقب الإمبراطور البيزنطي بالملك الروماني Basileus Romaion «امبراطورالرومان» وقد أكد هذا ادعاءه للسيادة العالمية باعتباره وريث روما . أما لقب أوتوقراطور Autocrator (الذى يعتبر ترجمة للفظة إمبراطور Imperator ) فقد استخدم فقط ليطلق على الإمبراطور السيد ، ولم يتمتع الشريك الأول فى الحكم من الأباطرة ، بوصفه مميزاً عن الإمبراطور الأكبر سنا ، بنفوذ فعلى . إلا فى أواخر العصور الوسطى .

ولما كان الإمبراطور ممثلا لله ، فقد أصبح من الطبيعى أن تكون له علاقة خاصة مع الكنيسة[٤] فقد جرت العادة منذ منتصف القرن الخامس أن يتم تتويج الإمبراطور بيد بطريرك القسطنطينية ، السلطة الكنسية العليا فى الكنيسة البيزنطية ، وقد اختلف الدارسون حول مغزى هذا التويج ، فرأى بعض أنه يعد شيئا جوهريا وأنه من الناحية العملية يمنح السلطة الإمبراطورية ، بينما اعتبر آخرون أن السلطة الإمبراطورية كانت شيئا مستقلا عن التتويج الذى يتم بيد بطريرك القسطنطينية . ولكن الحقيقة تتضح على صفحات التاريخ البيزنطى أن هذه المسألة لم تكن شيئا ثابتا جامدا ، بل كانت عرضة للتغيير . فالسلطة الإمبراطورية رغم الاعتراف لزمن طويل بأنها هبة من الله ، لم يكن ينظر إليها أول الأمر علي أنها منحت بيد البطريرك ، وإن كان هذا يختار طبيعيا ليكون الشخص الجدير بمنح الأشعرة التى تدل على أن الامبراطور يباشر حكمه بنعمة من الله وفضل . ويبدو أمرا بعيد الاحتمال أن البطريرك كان يقوم بهذا العمل بمجرد كونه فقط «رجلا علمانيا ، المواطن الرومانى الأول»[٥] كما كان يعتقد بيورى J. B. Bury حتى إذا كان القرن التاسع أخذت مراسم التتويج شكلها الثابت ، لتصبح

---

٤- أنظر الفصل السادس .

٥- ويذكر نورمان بينز أن اختيار الإمبراطور كان يمر بأربعة أدوار. الأول ينادى السناتو الرومانى أو الجيش بوضع المرشح فى وضع دستورى يجعله فى مكان الإمبراطور المنتظر ، على أن يكون من الجائز بعد ذلك تثبيته أو الغاؤه ، والثانى أن يوافق الطرف الآخر وهو المرشح على ذلك . والثالث التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الرومانى بحياة الإمبراطور . أما الرابع فهو تتويجه بالتاج على يد بطريرك القسطنطينية ، باعتباره ممثلا للناخبين لا الكنيسة . وقد جرت العادة بذلك وإن لم يكن شرطًا أساسًا . أنظر الإمبراطورية البيزنطية ، ص٨٠ وقارن رنسيمان الحضارة البيزنطية ، ص٦٨ (المترجم)

فى القرن العاشر أمرا جوهرياً لا مندوحة عنه . وعبر هذا التاريخ الطويل للإمبراطورية لانجد إلا إمبراطوراً واحدا لم يتوج بصفة رسمية لأسباب خاصة ، هو قسطنطين الحادى عشر ، ولم ينظر إليه باعتباره إمبراطوراً بينما نرى هذه السلسلة الطويلة من الأباطرة ابتداء بليو الأول Leo I (٤٥٧-٤٧٤) يعتبرون تتويجهم بيد بطريرك القسطنطنية أمرا حيويا بالنسبة لهم . فهو بصفته الاكليروسية ومركزه فى الحكومة الكنسية يؤدى طقس رسامة الإمبراطور كنائب للمسيح . وعند تتويج الإمبراطورة أو الابن أو البنت ، يقوم الإمبراطور الذى سبق توا تتويجه على يد البطريرك ، بتسلم التاج منه ووضعه على رأس أى من هؤلاء . وقد اتخذ هذا كدليل على التصغير من شأن الدور الذى يقوم به البطريرك ، ولكن لايجب أن يخفى علينا أن البطريرك هو الذى سلم التاج فى البداية بعد الصلوات المخصصة لهذه المناسبة . وفوق هذا أصبح البطريرك بمرور الزمن مسئولا عن صدق أرثوذوكسية الإمبراطور ، ثم جرى العرف بعد ما كان من أمر الجدل اللاأيقونى على أن يوقع الإمبراطور وثيقة ايمان قبل أن تجرى مراسم التتويج[٦] . وقد بسط ذلك فى الكتاب الذى وضع فى القرن العاشر عن الإدارة الإمبراطورية، وظهرت نصوصه فى الرسالة التى كتبت فى القرن الرابع عشر عن «الوظائف» On Offices والتى تنسب إلى كودينوس Codinus ، ويبدأ التقرير باعتراف بقانون الإيمان ، يتلوه عهد بالحفاظ على تقاليد الكنيسة خاصة ما يتعلق بالمجامع المسكونية السبعة ، والمجامع المحلية ، «وامتيازات واستحقاقات كنيسة الله العظمى المقدسة» يعنى كاتدرائية أيا صوفيا ، أو كنيسة الحكمة المقدسة فى القسطنطينية) ، وينتهى بذكر واجبات الإمبراطور تجاه رعيته وإنزال اللعنة على كل الهرطقات . وبحكم الانتقال الوراثى من زمن لآخر ، أعطى الجيش ، أو بشكل أقل ، الناس، تلك القوة الدافعة التى تبلورت فى تقليد السلطة الإمبراطورية ، ولكن هذا التقليد كان لابد أن يمهر ويختم كهبة من الإله ، انتقلت إلى الإمبراطور بواسطة الصفة الكهنوتية للبطريرك .

وقد أدى هذا إلى تميز الإمبراطور إلى حد ما عن أى علمانى آخر، ففى كل مكان وكل مناسبة يجرى التأكيد على وضعه الفريد أو فى الحقيقة مركزه ذى القداسة ، وكان يرسم محاطاً بهالة أو اكليل ، وكان قصره هو «القصر المقدس ، domus divina أو (theion Palation)

---

٦- راجع قبله (المترجم)

وكان هو نفسه يشبه بالحواريين ، وله مكانه الخاص فى الخدمات الكنسية ، ففى عيد الميلاد يقوم بتبخير المذبح المقدس . وفى يوم الاثنين عند بداية الصوم الكبير يكرز فى الماجنورا Magnaura بين رجال البلاط المواطنين ممثلى الأحياء ليفتتح بذلك موسم الغفران . ثم يدخل القدس بتقدمته ويمضى من فوره إلى المذبح ليتناول القربان ، ليس ممزوجا [٧]، ولكن كلا على حدة من البطريرك «كما يفعل القساوسة » وفى المجامع الكنسية كان يسلم عليه بالملك - القس (وقد ترجمت فى المضبطة اللاتينية لمجمع خلقيدونية الى Pontifex أو Sacerdos واعترف به كلقب شرعى وضع بواسطة الأباطرة ذوي الإيمان القويم وإن كانت البابوية قد رفضت خلعه على ليو الايسورى لأنه كان مهرطقا ) . غير أن هذا اللقب لم يكن يضفى الكهانة أو الاكليروسية على الإمبراطور ، ولم يحدث أبدا أن وجد الإمبراطور على سبيل المثال يقدس ، لقد كان فى الحقيقة مجرد استمرار لقصة ذلك الامتياز[٨] Privileguim الذى صحبه بعض القرائن من أجل يوليوس قيصر Julius Caesar وأوكتافيوس Octavius والتى اعترفت مؤخرا بالوضع الخاص المخول من الله للإمبراطور المسيحى .

ويدل المفهوم الدقيق عن الإمبراطور الفرد على أن الكنيسة كانت جزءا من نظام الدولة ، كما كانت من جميع الوجوه تحت الإشراف العام للامبراطور ، حتى وإن كانت هناك بعض المهام الخاصة التى لاتستطيع هو أن ينجزها بنفسه . ولم يكن التمييز بين ما لقيصر وما لله واضحا تماما فى الامبراطورية المسيحية imperium Christianum فى روما الشرقية ، كما هو حادث فى عالم الغرب المسيحى، ولم يكن يطفو على السطح فقط إلا عندما يكون الإمبراطور هرطوقا . وكان من المسلم به أن الإمبراطور يتحمل مسئولية خاصة فى حماية القانون والنظام بين رعاياه ، الكنسيين والعلمانيين على السواء ، وقد فسر ذلك على أنه يتضمن ليس فقط سلوكهم كافراد ، ولكن نظام وتركيب المؤسسات الكنسية (مثل الأديرة) أو الإدارة الكنسية (كاعادة تنظيم الأبروشيات) ، وتفيض المتجددات Novels الإمبراطورية بهذا النوع من التنظيمات . وكان الإمبراطور يمارس سلطته هذه أيضا عند اختيار كبار رجال الاكليروس

---

٧- عادة مزج عنصرى القربان (الخبز والخمر) تقليد تتبعه الكنائس الشرقية ، ويعنى غمس الخبز فى الخمر، بواسطة معلقة الافخاريستا عند إتمام طقوس التناول (المترجم)

٨- للمزيد من التفاصيل عن ذلك . أنظر دكتور عبد اللطيف أحمد على : التاريخ الرومانى . ص٣١٥-٣٣٧ ، Boak, op. cit., pp. 237-238 (المترجم)

كالبطريرك أو الأساقفة . وعندما تتم رسامة البطريرك الجديد، يعلن الإمبراطور بنفسه نص المرسوم ، «تم تعيين هذا الرجل أسقفا للقسطنطينية بنعمة الله وبسلطتنا الإمبراطورية المستمدة من فضل الله».

علاوة على ذلك ، فقد كان للإمبراطور منذ البداية دور حيوى فى أهم عنصر من عناصر الحكومة الكنسية وهو المجامع المسكونية . فقسطنطين العظيم هو الذى دعا أول المجامع المسكونية للانعقاد فى نيقية سنة ٣٢٥ وقال إنه «أسقف أولئك الذين بالخارج» ربما فى مواجهة جمع الأساقفة المنتظم داخل الإمبراطورية . ولقد حظى الإمبراطور حقيقة بمركز مسلم به فى المجامع التى لم تكن تشبه تلك التى عقدها الآباء . وهنا أيضا تضاربت التأويلات وساد سوء الفهم نتيجة الإخفاق فى إدراك تأثير النظم التى كانت سائدة قبل مجئ المسيحية ، ففيما يتعلق باجراءات عقد المجمع المسكونى للكنيسة كان يحتذى بما يتبعه السناتو الرومانى ، حيث توجه الدعوة لعقد المجمع من جانب الإمبراطور ، وتكون رئاسته للإمبراطور أو مندوبيه (وهذا يطابق ما كان من حق المواطن الأول أو القنصل) بينما كان للبابا أو رسله حق التصويت أولا (وهو يطابق هنا رئيس مجلس الشيوخ Princeps Senatus وكان لابد أن تحمل المراسيم الصادرة عن المجمع توقيع الإمبراطور. والحقيقة أن مساندة الإمبراطور فى هذا السبيل كانت تعد شيئا جوهريا . فهو الذى يملك السلطة الكفيلة بوضع هذه المراسيم موضع التنفيذ . وتبرز مجموعات الفريسك والفسيفساء والمخطوطات المصورة هذه الحقيقة (ونرى شيئا من هذا القبيل أيضا يمارس فى المجامع المحلية بواسطة ملوك بلغاريا أو الصرب) أما إلى أى حد كان يصل نفوذ الإمبراطور فى إدارة دفة الحوار ، أو فرض وجهة نظره على الحضور ، فيتوقف على الظروف السائدة وشخصية الإمبراطور نفسه ، ومع ذلك فقد كان حضوره واهتمامه أمراً عادياً مسلماً به كما تشهد بذلك محاضر الجلسات . وقد أصبح واقعاً أن الإمبراطور لايستطيع أن يفرض إرادته على الكنيسة فيما يتعلق بالمسائل العقيدية[٩] . خلاصة القول أن الجميع كانوا

---

٩- لم يجر الأمر على هذا النحو فى بداية القرن الرابع عندما اعترفت الدولة بالمسيحية ديانة شرعية على يد الإمبراطور قسطنطين . ذلك أن قسطنطين فى مجمع نيقية ساق الأساقفة - وهذا هو تعبير المؤرخ الكنسى يوساب القيسارى - إلى التوقيع على صيغة الإيمان التى تتضمن مصطلح «الهوموسية» Homoousius (مساواة الابن للآب فى الجوهر) ، وهى الصيغة التى أوحى بها إليه مستشاره للشئون الدينية هوسيوس أسقف=

يدركون أن أول واجبات الإمبراطور حماية الأرثوذكسية . وقد يقدم الإمبراطور على اتخاذ إجراء شخصي إذا ما بلغت الهرطقة مداها ، كما فعل الكسيوس كومننوس ضد البوجوميليين في نهاية القرن الحادى عشر ، أو يدعو لعقد مجمع عام أو محلى ليناقش معه بعض المشاكل ذات الطابع الخاص .

ورغم هذا التسليم الجماعى بطبيعة الاهتمام الإمبراطورى بالكنيسة فيما يتعلق بكل شئونها ، إلا أن ذلك لم يمض هكذا دون تحد ، ومع هذا فان المعارضة كانت نادرة على الأقل في الإمبراطورية الرومانية الشرقية . وقد أكد رجال الكنيسة أمثال أمبروز Ambrose قرب نهاية القرن الرابع ، أن مركز الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها ، ونددوا بعنف بالتدخل الإمبراطورى فى مسائل العقيدة . ورفعوا بصفة دائمة ذلك المفهوم ، الذى ربما يعود إلى الزمن اليهودى، الخاص باعتبار الكنيسة أعلى قدرا من الدولة ، وأنها ليست جزءا منها (وهى الفكرة الأوغسطينية فى مواجهة وجهة النظر اليوسابية) . وقد ذكر البابا جلازيوس الأول Gelasius سنة ٤٨٩ أن « الإمبراطورية وليد الكنيسة وليست سيدها »، وجلا النظرية الخاصة بالعالمين ، وبين أن الروحى هو الأعلى ، رغم أن الجميع كانوا قد سلموا للإمبراطور بأنه «حامى الأرثوذكسية» defensor orthodoxae وقد اتخذ التطور السياسى فى العصور الوسطى فى عالمى المسيحية اليونانى واللاتينى طريقين متباعدين ، وانعكس هذا إلى حد كبير على نظرتهم فيما يتعلق بالكنيسة والدولة . ففى الشرق ، وبعد فترة من امعان النظر ومحاولات التوفيق، تم التسليم بحدود معينة للسلطة الإمبراطورية على الكنيسة . ولكن شيئا من هذا لم يحدث فى الغرب مطلقا . وكان يبدو أمراً بعيد الاحتمال ، أن يرغب عدد من الرومان الشرقيين فى قبول تلك الصيحة التى أطلقها ثيودور رئيس رهبان دير ستوديوس فى القرن التاسع[١٠] بصورة عنيفة كمبدأ عملى ، «أيها الإمبراطور، حذار من أن تحطم استقلال الكنيسة فدعها لأصحابها الاكليروس والرهبان». ولكن الواقع يكشف بجلاء اهتمام العلمانيين

---

قرطبة ، وكانت مقبولة لدى الغرب منذ القرن الثالث على عهد ديونيسيوس أسقف روما ، وقبلها على مضض سميه أسقف الأسكندرية المعاصر له . وأضحت هذه الصيغة هى قاعدة الإيمان الأرثوذكسى من بعد فى الكنيسة . للمزيد من التفاصيل .أنظر : للمترجم الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى، ص١٩٢-١٩٩ (المترجم) .

١٠- أنظر قبله (المترجم)

والكنسين على السواء بالمسائل اللاهوتية ، ومن ثم لم يقتصر الأمر بالنسبة للإمبراطور على حد التشريع للكنيسة فيما يختص بالنواحى التنظيمية فحسب ، بل دائما ما كان يبدى اهتمامه بالجدل اللاهوتى ، كما حدث فعلا فى القرن الحادى عشر عندما ظهرت عقيدة الزهد الصامت hesychast والجدل الذى دار بشأنها حول طبيعة الإله وكيف يكشف عن نفسه(١١) . ويمكن التعبير عن علاقة الإمبراطور بالبطريرك ، أو بتعبير آخر المسائل الدنيوية بالكنيسة . لابهذا المصطلح المبهم «القيصرية البابوية» Caesoropapism ولكن كنوع من «المصلحة المشتركة». فقد اعترفت بيزنطة دائمًا بهذه المصالح المشتركة بين الكنيسة والدولة

---

١١- ظهرت حركة الزهد الصامت فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وقد أطلق على أصحابها هذه التسمية «الزاهدون الصامتون» أو «أولئك الذين يحيون فى صمت» وهدفهم الجوهرى الاتحاد التام بالله . وقد انتشرت هذه الحركة بصفة خاصة فى جبل آثوس ، أشهر موطن للرهبنة البيزنطية ، واختلفت آراء الدارسين مثل عالم البيزنطيات الألمانى جلتز Gelzer والمؤرخ اليونانى بابا ميخائيل Papamichael وترويزكى Troiz-ky وأوسبنسكى Uspensky حول ماهيتها . ويعتبر جريجورى بالماس Gregorius Palamas رئيس أساقفة سالونيك ، أشهر رجالها وواضع قواعدها فى القرن الرابع عشر . وساعده على ذلك احترام الإمبراطور أندرونكوس الثانى له . وقد اشتد أوار الجدل عندما قدم أحد الرهبان اليونان وهو بارلام Parlaam من كالابريا وقدم إلى البطريرك تقريراً عن أديرة جبل آثوس وما يدور فيها ، وانبرى بالماس للرد عليه، مما أدى إلى أن تبادر القسطنطينية بالدعوة لعقد مجمع فى آيا صوفيا ، انتهى إلى إدانة بارلام وإجباره على طلب التوبة والغفران على ما اقترفت يداه ». وقد أدى هذا الانتصار الذى حققه بالماس فى المجمع إلى ازدياد نفوذ الرهبان على الدولة والكنيسة معا ، وساعد على ذلك اضطراب الأمور فى الداخل نتيجة للنزاع بين أندرونيكوس الجد وسميه الحفيد ، ويوحنا باليولوجوس وسميه كانتا كوزنوس ، إلى جانب التهديدات المستمرة على حدود الدولة من جانب الترك والصرب .

أنظر . Encycl . of Religion and Ethics, art hesychast

وأيضا . The New Schaft- Herzog encyclopedia of religious Knowledge

وكذلك . Vasiliev , op . cit., II, pp. 665-670

وراجع أيضا . Baynes & Moss Byzantium, pp. 114-116

و Ware. The Orthodox Church , pp. 72-89 (المترجم)

حتى جوستنيان الذى كان حاكما أوتوقراطيا ، افتتح نوفلاء Nevel السادسة بهذه الكلمات «إن أعظم الهبات التى من الله بها من علٍ على البشر . بحبه الإنسانية Philanthropia هى الكنيسة والإمبراطورية، الأولى ترعى ما يختص بالله والأخرى تعمل الفكر فيما يتعلق بحياة بنى البشر » وقد أحسنت صياغة ذلك قرب نهاية القرن التاسع فى ذلك الكتيب القانونى «المدخل»[١٢] Epanagoge حيث تقارن بين الإمبراطور والبطريرك كانهما الروح والجسد ، كلاهما حيوى للآخر ، كلاهما له نفس القدر من الأهمية فى الوحدة العضوية . وعلى نفس المنوال نهج يوحنا تزيمسكس وآخرون فى القرن العاشر . وتم إجهاض الأصوات المعارضة كما حدث فى القرن الحادى عشر بالنسبة للبطريرك ميخائيل كريولاريوس Michael Cerularius ولم يسمح لأى منهما أن تشوه وجه العلاقة التقليدية بين الكنيسة والدولة ، وعندما رفض الإمبراطور أندرونيكوس الثانى فى القرن الرابع عشر نصيحة كالكاس Calecas حاجه الأخير بقوله «عجبا .. تأمرنى أن أرعى شئون الكنيسة وأسمح لك أن تحكم الإمبراطورية بمحض ارادتك . إن مثلك ومثلى كمثل الجسد يخاطب الروح «لا أريد صحبتك ، ولن أصغى لفكرك وأوامرك فيما يتعلق بشئونى .. ولسوف أمضى فى طريقى ، ولتمض أنت إن شئت فى طريقك» ورغم هذا فقد كانت هناك تغييرات ذات دلالة واضحة ، وإن كان يمكن القول بصفة عامة أن الكنيسة أخذت تزداد قوة خاصة بعد الجدل الذى نشأ من حول الأيقونات ، ويعكس الفن الامبراطورى فى الفترة الوسيطة هذا التغيير ، فلم يعد الإمبراطور بعد الحرب الأيقونية يظهر فى الصورة كاهنا وملكا شأن ملكى صادق Melchisedech[١٣] كما تنطق بذلك الفسيفساء الموجودة من القرن السادس فى كنيسة القديس فيتالى[١٤] San Vitale، بل أصبح يقف جنبا إلى جانب البطريرك كموسى وهارون . وقد تخلصت الإمبراطورية بعد صراع مرير عبر القرون من المشاكل العقيدية الكبرى ، وفقدت الولايات الانفصالية الهرطوقية فى الشرق من الإمبراطورية وعلاها لواء الإسلام . ونلاحظ أن الفن الإمبراطورى منذ القرن التاسع

---

١٢- أنظر قبله .

١٣- هو ملك شاليم (أورشليم) ، وكان معاصرا لابراهيم أبى الأنبياء ، واكتسب شهرة فى زمانه حيث كان يجمع بين الملكية والكهانة . وقد جاء ذكره فى الكتاب المقدس فى أكثر من موضع . أنظر سفر التكوين ، الإصحاح ١٤ ، الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، مزمور داود ١١٠ / ٤ المترجم .

١٤- أنظر بعده (المترجم)

فصاعدا ، وكذا آدابه ، يؤكدان على إبراز شخص الإمبراطور فى مواكب النصر ، بقدر تصويره أمام الرب مسئولا قبل الجميع عن الحفاظ على الأرثوذوكسية ، الإيمان القويم.

ولما كان الإمبراطور نائبا عن المسيح ، فقد أصبح لذلك مصدر السلطات أوتوقراطيا ، بمعنى أنه لم يكن هناك جهاز دستورى له فعاليته ، بحيث يمكن بواسطته مساءلته أو مناقشة سياسته أو حتى تنفيذ سياسة بديلة عنها ، ولم تجد دولة المدينة الإغريقية القديمة ، ولا النظم الغربية فى العصور الوسطى المتأخرة ما يقابلها فى بيزنطة . ولكن الأوتوقراطية والطغيان كانا شيئين مترادفين ، وكان الحاكم البيزنطى غارقا فى المسئوليات التقليدية لمنصبه الإمبراطورى . حقيقة لقد سادت الإمبراطورية بصفة عامة من الناحية العملية ، ولكن كانت هناك حدود واضحة لايجوز للإمبراطورية تخطيها ، وإلا كان يلقى بيديه إلى التهلكة . ولعله مما يجدر ذكره أن الإمبراطور لم يكن مقيداً فقط بيمين التتويج ، بل كان شأن الأدنياء من رعيته ، يخضع للحرم الكنسى إذا ما اكتسب اثما . ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن امبراطورا قويا مثل يوحنا تزيمسكس أيقن تماما أنه من الضرورى النزول على تهديد البطريرك ، ولم يسعه إلا أن يعدل سياسته تبعًا لذلك . وحتى فى أحلك الساعات التى كانت تمر بها بيزنطة لم يستطع الإمبراطور أن يستميل الكنيسة والجموع للموافقة على إعادة الوحدة الكنسية مع روما.

وقد ارتضى الحكام البيزنطيون مبادئ القانون الرومانى التى ورثوها. لقد كان الإمبراطور تجسيدا للقانون أو القانون يسعى على الأرض كما كان يسمى ، وكان فض النزاع وحماية الفرد فى المجتمع بالوسائل السلمية ودون اللجوء إلى العنف يعد فى حد ذاته قيداً على الاتوقراطية المطلقة. وكحراس على مجتمع داخل إطار حضارى ، عهد الأباطرة إلى لجان متخصصة للتحقق من أن مجموعات القوانين قد برئت من التراكمات أو ما يكون قد شاب نصوصها ، وأنها خالية من التعقيدات التى تجئ بسبب توالى (وغالبا تضارب) التفسيرات المتعلقة بالمواد الرئيسية . كما أنهم وضعوا بعض التعديلات أو الاضافات حسبما تقتضيها حاجات الإمبراطورية . ولم تنحصر أهم هذه الأعمال فقط فى مجموعات جوستنيان القانونية ، بل هناك أيضا مقننات أباطرة القرن الثامن وأواخر التاسع وأوائل العاشر ، التى ألحقت بمجموعات أخرى غير رسمية وكتيبات صغيرة مثل قانون الفلاح Farmer`s Law الذى صدر ربما فى نهاية القرن السابع ، وكتاب الوالى Book of the Prefect الذى صنف طوائف الحرفيين فى القسطنطينية فى بواكير القرن العاشر . وكذلك القواعد الكنسية التى وضعها

فقهاء القانون الكنسى . أما العمل الذى ظهر فى مطلع القرن العاشر وسمى «التشريعات الإمبراطورية Basilica فقد أصبح مؤخراً الصيغة النهائية لمجموعة القانون الرسمى . وقد صدرت هذه التشريعات باللغة اليونانية ، اللسان السائد فى الإمبراطورية ، وأشرف عليها كل من باسل الأول وليو السادس ، وقد عملت الأجيال المتعاقبة على استخدامها وإضافة التعليقات والشروح عليها بصفة دائمة .

وإلى جانب هذا التقدير والاهتمام بالناحية القانونية ، جرى الاهتمام أيضا بالمحاكم حيث تطبق هذه القوانين . وكان الاستئناف العالى يرفع للإمبراطور فى مجلسه الإمبراطورى ، كما كانت الأحكام المتعلقة بقضايا أمن الدولة من اختصاصه . وكانت القضايا ترفع وتناقش فى المحاكم المحلية علمانية كانت أو اكليروسية تبعا لنوعية الخصوم والدعوى . ومع بداية الاعتراف بالمسيحية ، أخذ الإمبراطور يبدى اهتمامه بتعريف وتحديد اختصاص كل منهما. فاختصت المحاكم الكنسية عادة بالقضايا التى يكون المدعى عليه فيها من رجال الدين، كما تختص بنظر القضايا المدنية إذا كان طرفا النزاع فيها أيضا من بين الاكليروس ، وحولت إليها كذلك قضايا الأحوال الشخصية ، ويتضح نمو سلطان الكنيسة فى ازدياد الدور الذى تلعبه فى الناحية القضائية حتى أنه بعد عام ١٢٦١ أصبح الحد الفاصل بين المحاكم الكنسية والمدنية أقل وضوحا ، واعتمدت السلطة الإمبراطورية كثيرا على رجال الكنيسة ، مثال ذلك أن العلمانيين والاكليروسيين فى نهاية العصور الوسطى كانوا يرسلون إلى الخارج فى دورات قضائية ، كما أقيمت مؤخرا محاكم استئناف محلية فى مناطق مختلفة من الامبراطورية ، لتوفر على المتقاضين ما سوف يضيعونه من وقت ومال إذا ما استأنفوا قضيتهم فى العاصمة.

وكان الاوتوقراطور مسئولا عن سن السياسة وتوجيه الإدارة ، بيده الأمر، يولى من يشاء ويعزل من يشاء . وكانت الوظيفة تمنح بمرسوم إمبراطورى ، وللتدليل على أن الإمبراطور هو مصدر هذه السلطات ، فقد كان يرمز لذلك بخلعة تشريفية ، غالبًا فى عيد الفصح ، بالإضافة إلى لقب تشريفى يدل على المنصب الذى سوف يشغله هذا الشخص فى مراسم البلاط . مثل هذه الألقاب التشريفية كان لابد أن تمنح من قبل الإمبراطور شخصيا ، فلقب كبير الموظفين magisater على سبيل المثال ، كان يحمل معه لفاعًا أو عباءة مطرزة بالذهب ، ورداء تم نسجه بخيوط بيضاء مذهبة ، وحزامًا مرصعا بالجواهر . ولابد أن مراسم هذا شأنها كانت تساعد على زيادة اعتماد كبار الموظفين على الإمبراطور ، الذى كان يقوم فى الحقيقة أيضا

بدفع مرتباتهم فى أحد الآلام Passion Sunday كما لاحظ المبعوث الإيطالى ليوتيراند -Liut prand أسقف كريمونا Cremona فى القرن العاشر .

أما السناتو كركن أساسى فى الحياة السياسية فقد توقف عن أن يصبح عاملا له أهميته فى الحكم، ومع أنه أثبت فى بعض الأحيان مقدرته على امتلاك زمام المبادأة ، كما حدث عند وفاة الإمبراطور ليو السادس عام ٩١٢ وخلال السنوات الأولى من عهد ابنه القاصر قسطنطين، إلا أن ذلك كان أمرا خارجا عن المألوف . جملة القول أن السناتو كان يتكون من أعضاء يتميزون فقط بالألقاب التشريفية دون أن تكون لهم مهام حقيقية ، أما مستشارو الإمبراطور فلم تكن لهم الصفة الرسمية المألوفة ، ذلك أنهم كانوا يشكلون مجموعة من الرجال الذين ارتبطت مراكزهم بالاختيار الإمبراطورى، ويمكن الاستغناء عنهم حسب إرادة الإمبراطور، على حين كان هناك بعض القدر من الدوام فى الفروع الدنيا من الإدارة المدنية والمحاكم . أما نظام جباية الضرائب فقد ازداد رسوخا بمرور الأيام (كما يعلم الجميع ) ومن المحتمل أن يكون قد تعرض لبعض التعديلات اما بالاستحسان الإمبراطورى أو الوسائل الامبراطورية . وقد تمت الإغارة على سلطة الحكومة المركزية ومواردها عن طريق منح الكثير من الإعفاءات ex-kousseiai لكبار الملاك من العلمانيين ورجال الاكليروس ، واتخذ هذا الأسلوب أشكالا شتى، فقد كان على المالك أن يتولى بنفسه مسئولية جمع الضرائب من مستأجريه ، وأن يرسل بها مباشرة إلى خزانة الدولة المركزية ، وبهذا يمكنه تجنب الاستقبال المقيت لجباة الضرائب عند قدومهم إلى ضيعته ، أو ربما يعفى من كل بعض الالتزامات الضرائبية ، كما كان يتمتع فى بعض الأحيان باختصاصات قضائية تجاه مستأجريه . ومع نهاية القرن الحادى عشر عملت الهبة المعروفة بنظام «الميرة» Pronoia على إضعاف الإدارة الإمبراطورية إلى أقصى حد(١٥).

وقد بلغت الإدارة المدنية البيزنطية حدا بالغا من التعقيد ، ولكنها كانت ، على عكس الاعتقاد الشائع . تتميز بالكفاءة والمرونة ، فقد كان نظام الإدارة يخضع بصفة مستمرة للمتابعة الإمبراطورية ، وتعرض لتغييرات جوهرية خلال التاريخ البيزنطى الطويل . وكان هذا النظام يتمركز فى القسطنطينية حيث توجد هيئة كبار الموظفين المدنيين الذين يتلقون أوامرهم من الإمبراطور ، وبينما كان البعض مثل محافظ العاصمة يتمتع بمركز ممتاز مباشرة بالبيت

١٥- راجع قبله المترجم .

الإمبراطورى. مثل كبير الأمناء Grand Chamberlain الذى كان بسبب ملازمته لشخص الإمبراطور يتحمل تبعات ضخمة وغالبا ما يحظى فى الوقت ذاته بنفوذ كبير . وكانت هناك الوظائف المدنية العادية كتلك التى تتصل بالقضاء والمالية وما يتعلق بها من أقسام عديدة ، فقد كان يوجد مثلا قسم مالي خاص مهمته توفير المعدات للجيش، ولهذا كانت له سلطة على المصانع فى الدولة ، وكانت منطقة إشرافه الرئيسى هى حقول تربية الجياد فى آسيا الصغرى .

وتختلف الإدارة المدنية فى القرن العاشر عنها فى أوائل القرن الرابع فيما يتعلق بالتفاصيل، وجملة القول أن التغييرات كانت ترى فى كيفية توجيه هذه الخلايا الكثيرة من الوظائف الهامة . وهكذا كنا نجد تمايزا فى الوظائف مع الاعتماد المتزايد على الإمبراطور ، بحيث أصبحت السلطة المركزية أكثر دقة ، وأضحى كبار الموظفين أقل استقلالا ، وتلاشت اللامركزية التى كانت السمة الواضحة زمن النواب البرايتوريين Pretorian Prefects وإن كان التهديد الكامن فى كبار القادة العسكريين ، أو كبار الأعيان ما يزال ماثلا .

وشملت التغييرات أيضا تنظيم الولايات ، فقد اقتضت الأحوال العسكرية فى القرن السابع أن تأخذ الأسرة الهرقلية على عاتقها مهمة الإصلاح الأولى ، واستمر هذا الإصلاح من بعد على عهود خلفائها [١٦]، فتغير التصنيف الإقليمى للولايات الجديدة التى عرفت بالثيمات themes تحت إدارة حاكم كان يسمى عادة «القائد» strategos جمع فى يديه السلطتين العسكرية والمدنية . وقد تعرضت هذه الثيمات للتقسيم بصفة مستمرة ، وأيضا الإضافة ، كلما ضمت أرض جديدة ، أو الإشراف على الولايات التى فقدت وأعيدت ثانية ، على يد القادة البارزين فى الحقبة البيزنطية الوسيطة . فلما انهارت الإمبراطورية سنة ١٢٠٤ كان لابد أن تطرأ تعديلات أشد عمقا . وانتقلت الأقاليم فى الحقيقة من يد إلى أخرى بصورة متكررة حتى أن التنظيمات الإدارية فى الولايات كانت تتجه إلى أن تصبح مجرد حبر على ورق . ومع ذلك فان نواة النظام الإدارى ظلت باقية ، وهى التى مكنت أسرة باليولوجوس من أن تبقى فى الحكم ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان بعد التقسيم اللاتينى الذى تعرضت له الإمبراطورية. وقد لعبت البيروقراطية اليونانية السائدة دورا بارزا فى تجميع الأجناس المختلفة التى كانت تحتويها بيزنطة ، سواء زمن مجدها وازدهارها ، أو حتى عندما كان قدرها إلى

---

١٦- أنظر الفصل الحادى عشر .

زوال . هذا التنظيم الإدارى هو الذى مكن الإمبراطورية من الدفاع عن حدودها أو توسيع دائرة هذه الحدود.

وكانت السياسة الخارجية تتركز كلها فى يد الإمبراطور الذى كان يعتبر وزيراً للخارجية بارعا، ويتضح هذا بصورة تثير الدهشة فى الكتاب الذى وضع «عن الإدارة الإمبراطورية» De Administrando Imperio وتناول بالتفصيل المبادئ الأساسية فى الشئون الخارجية . وقد صنف هذا الكتاب فى منتصف القرن العاشر ليخصص لابن الإمبراطور قسطنطين السابع، وليس هناك شك فى أنه قد استخدم أيضا من جانب كبار موظفى إدارة الخارجية . وكان واضحًا أنه لم يوضع للاستعمال العام، ومن ثم لم يكتب منه إلا عدد قليل جدا من النسخ الخطية . ولاشك أن الاهتمامات الإمبراطورية والخلفية العريضة كان لها تأثيرها بطبيعة الحال على مبادئ السياسة الخارجية ، من ذلك مثلا أن الإمبراطور نقفور فوقاس الذى ينتمى لأسرة ثرية فى آسيا الصغرى ، كان يبدى اهتماما زائدا باكتساب أراض جديدة على الجبهة الشرقية أكثر من اهتمامه بالدفاع عن الدانوب . بينما حرص قسطنطين التاسع ، وهو رجل يكره الحرب ويعشق الدعة، على أن يعيش بكل الوسائل حياة مترفة فى القسطنطينية . وغالبا ما كانت نواحى القصور عند إمبراطور خامل ، أو وريث للعرش قاصر تعوض بكفاية على يد إمبراطور شريك مقتدر حتى نهاية القرن العاشر بصفة خاصة .

وكيفما كانت وجهات النظر الشخصية لدى الأباطرة ، فان الحدود الطويلة والتهديدات المستمرة من جانب الأعداء المجاورين ، لم تكن تسمح لإدارة الخارجية البيزنطية إلا بوقت قليل تسترد فيه أنفاسها اللاهثة ، فقد كانت الدبلوماسية سلاحها التقليدى المحبب إليها . وقد جرب هذا السلاح فى مناسبات عديدة ، تناول كتاب «عن الإدارة الإمبراطورية» De Administrando Imperio الكثير منها بالشرح والتوضيح . وفى القسطنطينية نفسها لم تترك فرصة واحدة تمر دون استغلالها فى التأثير على الزائرين والرسل . لقد كان الزائر يقف مشدوها أمام روعة مبانيها وقوة تحصينها وثراء تجارها وحركة أسطولها ، ثم لايلبث الزائر أن يفقد لبه أمام هذا الاستقبال الإمبراطورى الرائع ، الذى لايكاد يفيق منه حتى يفجأه الإمبراطور بهدية ثمينة ولقب تشريفى عظيم . وكان هذا كله يمول من حصيلة المدفوعات السنوية ، أو المنح الخاصة من أجل الحفاظ على العلاقات الودية القائمة ، أو إثارة عدو ضد آخر ، كما حدث من تحريض البشناق ضد البلغار ، أو هؤلاء ضد الروس . وكان الثائرون واللاجئون السياسيون

يجدون الترحيب الحار فى القسطنطينية لأسباب لاتخفى على أحد. وبعد الحملة الصليبية الأولى ارتفع عدد الزيجات السياسية بين البيت الإمبراطورى فى بيزنطة والعائلات الملكية الصقلبية أو الغربية ، على خلاف ما كان سائدا فى القرون الأولى للإمبراطورية حسبما جاء فى كتاب «عن الإدارة الإمبراطورية» من التركيز على أنه لايليق بمن ولدت فى الأرجوان أن تقترن بغير بيزنطى (وإن كان هذا قد حدث بطبيعة الحال عند الاقتضاء) . وهكذا ، على الرغم من أن المبادئ الأساسية للدبلوماسية البيزنطية بقيت دون تغير ، إلا أنها كانت تتسم بالمرونة عند تطبيقها ، ووضعت السياسية بحيث تتمشى مع الظروف المتغيرة .

وكانت مسئولية تكوين الجيش وبناء الأسطول تقع هى الأخرى على عاتق الامبراطور ، فهو يختار القادة العسكريين، وأمراء البحر الذين يتولون قيادة الحملات العسكرية فى البر والبحر، وإن كان غالبا ما يتولى ، شأن باسل الثانى وميخائيل الرابع ، أمر القيادة بنفسه . وكان الجيش يعتبر حجر الزاوية فى إمبراطورية يحيط بها الأعداء من كل جانب ، لقد كان موضعه من الدولة «موضع الرأس من الجسد» . وقبل القرن الحادى عشر كان تجنيد القوات كلما أمكن ذلك من العناصر المحلية خاصة الأرمن والايزوريين الذين أثبتوا كفاءتهم القتالية ، وابتداء من القرن السابع كان الجنود يحصلون على أجرهم فى شكل هبة وهى عبارة عن قطعة من الأرض يحوزها الجندى وراثيا مقابل الخدمة العسكرية، ويتسلم إلى جوارها مبلغا معينا من المال عن كل سنة أمضاها فى الخدمة العسكرية بحد أقصى اثنى عشر عاما . وقد بذلت جهود إمبراطورية كبيرة لحماية هؤلاء الجنود المزارعين ، غير أنه فى القرن الحادى عشر بدا واضحا أن أعدادهم أخذت تتناقص ويعود ذلك فى الدرجة الأولى إلى شراء كبار الأعيان لأراضيهم دفعة واحدة ، أو نتيجة للإغارات التركية المستمرة . ومنذ القرن الثانى عشر أخذت الناحية العسكرية شكلا أكثر أرستقراطية ، وربما أكثر إقطاعية ، مع ازدياد استخدام نظام «الميرة» Pronoia وكانت الهبات تعد شيئا ثابتا أو محبوسا لايمكن التصرف فيه ، حيث تمنح إلى كبار الأعيان فى مقابل الخدمة العسكرية [١٧]. وقد عمم ذلك أيضا بالنسبة للجنود المحترفين ، الوطنيين منهم والأجانب . ولقد كان هذا أمرا باهظ التكاليف ، ونتيجة لنضوب الموارد المالية

---

١٧- أنظر : P. Lemerle , Recherches sur le regime agraire a Byzance la terre militaire a l'epoque des Comnienes , in Cahiers de Civilisation Medievale 2 (1959) هذا البحث يناقش القضية ، وما تزال مسألة الـ Pronoia قيد الدراسة والبحث .

كان الضباط فى بعض الأحيان يتقاضون هبات تخولهم الحق فى تحصيل الضرائب الإمبراطورية من أقاليم أو ضياع معينة ولكن هذه الوسيلة كانت مقبتة لدى المواطنين حيث أنها أدت إلى الاستنزاف الكامل لتلك المناطق .

وقبل أن تأخذ الإمبراطورية طريقها إلى التداعى ، كانت جيوش الولايات تتركز فى الثيمات ، واتخذت احتياطات خاصة من أجل مناطق الحدود ، التى كان يقوم بحمايتها والسيادة عليها سلسلة من سادة البر . ولدينا صورة عن الحياة فى هذه المناطق الشرقية فى القرن العاشر مبسوطة فى قصة ديجنيس أكريتاس ، بأمه المسيحية وأبيه الذى ارتد عن الإسلام ، والذى تتضح أعماله الخارقة ومغامراته فى ملحمة شعرية تتغنى بسير الأبطال. وفى القسطنطينية ، كان حراس القصر ، الفرسان والمشاة ، يعسكرون شأنهم شأن الحرس الإمبراطورى الخاص . وكان هذا الأخير يتكون من عدد كبير من المرتزقة الأجانب . أما فى القرن الحادى عشر فقد ذاع صيت الحرس الخاص الذى عرف بالورنك[١٨] Varangian وضم مجندين من أقطار بعيدة ، وإن كان يتشكل فى أساسه من الجنود الروس والاسكندنافيين ، حتى إذا كانت نهاية القرن غدا جله أنجلوسكسونيا .

ونقف على التفاصيل التى تتعلق بالجيش ، فرسانه والمشاة ، أمتعته وتجهيزاته ، مدفعية الميدان المتحركة وآلات القتال ، من المصادر التى بين أيدينا خاصة تلك المؤلفات العسكرية المتعددة ، وبلغ فن القتال درجة عالية من الدقة والاتقان ، وأعطى اهتمام خاص للنواحى الدفاعية ، وبذلت الجهود للمحافظة على الموارد بتجنب البدء بالهجوم ، ودرست بعناية فائقة خطط العدو استعدادا للقتال فى حالة عدم إمكانية تجنب المواجهة السافرة . ولاشك أن تفوق الجيش البيزنطى كان من بين الأسباب التى جعلت بيزنطة قادرة لفترة طويلة على الاحتفاظ بحدودها مصونة من عبث جيرانها . وكان جنوده يملأهم الحماس ليس فقط لاعتقادهم بأنهم يؤدون ما عليهم من واجبات ، ولكن لإيمانهم بأنهم يحاربون من أجل القضية المسيحية ضد الكافرين ، وسوف يجدون سعادتهم فى مملكة الله الآتية . وكان يرافقهم فى حملاتهم العسكرية منشدون Cantatores يثيرون حماستهم ، إلى جانب جماعة من الاكليروس ، وكانوا يستقبلون يومهم بالصلاة وبها يودعونه ، صيحتهم فى المعركة «فلينتصر الصليب» يندفعون

---

١٨- راجع قبله . (المترجم) .

إلى القتال بروح صليبية ، متطلعين لمقدم جند السماء خاصة أولئك القديسين المجاهدين مثل القديس جورج St. George أو القديس ثيودور St. Theodre الذين يحاربون فى كنفهم وتحت رعايتهم .

وإلى جوار هذه القوة الحربية التى لا تقهر ، يحتل الأسطول البيزنطى مكانه . حقيقة أنه لم يلق نفس القدر من الرعاية التى نالها الجيش ، ولكنه كان على أية حال يستطيع ادعاء القيام بدوره الملقى عليه فى التصدى لموجات الهجوم الإسلامى . وعلى غرار الثيمات العسكرية كانت هناك ثيمات بحرية فى البحر الإيجى والمناطق الساحلية فى جنوب وجنوب شرق آسيا الصغرى ، ثم أضيف إليها بعد ذلك الولايات الثغرية فى بلاد اليونان ، وكانت مهمتها تزويد الأسطول بالمجندين ومعداتهم . وقد قام الأسطول البيزنطى بدور حاسم فى انحسار المد البحرى العربى وحماية العاصمة فى القرنين السابع والثامن ، وفى استعادة بعض السيادة على منطقة بحر إيجة زمن الأسرة المقدونية . وقد كان الإمبراطور نقفور الثانى صادقا تماما فى الحقيقة عندما أكد فى عام ٩٦٨ لرسول أوتو الأول ، الأسقف المتهور ليو تبراند أسقف كريمونا ، أنه هو وحده الذى أحرز التفوق البحرى . وتعتبر النار الإغريقية السلاح الفتاك لدى الأسطول البيزنطى ، وهى عبارة عن مادة ملتهبة يبدو أنها تتكون من عناصر مختلفة ، مثل الكبريت ونترات البوتاسيوم وتقذف من عرادة باتجاه سفن الأعداء[١٩] .

غير أن القدر السئ الذى صاحب بيزنطة ابتداء من القرن الحادى عشر ترك بصماته على قوتها البحرية بدرجة لاتقل عما حدث للجيش . فقد افتقرت الدولة إلى المواد الأساسية اللازمة لصيانة الأسطول ، ولم تستطع أن تدخل ميدان المنافسة مع القوى البحرية الممثلة فى المدن الإيطالية خاصة البندقية وجنوه . ولما لزمت سفن الأسطول الساحل ولم تعد تمخر العباب، انتقل بحارتها للخدمة فى الأسطول التركى أو اشتغلوا بالقرصنة ، وقد حدث هذا بصفة خاصة بعد عام ١٢٠٤ عندما أصبحت بيزنطة دولة صغيرة . ولكن هذا لايمحو مطلقا ذلك الدور الفعال الذى لعبه الجيش والأسطول على السواء ، طوال مالايقل عن أربعة قرون ، منذ زمن الأسرة الهرقلية حتى عهد باسل الثانى ، فى مساندة الدبلوماسية البيزنطية والتصدى للكافرين .

---

١٩- لمزيد من التفاصيل عن النار الاغريقية ، انظر ، وسام عبد العزيز النار الإغريقية ، بحث منشور فى كتاب «الحضارة الاسلامية وعالم البحار» نشر اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ١٩٩٤، ص٢٨٧-٣٠٦ .

# الفصل السادس

# الكنيسة الأرثوذكسية

## الحياة المسيحية والعلمانيون

# الفصل السادس

# الكنيسة الأرثوذكسية

## الحياة المسيحية والعلمانيون

### (أ)

لم يستطع الاعتراف بالمسيحية من جانب قسطنطين العظيم فى بواكير القرن الرابع أن يمس الحقائق الجوهرية في المسيحية أو يبدل من طبيعة التكوين الكنسى المقدس ، وإن كان فى الوقت ذاته قد أحدث بعض التغييرات . فالإمبراطورية الرومانية القديمة بعقائدها الدينية العديدة المتباينة قد حل محلها الآن إمبراطورية رومانية مسيحية . وقد تعرضت الوحدة الإمبراطورية في الغرب في أوائل العصور الوسطى إلى التصدع ، ولكن على الرغم من الاختلافات السياسية واللغوية إلا أنه أمكن قيام مجتمع يتبنى نمطا من الوحدة تقوم على أساس الإيمان المسيحي المشترك . هذا هو مجتمع العصور الوسطى المسيحى الذى ضم أولا دويلات الغرب اللاتينى والإمبراطورية البيزنطية فى حوض البحر المتوسط الشرقى وعالم اليونان ، ثم أضيف إليه بعد ذلك الشعوب الصقلبية بعد تحويلها إلى المسيحية . إلى جوار ذلك كان هناك بعض البلدان المسيحية مثل أرمينيا وأثيوبيا ، وأقليات مسيحية تقيم وسط مجتمعات أخرى لاتدين بالمسيحية مثل الإمبراطورية الفارسية والدولة الإسلامية فيما بعد .

وكانت الكنيسة المسيحية ، حتى قبل أن يسمح لشعبها بحرية العبادة فى سلام ، قد مكنت لنفسها فى الأرض عمقا واتساعا، خاصة فى روما وأنطاكية والأسكندرية ثم نظمت علي عجل خلال القرنين الرابع والخامس متخذة من الحكومة الزمنية أنموذجا يحتذى ، فانقسمت إلى عدد من الاسقفيات تحت رعاية المطارنة، وعلى رأسها جميعا أسقفيات روما وأنطاكية والأسكندرية ، الكراسى الرسولية القديمة والتى كانت روما من بينها تحتل المرتبة الأولى . ولم تلبث أورشليم والقسطنطينية أن أخذت تفسح لنفسها مكانا بين هذه الكراسى إبان تلك الفترة . وهكذا أصبح ماثلا للعيان خمس بطريركيات كبرى هى التى انقسم إليها العالم المسيحى فى العصور الوسطى . وكان لدى أورشليم دعاوى خاصة لهذه المرتبة العالية.

أما كنيسة القسطنطينية فلم تكن تستمد أهميتها فقط من وجودها الرسولى[1] أو موقفها البارز إبان فترات المقاومة التى مرت بها الكنيسة الأولى ، بل من اعتبارها مستقر الأباطرة ومقامهم والعاصمة الجديدة . وقد تقرر هذا الوضع فى المجمع المسكونى الذى عقد فى القسطنطينية عام ٣٨١ وكان من بين قوانينه الاعتراف بأن أسقف القسطنطينية يحتل المرتبة التالية مباشرة لأسقف روما ، وله نفس التقدمة فى الكرامة ، لأن القسطنطينية هى روما الجديدة . وفى ختام مجمع خلقيدونية Chalecedon الذى عقد سنة ٤٥١ ، وفى غيبة مندوبى روما ، أعيد تأكيد هذا القرار فى جلسة خاصة فيما يدعى قانون خلقيدونية الثامن والعشرون، ورغم أن البابوية قد رفضت هذا القانون فى حينه ، إلا أن الكنيسة الأرثوذكسية نظرت إليه باعتباره سندا قانونيا لحقوقها . كما أنه قوبل أيضا بالاستنكار من جانب الأسكندرية وأنطاكية ، ولكن الفتوحات الإسلامية ابتداء من القرن السابع جردت هاتين المدينتين من كثير من نفوذهما ، فقدر للقسطنطينية بذلك أن تصبح أهم المراكز الأسقفية فى الشرق المسيحى ، وأن يكون لها أيضا تأثيرها الفعال على الأقاليم الصقلبية فى الشمال .

ومنذ القرن الرابع أخذت المشاكل الخاصة بالتنظيم الكنسى والعقيدة تناقش عن طريق الاجتماعات الكنسية التى يتمثل أعلاها فى المجامع المسكونية . وكان أول هذه المجامع هو ذلك الذى دعا إليه قسطنطين العظيم وعقد فى مدينة نيقية سنة ٣٢٥ . وكانت الدعوة توجه إلى كل الأساقفة (أو من ينوبون عنهم إذا لم يتيسر حضورهم شخصيا) ، وتصبح مناقشات هذه المجامع ملزمة للكنيسة كلها وتتم هذه الإجراءات جميعها تحت الرعاية الإمبراطورية ، وهى تصور التعاون الكامل بين الكنيسة والدولة ، وتختتم الجلسات بالابتهالات من أجل الحكام الأرثوذكس الذين كان لابد من توقيعهم على قوانين هذه المجامع ، وهذا الإجراء الأخير فى حد ذاته يعنى أن هذه القوانين سوف تحصل على تأييد السلطة الزمنية .

وقد اعترفت كل الأسقفيات بالمجامع المسكونية السبعة الأولى . أما بعد القرن التاسع فلم تظهر الحاجة لعقد مثل هذه الاجتماعات العامة ، فقد انقضت تلك الفترة التى كان يتعين فيها البحث عن تعريف واضح ومحدد للإيمان ، كما أن المشاكل المتعلقة بالتنظيم الكنسى أمكن علاجها على أسس إقليمية . ومع منتصف القرن الحادى عشر ظهرت هناك عقبة فى طريق مثل هذه المجامع التى تتسم بروح الأخوة ، ممثلة فى اتساع الشقاق بين الغرب اللاتينى

---

١-راجع قبله (المترجم)

والإمبراطورية البيزنطية ، زاد من عمقه ما انتهى إليه أمر الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ فلما كانت العصور الوسطى المتأخرة أمست المشاكل التى تواجه الكنيسة ذات طابع مختلف تماما ، وإن كانت النقطة الرئيسية فى أى مجمع عام هى إن كانت القسطنطينية ستجعل المناقشات «المسكونية» ممكنة بالموافقة على إعادة الوحدة الكنسية مع روما.

ولاشك أن بزوغ نجم القسطنطينية كعاصمة للإمبراطورية الرومانية فى الشرق، وأفول نجمى منافستيها أنطاكية والأسكندرية نتيجة وقوعها فى أيدى الكافرين[٢] . قد دعم دون ريب أهمية مركز بطريرك القسطنطينية ، رأس الكنيسة البيزنطية ، الذى أقدم على اتخاذ لقب «مسكونى Oecumenical وإن كان هذا فى الحقيقة لايعنى السيادة على الكنيسة بعامة [٣].

---

٢- أنظر قبله حاشية ١٦ ص١٢٤ (المترجم)

٣- كان يوحنا الرابع الصوام John the Faster بطريرك القسطنطينية (٥٨٢-٥٩٥) قد أقدم على اتخاذ لقب مسكونى Ecumenical حسبما جرى به التقليد منذ عهد سلفه الأسبق أكاكيوس (٤٧٢-٤٨٨) ولم يحتمل البابا فى روما هذا الإجراء وكان عندئذ جريجورى الأول العظيم (٥٩٠-٦٠٤) الذى اتصف بالكبرياء والاعتزاز بنفسه وسلطان الكرسى الرومانى فوق سائر الكراسى الرسولية . ومن ثم كتب إلى الإمبراطور موريس ساخراً يقول : «من الأعماق أصرخ .. واحسرتاه على الزمان . يا لضيعة الأخلاق ، هذى أوروبا وقد طواها البرابرة ، وبادت المدائن وهوت الحصون وأقفرت الأرض من ساكنيها ، وهجر الفلاحون الزروع ، والمشركون يعيشون فى الأرض فساداً ، يهلكون الحرث والنسل . ورجال الرب الذين عليهم أن يخروا سجدا وبكيا ، راحوا يبحثون لأنفسهم فى أسماء زائفة عن خيلاء وغرور ... لن يفلت من العاقبة ذاك الذى بغى وأساء إلى الكنيسة المقدسة الجامعة ، ذاك الذى خلع على نفسه لقبا استعلى به على مجد إمبراطوريتك». غير أن الإمبراطور موريس لم يلق بالا لهذه الرسالة ، فلما قتل موريس وخلفه فوقاس كتب إليه جريجورى قائلا «الحمدلله فى الأعالى .. فلتفرح السماوات ، ولتزدد الأرض حبورا ، ولتنشرح صدور الناس لما قمت به من جليل الأعمال !! ولتعد آخر الأمر حرية كل إنسان إلى صاحبها فى كنف الإمبراطورية التقية الورعة . أليس ثمة فرق بين ملوك سائر الأمم وبين أباطرة الرومان . ان الملوك ليسوا إلا سادة العبيد ، أما أباطرة الدولة الرومانية فانهم سادة الأحرار». والمتأمل لهذه الرسالة يرى أن البابا قد أضفى على الإمبراطور فوقاس صفات وألفاظا لاتتناسب مطلقا مع ما عرف عن هذا الإمبراطور. وقد عد فوقاس خطاب البابا تكريما لشخصه فمنع بطريرك القسطنطينية من اتخاذ لقب «مسكونى» واعتبر الكرسى الرسولى فى روما رأس جميع الكنائس .

أنظر Nicene and Post- Nicene Fathers , XII, 171 XIII, 99

و Vasiliev , op. cit., I, pp. 173-174

وكذلك دكتور أسد رستم : كنيسة أنطاكية ، الجزء الأول ص٤٢١- ٤٢٣ (المترجم)

وقد ازداد سلطانه على حساب روما عندما أقدم الإمبراطور ليو الثالث فى سنة ٧٣٢ على نقل الإشراف على كنائس جنوب إيطاليا واليونان وأجزاء من البلقان إلى بطريرك القسطنطينية . ولم تلبث العلاقات مع روما أن ازدادت توترا من جراء التحالف البابوى مع الحكام فى الغرب، وما تبع ذلك من المبادرة البابوية بإيجاد إمبراطور فى الغرب سنة ٨٠٠ . وقد أصبح البطريرك البيزنطى على اتصال وثيق بالإمبراطور ، فهو الذى يتلقى منه وثيقة إيمانه ، ويقوم بتتويجه ، ويقدم إليه النصيحة ، بل كان بمقدوره أن يوجه إليه اللوم والتحذير إذا دعت الضرورة . ولكن الأوتوقراطور كان الشخصية الأقوى ، فغالبا ما كان مسئولا عن اختيار البطريرك وقادرا على تدبير أمر استقالته أو عزله ، ومع ذلك فقد كان للبطريرك مكانته الخاصة فى دائرة هذا الترابط الوثيق بين الكنيسة والدولة . وقد أخذ على عاتقه بعد سنة ١٢٠٤ مقاومة محاولات الأباطرة لإعادة الوحدة مع روما ، يشد من أزره فى ذلك العلمانيون والرهبان ورجال الأكليروس. وكان يعد مسئولا بصفة خاصة ، إلى جانب مهامه الكهنوتية، عن رعاية وحفظ التعاليم والتنظيمات المسيحية داخل الكنيسة ، وراح يباشر عمله أساسا من خلال المجمع الدائم فى القسطنطينية (Synodos endemousa) وذلك بعد أن هدأ الجدل العقيدى الساخن الذى شهدته المجامع المسكونية ، وكان هذا المجمع الدائم يتكون أساسا من الأساقفة المقيمين فى العاصمة ، ولكن ابتداء من القرن العاشر كان يحضره المطارنة وكبار رؤساء الأساقفة . وفى هذا المجمع تم إقرار المشاكل الخاصة بالطقوس الكنسية ، وربما وجدت أعياد جديدة ، وبحثت نقاط الجدل كمسألة الطقوس الخاصة على سبيل المثال ، وهل يسمح بإقامتها أم لا . وأقيم الحد على الخطاة من رجال الكنيسة ، ذلك أن المجمع كان يتصرف كمحكمة للعدالة وكهيئة تشريعية سواء بسواء .

وعلى امتداد عمر الكنيسة الأرثوذكسية الوسيطة عملت السلطتان الزمنية والكنسية معا، كل منهما تكمل الأخرى ، كما يتضح ذلك تماما من الاطلاع على المثيل البيزنطى للقانون الكنسى المعروف فى الغرب . وتعرف أهم أجزائه الخاصة بالتنظيم الكنسى بـ «القوانين الكنسية» ، وكذلك بعض المسائل الأخرى التى كانت لها أهمية خاصة . وينطبق الأربعة عشر عنوانا حقيقة على الجزء الأول الذى أعطى القواعد القانونية لموضوعات بوبت ما بين الإيمان الأرثوذكسى إلى إدارة الأملاك الكنسية ، واتبعت بنصوص وردت كاملة شأن ما يسمى بالقوانين الخمسة والثمانين للرسل وبعض الفقرات الخاصة بآباء الكنيسة ، واختتمت بالقوانين

الزمنية . وكانت هذه فى الأصل المجموعة الخاصة بيوحنا الأنطاكى الفقيه Scholasticus الذى أصبح أسقفا للقسطنطينة . وعلى أسس هذا العمل وضعت «القوانين الكنسية تحت أربعة عشر عنوانا» فى القرن السابع ، وتمت الموافقة عليها فى المجمع الذى عقد بقاعة القبة Trullo (سنة ٦٩١)(٤) والمجامع المتأخرة . وكانت إبان فترة العصور الوسطى تظهر دائما فى صورة متجددة من وقت لآخر ، وتم إخراجها أربع مرات كان آخرها على يد بالسامون(٥) Balsamon القانونى قرب نهاية القرن الثانى عشر .

وكان البطريرك يتربع على قمة السلطة فى الكنيسة البيزنطية ، يليه المطارنة الذين يشرفون على المطرانيات الكنسية ، التى انقسم كل منها إلى عدد من الأسقفيات ، وكان الأساقفة الذين لايخضعون لأحد المطارنة يسمون كبار autacephalous رؤساء الأساقفة . وفى البداية كان اختيار المطران يتم على يد البطريرك من بين ثلاثة مرشحين ، ثم أصبح هذا الاختيار من اختصاص المجمع الدائم فى القسطنطينية فيما بعد . أما الأسقف فيختاره المطران من بين ثلاثة أشخاص يرشحهم مجمع المطرانية . وكان الادعاء الإمبراطورى بالتصديق على هذا الاختيار يلقى المقاومة ، ولكنهم مع ذلك استطاعوا الاحتفاظ بالحق فى الترقية أو تخفيض المرتبة ، وذلك بتغيير وضع أحد كبار رجال الاكليروس ، وهكذا ربما وجد الأسقف

---

٤- أنظر قبله (المترجم)

٥- يعتبر ثيودور بالسامون أشهر أساقفة كنيسة أنطاكية فى أواخر القرن الثانى عشر (١١٨٥-١١٩٩)، على الرغم من بقائه فى القسطنطينية طيلة هذه الفترة ، وهو أحد رجال القانون أيضا فى ذلك الزمان ، درس القوانين المدنية والكنسية وعمل على تجميعها وترتيبها منذ «التشريعات الإمبراطورية» التى صدرت على عهد ليو السادس حتى زمانه ، وانتهى إلى اصدار «دليل القانون Exegesis Canonum الذى حاول فيه التوفيق بين القوانين المدنية والكنسية . ومن أشهر أقواله : «يجب أن ينظر إلى الأباطرة والبطاركة بعين التقدير باعتبارهم معلمى الكنيسة حيث تم مسحهم بالزيت المقدس . ولهذا فان الأباطرة قويى الإيمان بقدورهم أن يعظوا رعية المسيح ، وأن يقوموا ، شأن القسيسين باحراق البخور كطقس من عبادة الله . وإن سلطان الأباطرة ونشاطهم يغذى الجسد والروح . أما سلطان البطريرك ونشاطه فانه يغذى الروح وحدها».

أنظر

Vasiliev , op. cit., II, p. 470

وأيضا دكتور أسد رستم ، كنيسة أنطاكية ، الجزء الثانى ٢٧١-٢٧٧ (المترجم)

نفسه مطرانا أو كبيرا لرؤساء الأساقفة ، دون إقامة أي اعتبار في الغالب للنتائج العملية . وكان المطران يتمتع بحق الإشراف الكامل على مطرانيته ، ورغم أنه كان يستطيع معاقبة الأساقفة الذين صنعوا الشر في عين الرب ، إلا أنه كان حريصا على عدم الانتقاص من حقوقهم داخل أسقفياتهم . ويشترط فيمن يشغل مرتبة الأسقفية ألا تقل سنه عن خمسة وثلاثين عاما ، وأن يكون على قدر من الثقافة ، يحفظ المزامير عن ظهر قلب ، وإذا كان قد تزوج فعليه أن ينفصل لتوه عن زوجته . وقد جرت العادة أخيرا أن يكون الأساقفة من بين الرهبان ، وكذلك الحال أيضا بالنسبة للبطريرك ، على خلاف ما كان يحدث من قبل ، عندما كان يجوز اختيار رجل علماني يتمتع بثقافة عالية لمنصب البطريرك شأن فوطيوس ، وكان الأسقف مسئولا خلال فترة أسقفيته عن جميع المسائل الكنسية ، مثل النظام الأساسي لاكليروسه ، أو ذلك الذي يختص بالأديرة ، إلى جانب الرعاية الروحية وتبصير العلمانيين . وله بعض الاختصاصات القضائية إذا ما تورط اكليروسه في أمر ما ، وربما دعي أيضا للتوسط بين العامة .

ويعاون الأسقف في أبروشيته اكليروس يضم مختلف المراتب الكهنوتية ، أكثرهم أهمية يشغل وظائف خاصة تتعلق بعمل الأبروشية أو أمورها الادارية ، وتوجد نفس هذه التنظيمات، وإن كان بشكل أكثر دقة ، في الكنائس المطرانية . فقد كان لدى كنيسة أيا صوفيا Hagia Sophia في القسطنطينية ، «الكنيسة العظمى» كما كانت تسمى ، جهاز اكليروسي ضخم، يحدد من وقت لآخر بجهود البطريرك والسلطة الإمبراطورية ، وليس أدل على ذلك من أنه في عام ٦١٢ قام البطريرك ، بمساندة التأييد الإمبراطوري ، بتخفيض جهازها الاكليروسي إلى ثمانين قسيسا ، ومائة وخمسين شماسا ، وأربعين شماسة ، وسبعين من مساعدي الشمامسة ، ومائة وستين قارئا ، وخمسة وعشرين مرتلا للقداسات ، وخمسة وسبعين حاجبا ، هذا بالإضافة إلى عدد معين يسمح بزيادته . وكان (رفيق القلاية)[٦] Syncellus يعتبر خليل

---

٦- كان هناك عدد من الوظائف يطلق عليها «وظائف خاصة» لم تكن لها أهمية ذات بال في الإدارة العامة ، من بينها وظيفة رفيق القلاية Syncellus هذا ، الذي كان يعد من كبار رجال الأكليروس، وغالبا ما يخلف البطريرك في منصبه ، ويعين بمرسوم من الإمبراطور بالاتفاق مع البطريرك . وكان له الإشراف على كل الوظائف العادية في الحكومة الكنسية ، ولعله يمكن اعتباره ضابط اتصال بين الإمبراطور والبطريرك .=

البطريرك وموضع سره ، حيث كان البطريرك يمثل الأب الروحى له، وهو يحظى بنفس المكانة أيضا لدى الإمبراطور. وكثر عدد كبار الموظفين الذين يتقاسمون فيما بينهم ليس فقط الأعمال التى تخص كنيسة أيا صوفيا ، بل تلك التى تتعلق بالإدارة البطريركية عامة ، ومن بينهم رئيس ديوان المحفوظات Chartophylax الذى يشرف على الأرشيف الأسقفى ، حتى غدا يجمع بين اختصاصات أمين المكتبة والسكرتير والقاضى ، ذلك أن عمله اتسع ليشمل الإشراف على الاكليروس ، والرسامة والانتخابات الأسقفية ، وسيادة كاملة على القضاء البطريركى ، وتتضح أهميته من موضعه فى القداس الكبير حيث كان يقف إلى جوار الباب المقدس ، حتى إذا حانت لحظة التناول راح يدعو رجال الأكليروس بقوله « ألا أيها القسيسون والشمامسة أقدموا وتناولوا مليككم وربكم » وقد وجدت هذه المجموعة من كبار الموظفين نظيرا لها فى مجالس المطارنة والأساقفة داخل الكنيسة الأرثوذكسية . وهم هنا يقابلون الأربعة الكبار quattuor personae فى الكنيسة الإنجليزية فى العصور الوسطى ، فقد كانت التنظيمات الكنسية تتسم بتشابه معين على مختلف المستويات وفى مختلف أجزاء العالم المسيحى .

وكان مسموحا بالزواج للغالبية العظمى من اكليروس الكنيسة الأرثوذكسية فيما هم دون مرتبة الأسقفية، ويشترط أن يكون ذلك قد تم قبل أن يرسم أحدهم مساعد شماس Sub-deacon . ومن الواضح أنهم عملوا فى ميادين التجارة حتى حرم القانون الكنسى ذلك . ولكن ليس من الإنصاف بطبيعة الحال أن نستنتج من أحكام المجالس الكنسية أن أغلب رجال الأكليروس كانوا يغشون الحانات أو يرتادون العروض المسرحية أو نوادى المراهنات . ولكن غالبا ما كانت أوضاعهم على قدر كبير من السوء ، وقد مارس عدد كبير منهم العمل الزراعى فى الحقول شأن آباء الكنيسة فى الريف اليونانى فى أيامنا هذه . وعندما تباع الأرض فانهم ينتقلون مع الضيعة مثل «المستأجرين التابعين» Paroikoi فى القرية . ولعل هذه الطبقة من رجال الاكليروس كانت تعمل فى نوعين مختلفين من الكنيسة ، الابروشية أو «العامة» Ca-tholicon أو بمعنى آخر الكنيسة التى تخضع لرعاية أسقف له حق تعيين هيئتها الكهنوتية ، والكنيسة الصغيرة التى قد تكون ملحقة بالدير ، أو ربما تتبع شخصا معينا أو مجموعة من

---

= أنظر Baynes & Moss, Byzantium, p. 290

وأيضا رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص١٠٣ ، ١٢٩ (المترجم)

الأفراد تكاثفت من أجل إقامتها . وفي بعض الأحيان كان القرويون يقومون بمساعدة النواة الصغيرة لمجتمع جديد في بناء كنيسة الدير ، كما يتمثل ذلك في تجربة القديس دروثيوس St. Dorotheus في آسيا الصغرى إبان القرن الحادي عشر . ويتضح من سير القديسين المختلفة والمصادر الأخرى أن احتياجات الريف والمدينة على السواء ، غالبا ما كان يحسب حسابها بوجه خاص في المؤسسات الديرانية أو الخاصة التي فاق عددها الكنائس «العامة» .

ولم تكن الكنيسة تعاني الفاقة ، وقد حرصت التشريعات الإمبراطورية على أن توفر فيما يتعلق بالنواحي التنظيمية ، الإدارة الخاصة بالإشراف على أملاك الكنيسة . وكانت الإدارة البطريركية تتمركز في أيدي وزير للمالية Oeconomus . ويقوم الأساقفة في داخل أبروشياتهم بتعيين مسئول للمالية مهمته الإشراف على الأملاك التابعة للكنائس والمؤسسات الكنسية الخاصة، أو الموجودة في عهدة رجال الأكليروس للاشراف عليها. وفي بعض الأحيان كانت الأراضي الزراعية التابعة للكنيسة تمنح عن طريق الإبحار ، وإن كان الواقع يدل على أن الكنيسة غالبا ما تعرضت للخسارة من وراء هذا الأسلوب . ولم يكن يجوز نقل أملاك الكنيسة أو تحويلها إلى جهة أخرى حتى للاحتياجات الإمبراطورية . وقد يلجأ الأباطرة في بعض الأحيان إلى تعيين العلمانيين مشرفين على إحدى المؤسسات الديرانية حيث يسمح لهم بالمشاركة في أملاكها بشرط أن يوفر للرهبان ما يكفي لمعيشتهم ، وهو نظام كان يحمل في طياته بذور سوء الاستغلال.

وإلى جانب الهبات والوصايا التي يمنحها أو يتركها المؤمنون ، كان الأسقف يتسلم ضريبة Canonicon حددت وأصبحت الزامية في القرن الحادي عشر ، وكان على القرويين أن يدفعوا جزءا منها نقدا ، والآخر عينا ، تبعا لعدد العائلات الموجودة في القرية ، أما القس فيدفع قطعة ذهبية واحدة Nomisma في السنة، وكان على الأديرة هي الأخرى أن تقدم الضريبة ، إذا لم تبعث بها رأسا إلى البطريرك ، حيث أنها وجدت على يديه وتخضع لسلطانه المباشر[٧] هذا بالإضافة إلى بعض الضرائب الأخرى التي كانت تقدم في مناسبات معينة مثل رسوم الزواج ، وعند الرسامة ، وإن لم تكن من أجل العادة أو المراسيم الإمبراطورية ، وأدينت السيمونية بشدة (حتى أن أحد رجال الدين الكارهين للكنيسة اليونانية الكاردينال ،

---

٧- مثل الأديرة التي كانت تعرف بـ «الأديرة الصلبانية» Stauropegial أنظر بعده .

همبرت[٨] Humbert وجد شيئا يمتدحه فى الكنيسة الأرثوذكسية) وكان على الأسقف أن يقوم بالاتفاق من دخله على رجال اكليروسه، على عكس النظام الغربى الذى يقوم على الرواتب الكنسية المنفصلة . كما أنه كان مسئولا عن الكنائس التى ليس لديها أملاك موقوفة. وفى العصور الوسطى المتأخرة كانت هذه الكنائس العامة تمول أحيانا من دخول هبة معينة تزجر لمن يقومون برعاية هذه الكنيسة .

(ب)

داخل هذا الإطار عاشت الكنيسة الأرثوذكسية حياتها اليومية ، محتفظة بتقاليدها دون أن تتثلم حتى زماننا هذا ، ولقد أظهرت الكنيسة نفسها منذ البداية تقريبا فى صورة وريثة التقاليد اليونانية- الرومانية ، وتقاليد حوض البحر المتوسط الشرقى ، ومن ثم فقد حددت تعاليمها وفصلت قانون إيمانها ، وإن كان ذلك غالبا ما جاء فى جو اتسم بالعنف والجدل الطويل . وهكذا أرسيت منذ الأيام الأولى للكنيسة ، والإمبراطورية البيزنطية المبكرة ، القواعد اللاهوتية المسيحية ، حتى إذا أقبل القرن التاسع كانت أشد الأخطار سوءا ، خاصة ذلك الجدال حول طبيعة الثالوث والمسيح ، قد انتهت وظهرت «كنيسة المجامع المسكونية السبعة» التى اقتنعت تماما برسالتها المقدسة فى حفظ ونشر الإيمان الحق ، وبالإشتراك مع بقية مناطق العالم المسيحى ، ثم الحفاظ على التراث اللاهوتى للكنيسة الأرثوذكسية فى كتابات الآباء وقوانين المجامع المسكونية التى تفسر الكتاب المقدس وأصول الطقوس الكنسية . وكانت

---

٨- الكاردينال همبرت أحد الرهبان الكلونيين ، يعد من أشد الكرادلة تحمسا لحركة الإصلاح الكنسى التى دفع عجلتها البابا جريجورى السابع. وقد نشر رسالة شهيرة ضد السيمونيين Three Books against the Simoniacs طالب فيها بأن لاتخضع أملاك الكنيسة أو تستغل من جانب العلمانيين . وقد جاء همبرت إلى القسطنطينية مبعوثا من البابا ليو التاسع فى عام ١٠٥٤ ، على رأس وفد للالتقاء ببطريرك القسطنطينية آنذاك ميخائيل كريولاريوس . إلا أن سلوك الوفد وتصرفه العدائى وعلى رأسه همبرت ، تجاه البطريرك كان عاملا هاما من عوامل حدوث الشقاق الأعظم بين الكنيستين سنة ١٠٥٤ .

أنظر عن ذلك Z. N. Brooks, A history of Furope, p. 159

وأيضا Ulmann, op . cit. p. 132 و C. M. H. vol. V, pp. 28-29

و Thompson & Johnson, op. cit. p. 369 (المترجم)

أعمال الآباء اليونان ، خاصة في القرن الرابع منارة تضئ بصفة مستمرة ، تهدى رجال الكنيسة الحائرين وسط متاهات التحديات على امتداد أربعة قرون ونيف . ومنذ بدأ الجدال اللاأيقونى وحتى انتهى فى القرن التاسع ، تم تلخيص التعاليم الأرثوذكسية ، وأعيد ذكرها كما كانت ، على يد آخر الآباء اليونان يوحنا الدمشقى John of Damascus فى مؤلفه «ينبوع المعرفة» Fount of Knowledge اكتمل بعرض للعقيدة عرف باسم «عن الإيمان القويم» De fide orthodoxa واستخدم فى ترجمة لاتينية فى الغرب ابتداء من القرن الثانى عشر. وغالبا ما يقال عن الكنيسة الأرثوذكسية ، شأن الإمبراطورية البيزنطية، أنها «محافظة» أكثر منها تقدمية. ولكن ذلك بعيد عن الصواب . فالتقاليد ، كى تبقى، لابد أن تتطور وهى تنتقل من جيل إلى آخر . وكانت بيزنطة امبراطورية مسيحية بكل معانى الكلمة ، فاهتمامها الزائد بالنقاش اللاهوتى لم يتوقف دفعة واحدة بعودة تقديس الصور وتوارى الجدل اللاهوتى الحاد خلف أسوارها. وليس هناك فترة من الفترات يمكن أن يقال فيها أن المسيحية لم تكن مسألة حية ، وكان الاهتمام البيزنطى بها مصحوبا بقدر كبير من النشاط الأدبى . وتركت التعقيدات الأرثوذكسية مجالا فسيحا للنقاش والتطور والجدال على سواء . وقد استخدم الكنسيون والعلمانيون نظرتهم الإنسانية ومعارفهم الكلاسيكية فى تفسير الكتاب المقدس وكتابات الآباء ، وساهمت الأجيال المتعاقبة بنصيب وافر من التعليقات والرسائل التى تدور حول نقاط معينة ، والعظات التى تتضمن موضوعات مختلفة ، فقد كانت الاهتمامات اللاهوتية البيزنطية متعددة . وفى القرن الحادى عشر ، وعلى يد اللاهوتى الجديد سيمون Symeon ظهرت علامة على التطور فى ذلك النمط من الروحانية الذى بلغ أوج ازدهاره فى حركة الزاهدين[١٠] hesychast التى شاعت فى القرن الرابع عشر. وقد أثار «الزهد الصامت» hesychasm هذا جدلا لاهوتيا كبيرا، ووضعت نسبيا وجهة نظر أعداء هذه الحركة وأنصارها وجها لوجه فى كتابات كل من نيقفور جريجور[١١] Nicephoras Gregoras ويوحنا كانتاكوزينوس

---

٩- أنظر قبله حاشية ١٠ ص١١٦-١١٧ (المترجم)

١٠- أنظر قبله حاشية ١١ ص٢٠٥ (المترجم)

١١- يعتبر من أشهر الدارسين والكتاب فى القرن الرابع عشر ، أو خلال القرنين الأخيرين من عمر الإمبراطورية ، تلقى ثقافة عالية ، ونهل من الآداب الكلاسيكية ، وكان متحمسا لدراسة الفلك ، حتى أنه =

John Cantacuzenus وأصبح الرجلان ، وقد كانا فى يوم ما صديقين، متنافرين تماما إلى الحد الذى لم يكن أحدهما يحتمل التحدث إلى صاحبه . وكان هناك كثير من التيارات المتضاربة ، حتى أنه كان يصعب فى بعض الأحيان التفريق بين الفرق اللاهوتية والأحزاب السياسية ، ولكن الحركة رغم أنها فتحت الباب لسوء الفهم ، إلا أنها كانت فى الحقيقة جزءا مكملا للروحانية الأرثوذكسية . ولاشك أن هذا التطور المثمر يرتبط تماما بجبل أثوس Mt. Athos ، وهو دليل على المدى الذى وجدت به غاية بيزنطة النابضة بالحياة فى كنيستها وليس فى نظمها السياسية .

وهناك مظهر آخر من مظاهر الحذر اللاهوتى للكنيسة الأرثوذكسية ، فالتقاليد المسيحية فى كل جوانبها كانت ترتبط بالإيمان . ولتأكيد ذلك بصفة مستمرة ، كان لابد من تعهدها بالرعاية حتى لاتتسلل إليها الهرطقة . وكان على الكنيسة البيزنطية ، شأن الكنيسة الغربية، أن تتعامل مع أفراد ضلوا عن الطريق القويم ، غالبا عن غير عمد ، أو حركات شعبية كان من الصعب تماما القضاء عليها بعد أن اتسعت دائرتها لأسباب متعددة . ولم تحرم الكنيسة بالتأكيد استخدام مؤلفات الكتاب الوثنيين ، ولكنها أذاعت أن هذه الأعمال يجب أن تقرأ بروية وحذر ، فقد كان من السهل على أى عقل نزق أو مرتاب أن يتخطى الحدود الفاصلة بين الفكرين ويجدها آراء مبسوطة لاتتفق مع التعاليم المسيحية ، حتى أن فوطيوس صرح فى

---

= اقترح على الإمبراطور إصلاح التقويم ، شارك بنصيب كبير فى الجدل الذى دار حول حركة الزهد الصامت، بدأ أولا خصما عنيدا للراهب الكالابرى بارلام ثم تحول فيما بعد إلى جانبه ، مما جر عليه استياء الكثيرين واضطهاد السلطات التى زجت به فى السجن ، لتنتهى حياته العاصفة هذه حوالى عام ١٣٦٠ . وقد ترك نيقفور جريجور مؤلفات عديدة فى موضوعات متباينة ، مما يدل على سعة اطلاعه وغزارة معرفته، فكتب فى اللاهوت والفلسفة والفلك والتاريخ والبيان والنحو . على أن أهم أعماله على الإطلاق هو كتابه الكبير فى التاريخ الرومانى الذى يتناول الفترة الواقعة بين عامى ١٢٠٤ ، ١٣٥٩ ، وهى الفترة التى شهدت امبراطورية نيقية البيزنطية والإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وعهود آل باليولوجوس الأربعة الأوائل ، وعهد يوحنا كانتا كوزنيوس .

أنظر Vasiliev, op. cit. II, p. 690

وكذلك راجع Baynes & Moss, op. cit. pp. 210, 218, 225, 364

ودكتور أسد رستم : الروم ، الجزء الثانى ص٢٦٧ (المترجم)

لحظة شيطانية أنه قد يطرح قضايا غير أرثوذكسية ليرى إن كان يستطيع الكشف عن أسقف يتظاهر بالعمل دون استعداد ثقافي ، بينما استعاض آخرون بصورة تلفيقية عن طريق اعتراف سطحي بالأرثوذوكسية ، ومن هؤلاء ميخائيل بسللوس في منتصف القرن الحادي عشر . أما يوحنا الإيطالي John Italus ، الذي كان تلميذا مخلصا لأفلاطون وأرسطو، والذي خلف بسللوس في وظيفة أستاذ الفلسفة بجامعة القسطنطينية ، فلم يكن على قدر كبير من الذكاء. وقد جرت قصة إدانته بسبب آرائه الهرطقية واستنكاره العلني من فوق منبر أيا صوفيا ، على قلم أناكومننا ، ومع شئ من الرضى الاختيالي عن الصورة الأخرى التي ترسمها لرعاية أبيها للأرثوذوكسية . وتم لعنة خطايا الإيطالي في «المجمعيات» Synodicon (وهي قائمة تضم الهرطقات التي يجب لعنها) التي تليت في الصوم الكبير يوم الأحد الأرثوذوكسي Orthodoxy Sunday وقد تملكه اليأس لأنه فشل في إدراك أن الأدب الكلاسيكي يعطي منهجا ثقافيا ، ولكنه ليس ذلك المنهاج المسيحي الحق . وظلت بيزنطة حتى آخر أيامها تلقى العنت من مثقفيها ، إلى زمن جمستوس بلثون[١٢] Gemisthus Plethon الذي عاد القهقرى إلى الأفلاطونية .

غير أن الخطر الخبيث يكمن في هرطقة لقيت رواجا كبيرا وهددت بتقويض مركز الكنيسة في مناطق معينة . وكانت هذه الحركة ذات طبيعة ثنوية ، ولعلها ظهرت أصلا في آسيا الصغرى التي كانت لزمن طويل موطنا لمثل هذه الهرطقات كالبيالصة Paulicians . وفي

---

١٢- يعتبر المثل الحقيقي للفلسفة في عصر آل باليولوجوس . تلقى تعليمه الأول في القسطنطينية ثم قضى الجزء الأكبر من حياته في ميسترا التي كانت تمثل المركز الثقافي في المورة ، وصحب الإمبراطور يوحنا الثاني إلى مجمع فيرارا- فلورنسة وأدركته الوفاة في ميسترا حوالي عام ١٤٥٠ ، قبل أن يشهد سقوط القسطنطينية الأخير . وقد نقل رفاته سنة ١٤٦٥ إلى ريمني (Ariminium) Rimini في إيطاليا ، بعد أن استطاع أحد الزعماء العسكريين المحبين للآداب من عائلة مالاتستا Malatseta الاستيلاء على اسبرطة من أيدي الأتراك العثمانيين . ولما كان بلثون من أشد الدارسين إعجابا بأفلاطون ، فقد سعى جاهدا من خلال أعماله لتبيان أهمية الفلسفة الأفلاطونية بالمقارنة إلى الفلسفة الأرسطية ، وكانت العصور الوسطى، وفي بيزنطة بصفة خاصة طوال عهدها ، وإبان حركة الزهد الصامت بالذات قد شهدت صراعا فكريا محتدما بين الأرسطيين والأفلاطونيين، وفي فلورنسة كتب بلثون رسالته عن «الاختلاف بين أرسطو وأفلاطون » حاول فيها قدر طاقته أن يظهر فضل فيلسوفه المحبب أفلاطون على أرسطو . ولعل مكث بلثون في فلورنسة يعد من أهم الأحداث في تاريخ نقل جذور التعليم اليوناني الكلاسيكي إلى إيطاليا ، خاصة إحياء الفلسفة الأفلاطونية في الغرب (المترجم)

القرن العاشر تسرب أحد أشكال هذه الهرطقة الثنوية إلى البلقان ، واشتقت اسمها من زعيمها الأب (القسيس) بوجوميل Bogomil وحوالى ذلك الوقت كانت بلغاريا فى طريقها إلى الفناء داخل الإمبراطورية البيزنطية ، وعندما تم الاستيلاء عليها نهائيا زمن باسل الثانى أوائل القرن الحادى عشر ، زحفت هذه الهرطقة ذات المظهر الخداع إلى أقوى قلاع الأرثوذكسية. وقد كان خطرها مزدوجا . فهو لايقتصر فقط على مهاجمة العقيدة المسيحية والتنظيمات الكنسية، بل كانت له جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وتحالفت فى بلغاريا على أية حال مع الشعور العدائى لبيزنطة ووجهت ضد ثروات ملاك الأراضى من العلمانيين والأكليروسيين على السواء . غير أنها لقيت تحديا عنيفا من جانب أباطرة أسرة كومنين الذين عملوا بالتعاون التام مع الكنيسة . ولكن جذوتها لم تخمد تماما فى البلقان ، وظل البوجوميليون موجودين حتى الغزو التركى وبعده ، وما تزال قبورهم التى تجمع بين القبح والغرابة ترى فى البوسنة Bosnia . وقد يقال ان هذه الهرطقة قد تركت بصماتها على جبل آثوس نفسه فى القرن الرابع عشر ، ولكن هذا الاتهام ربما كان جزءا من الحملة التى يشنها أعداء الزهد الصامت على هذا الجبل المقدس.

وبالإضافة إلى ما كان يقوم به رجال الكنيسة الأرثوذكسية من تعهد الحياة الدينية لشعبهم بالرعاية ، كانوا يدركون تماما مسئولياتهم تجاه أصحاب العقائد الأخرى . فقد وضع يوثيميوس زيجابنوس[١٣] Enthymius Zigabenus بناء على رغبة الإمبراطور ألكسيوس كومننوس ، كتيبا يفند فيه المغالطات الدينية التى تحتوى عليها الهرطقات الكبرى ، متضمنا اليهود والمسلمين . أما يوحنا الدمشقى فينظر إلى الإسلام باعتباره هرطقة مسيحية ، وكانت لديه المقدرة على كتابة رسالة ضده ، خاصة وأنه يعرف العربية بما يتيح له أن يستخدم القرآن مباشرة فى تدعيم حججه . وكانت الناحية الجدالية ضد كل شكل من أشكال الهرطقة توضع

---

١٣- أحد رهبان القسطنطينية على عهد الإمبراطور ألكسيوس كومننوس ، الذين اشتهروا بدراسة اللاهوت ، وكان يعد من النحاة المعروفين ومن أشهر أساتذة البيان ، والمعلقين على كتب العهد الجديد ورسائل القديس بولس . وقد أبدى له الإمبراطور رغبته فى أن يقدم له عرضا وافيا عن كل الهرطقات التى ما زالت باقية ، خاصة معتقد البوجوميليين، مفندا غوايتهم على أساس خروجهم عن تعاليم آباء الكنيسة .. واستجابة لذلك كتب زيجابنوس رسالة عن «العدة العقائدية للايمان القويم» قدم فيها كل البراهين المناسبة الدالة على خطأ الأفكار الهرطوقية (المترجم)

فى أيدى اللاهوتيين الأريبين من العلمانيين ورجال الأكليروس ، وظلت قائمة بصفة مستمرة حتى الأيام الأخيرة من عمر الإمبراطورية ، واتخذت خطوات ربما أكثر إيجابية فيما يتعلق بالمحاورات الشخصية التى حدثت بين الأساقفة وحاخامات اليهود ، بين المسلمين والمسيحيين ، أو الأرمن والأرثوذكس، ومع انتشار الإسلام اقتسم الطرفان الساحة ، فقد كان لكل منهما أتباعه . وعندما وقع الأسقف جريجورى بالماس[١٤] Gregory Palamas أسيرا فى أيدى العثمانيين فى منتصف القرن الرابع عشر ، ودخل فى مناظرة مع المسلمين و اعتقد أن الإسلام يتباهى بالأعداد الهائلة التى اعتنقته فى آسيا الصغرى ، ويعتبر الإنجاز الكبير للكنيسة الأرثوذكسية فى المجال التبشيرى، هو الذى تم فى عهودها الأولى بين جيرانها الوثنيين ، أو بشكل آخر عندما بذل رجال الكنيسة الذين لاحصر لهم جهودا جبارة فى تحويل الصقالبة والخزر إلى المسيحية ، وما تزال سمعة بعض الأفراد مثل كيرلس Cyrll ومثوديوس Methodius تتردد أصداؤها فى العالم المسيحى لما قاموا به، وإن ظل كثيرون منهم جنودا مجهولين ، أو مثل يوحنا رئيس أساقفة يوخايتا[١٥] John of Euchaita الذى عمل فى البلقان ، واكتشف أمره فقط بطريق الصدفة عن طريق إيماءة إليه موجودة فى عظة أو مرثية . وفى عمل تبشيرى من هذا النوع وجدت الكنيسة أرضا بكراً تختلف تماماً عن الحال عندما تكون العقائد المنافسة قد مكنت لنفسها فى إطار حضارة قديمة ، أو ربما أحد الفروع الهرطوقية للكيان المسيحى نفسه مثل الكنائس النسطورية والمونوفيزية .

وقد حرصت الكنيسة الأرثوذكسية على أن تظل متيقظة داخل الإمبراطورية وأن لاتضيع أية فرصة تسنح لها لتحقيق غاياتها ، بالمناظرات العامة، أو الدعاية الواسعة ، أو الحرب ضد المشركين وإن كان هذا لايحول دون اللجوء إلى الوسائل الدبلوماسية ، أو حتى الاعتراف بأسلوب مغاير للحياة خاصة مع القوى الشرقية ، وكانت القسطنطينية تنظر بعين الاعتبار إلى فارس والعرب كقوى يحسب حسابها ، وقد كتب بطريرك القسطنطينية فى أوائل القرن العاشر إلى أحد حكام المسلمين يقول «كما يسطع الكوكبان الدريان فى القبة الزرقاء، كذا يعيش

---

١٤- أنظر قبله حاشية ١١ ص٢٠٥ (المترجم)

١٥- أنظر بعده .

المسلمون والرومان ، ولذا يتعين أن تؤلف بيننا الصداقة رغم اختلافنا فى طرائق الحياة والدين[١٦] ولكن هذا النوع من الأحاسيس لم يمنع قيام الحروب ، وان كانت الترتيبات تبيح للزائرين والتجار والمرتزقة من أتباع المعتقد الآخر ممارسة طقوس عبادتهم . وهكذا كان للعناصر اللاتينية كنائسها ، خاصة البنادقة والجنوية الذين تكاثرت أعدادهم ابتداء من القرن الثانى عشر ، وحصلوا على أحياء خاصة بهم داخل المدينة أو عبر القرن الذهبى . وحتى الإنجليز (الذين كان عدد منهم يعمل فى الحرس الإمبراطورى) استطاعوا أن يجدوا شيئا خاصا لأنفسهم فى الكنيسة التى أقيمت فى القسطنطينية على نفقة أحد أثريائهم فى نهاية القرن الحادى عشر ، حيث تضاء المصابيح أمام أيقونات حامييها القديس نيقولا Nicolas والقديس أوغسطين St. Augustine رئيس أساقفة كانتربورى Canterbury

وهكذا نجد أن التسامح كان موجودا من الناحية العملية ، وإن كان غالبا ما يختفى وراء العلاقات والاتجاهات الرسمية . ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك الشعور العميق الحار الذى يظهر فى الملاحظة التى أبداها اثنان من نبلاء العاصمة فى تلك القصة التى تحكى عن العثور على رداء العذراء وانتقاله إلى القسطنطينية . وتوارثته العذارى عبر الأجيال داخل نطاق عائلة يهودية . وقد اهتدى الرحالة إلى البيت الذى تقطن فيه هذه الأسرة فى قرية صغيرة بمنطقة الجليل ، وتضرعوا إلى تلك العائلة أن تخبرهم عن السر الحقيقى وراء القوة الإلهية التى تظلل هذه الدار ، قائلين «لأن إلهنا وإلهكم واحد وهو نفس الرب» [١٧]. ولاشك أن كلمات على هذا النحو تعد دليلا قاطعا على أن البيزنطيين لم يكونوا متعصبين البتة . والحقيقة أن أى مظهر من مظاهر التسامح كان أمراً مسلما به ، ولكن هذا لم ينقص من حماستهم للأرثوذوكسية .

---

١٦- أنظر Migne , Patrologia Graeca, vol, cxl. col. 28 B. (المؤلفة) وقد وردت هذه العبارات ضمن الرسالة التى بعث بها نيقولا الصوفى Nicholas Mysticus بطريرك القسطنطينية إلى أمير كريت «العظيم» المحبوب كما يصفه البطريرك (المترجم)

١٧- أنظر N. H. Baynes, Byzantine Studies, p. 247 .

(ج)

كان طبيعيا أن لا يشتغل الفلاح أو رجل المدينة، أو ربة البيت أو الطفل بالمسائل الجدلية أو العقلية، رغم أن الحفاظ على الإيمان الحق كان يثير اهتمامهم إلى درجة كبيرة لاتقل عنها عند اللاهوتيين أو رجال السياسة. وكان العلمانيون ، المثقفون منهم والحرفيون ، يشكلون - شأن الرهبان ورجال الاكليروس- جزءا من الكل المؤمن ، الذى تحرص الكنيسة فى أهم خصائصها على أن ترعى حياتهم الروحية . وكانت احتياجاتهم الخاصة داخل النطاق الاسقفى ، وغالبا ما تقوم الأديرة والنساك بإتمام عمل رجال الدين وإن كان نشاطهم لايعتبر جزءا من المهام الملقاة على عاتق الأبروشية تجاه رعاياها ، وعلى العلمانيين، الذين سبقوا إلى الإيمان بالمسيحية والذين ولجوها حديثا ، أن يلقنوا تعاليم دينهم على يد القسيسين ثم الأساقفة منذ حداثة أعمارهم ، ويتضح من القواعد المجمعية وبعض الشواهد الأخرى أن رجال الأكليروس كانوا يقومون بتعليم الصغار الكتاب المقدس والمعارف الأخرى ، فاذا ما وجدوا منهم الرغبة فى إثارة المتاعب كان من حقهم استخدام الضرب إذا أرادوا ذلك . أما مسئولية الأسقف فقد كانت مضاعفة تجمع بين وعظ اكليروسه وهداية شعبه . وقد أقر المجمع الذى عقد فى قاعة القبة Trullo سنة ٦٩١ أن يتم ذلك فى يوم الأحد من كل أسبوع وعلى امتداد الأسبوع كله إذا كان ذلك ممكنا . وقد أخذ هذا الالتزام مأخذ الجد. ويعتبر البيزنطيون أعظم كتاب العظات إنتاجا ، وما زال لدينا الكثير مما خلفوه فى هذا المجال ، وفيها يقوم «الراعى والأب» بتفسير معنى أجزاء مختلفة من الكتاب المقدس ، وغالبا ما يتناول بالشرح والتوضيح تفاسير الآباء لفقرات معينة ، أو يتحدث عن الطقوس والأسرار المقدسة ، أو الأهمية الخاصة لعيد أحد القديسين. هذه المهام يشترك جميع الاكليروس فى الاضطلاع بها، ابتداء من الكاهن الصغير ، الذى يمثل أول درجات السلم الكهنوتى إلى البطريرك نفسه . وقد شارك الأباطرة بصورة عملية فى كتابة العظات التى تلقى فى الموظفين الكنسيين أو الإمبراطوريين فى مناسبات معينة ، كما يحدث مثلا عند بداية الصوم الكبير .

ويظهر الفهم العميق للإيمان والحياة التعبدية الكاملة فى كثير من العظات والكتابات الصوفية . ولانعرف على وجه التحديد كيف اكتسب معظم الرجال والنساء خبرة بعيدة فى هذا المجال ، ولكنهم كانوا جميعا يعيشون حياة أخوية من خلال الأسرار المقدسة ، وكان المسيحي الأرثوذكسى يتلقى المعمودية بالكنيسة ، ويزداد توثيقا بسر الروح القدس ، ويظهر إذا دعت

الضرورة ، عن طريق الكفارة . ويستطيع أن يتبين من خلال بعض الطقوس المعنى الكامل للحياة المسيحية ، إذا شارك فى الطقس الرئيسى لهذه العبادة وهو الافخارستيا والقربان المقدس ، أو كما اعتاد البيزنطيون أن يدعوه «الطقس الإلهى» وراح الفن واللاهوت والموسيقى والشعر يتكاملون فى تمجيد هذا الطقس ، فعبر الفنانون البيزنطيون عن إدراكهم للعالم الفوقى بتصوير المسيح والهيراركية العلوية بالفيسفساء أو الصور الجصية على قباب وجدران كنائسهم حيث تبدو أجرام السماوات وكواكبها فوق رؤوس العابدين فى قلب ذلك المبنى. بينما كانت الموسيقى البيزنطية ترتبط تماما بكلمات ذلك الطقس ، وقد أثريت هذه الموسيقى الكنسية بما أضيف إليها من ترانيم وتسابيح ، على حين ازداد شعر الطقوس بمختلف طبقاته جودة وإتقانا[١٨] ، وغالبا ما كان يوزع ترتيليا بين مقدم مرتلى القداس والشعب وتضم فى نسيجها عظات ومزامير الخدمة أو الأجزاء المختلفة لذلك القداس .

والقداس المستخدم فى الكنيسة اليونانية هو الذى كان موجودا فى كنيسة القسطنطينية ، أعنى أنه كان قائما على قداس القديس باسل وقداس القديس يوحنا ذهبى الفم St. John Chrysostom ويبدأ القداس بالموعوظين Catechumens عندما يجرى «الدخول الأول» Lit-tle Entrance مع إنشاد التقديسات الثلاثة Thrice- Holy تتبعه الدروس والعظة . ثم يأتى بعد ذلك قداس الإيمان مع الصلوات و «الدخول الكبير» Great Entrance قانون الإيمان وإحياء ذكرى الأحياء والأموات . ويعقب هذا المشهد الأخير وهو القربان المقدس ، ويبدو واضحا أن القداس كان يجرى بصفة مستمرة . وقد كتب بالسامون Balsamon يقول إنه كان على هؤلاء الذين يرغبون فى أن يحيوا حياة نقية طاهرة مداومة التناول، سواء كانوا من الاكليروس أو العلمانيين ، رغم أن ذلك لم يكن قاعدة مألوفة .

لقد تمكنت الكنيسة من حياة الناس تماما ، فبركاتها كانت ترتجى لمختلف الأعمال . وكانت هناك طقوس خاصة لمباركة أسطول الصيد أو الحصاد ، والماشية والدور ، كما كان للمدن والمزارات حماتها من بين القديسين ، ابتداء من «أم الإله» حامية العاصمة إلى أصغر ملاك حارس وهو الذى خصه يوحنا اليوخايتاوى باحدى قصائده . هذه الرغبة ، شأن الاحترام البيزنطى للزاهد ، ذلك الرجل المطهر ، كانت متأصلة فى الإيمان بقوة الشفاعة ومفهوم الارتباط

---

١٨- تمكن أحد البحوث الأخيرة من تفسير الأشكال المختلفة للعلامات الموسيقية Notation البيزنطية الوسيطة. ويمكننا أن نسمع شيئا من هذا التقليد الباقى فى بلاد اليونان أو محفوظا فى دير جروتافراتا Grot-taferrata بالقرب من روما .

التام بين عالمى الظاهر والباطن . وهكذا فان أشد مظاهر الحياة الإنسانية بساطة كانت تكرس لتستخدم بطريقة صحيحة . وكان على العلمانيين ، بدرجة لاتقل مطلقا عن الرهبان أو رجال الإكليروس ، أن ينالوا العضوية الكاملة فى الكنيسة التى كانت التجسيد الرمزى للمسيح . ولعل أروع صورة لهذا المعنى تلك التى رسمها نيقولا كابسيلاس (١٩) Nicholas Cabasilas فى القرن الرابع عشر فيما كتبه «عن الحياة فى المسيح» On life in Christ حيث يقول ، «ليس من الضرورى أن تغدو إلى البيداء لتجد هذه الحياة ، فقد غرسها العماد داخل كل مسيحى وغذتها الأسرار المقدسة وفى مقدمتها الطقس الإلهى» .

---

١٩- من أشهر رجال اللاهوت والكتاب والبيزنطيين فى القرن الرابع عشر ، ومن أبرز المتصوفين فى الكنيسة الشرقية ، لم يلق بعد حظه من الدراسة وما تزال معظم أعماله لم تر النور بعد (المترجم)

# الفصل السابع

# عـــالم الرهبنـــة

## منادات الروح

# الفصل السابع

# عـــالم الرهبنـــة

## مناداة الروح

ظهرت الرهبنة المسيحية أول أمرها فى مصر فى أخريات القرن الثالث وأوائل الرابع ، وهى أسلوب حياة ينتهج تطوعا من جانب نفر آثر أن يتبع تماما فرائض الانجيل وأن يكبح شهواته وغرائزه ، حتى يغدو مهيئا لمعرفة الله فى هذا العالم وليصبح رفيقا له فى الحياة الأبدية . وقهر الجسد لخلاص النفس على هذا النحو عرف منذ زمن بعيد ، ولكن الرهبانية ابتداء من القرن الرابع كانت ارتقاء خاصا لهذه الناحية داخل إطار الكنيسة المسيحية ، لعل أبرز ملامحها انسحاب الإنسان من الحياة اليومية العادية فى المحيط الأسرى ، ولاتهدأ الحرب أبدا ضد الشياطين الذين يحاولون غواية المسيحى الذى تطع على نفسه عهدا أن يسلك هذا الدرب متوحدا أو وسط جماعة .

وكان القديس أنطونيوس St. Antony أول الرهبان [1] يشاركه فى ذلك آباء الصحراء فى مصر الذين خلفوا وراءهم ديارهم وارتحلوا إلى البيد متوحدين ، فذاع صيتهم واجتذبوا إليهم

---

١- ولد أنطونيوس عام ٢٥١ لأسرة مصرية ثرية فى بلدة «قمن العروس» من أعمال محافظة بنى سويف، فلما بلغ العشرين من عمره بعد وفاة والدته ، تخلى عن أمواله وممتلكاته ووزعها على الفقراء ، وآثر حياة الاعتزال ، فاتجه إلى الصحراء ، وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان قد أمضى هذه الأعوام الخمسة عشر معتزلا ولكن بالقرب من المدينة . أما الآن فقد سلك سبيل البيداء إلى جبل العربة على البحر الأحمر . غير أنه توقف عند قلعة قديمة فى صدر الصحراء عند منطقة بسبير (مكان دير الميمون الآن فى منتصف المسافة بين أطفيح وبنى سويف) وقد تكاثر مريدوه من حوله ، ولكنه ظل فى معزل عنهم طيلة عشرين عاما، حتى إذا كان عام ٣٠٥ فتح لهم بابه وصدره وكان ذلك بداية لنشأة الرهبانية بمفهومها المعروف فى مصر ، وقد خلد القديس أثناسيوس أسقف الأسكندرية (٣٢٨-٣٧٣) ذكر أنطونيوس بكتابة تاريخ حياته Vita S. Antoni الذى كان له أكبر الأثر فى انتشار الرهبنة خارج مصر فى آسيا الصغرى وأوربا .

أنظر ATHANAS, Vita S. Antoni in (Nicene and Post-Nicene Fathers, IV, 195-221).

وأيضا RUFIN , historia Monachorum (P. L. XXI, 391-426)

عددا كبيرا من المريدين ، حتى أن «توحدهم» لم يكن دائما على النحو الذى تخيلوه ورغبوا فيه ، وقد تبلورت هذه الحركة فى مصر فى اتجاهين رئيسيين ، التوحد والديرية. وانتشر بشكل واسع نموذج حياة التوحد النسكية التى عاشها القديس أنطونيوس ، وإن كان من الضرورى أن نتذكر أن المتوحدين لم يعيشوا دائما فى وحد كاملة ، فغالبا ما كان لهم تلاميذهم الذين يتحلقون من حولهم ، وتجئ البداية عادة عندما يلازم المريد ناسكا يصبح بمثابة الأب الروحى له. وكانت السبق(٢) Lavra هى النمط المعدل للحياة التوحدية ، وهى عبارة عن مجموعة

---

= وكذلك Artz, The mind of the Middle Ages, pp. 30-116

و Waddell, The desert Fathers, p. 2. sqq .

و Kidd, A history of the Church, pp. 103-106 .

وأيضا Hardy, op. cit., pp. 37, 59, 74

و Budge, Stories of the Holy Fathers, pp. 51,57

و Stanley, Lectures on the history of the Eastern Church, pp. 229-230 .

وأنظر كذلك HIER, Vita Pauli "N. P. N. F. VI 299-303"

و SOZOM, hist. eccl. I, 13, II, 14

و PALLAD. hist. Lusiaca, 32, 34 sqq.

و O'Leary, The Coptic Church and Egyptian monasticism, pp. 319, 327

وراجع كذلك للأب متى المسكين : الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار ، ص٤٣-٤٤ وللمترجم : الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث : الفصل الخامس ، أيضا ، ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ، ص٢٣-٦٣ (المترجم)

٢- وهى من الكلمة اليونانية Laura بمعنى زقاق أو عطفة .

أنظر D.J. Chitty, The Desert a City,p.15 المؤلفة وكان التجمع الرهبانى فى صورته الأولى البسيطة، على النحو الذى عرف به على عهد القديس أنطونيوس، يسمى لافرا ، وهى تأتى فى المخطوطات القديمة باسم السيق وجمعها الأسياق .أنظر الأب متى المكين:الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار .ص٤٥ (المترجم)

من المريدين تقيم إلى جوار راهب من أكثر الرهبان تجربة . ويتلقى هؤلاء النساك فى مناسبات معينة مثل قداسات يومى السبت والأحد . ويمثل هذا المظهر منتصف الطريق بين الناسك المتوحد والراهب الذى يعيش حياة «مشتركة» .

وقد ظهر الكينوبيون[٣] Coenobium أو الدير حسب المفهوم الغربى، فى مصر أيضا فى نفس الوقت مع الحياة النسكية . ومؤسس هذا النظام مصرى هوباخوم[٤] Pachomius وهو جندى وثنى اعتنق المسيحية ، تأكد لديه بعد تجربة حيه عاشها من خلال التوحد، أن هذا النسق يتطلب التزامات معينة تفوق احتمال الكثيرين ، ومن ثم عول على اقامة نظام لحياة نسكية مشتركة فى طبانسين Tabennisi على النيل فى أوائل القرن الرابع . وسرعان ما نمت هذه الحركة حتى أن باخوم عند وفاته كان لديه عدد من المريدين يكونون إحدى عشرة خلية (اثنتان منهم للنساء) . وكان باخوم رأس هذه الجماعة والمشرف العام على تلك الخلايا . وتتلخص المظاهر الرئيسية للحياة اليومية هنا فى أداء الصلاة والقداسات فى جماعة،

---

٣- معناها الحرفى «حياة مشتركة» Koinos bios (المؤلفة) وهى من مقطعين Koinos أى مشترك و bios بمعنى حياة . وتعنى مؤسسة أو مكان به قلالى كثيرة أصحابها متحدون فى نظام الحياة ، وهى ترادف فى المعنى الوصفى تماما كلمة Monastyrion المشتقة من كلمة Monaxein أى يعيش بمفرده أو يحيا وحيدا . ومن ثم كانت كلمة موناستيريون تعنى مكانا يحيا فيه الناس حياة منفردة . وقد تطور معنى هذه الكلمة بحيث أصبحت تحمل معنى مغايرا يدل على الدير بوصفه الحالى، أى جماعة يعيشون معا حياه مشتركة غير توحدية على الإطلاق . أنظر الأب متى المسكين ، الرهبنة القبطية . ص٤٤-٤٥ (المترجم)

٤- إذا كان القديس أنطونيوس يعد رائد الرهبانية فى مصر ومؤسسها الحقيقى ، فان باخوم (٢٩٢-٣٤٦) يعتبر واضع أسس النظام الديرانى، فقد استطاع أن يضع لهذه الحياة الرهبانية نظمها وطرائقها فى صورتها الجماعية ، وقد أورد المؤرخ الكنسى سوزومين تفصيلا كاملا للأسس التى كانت تقوم عليها العلاقات بين أفراد الدير الباخومى فى طبانسين Tabennesi (قرب أخميم Panopolis) ويذكر أن باخوم قد قسم جماعته التى تحيط به والتى يبلغ عددها نحو ألف وثلاثمائة إلى أربع وعشرين مجموعة ، ميز كلا منها بحرف من الأبجدية اليونانية ، وقد تكاثر عدد الرهبان الطبانسيين بعد ذلك حتى بلغ الآلاف السبعة . ومن حديث سوزمين تتبين أن النظام الباخومى كان يشبه إلى حد كبير التشكيلات العسكرية فى دقتها وانضباطها، ويعلق على ذلك بقوله «لقد كان جميع رهبان مصر ينظرون إلى مجتمع طبانسين باعتباره الأم» .

أنظر PALLAD. hist. Laus. 32-34, SOZOM. hist, eccl. III, 14 (المترجم)

والتفكير والتعبد في توحد ، والاكتفاء بأقل القليل من الطعام (وعادة ما كانوا يجتمعون لتناول الطعام سويا في قاعة خصصت لذلك) ، والعمل اليدوي وإنجاز الواجبات الإدارية الضرورية . غير أنه كان هناك تباين داخل هذا الإطار إبان الفترة التجريبية وفي وقت لاحق . ففي مصر ، خلال القرن الرابع ، لم يكن التطور الكامل للساعات القداسية (الدورة اليومية للخدمة الرهبانية) قد عرف ، على حين كان التناول يجرى في أيام السبوت والآحاد . ومع ذلك فان نواميس الحياة الروحية في هذه الرهبانية المبكرة ، وقواعد السلوك الخارجي التي تميز الحركة الديرانية المتأخرة في الكنيسة الأرثوذكسية ، كان يمكن التعرف عليها آنذاك . ولامراء في أن الروحانية الماثلة في الرهبنة في الشرق والغرب على السواء تستمد أصولها من كتابات الآباء المصريين مثل «أقوال الآباء» Apophthegmata Patrum أو حياة القديس أنطونيوس the life of St. Antony وهما نموذج لما كتب بعد ذلك عن حياة القديسين .

وكانت الصفة المميزة لحياة الكينوبيون تتمثل في الأداء اليومي والكامل للقداس الإلهي من جانب جماعة تقدم الطاعة التامة لزعيمها الروحي . ومع نهاية القرن الرابع كانت هذه الصفة قد استقرت في كل مكان من العالم المسيحي ، خاصة حوض البحر المتوسط الشرقي . وامتلأت القلالي والأسياق والكينوبيونات برجال يبتغون خدمة الإله على هذا النحو . ولاشك أن الديرانية والكنيسة تدين بصفة خاصة إلى القديس باسل العظيم[٥] St. Basil the Great أسقف قيسارية Caesarea في آسيا الصغرى ، وأب الكنيسة في القرن الرابع ، الذي أعطى

---

٥- أسقف قيسارية كبادوكيا (٣٧٠-٣٧٩) ، وأحد الكبادوكيين الثلاثة الإشهار آباء اللاهوت . يمثل الجيل الثاني المعتدل للنيقية ، بعد جيلها الأول المحافظ المتمثل في أثناسيوس أسقف الأسكندرية ويوستاثيوس أسقف أنطاكية . كان صديقا حميما للأسقف السكندري ، رغم اختلاف وجهتي نظرهما ، ودارت بينهما مراسلات عديدة ، وكان كل منهما يحمل للآخر التقدير والإعجاب . وكان لباسل مواقف مشهودة مع الإمبراطور فالنز الذي كان يدين بالمسيحية الأريوسية . كما أن باسل كان رائدا للرهبنة في آسيا الصغرى . أنظر عن ذلك التقديم الرائع الذي كتبه B. Jackson عن حياة باسل وأعماله في Nicene and post-Nicene Fathers, VIII وأيضا رسائل باسل إلى أثانسيوس في نفس المجلد .

(Epp. LXI, LXVII, LXIX, LXXX, LXXXII)

وكذلك SOCRAT. hist. eccl. VI, 16

و SOZOM. hist. eccl. VI, 16 (المترجم)

للحياة الديرانية الجديدة نظامها ورسم لها طريقها . فقد كان باسل ، على العكس من باخوم أو أنطونيوس ، رجلا متعلما قادرا على أن يفصل بوضوح آراءه عن الرهبنة ، رغم أنه لم يترك قانونا يمكن مقارنته بذلك الذى وضعه فى الغرب القديس بندكت[٦] St. Benebict النورسى Nursia ، أما ما يسمى «قانون» باسل فليس إلا مجموعة من الإجابات على عدد من الأسئلة التى أثيرت حول حياة الرهبنة . وربما كان أعظم ما يقرره فى هذا المجال قوله بأن حياة الكينوبيون تفضل حياة التوحد . ذلك أنه كان يعتبر أن الإنسان بمقدوره وسط الإخوة أن ينفذ الوصية الإلهية بحبه لأخيه كحبه لنفسه[٧] . ومن الممكن أن تكون مبادئه قد داخلها شئ من المبالغة بفعل كتابات المتأخرين ، فقد كتب عنه صديقه القديس جريجورى النازيانزى[٨] Gregory of Nazianzus مبينا أنه تمكن ببراعة من التوفيق بين التوحد والحياة المشتركة .

---

٦- ولد لأسرة ثرية أرستقراطية حوالى عام ٤٨٠ ، وجئ به إلى روما ليتلقى تعليمه ، غير أن المجون الذى وجده بالمدينة جعله ينفر منها ، فهجرها ، ثم استقر به المقام فى النهاية عند كاسينو "Monte Cassino" فى منتصف المسافة بين روما ونابلى ، بحيث أقام هناك ديرا على أطلال معبد قديم للإله أبوللو. وكانت الديرانية الغربية فى القرن الخامس تعانى الانحلال ، من جراء الفشل الذى لحق محاولاتها الذهاب إلى أبعد مما كانت عليه الرهبانية الشرقية ومن ثم عمل القديس بندكت على أن يضع نظاما ديرانيا يبتعد به عن التطرف ، حتى أصبحت الأديرة البندكية فى القرن السادس نواة سابقة لقريناتها الكلونية فى القرن العاشر ، فيما يتعلق بحركة الإصلاح الكنسى .

أنظر

Thompson & Johnson, op. cit. pp. 203 sqq .

وأيضا

Stephenson , op. cit. pp. 73-76 .

وكذلك

Strayer & Munro, op. cit. pp. 62-67 .

و

Davis, op. cit. pp. 74 , 79 .

٧- أنظر Longer Rule 7 «من الضرورى لسرة الرب أن تعيش بين من يتشابهون وإياك ، أما التوحد فأمر عسير وخطير» .

٨- أسقف نازيانزا Nazianzus فى آسيا الصغرى ، (وهى التى أطلق عليها الرومان Diocaesarea) ، (٣٦١-٣٨٩) ، وهو شأن معاصره باسل أسقف قيسارية فلسطين ، أحد الكبادوكيين الثلاثة آباء اللاهوت . وقد خلع عليه بالمجمع المسكونى الذى عقد فى افسوس سنة ٤٣١ لقب «العظيم» ، تلقى تعليمه فى الاسكندرية=

وأقام القلالي للنساك الزاهدين بالقرب من التجمعات الكينوبيونية (٩) ومع هذا ، وسواء كان القديس باسل قد عزم على تحقيق ذلك أو لم يدر بخلده ، فهناك حقيقة واضحة لاسبيل إلى إنكارها تؤكد استمرار ازدهار الحياة النسكية والسيق في الإمبراطورية الرومانية في الشرق جنبا إلى جانب، بل وفي بعض الأحيان كجزء من المؤسسات الكينوبيونية .

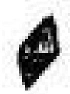
وعلى أرض فلسطين وسوريا نمت كل أنواع الحياة الديرانية ، فقد مدت هذه الحركة الجديدة جذورها إلى زمن بعيد ، وانتشرت بشكل سريع حتى توقفت نتيجة الفتح العربي في القرن السابع . وكانت فلسطين بوجه خاص تربة خصبة بسبب ارتباطها الوثيق بالحياة الجسدية للمسيح ، وها هي الآن تضيف إلى ذلك ، بازدياد القلالي والأسياق والأديرة فيها ، عامل جذب للحجيج ، لما تزخر به من رهبان مطهرين قادرين على منح البركات الخاصة والوصايا الروحية ، وكيف لا وقد صفت نفوسهم وشفت . وعلى الرغم من وجود غطى «الحياة المشتركة» Coenobia و «التوحد» anchorites إلا أن نظام السيق كان سائدا ومع أن هذا النظام كان يسمح بالمسئولية الفردية في حدود معينة ، إلا أنه في الوقت ذاته كانت له ، شأن الكينوبيون، قوانينه التي تضمن الطاعة للزعيم الروحي . وقدترك رهبان فلسطين ، مثلهم كمثل الرهبان المصريين ، مجموعة من الكتابات تكشف عن التنوع الوفير في حياتهم الرهبانية ، والنجاح الذي تحقق في تبيان النظام الملائم للمؤسسات المختلفة والمتوحدين . وكشفت العزائم الرهبانية عن نفسها في الأعمال الرائعة المتعددة لكتاب القرنين السادس وأوائل السابع ، مثل السير

---

وأثينا ، وكان صديقا لجوليان الذي أصبح إمبراطورا فيما بعد (٣٦١-٣٦٣). ولكنه وضع خطبتين قدحا فيه عندما أعلن الإمبراطور جوليان اعتناقه للوثنية . وكان جريجوري كارها للمناصب الكنسية . ومن ثم كثيرا ما توارى هربا إلى دير صديقه القديس باسل . غير أنه في عام ٣٧٩ دعاه الإمبراطور ثيودسيوس الأول ليتولى كرسي أسقفية القسطنطينية ، بعد أن ظل خاضعا للسيادة الآريوسية قرابة أربعين سنة . غير أنه لم يمكث في هذا المنصب سوى عامين فقط ، ثم انسحب من العاصمة إلى بلدته إبان انعقاد المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية . أنظر المقدمة القيمة التي كتبها Browne & Swallow عن جريجوري وأعماله في Nicene and Post-Nicene Fathers, Vol. VII, pp. 187-203 .

وراجع أعماله في نفس المجلد وفي P. G. XXXV, 531-720 (المترجم)

٩- أنظر Greg. Naz. or. 43 , 62 "on Basil"



التى خلفها كيرلس البيسانى (١٠) Cyril of Scythopolis والمذكرات المختلفة التى وضعها يوحنا المسك (١١) John Moschus عن الحياة الروحية فى كتابه «مروج الروح» Pratum Spirituale أو «مرقاة الفردوس» Scala Paradisi ليوحنا السلمى (١٢) John Climacus . وقد ترجمت هذه المؤلفات اليونانية إلى الصقلبية ، وبهذه الصورة انتقل ذلك التقليد إلى البلقان وروسيا ، واستخدمت أيضا فى دوائر الرهبنة الأرثوذوكسية بعد أن ضاعت فلسطين من الإمبراطورية .

وكانت آسيا الصغرى، وبلاد اليونان ومنطقة الجزر وأجزاء من البلقان تعتبر القلب النابض للإمبراطورية البيزنطية فى عصرها الوسيط ، وهنا لم يكن يخل إقليم واحد من الرهبان . كما أن بيزنطة كان لها نفوذها الكبير على أديرة صقلية وجنوب إيطاليا حتى نهاية القرن الحادى عشر عندما استوطن النورمان هذه المنطقة . ويعتبر القديس ثيودور الاستوديى أبرز آباء الديرانية فى الفترة البيزنطية الوسيطة ، فقد كان يعرف تماما حقيقة الشعور البيزنطى التقليدى ، ومن ثم عاد جهارا إلى ما خلفه الأقدمون خاصة تلك الكتابات النسكية التى وضعها القديس باسل القيسارى ، وراح يقرأها ويعيد قراءتها، حتى دفعه ذلك إلى القول بأن المسيح تحدث من خلال القديس باسل . ولما كان ثيودور قد ولد فى منتصف القرن الثامن ، فقد عاش وعانى ذلك الزمن الذى شهد الصراع من حول الأيقونات . وقد آوى إلى أحد الأديرة فى بيثينيا بآسيا الصغرى ثم انتقل بعد ذلك إلى دير ستوديوس فى القسطنطينية حيث أصبح مقدما للدير فى بواكير القرن التاسع . ووقف يدافع ورهبانه باخلاص عن التقديس التقليدى للأيقونات . على أن أهم ما يعنينا هنا هو عمله باعتباره زعيما روحيا ومصلحا ديرانيا .

---

١٠- هو من أشهر كتاب الهاجيوجرافيا (سير القديسين) فى القرن السادس ، قضى أخريات حياته فى سبق القديس ساباس Sabas فى فلسطين وما تزال معظم كتاباته باقية إلى الآن (المترجم)

١١- فلسطينى المولد ، عاش فى نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع . قام برحلات عديدة زار فيها سكنى الرهبان فى فلسطين ومصر وسوريا وآسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط وبحر ايجة (المترجم)

١٢- عاش فترة طويلة من الزمن متوحدا على جبل سيناء ، ووضع كتابه «مرقاة الفردوس» قسمه إلى ثلاثين فصلا هى المراقى التى يعلو فيها المرء روحيا إلى الكمال المطلق ، ولقى هذا الكتاب ذيوعا بين رهبان بيزنطة وترجم إلى السريانية واللاتينية واليونانية الحديثة والإيطالية والأسبانية والفرنسية والصقلبية (المترجم)

فقد خلف عددا من الخطب التي وجهها إلى رهبانه وعظات تكشف بجلاء عن شخصية هاد ملهم لأجل «معاينة الإله» Visio Dei . وتبين وصيته ورسائله ، بل وتعاليمه النسكية، مدى اهتمامه بنظام الحياة الديرانية ، والقواعد الصحيحة للقداسات ، وسمو التعقيدات. وعلى هدي باسل، نهج ثيودور سبيل الاعتدال في ممارسة الرهبانية ، وأكد بدوره الالتزام الكامل بالحياة المشتركة موضحا مسئوليات مقدم الدير في الناحيتين الإدارية والروحية . وهكذا أضحى الدير الاستوديي ، في الركن الجنوبي الغربي من القسطنطينية تحت رعاية ثيودور ، واحدا من أهم الأديرة في الإمبراطورية ، قوة وثراء . إليه يسعى أبناء البيت الإمبراطوري ليتلقوا فيه تربيتهم الأولى ، ويقدم الهدى والرشد للمؤسسات الصغرى في كييف بروسيا[١٢] .

وعند وفاة ثيودور الاستدويي في منتصف القرن التاسع ، كانت المبادئ الأساسية لحياة الكينوبيون البيزنطي قد اتضحت تماما . وقد يبدو شيئا محيرا في بعض الأحيان بالنسبة للمؤرخين الغربيين ، عدم عثورهم في الكنيسة الشرقية على تلك «النظم» التي تتسم بها الديرانية اللاتينية. ومع ذلك فان العالم الأرثوذكسي كان يحتوى على النموذج الذي يجمع بين المرونة والتنظيم ، ورغم أن الحماسة للحياة الديرانية لم ترتبط أبدا مع الشعور بالحاجة إلى

---

١٢- أقيم دير ستوديوس في القسطنطينية حوالي عام ٤٦٣ على يد أحد البطارقة الرومان ويدعى Studius ، الذي آثر الابتعاد عن روما وهي تعاني هوان الضعف وتنتظر السقوط في أيدي الجرمان ، واتجه إلى القسطنطينية ، حيث أقام بها كنيسة ليوحنا المعمدان ، وبنى إلى جوارها ديرا ضخما حمل اسمه . وقد اشتهر رهبان هذا الدير بـ «الساهرون» Akoimetoi لأنهم كانوا يواصلون أداء الخدمة الكنسية والقداسات بالليل والنهار دون انقطاع ، بحيث كانوا يقسمون إلى جماعات تتناوب ممارسة الطقوس تباعا بصفة دائمة . وقد احتل دير ستوديوس ورهبانه مكانة مرموقة في العاصمة والإمبراطورية على السواء . وكان على الإمبراطور أن يسعى سنويا لزيارة الدير في التاسع والعشرين من أغسطس ، أحد أيام عيد يوحنا المعمدان. وإلى هذا الدير آوى كل من الإمبراطور اسحق كومننوس عام ١٠٥٩ والإمبراطور ميخائيل السابع سنة ١٠٧٨ . وكان كثير من الروس يقومون بزيارة الدير ، بل ان بعضهم فضل الإقامة في هذا الدير ، وتدل شواهد أحد قبور القرن الرابع عشر على ذلك . يضاف إلى هذا أن شرف الدفن في جبانة دير ستوديوس كان يمنح لبعض العلمانيين الذين أدوا خدمات معينة للدولة ، ومن بين هؤلاء البطريق بونوس Bonus الذي أبلى بلاء حسنا في الدفاع عن القسطنطينية عام ٦٢٧ عندما تعرضت للحصار المزدوج من جانب الفرس والآفار ، بينما كان الإمبراطور هرقل خارج العاصمة لمحاربة الفرس في ديارهم .

أنظر Milingen, Constantinople, pp. 151-155 (المترجم)

تحديد قانونى كما هو حادث فى الغرب. وإذا ما فحصنا القواعد الكنسية ، والقوانين الإمبراطورية ، ومواثيق تأسيس الأديرة ، وتعليقات رجال القانون الكنسى ، والمصادر الأدبية وبصفة خاصة سير القديسين ، لاتضح لنا نوع المؤسسة الكينوبية فى الشرق ، والتجربة الروحية الغنية بنوعيها التوحدى والجماعى ، وكيف اقتبس العالمان اللاتينى والصقلبى منها سواء عن طريق الترجمة أو الاتصال الشخصى .

ومنذ البداية ، فان الرهبانية بوجودها داخل الإطار الكنسى على يد آباء للكنيسة حكماء مثل القديس أثناسيوس والقديس باسل ، قد نظمت حسب مقتضى الضرورة عن طريق المراسيم الصادرة عن المجامع المسكونية أو المحلية ، والتشريعات الإمبراطورية والقواعد الخاصة . وكان من الأمور الجوهرية الحفاظ على السلطة الأبروشية ، وفى الوقت ذاته امتلاك ناصية هذه الطاقة الهائلة الكامنة فى قوة تلك البيوتات الروحية ، لتصبح طوع أمر الكنيسة . وقد أظهر الرهبان خلال حمى الجدل الهرطوقى ، خاصة منذ القرن الرابع حتى السابع ، أنهم يشكلون قوة تثير القلاقل داخل المجامع، وأن يصبحوا مراكز مقاومة عنيفة فى أقاليمهم[١٤]. وتحاول كثير

---

١٤- لعب الرهبان المصريون دورا كبيرا فى القرنين الرابع والخامس لتأييد كنيسة الاسكندرية ضد القسطنطينية ، كنيسة وحكومة . ففى القرن الرابع ظهر دورهم واضحا فى مناصرة أنطونيوس لأثناسيوس فى بداية النزاع الأريوسى ، ثم قام الرهبان بحماية اثناسيوس أثناء هروبه المتتابع ، والذى بلغ ثلاث مرات ، إبان عهود الأباطرة قسطنطيوس وجوليان وفالنز ، وكان لهم الأثر فى صمود الأسقف السكندرى وعناده وتحديه لأباطرة الأريوسية . وليس أدل على ذلك من أن أول عمل أقدم عليه الإمبراطور فالنز عقب وفاة أثناسيوس عام ٣٧٣ هو مهاجمة الأديرة المنتشرة من فم النيل إلى طيبة ، معتبرا إياهم حماة النيقية . وقد حرص أسقفا الأسكندرية فى النصف الأول من القرن الخامس ، كيرلس وديوسقورس على اصطحاب أعداد كبيرة معهم من الرهبان فى مجمعى افسوس الأول والثانى ثم فى مجمع خلقيدونية (٤٣١ ، ٤٤٩ ، ٤٥١). لتأييد وجهة نظرهم . راجع للمترجم «الدولة والكنيسة - الجزء الثالث - والجزء الخامس» .

وأنظر

Budge, op. cit., p. 57

وكذلك

Hardy, op. cit., p. 37, 74 و O'Leary, op. cit., p. 327

و

Stanley, op. cit. p. 329-30 .

و

Kidd, A history of the Church, II, pp. 105-6 .

و

Jones, Later Roman Eman Empire, I, pp. 214-216 .

ودكتور أسد رستم : كنيسة أنطاكية ، جـ١ ص٣١٥ .

وأنظر ATHANAS. ep. ad Dracontium (المترجم)

من المراسيم التنظيمية التى صدرت عن المجامع الكنسية الأولى القضاء أو التخفيف من غلواء هذه الناحية ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك القانون الرابع من قوانين مجمع خلقيدونية Chalce-don (سنة ٤٥١) الذى بسط بوضوح أبعاد هذه المشكلة واقترح العلاج الملائم لها .

«هناك من يسلكون درب حياة رهبانية نقية ، فلهم الاحترام اللائق والتقدير . وهناك أيضا بعض يتخذ من الرهبانية ذريعة لاثارة القلاقل والاضطرابات فى الشئون الكنسية والمسائل السياسية و ويتحلقون من حول المدائن هائمين بلا هدف ، بل وشرعوا فى إقامة أديرة لأنفسهم، لهذا فقد تقرر أن لايسمح لأحد بتأسيس دير أو هيكل إلا بعد موافقة أسقف المدينة . كما تقرر أيضا أن يخضع الرهبان فى كل ناحية ، سواء فى المدن أو الأقاليم ، لسلطان الأسقف ، وأن يكرسوا أنفسهم لصمت تعبدى، منصرفين بكليتهم إلى الصوم والصلاة داخل تلك البقاع التى طلقوا من أجلها الدنيا ...» .

ومضى القانون بعد ذلك إلى بيان أنه إذا دعت الضرورة إلى قيام الراهب بعمل خارج ديره فليكن ذلك بتصريح أسقفى . وقد أكدت التشريعات ، الكنسية والإمبراطورية ، والتى صدرت فيما بعد ، مسئولية الأسقف الكاملة .

وكانت هناك مشكلة أخرى ملحة تتركز فى ضمان استمرارية بقاء كل من هذه المؤسسات الرهبانية ، فأعاد التشريع ثانية مسألة الوقف المناسب ، بل وفى بعض الأحيان كان يضيق الخناق على اقامة أديرة جديدة . ولاريب في أن اللاأيقونيين كانوا يمثلون عداء كاملا للأديرة . حتى إذا منيت الحركة اللاأيقونية بالهزيمة ، جاء رد الفعل عنيفا إلى الحد الذى كان فيه على مجمع القسطنطينية الذى عقد سنة ٦٨١ أن يحرم على الأساقفة اقامة الأديرة من دخول أبروشياتهم حتى لايترتب على ذلك انزال الضرر بكراسيهم الأسقفية . بينما كان بعض الافراد ينظرون إلى الدير كعمل من أعمال البر، ومن ثم كانوا ينفقون بسخاء . وفى بعض الأحيان كان بعض مؤسسى الأديرة يتعاملون مع المؤسسة الرهبانية كما لو كانت ملكا خاصا لهم ، فيبيعون جهرة أو يستخدمون ما كان قد خصص لاستخدامها ، ويعينون مرشحهم مقدما للدير. وهنا كان لابد أيضا من اتخاذ خطوات معينة فى محاولة لتجنب ما قد يصل بهذه الأديار إلى مؤسسات دنيوية من الناحية العملية فأعيد التأكيد من جديد على إبراز سلطة الأسقف فى هذا المجال ، وضرورة الاحتفاظ بترخيص التأسيس فى الأرشيف الأسقفى ، وعدم ترشيح مؤسس الدير لنفسه أو غيره كمقدم للدير دون موافقة الأسقف .

ولم يحدث أن انتقص من حجم وقف الأديار ، وبعد انقضاء الحقبة اللاأيقونية وحتى نهاية الإمبراطورية ، أصبح واضحا أنه من المستحيل ، حتى مع التحريم الإمبراطورى، التحكم فى استمرار هبة الأراضى أو وقفها من أجل ذلك الغرض. وإن كان الإمبراطور نقفور الثانى فى القرن العاشر، قد منع إقامة مؤسسات ديرانية جديدة وحرم وقف الأراضى على الأديار إلا فى أضيق الحدود، رغم أنه كان تقيا من الزاهدين ، راودته نفسه ذات مرة الاعتكاف فى إحدى صوامع الناسكين على جبل آثوس . وأشار إلى أن جوهر الرهبنة لايكمن فى إقامة الأبنية الرائعة واقتناء الضياع الواسعة ، بل فى محاولة الاقتداء بآباء الرهبانية الأوائل فى تقشفهم المقدس . وقد لقيت وجهة نظر نقفور التأييد من جانب بعض الأباطرة الذين جاءوا من بعد ونفر من رجال الأكليروس . ولكن الملكية الديرانية تعرضت لهزة عنيفة من جراء الفتح العثمانى .

وقد تمخض عن إدارة الأمور الزمنية للحياة الرهبانية العديد من المشاكل ، يعود بعضها إلى الرغبة فى ايجاد نظام معين يحظى بالاحترام على أوسع نطاق ، وبعض ثان إلى أن الأديرة نفسها قد هوت من عليائها ، ذلك أنه على الرغم من الصيحات التى أطلقها دعاة الإصلاح ، العلمانيون منهم والكنسيون ، إلا أن عددا كبيرا من الأديرة ظل يعمل على زيادة ملكيته ، وربما كانت هذه الممتلكات من الأراضى مبعثرة ومتباعدة. وفى بعض الحالات كان يعين قيم Epitropus للإشراف على إدارة مثل هذه الأمور، ثم ابتدع الإمبراطور ورجال الكنيسة شيئا آخر، هو أن يمنح الدير بكل ممتلكاته كهبة Charisticum وكان هذا يعنى أن يعهد بالدير وممتلكاته إلى حام Charisticarius يضطلع بادارة أراضيه بما يحقق كفاية الجماعة من احتياجاتها اليومية والحفاظ على كيانها . وقد ترك ذلك بصماته - قدر المستطاع - على مجال التطور الاقتصادى للضياع الديرانية ، ولكن هذا النظام فى حد ذاته كان بابا ولجت منه الفوضى ، مما عرضه بالتالى للنقد من جانب رجال الدين. وإن كان هذا النظام لم يحل دون رفض بعض مؤسسى الأديار ، بنوع خاص باصرار أن تمنح أديرتهم إلى أى إنسان أو تحت أى ظروف كما فعلت الإمبراطورة إيرين سنة ١١١٨ . وعلى العموم فقد لقيت هذه التجربة القبول، على أساس أن يبقى للدير سماته الرهبانية .

وليس ببعيد أن ينتمى مؤسسو الأديرة ، من العلمانيين أو الأكليروسيين ، إلى طبقات متباينة ، وقد شهد القرن الحادى عشر القديس دروثيوس Dorotheus يقيم ديره فى آسيا الصغرى بمساعدة اثنين فقط أو ثلاثة من أصدقائه والقرويين ، ثم ما لبث أن حصل بعد ذلك

على التأييد والدعم الإمبراطوري . وغالبا ما كان للدير حماته العديدون والمحسنون ، ومن الممكن أن تنتقل حقوق المؤسس إلى آخرين عن طريق الإرث أو الاتفاق أو البيع أو التوكيل . ويضم الدير على الأقل ثلاثة رهبان (وربما عمد المؤسس إلى تحديد العدد) وتدون الهبات الخاصة به في وثيقة تسمى «المختصر» brevion [١٥] وتودع في دار المحفوظات الأسقفية . ويعتبر «المختصر» هذا جزءاً من ميثاق التأسيس ، الذي يحتوي بالإضافة إلى ذلك على رغبات المؤسس فيما يتعلق بالالتزامات الطقسية (كالصلاة من أجله وأسرته ، وقواعد الصيام والاحتفالات الدينية بصفة خاصة) ، ويحدد الواجبات الخاصة التي يجب أن تلتزم بها الجماعة.

وهناك أنواع عديدة من المؤسسات الديرانية مثل الدير الأسقفي eparchial[١٦] الذي يخضع مباشرة لإشراف الأسقف . وقد حظيت بعض الأديار بامتياز خضوعها للسيادة الأسقفية المباشرة ، أو تحت السيادة الكنسيةالعليا في حالة كنيسة مستقلة [١٧] ، وكانت الأديرة الإمبراطورية «أديار إمبراطوريتي» مستثناة من الخضوع للسلطة المدنية أو الكنسية وغيرها عدا الإمبراطور أو من يمثله [١٨]، وقد حصلت مثل هذه الأديار ، سواء الإمبراطورية منها أو التي أقامها آخرون ، على ذلك الامتياز من الإمبراطور نفسه ، وهكذا بمقتضى شروط تأسيسها ، بالتحرر من السيادة الإمبراطورية أو البطريركية أو الأسقفية ، أو حتى سلطان أفراد معينين. وإن كانت هناك بعض المظاهر الرسمية التي تتعلق بإقامة الدير ، يأتي في مقدمتها موافقة الأسقف ، ثم التدشين الأسقفي الذي يجري في احتفال يليق بهذه المناسبة ، ويتبع ذلك تثبيت الصليب[١٩] عادة في الموضع الذي سوف يقام فيه المذبح ، حتى إذا انقضت سنوات ثلاث أقيم احتفال مهيب وأعلن فيه الترتيبات التي أعدها المؤسس من أجل الحفاظ على الدير .

---

١٥- مشتقة من breve وكانت اللاتينية هي لغة الإدارة في الإمبراطور الرومانية الشرقية في أيامها الأولى .

١٦- مشتقة من eparch أو diocese .

١٧- كما في قبرص حيث كان يوجد رئيس للأساقفة.

١٨- قارن بما حدث على عهد الإمبراطور نقفور الثاني فوقاس الذي تحدث عن «السبق Lavra الجديدة في امبراطوريتي»، في ميثاق تأسيسه للسبق الكبير على جبل آثوس (ورغم أنه سمي بالسبق، إلا أنه كان كينوبيونا) .

١٩- من هنا جاء مصطلح «صليبانية» Stauropegial رغم أنه ينطبق أساسا على دير يخضع للسلطة البطريركية المباشرة .

وقد أدت ضرورة اختبار النوايا ، والتخلص من الدوافع غير الحقيقية، وتأمين حقوق الآخرين ، إلى أن تجعل من تنظيم الانخراط فى سلك الحياة الرهبانية مسألة جوهرية . ذلك أنه كان لابد من تحديد وضع العبيد، فلم يكن من المسموح به إغراؤهم لهجران سادتهم ، أما الفارون فيمكن استردادهم خلال الأعوام الثلاثة الأولى التى تعتبر فترة اختبار (تبعا لما جاء فى النوفلا الخامسة من متجددات جوستنيان) ، أو حتى بعد ذلك حسبما ورد عند ليو السادس (نوفلا ١٠) . ولم يكن بمقدور طرف واحد أن يفض زواجا ، أو يفسخ خطبة . أما فى حالة دخول الزوجين درب الرهبنة ، فانه كان يتحتم ضمان إعالة ذويهم كالأطفال أو الآباء . وحسب قوانين المجمع الذى عقد فى قاعة القبة[٢٠] Trullo (٦٩١) تم السماح للعذارى بدخول الدير فى سن العاشرة ، رغم أن القديس باسل الكبير كان قد اقترح سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، وذكر ليو السادس (نوفلا ٦) أنهن إذا دخلن الدير فى العاشرة من عمرهن بات عسيرا عليهن التخلص من ممتلكاتهم حتى سن متأخرة . وبمقتضى بعض التعهدات كان للدير الحق والإرث الشرعى شأن الهبة غير المشروطة . أما ما كان قد أعطى للدير على سبيل الهبة ، سواء من الراشدين أو الآباء من أجل أطفالهم ، كان لابد أن يبقى حتى بعد أن يترك هؤلاء الأفراد الدير[٢١]. إلا فى حالة واحدة وهى إذا كان الارتحال بسبب شكاية مقبولة ضد رئيس الدير .

وكانت المشكلة المزدوجة التى تواجه الدير فى ملكيته ونظامه ، تنشأ عندما ينتقل أحد الرهبان من دير إلى آخر ، وقد قرر جوستنيان أن تبقى الملكية من حق الدير الأول الذى ينتمى إليه الراهب . وفى الوقت ذاته فان مقدمى الأديرة كانوا يتعرضون للتوبيخ لسماحهم بحدوث ذلك العمل الذى يستوجب الإدانة باعتباره مخالفا لنهج الحياة الرهبانية . وكان على الديرانية الشرقية أن تكابد أحيانا ذلك اللوم الناتج عن حالة التنقل هذه بعكس الاستقرار المكانى Stabilitas loci الذى ركز عليه باصرار القديس بندكت Benedict من نورسيا Nursia (رغم ما ذكره من أنه كان يضع فقط «القاعدة الأولية للمبتدئين » مشيرا إلى أن المسألة لاتحتاج بالضرورة إلى وثاق يمسك بخلق الراهب المتمرس) ، ولكن الشئ الذى لا مراء فيه أن هذا

---

٢٠- أنظر قبله (المترجم)

٢١- المجمع المسكونى السابع (٧٨٧) القانون رقم ١٩ .

التجوال لم يكن يحظى بالقبول من جانب السلطات الكنسية البيزنطية أو مؤسسي الأديرة العلمانيين . وقد كشفت القوانين المجمعية والقواعد الأسقفية والتعليقات التى وضعها فقيه القرن الثانى عشر بالسامون[٢٢] Balsamon أنه يمكن فقط ، بعد مراعاة التحفظات الضرورية ، انتقال راهب من دير إلى آخر ، وفى هذه الحالة كان عليه أن يحصل على موافقة رئيسه وأسقف الناحية ، ولأسباب وجيهة وصريحة . وكانت سيق جبل آثوس فى القرن العاشر تسمح لرهبانها بالذهاب إلى أديرة أخرى أكثر قدرا ، وذلك بموافقة رؤسائهم السابقين ، إذا ما كان ذلك رغبة منهم فى السمو الروحى . وقد أعطى مجمع سنة ٦٨١ (القانون رقم٤) للأسقف الحق فى نقل أي راهب من دير إلى آخر ما استشعر أن رغبته فى ذلك صادقة .

ومنذ الأيام الأولى للرهبنة المصرية ، كانت هناك مرحلة لابد أن يجتازها أولئك الذين نذروا أنفسهم للحياة الرهبانية ، ورغم أن القديس باسل لم يحدد فترة زمنية محددة لهذه التجربة ، إلا أنه كان يعتبرها مسألة جوهرية[٢٣] بينما حدد جوستنيان ثلاث سنوات للعبيد ومجهولى الهوية ، على حين جعل من حق مقدم الدير قبول الآخرين لحظة اقتناعه أنهم قد أصبحوا لائقين. (نوفلا ١٢٣) وقد سمح هذا التشريع بكل تأكيد بالانخراط على الفور فى سلك الرهبنة . أما مجمع القسطنطينية المنعقد فى سنة ٦٨١، فقد جعلها (فى القانون رقم ٥) ثلاثة أعوام للجميع على السواء ، وإن كان قد استثنى من ذلك أولئك الذين كانوا يحيون وسط هذا العالم حياة القديسين الاطهار (وكانت ستة أشهر فقط كافية لهؤلاء) ، والمبتدئين (أو الآخرين) الذين كانوا يعانون أدواء المرض ويجب لذلك قبولهم دون إبطاء فى درب الرهبنة. وبغض النظر عن هذه الاستثناءات ، فان الواقع العملى فيما بعد لم يكن يلتزم غالبا بهذه السنوات الثلاث ، إما بناء على توجيهات مقدم الدير فى بعض الأحيان ، أو تبعا لميثاق التأسيس فى أحايين أخرى . وطبقا لنمط typicon القديس اثناسيوس الذى وضع لسيق جبل آثوس. كانت فترة الاختبار عاما واحدا . يحتوى كتاب الصلوات Euchologion على نظام كسوة الراهب أو الراهبة ، وتاريخ تصنيف هذا الكتاب غير معروف ، ولكن الطقسين البيزنطيين للرداء[٢٤] «الكبير» و «الصغير» وجدا فى مخطوطات سابقة تعود إلى القرنين

---

٢٢- أنظر قبله (المترجم)

٢٣- Longer rule 10

٢٤- وكان هذا الملبس Schema هو اللباس الأسود المميز للراهب والرمز الواضح للحالة الرهبانية .

الثامن والتاسع ، وبينما ترتدى الكسوة الكبيرة من جانب الراهب القديم المجرب، كانت الكسوة الصغيرة تدل على ابتداء الانخراط فى سلك الحياة الرهبانية . ويتم استقبال المبتدئ إذا كان قسيسا من جانب رئيسه، فاذا كان دون ذلك جرت مراسم الاستقبال على يد القسيس فى حضرة الرئيس الذى يخضع له ذلك المبتدئ (٢٥).

وعلى رأس الكينوبيون يأتى المقدم (ويدعى غالبا الرئيس hegoumenos أو الرئيس العام Kathegoumenis) ، وتختلف طرائق اختياره ، فربما عين بواسطة مؤسس الدير، أو أسقف الناحية أو البطريرك . وفى بعض الأحيان كان يختار على يد الإخوة من بين عدد من المرشحين، وغالبا ما كانت تفاصيل هذه الإجراءات تدون فى ميثاق التأسيس ، ككيفية الاقتراع. هل يجرى علانية أو فى سرية، أو من له حق صوت التغليب إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وكان من الضرورى أن تحصل عملية الاختيار على تأييد أسقف الإقليم أو البطريرك فى حالة الدير الصلبانى Stauropegial . وعادة ما كان مقدم الدير يحتفظ بمنصبه مدى الحياة ، ولكنه ربما يعتزل أو يعزل لدواع معينة. وهو بحكم وظيفته مسئول عن الأمور الروحية والزمنية للدير . فهو الذى يعين الرهبان الأحداث سنا تحت رعاية أب روحى وهو أكبر الرجال الذى يتولى مهمة تعليمهم وسماع اعترافاتهم ، وبمقدوره فقط أن يمنح الغفران إذا كان البطريرك أو العادة تسمح له بذلك . وفى بعض الأحيان ، كان رهبان العصور الوسطى يدعون ذلك إذا لزم الأمر بحكم فضيلة النعمة الإلهية Charisma وكان يعهد بالمهام القداسية إلى مجموعة من الموظفين كل فى اختصاصه ، فهم يوقظون الإخوة فى وقت مناسب ويتأكدون من أن أحدا لايغط فى نومه ، بشرثر أثناء القداسات ، ويشرفون على الطقوس والترانيم ويعنون بكتب الصلوات .

---

ولهذا فان مصطلح Schematologion (حفلة التلبيس) يرد فى الجزء الخاص بالاحتفالات الديرانية فى كتاب الصلوات Euchologion وكانت كلمة Schema تستخدم فى بعض الأحيان للدلالة على « الأسلوب الرهبانى للحياة». للحصول على ترجمة فرنسية لهذه المراسم .

أنظر E. Amand de Mendietta, La presqu`ile des Caloyers ile mont-Athos "Burges 1955" pp. 324 ff.

٢٥- مجمع القسطنطينية سنة ٦٨١ (القانون رقم٢)

وفيما يتعلق بالإدارة الداخلية ، كان الأويكونوموس يتولى الإشراف العام على ميزانية الدير ، ويتابع بمساعدة أعوانه كل ما يتصل بالنواحى المالية، والأردية ، والطعام والشراب. ويخصص الدخل للانفاق على المكتبة ونسخ الكتب وتطبيب المرضى ورعاية الغرباء والأخذ بيد ذوى الفاقة . هذا إلى جانب مسئوليات اضافية تقع على كاهل الجماعة نتيجة تكليف خاص ينص عليه ميثاق التأسيس ، كالإنفاق على مستشفى أو دار للأيتام ، أو توزيع الصدقات فى مناسبات معينة. ويراعى بصورة دقيقة عند تحديد الاختصاصات أن يشارك الجميع فى الأعمال النمطية اليومية . وقد أعطى ثيودور الاستوديى صورة حية عن الواجبات العديدة التى خصصها لرهبانه فى المصانع أو الحقول أو الدير نفسه ، وحدد معالم التعليم ونسخ الكتب . وكانت القدرة على التفكير الواضح بالنسبة له ، كما عند القديس يوحنا الدمشقى St. John of Damascus ، تعنى الفهم العميق للكتاب المقدس وآباء الكنيسة والقوة الكبرى فى مواجهة الهراطقة .

وليس من الصعب استعادة تصور الحياة اليومية داخل أحد الأديرة الكبيرة والشهيرة مثل الدير الاستوديى ، أو دير القديس ماماس Mamas بالقسطنطينية تحت رعاية سيمون Symeon ، حتى أدق التفاصيل عن قائمة الطعام الاستوديية ، والوجبات المعتادة لتسعة من الرهبان بقلنسواتهم حول كل مائدة ، وخزانة ثيابهم وأرديتهم التى يغيرونها مرة كل أسبوع . وفوق هذا وذاك فان الحياة المشتركة كانت تتركز أساسا فى الخدمة ، تلك القداسات التى تؤدى فى كنيسة الدير فى أوقات متفرقة من الليل والنهار ، كانت تعرف بالساعات القداسية [٢٦] ، وهى تشتمل أساسا على الصلوات ، والمزامير ، ودروس عن الكتاب المقدس ، والترانيم والأناشيد وكانت تتنوع تبعا للأوقات والفصول . وعلى سبيل المثال فقد كان لعيد الفصح طقوسه الرائعة وترانيمه ، بينما يتم على مدار السنة من يوم إلى آخر ، إحياء ذكرى أناس

---

٢٦- صلوات منتصف الليل ، الفجر Orthros، الساعة الأولى Prine ، الساعة الثالثة Terce الساعة السادسة Sext، الساعة التاسعة None، الغروب Vespers ، صلاة قبل النوم Compline (انتهاء العشاء Apodeipnon )

أنظر Wellesz, Byzantine Music ويتضمن مختصرا عن القداس البيزنطى ومحتوياته (مع البيليوجرافيا) . وكان بعض الرهبان يتخلفون عن صلوات الثالثة والسادسة والتاسعة فى بعض أيام الأسبوع، كما أن القائمين بنسخ الكتب فى دير ثيودور الاستوديى كانوا يعفون من ساعات معينة .

ضمنوا بطهارتهم مكانا فى التقويم القداسى للكنيسة الشرقية شأن القديسين المحليين الذين حظوا بالإجلال فى أقاليمهم . ويعتبر القداس الإلهى عصب هذه العبادة المشتركة . فاذا ما تساءلنا عما يمكن أن تعنيه هذه العبادة للراهب ، فإن ذلك يتضح فى نوعية التعليم الموجه إلى حياته الروحية ، والذى يتم بصورة منتظمة داخل الجماعة الديرانية . وفى هذه التقارير التى تتناول التجارب الشخصية لأولئك الذين قطعوا شوطا بعيدا فى طريق الروح مثل ثيودور الاستوديى وسيمون اللاهوتى الجديد .

وكان آباء الرهبانية الأرثوذكسية فى العصور الوسطى، شأن أسلافهم فى بواكير المسيحية، يعتبرون الكينوبيون بداية لمعظم الرجال ، فى الوقت الذى يذهب فيه قليلون إلى أبعد من اعتباره الطريق القصير. وقد تعرض الهيكل الديرانى للكنيسة الشرقية لتغيير هائل خلال العصور الوسطى وما بعدها. ولعل جماعات النساك قد ائتلفت تحت رعاية أب بطريق الاختيار ، غالبا ما كان يعرف بالمقدم Protos وفى القرن السادس كان هناك فى فلسطين رئيس واحد لجميع الكينوبيوات وآخر للاسياق. وكان لأديار جبل آثوس وجبل لاتروس Latros أو جماعات متيورا Meteora فى تساليا Thessaly مقدموها . وفى بعض الأحيان كان يعهد إلى أحد الأديار بالإشراف على أديرة أخرى باعتبارها توابع له، وغالبا ما كانت مجموعات القلالى Scetes أو صوامع المتوحدين تخضع لواحد من الكينوبيوات .

ولم يؤد وجود الكينوبيون إلى القضاء على السيق ، بل ظلت قائمة . ومع العصور الوسطى المتأخرة تطور النظام الرهبانى الفريد idiorhythmic وما تزال بعض أديرة جبل آثوس تسير على نفس نهجه إلى اليوم . ويؤكد البعض أن هذا النظام يعود إلى جبل آثوس نتيجة لما اعترى الحياة المشتركة من فساد وبنوع خاص بسبب الاضطرابات التى اجتاحت هذه المنطقة إبان الحرب الصليبية الرابعة أو إغارات «المغاور»[٢٧] Catalan وربما كان هذا عاملا مساعدا.

---

٢٧- هم جماعات من المرتزقة الأسبان ، ذاع صيتهم فى النصف الأخير من العصور الوسطى، وعرفوا بالجماعات القطالونية على الرغم من أنهم يضمون عناصر مختلفة إلى جانب القطالونيين من أرغونة ونافار ، وجدوا أنفسهم ولاعمل لهم بعد أن انتهت الحرب بين أرغونة وشارل الثانى كونت أنجو فى أواخر الثالث عشر . فاختاروا من بينهم روجر دى فلورRoger de Flor زعيما لهم، وهو ينتمى لأصل ألمانى ، وكان اسم عائلته Blum أى الزهرة Flower فنقلت إلى الأسبانية على هذا النحو Flor . وكان روجر فى أول الأمر جنديا فى فرسان الداوية، ولكنه طرد لاختلاسه ولما كان الإمبراطور البيزنطى أندرونيكوس الثانى يعانى من هجمات الأتراك العثمانيين، فقد استنجد بروجر وجماعته ، فلبى روجر دعوته شريطة أن يحصل على لقب والدوق =

ولكن بذور الرهبانية الفريدة idiorrhythmic كانت كامنة فى القلالى والأسياق الأولى. وكان الرهبان داخل هذا الدير الفريد idiorrhythmic يتجمعون فى «أسر» صغيرة ، كل منها تحت رعاية راع، وللدير نوع من الملكية المشتركة تدار بواسطة اثنين أو ثلاثة يختارون سنويا كقيمين opitropi وكان يسمح للأفراد فى هذا النظام بحق التملك الخاص ويعيشون داخل «أسرتهم» عدا الوجبات المشتركة فى عيد الميلاد وعيد الفصح أو الاحتفال الخاص بالقديس الذى ينتمون إليه ، ولكن القداس كان يتلى فى الكنيسة المشتركة .

ولقد أبانت المصادر الديرانية عن مدى المرونة التى كانت عليها التنظيمات الأساسية ، كما أوضحت أيضا مظاهر التعاون المشترك فى الحياة الديرانية والنسكية . ولم يكن على الراهب البيزنطى عادة أن يفاضل بين طريقة وأخرى، فغالبا ما كان الرجال يتوقون إلى سلوك درب حياة توحدية بعيدا على الجبال أو فى الكهوف ، قبل أن يتوفر الاستعداد لمثل هذه التجربة . ولدينا من القرن الحادى عشر القصة الشهيرة لذلك الأسقف اللاتينى الذى اتهم بارتكاب حادثة قتل غير عمدى ، وجاء بناء على ذلك ليكفر عن هذا الإثم فى الكنيسة الشرقية ، ولكنه نصح فى القسطنطينية بأن يعيش «متوحدا» داخل أحد الكينوبيوات، حيث سيفيد كثيرا من قهر

---

الأعظم» Megadukas ويتزوج ابنة أخ الإمبراطور ويتقاضى جماعته ضعف ما يتقاضاه المرتزقة العاديون. وهكذا أتى روجر وجماعته التى يبلغ عددها قرابة العشرة آلاف إلى القسطنطينية فى سنة ١٣٠٣ ، ودخلوا على الفور فى نزاع مع الجنوية الذين أحسوا بضياع امتيازاتهم ، ومن ثم عمل الامبراطور على نقلهم إلى آسيا الصغرى حيث أفلحوا فى التصدى للعثمانيين وفك الحصار عن فيلادلفيا Philadelphia إلى الشرق من سميرنا Smyrna غير أنهم عاثوا فى آسيا الصغرى فسادا فاستدعى الإمبراطور روجر إلى العاصمة ، فاحتل فى طريقه غاليبولى ، وحصل من الإمبراطور على لقب القيصر، ولكنه لم يلبث أن قتل مع عدد كبير من جماعته فى أدرنة على يد ميخائيل التاسع ابن الإمبراطور الذى كان مقيما هناك ، فانتقلت فلوله المتمركزة فى غاليبولى إلى أوروبا وخربوا تراقيا ومقدونيا وحطموا أديرة آثينا وطيبة التى كانت خاضعة للحكم الفرنسى منذ الحملة الصليبية الرابعة ، وظلت لهم السيادة هناك حتى عام ١٣٧٩ عندما قضى عليها الغزو التاتارى .

أنظر Vasiliev, op. cit. II, pp. 604-608

وأيضا D. Waley, Later Medieval Europe, pp. 199-200

وكذلك دكتور أسد رستم : الروم ، الجزء الثانى . ص٢٢٣- ، ٢٢٥ (المترجم)

ارادته[٢٨]. وكانت الحياة المشتركة هي البداية الطبيعية ، ثم يمضي الراهب بعد ذلك مع استحسان رئيسه، إلى ممارسة حياة نسكية أشد صعوبة يمكن بها حقا بلوغ أعلى مراتب السمو الروحي . وهكذا وجدنا أن كثيرا من الكينوبيوات كان يسمح لها بالانسحاب من الجماعة لهذا السبب، وفي بعض الأحيان لتعود في وقت لاحق . وقد تخلى سيمون اللاهوتي الجديد عن منصبه كمقدم للدير بعيش حياة توحدية. وهناك بالطبع أمثلة لرجال ونساء أصبحوا نساكا دفعة واحدة ، وانتهج بعض من هؤلاء طرائق خاصة وأنماطا رهبانية تثير الدهشة ، منهم أولئك الذين عرفوا بالعموديين وهم الذين أمضوا حياتهم فوق الأعمدة . ولم يكن ذلك يشكل خطورة بالغة على حياة الراهب كما قد ينصرف الذهن غالبا ، حيث لم يبد أن أحدا منهم قد تعرض للسقوط ، فقد كان هناك في بعض الأحيان إطار يحيط بقمة العمود ، أو حتى مجرد مأوى جزئي[٢٩] ، ويمكن بلوغ قمة العود عن طريق سلم . هذا بينما عاش بعض آخر في الأشجار ، ولذا ذاع صيتهم باسم الشجريين، بحيث وصف أحدهم بأنه كمن يسكن «في شجرة لوز كطائر مفرد». وكانت خشونة الطبع من هذا النوع ، كما بين ذلك يوحنا السلمي John Climacus وآخرون ، وراء معظم هؤلاء الرجال. كما أن كثيرا من التشريعات الديرانية كانت توجه إلى التحكم في الفردية المفرطة، التي يجب أن تكون مجرد عطاف للغفران الذاتي وتيه النفس . ومن ناحية أخرى فان أولئك الذين كابدوا مثل هذه المشقات حتى وافتهم آجالهم، غدوا موضع الاحترام العميق، ونالوا في حياتهم نعما جعلتهم ذوي مقدرة خارقة للطبيعة (Charismata) أهلتهم لإتيان المعجزات والشفاعة لإخوانهم المسيحيين .

وعلى امتداد العصور الوسطى، بقيت الرهبانية ، عنصرا مكملا للحياة البيزنطية، ورغم أن كثيرا من الأديرة والمتوحدين لم يعد لهم ذكرى سوى إشارة مختصرة في المزمنات أو الأدب ، فان عديدا أيضا من المراكز القديمة والأديرة ما زال معلوما تماما ، وغالبا في المدن الكبيرة مثل القسطنطينية أو سالونيك وضواحيهما. فهناك في آسيا الصغرى، ليس بعيدا عن بحر مرمره ،

---

٢٨- Nicetas Stethatus, vie de Synleon le Nouveau Theologien, ch. 52-54 (ed. and trans . I. Hausherr, Orientalis Christiana XII, Rome 1928 , pp. 68 ff. )

٢٩- H. Delehaye, Les Saintes Stylites, p. CLVI كمثال مصغر في تقويم Menologion باسل الثاني .

كان جبل أوليمبوس Mt Olympus بالقرب من بروسا Brusa، مألوفا منذ أزمنة مبكرة ، تنتشر على منحدراته وإلى جواره الصوامع والأسباق والأديرة وظل لفترة طويلة بعد تدهور هذه المؤسسات تحت الحكم التركى، يعرف بـ «جبل الرهبان». وتمتلئ آسيا الصغرى بكثير من هذه المراكز ، مثل جبل لاتروس Mt Latros فى أقصى الجنوب، أو أديرة وصوامع كبادوكيا الشهيرة الآن بكنائسها المبنية من الصخر والمزينة بالفريسك . وكان لمنطقة جنوب إيطاليا وصقلية أيضا دورها فى الحركة الديرانية ، وقد ظلت بعض الأديرة فى صقلية قائمة بعد الفتح العربى، كما أنها لقيت التشجيع لفترة قصيرة من جانب النورمان . وقد ازدهرت الديرانية فى جنوب إيطاليا بصفة خاصة ، وأضحت ملاذا للصقليين الذين هربوا إليها فرارا من العرب . ويأتى «الجبل المقدس» الكالابرى بين الجبال يعلو روسانو Rossano حيث ما تزال إلى اليوم كنيسة صغيرة وقد عاش القديس نيلوس St Nilus فى هذا الإقليم قبل أن يتجه إلى الشمال ليؤسس دير جروتلفراتا Grottaferrata اليونانى قرب روما سنة ١٠٠٤ .

أما الجبل المقدس بلا منازع فقد كان جبل آثوس Mt Athos، وهو عبارة عن شبه جزيرة ناتئة داخل البحر الإيجى بالقرب من سالونيك، وكان به جماعة من الناسكين فى القرن التاسع، وفى عام ٩٦٣ أقام القديس أثناسيوس ، الأب الروحى وصديق الإمبراطور نقفور فوقاس ، أول وأهم كينوبيون مستعينا فى ذلك بالعون الإمبراطورى، حتى إذا كان منتصف القرن الحادى عشر راح يزخر بكل أشكال الحياة الرهبانية ، وإن كان فى الحقيقة يعوزه النظام. وأخذ آثوس يسير قدما نحو ائتلاف الأديرة والأسباق والمتوحدين تحت رعاية آباء مختارين هم المقدمون . وقد حظيت المنطقة بالحماية الإمبراطورية وأصبحت محل التوقير العميق والتقدير، واجتذب الجبل إليه الرهبان من كل أنحاء العالم الأرثوذكسى ، وكذا من الغرب. وقد ارتبطت بعض أديرته ارتباطا خاصا بعدد من الأقطار ، فقد كان افيرون Iviron مؤسسة جورجياوية (ابيرية)، وخيلانداري Chilandari صربيا ، وبانتليمون Panteleimon روسيا (حتى أنه كان يسمى أحيانا الروسى) ، وفاتوبيدى Vatopedi أرمينيا ، ولبعض الوقت كان هناك ديرسانت مارى الامالفى. ولايعنى هذا أن الجبل المقدس لم يتعرض لفترات من الانحلال فى هذه المؤسسات الديرانية واضحة على أولئك الرجال الذين ارتحلوا إلى مناطق يقيمون فيها أديرة أخرى مثل دير الكهوف الموجود فى كييف من القرن الحادى عشر باسم القديس أنطونيوس ، أو الدير الصربى فى القرن الرابع عشر. والحقيقة أن الانحلال السياسى الذى عانته بيزنطة ، صحبته

قوة متزايدة للجبل المقدس، ذلك أنه منذ القرن الثالث عشر وما تلاه شهدت المنطقة حركة روحية نشطة بعيدة المدى، تركزت فى حياة مفكريه ومتأمليه الذين عرفوا بالزاهدين الصامتين hesychasts . وكان بعض من هؤلاء لاهوتيا ، كما أن بعضهم مارس أحيانا بعض الوظائف الكنسية ، تخص بالذكر منهم القديس جريجورى بالاماس[٣٠] St. Gregory Palamas الذى يعد من أشهر زعماء الزهد الصامت ، والذى أصبح رئيسا لأساقفة سالونيك . وكذلك يوحنا السادس John VI الذى اعتزل العرش سنة ١٣٥٤ وغدا راهبا ، تسلط عليه التفكير فى الذهاب إلى دير فاتوبى على الجبل المقدس (رغم أن قصده هذا لم يترجم إلى واقع) . وقد كتب يقول إن رهبان جبل آثوس يشبهون «أطلس» لأنهم يحملون العالم كله على ظهورهم و «يتشفعون له عند الله» [٣١] .

ولاشك أن الرهبانية قد أسدت إلى الدولة فى العصور الوسطى خدمات عدة فى مجالات شتى، ولم يكن عليها أن تزود الناحية الثقافية بنفس القدر الذى فعلته الديرانية فى الغرب، ولكنها كانت حليفا هاما فى الميدان الاقتصادى ، فقد ساهم الرهبان والأديرة فى رعاية وإدارة ملاجئ الأيتام والمستشفيات ، وأقاموا جمعيات للأمور الجنائزية، وهيأوا أماكن الدفن تكريما للإمبراطور أو مؤسسها أو لمواراة جثمان أحد الفقراء . كما أنها كانت ملجأ يهرع إليه من لحقهم الفشل الدبلوماسى ، ويلوذ به الآثمون . وقد تضمن كتاب الصلوات Euchologion صلوات خاصة تؤدى عند تلبيس التائبين الذين يؤتى بهم إلى الدير ليكفروا عن آثامهم . ومن بين هؤلاء الأخيرين أشارت تشريعات جوستنيان والقانون الكنسى المتأخر إلى زانيات، وشماسات شغلن بأعمال دنيوية معيبة ، ورهبان هاربين ، واكليروسيين، ابتداء من الأسقف إلى من هم دونه مرتبة ، يرتادون نوادى القمار أو يغشون المسارح (ويزج بهؤلاء فى أحد الأديرة طيلة ثلاث سنوات مع فقدان وظائفهم الكهنوتية [٣٢] . وتزدحم المزمنات بأمثلة كثيرة

---

٣٠- أنظر قبله حاشية ١١ ص٢٠٥ (المترجم)

٣١- John Cantacuzenus . Hist. IV, 24 (vol. III, pp. 175-176, Bonn 1832) .

٣٢- Nov. 123 and 134 ; Nomocanon VIII, 14 " G. A. Rhalles and M. Potles, Syntagma. vol. I, p. 161, Athens 1858" .

لأناس فشلوا فى حياتهم السياسية، وأباطرة معزولين ، وملكات أمهات غير مرغوب فيهن، وقد دخل هؤلاء جميعا الأديرة ليمكثوا فيها فقط حتى تهدأ العاصفة وليرحلوا عنها عندما تواتيهم الريح ، وإن كان أغلبهم قد جاء ليختفى فيه عن العالم طيلة محياه. وكان الأباطرة الذين يدركون أن ساعة وداعهم للدنيا قد دنت، يخلعون باتضاع عباءتهم الإمبراطورية ، ويتجهون إلى أحد الأديرة، فرحين برحلتهم عن هذا العالم وهم يتدثرون بذاك الرداء الرهبانى البسيط .

غير أن الرهبانية لم تخل من النقائص ، ذلك أن انتشارها الواسع كان يعنى أن عليها أن تناضل من أجل الحفاظ على مستواها داخل أديرتها . يشهد على ذلك النضال الذى أبداه القديس سيمون اللاهوتى الجديد، فهو يقول مخاطبا رهبانه، «انظروا .. إن هراطقة زماننا هذا هم أولئك الذين يعيشون الآن بيننا ولايستطيعون الوصول إلى ما كان عليه الآباء المقدسون».

«خبرونى .. لماذا يعد ذلك ضربا من المستحيل ؟ وبأى السبل إذن أضاء أولئك القديسون الأرض وغدوا مشاعل إشراق فى العالم كله؟ لو كان ذلك مستحيلا ، لما استطاعوا إذن إليه سبيلا. لقد كانوا رجالا كما نحن ، ولم يكن لديهم أكثر مما نملك ، اللهم إذا استثينا عزمهم من أجل الخير ، والغيرة ، والتواضع ، وحب الله. فهلا نلتم ذلك لأنفسكم ، عندها سوف تغدو أرواحكم ، التى هى الآن كالحجارة أو أشد قسوة ، ينبوع الدموع . وحتى إذا كنتم راغبين عن سلوك أصعب الدروب وأضيقها ، فلا أقل من أن تكفوا عن القول بأن ذلك يبدو مستحيلا»[٣٣] .

وإذا ما أخذ النقد والهجاء من ناحية القيمة الظاهرية فقط، فان ذلك لن يؤدى إلى توضيح القوة الحقيقية للرهبانية . وقد كتب يوستاثيوس Eustathius رئيس أساقفة سالونيك فى القرن الثانى عشر نقدا لاذعا للرهبانية ، وغالبا ما يحتج بها البعض وكأنها تشير إلى حالة عامة فى هذا الشأن . ففى بعض الأحيان قد يختار مقدمو الأديرة أناسا لايستطيعون الحديث إلا عن المسائل الزراعية ، ولكن هناك أكثر من دليل على مراتب السمو التى يمكن أن يرتقى إليها رؤساء الأديرة ، وها هى عظات الأب سيمون وكتاباته الرمزية التى توالى تداولها منذ

---

٣٣- Catechesis 29, 164-73 اقتباس B. Krivocheine و أشد المتحمسين تعصبا ، Ostkirch Studien, IV ,"1955" , pp. 122-3

زمانه حتى أيامنا هذه، وظلت دائما ينبوعا يستشهد به ويقتبس منه فى دواوين الشعر، وليست العظات الزراعية التى انتقدها رئيس الأساقفة يوستاتيوس . لقد كانت الروحانية واحدة من أهم القنوات التى جرت فيها التجارب الخلاقة البيزنطية ، ولا مراء فى أن ما كتبه رجال مثل جريجورى النيساوى Gregory of Nyssa وايفاجريوس البونطى Evagrius of Pontus ويوحنا السلمى John Climacaus وثيودور الاستوديى Theodore the Studite, وكذلك سيمون اللاهوتى الجديد ، والزاهدون الصامتون فى العصور الوسطى المتأخرة ، وغير هؤلاء كثيرون لا مراء فى أن أعمالهم تعد شاهدا حيا على النضال الدائب والكامن وراء تجربتهم الروحية . لقد كانت حياة هؤلاء الرجال الاطهار حربا مستعرة ، وحياة أول الرهبان أنطونيوس ترسم هذا السبيل . وهذا الضيق وذاك الكرب اللذان تنضح بهما كتابات سيمون ، وادراكه الحاد لتقصيره ، ليتناسب تماما مع تلك المرتبة السامية التى ارتقاها بنعمة من الله وفضل .

ولم يكن هناك شئ يتسم بالسلبية حول هذا الصمت المقدس عند أولاء المتأملين العظام، ولم يحدث أن فشل أحدهم فى تحقيق احتياجات الآخرين سواء بالصلوات متضرعا أو القدوة الحسنة أو التدخل المباشر. ولقد كان من أقل ما ناء به كاهل سيمون «حدبه الكامل ورعايته لكل الأخوة» الذين معه . كما ترك جريجورى بالاماس ديره فى جبل آثوس ليدافع علانية عن التجارب الروحية التى يمارسها الزاهدون الصامتون ، بينما أيد يوحنا الدمشقى John of Damascus وثيودور الاستوديى صراحة تقديس الأيقونات وتحديا الأباطرة . فلقد كانت الأيقونية والزهد الصامت من الأمور التى ارتبطت ارتباطا عميقا بجذور الأرثوذكسية ، وتركزت الحياة الروحية لهؤلاء جميعا فى الحفاظ على الإيمان القويم . وهكذا لاغرابة إذا عرف الرهبان بأنهم عمد العالم البيزنطى . فهم أنموذج العلمانيين ، والرحماء ساعة القحط ، والمطببون عند الطاعون ، والمخففون لمتاعب الإنسان. لقد كان الفلاحون وأهالى المدن على السواء يتجهون بفطرتهم إلى ذلك الرجل المطهر «خليل الله» ، الذى نال بفضل ورعه وتقواه طيلة محياه نعماء الإله». وكتب يوحنا اليوخايتاوى[٣٤] John of Euchaita فى السيرة التى وضعها عن أحد مقدمى الأديرة فى آسيا الصغرى فى القرن الحادى عشر «إن للقديس من القوة ما يمكنه من أن يفى بكل ما الناس إليه فى عون»[٣٥]. لعل هذا هو الذى يعطى هذه المكانة الفريدة للرهبانية فى مجتمع الشرق الرومانى.

---

٣٤- أنظر قبله .

٣٥- Migne, Patrologia Graeca, Life of st Dorotheus, 120 col. 1073 .

## مراجع خاصة بالكنيسة والحياة الديرانية

- Cambridge Medieval History . vol. IV pt. 2 . Cambridge 1967 .

- Cavarnos (C.) Anchored in God. Athens 1959 .

- Dawes (E.) - Baynes (N. H.) Three Byantine Saints Blakwell, Oxford 1948 .

- Every (G.) , The Byzantine Patriarchate 451- 1204 (2nd ed.) London 1962 .

- Fliche (A.) - Martin (V.) Histoire de L. Eglise, 21 tomes. Paris 1936 sqq .

- French (R. M.) , The Eastern Orthodox Church. London 1951 .

- Gill (J.) , The Council of Florence (C. U. P.) 1959).

- Hammond (P.) , The Waters of Marah . the Present State of the Greek Church. London . 1956 .

- Hussey (J.M.), Church and Learning in the Byzantine Empire 867-1185 (O. U. P. repr. 1963) .

- Monasticism and Spirituality (C. M. H. vol. IV pt. 2. ) .

- Kadloubovsky (E.) - Palmer (G. E. H.) Early Fathers from the Philokalia and Writings from the Philokalia. London 1954 .

- Lossky (V.) , The Mystical Theology of the Eastern Church London 1957 .

- de Meester (P.) De. Monachico Stato Iuxta Disciplinam Byzantinam . Vatican 1942 .

de Mendieta (E.A.) La Presq'ile des Caloyers, Le Mont-Athos, Bruges 1955 .

- Nicholas Cabasilas, The Divine Liturgy , trans . by J. M. Hussey and P. A. McNulty. (S. P. C. K. 1960) .

- Nicene and Post- Nicene Fathers of the Christian Church, vol. IX, St. John of Damascus, Exposition of the Orthodox Faith (London 1899), vol XIV. The Seven Ecumenical Councils of the Undivided Church (London 1900).

- Nicol (D. M.). Meteora . the Rock Monasteries of Thessaly, London 1963 .

- Orthodox Spirituality, by a Monk of the Eastern Church (S. P. C. K. 1945) .

- Runciman (S.) The Eastern Schicm. Oxford 1956 .

- Salaville (S.) , An Introduction to the Study of Eastern Liturgis, trans . by J. M. T. Barton, London 1938 .

- Sources Chretinnes, series (e. g. Maximus the Confessor, symeon the New Theologian) . ed . par Lubac (S.J.) Danielou (S.)

Ware (T.), The Orthodox Church, Pelican 1963

- Wellesz (E.) Ahistory of Byzantne Music and Hymnography (2 nd ed., Oxford 1964).

- Zernov (N.) Eastern Christendom. London 1961 .

# الفصل الثامن

# الحيـــاة اليوميـــة

# الفصل الثامن

## الحيـــاة اليوميـــة

إن التاريخ الاجتماعى والاقتصادى الدقيق للإمبراطورية البيزنطية فى حاجة لمن يتعرض لبحثه [1]. حقيقة هناك مادة وفيرة ربما بنى عليها روستوفتزف Rostovtzeft يوما ما تاريخه، ولكن بغض النظر عن الكتابات اللاهوتية الخالصة والأعمال البلاغية ، فإن معظم المصادر لاتمدنا بالكثير. أما التفاصيل فقد نستطيع التقاطها من بين بعض الخطابات ضمن برديات الحقبة المبكرة ، أو من سير القديسين ، أو النقوش والمزمنات ، أما فيما يتعلق بالفترة المتأخرة فنستقيها من مواثيق تأسيس الأديرة وامتيازاتها وسجلاتها ، وكتيبات مثل «كتب الطوبجى Gunner's Manual أو التعليمات الخاصة بالتجارة فى الكتب التى تتناول الإرشادات البحرية ووصف الموانئ . غير أن أهم البيانات وأكثرها قيمة نجدها فى مجموعات القوانين العامة والخاصة، فهى بطبيعتها غالبا ما تتضمن حالات الجور وخرق القانون ، ولكنها فى الوقت ذاته تحتوى على الكثير من التفاصيل الشيقة التى تتناول مشاكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية لكل عصر ، والتعويضات التى تتناسب ونوعية الضرار وفقدان العمل والعلاج الطبى الحر والتنظيمات المعمارية الدقيقة خاصة الإضاءة ، وقنوات تصريف الأمطار والميازيب ، وصيانة وسائل الترفيه العامة والخاصة. وكان لأصحاب الأملاك الخاصة الحق فى أن ينشئوا دورهم مطلة على البحر والحدائق أو الآثار العامة، رغم أنه كان على الشخص الذى يدعى حق حيازة مثل هذه الآثار التاريخية، مثل تمثال أخيل Achiles أو أجاكس Ajax أن يبرهن أولا على مقدرة ثقافية كافية لتقدير قيمة هذه الآثار [2] . وعلى نفس

---

١- بذل كل من L. Brehier و P. Kukules جهودا كبيرة لكسر الجمود حول دراسة مثل هذا الميدان ، رغم أن الوقت ربما لم يحن بعد لوضع كتاب فى مثل هذه الموضوعات حيث ما تزال المادة الضرورية المتعلقة بذلك (مثل الوثائق والمسكوكات والأختام) تمر بمرحلة التجميع . ومع أنها تعتبر ناقصة بالنسبة للحقبة المبكرة. لكن العمل المتأنى والتمحيص الدقيق لدارسين مثل Ostrogorsky و Dolger قد كشف عما يمكن أن تلقيه المصادر المتأخرة من ضوء على المشاكل الاجتماعية والاقتصادية .

٢- A Provincial Manual of Later Roman Law : the Calabrian Procheiron, renderd into English by E. H. Freshfield "Cambridge 1941", pp. 78-79 .

النحو يواجهنا النقص في التفاصيل الخاصة بالنواحي الاقتصادية والإدارية التي يجب أن تتوفر في بعض المصادر الانجليزية مثل كتاب الروك[٣] Domesday Book أو حوار عن الخزانة Dialogue of the Exchequer أو التنظيمات المحلية المتعلقة بالتجارة أو الصناعة في بعض المدن مثل بريستول Bristol أو سوثهامبتون Southampton ولكن لو افترضنا أن التغيرات البيزنطية في ملكية الأراضي والبناء الاجتماعي على أسس اقليمية لفترة طويلة ، لايمكن استعادته الآن بصورة مقبولة. إلا أنه من الممكن على الأقل الإشارة على نحو ما إلى الحياة اليومية بمختلف مستوياتها .

كانت الأسرة هي محور الحياة العلمانية في العصور الوسطى، سواء بالنسبة للإمبراطورية في الشرق أو الإمبراطورية الرومانية الغربية. وينطبق هذا على مختلف المستويات من أكثرها غنى إلى أشدها فاقة ، من البيت الإمبراطوري إلى أحط الدور في القرية . وقد استخدم الأثرياء العبيد والخصيان ، ورغم أن الكنيسة كانت تقاوم الرق إلا أنه ظل موجودا حتى فترة متأخرة جدا من الإمبراطورية، هذا على حين استطاع الخصيان الوصول إلى مناصب مرموقة في الوظائف الإمبراطورية ، وكانت هناك مراكز معينة مقصورة عليهم. وقد حظي الزواج بالمرتبة الأولى في التشريعات البيزنطية ، وركزت القوانين الكنسية والإمبراطورية دائما على قدسيته. بينما قوبل الزواج للمرة الثانية بالامتعاض ، حقيقة فقد سمح بالزيجة الثانية، أما الثالثة

---

٣- حرص وليم الفاتح النورماني بعد تثبيت أقدامه في انجلترا ، بعد خمس سنوات من موقعة هاستنجز (١٠٦٦) ، أن يقوم باعداد مسح شامل لمملكته ، الانجليزية الجديدة ، وجرى ذلك في السنوات الأخيرة من حكمه . فقد أرسل مبعوثيه إلى مجالس المائة في كل مزرعة وضيعة حيث يلتقون هناك بشيوخ هذه المناطق ، الذين وجهت لهم الأوامر بتسهيل مهمة هؤلاء المبعوثين وأعطى هؤلاء ايمان الصدق في كل المعلومات التي سوف يقدمونها . وعلى هذا النحو استطاع وليم أن يقف على اسم مالك الضيعة على عهد الملك إدوارد ، والمالك لها الآن ، وعدد الحيوانات ، وأعداد المحاريث الخاصة بالأراضي الملكية وتلك التي يمتلكها الأهالي ، وعدد الفلاحين أنصاف الأحرار ، وأولئك الذين يقيمون في الأكواخ ، والأقنان والأحرار والمستأجرين ومساحة الغابات والمراعي ، وعدد الطواحين ، وأحواض السمك ، وإن كانت قد نمت أو توقفت . هذه المعلومات ضمنها مبعوثو وليم في مجلدين، كتبا على رقائق من المجلد، وعرف هذا الكتاب باسم «الروك» Domesday Book

أنظر Douglas , William the Conqueror , pp. 309-313- 347-354

وكذلك F. Barlow, The Feudal Kingdom 1042-1216 , pp. 98-99, 120-121

وأيضا C. M. H. vol . V, pp. 506-507 (المترجم)

فكانت تقع تحت طائلة العقاب ، على حين كانت الرابعة تجلب اللعنة. ولهذا كانت الصعوبات التى واجهت الإمبراطور ليو السادس Leo VI ، الذى استطاع فقط أن يكون له وريث من حظيته التى جعل منها لذلك زوجته الرابعة، رغم المعارضة الشديدة التى أبدتها الدوائر الكنسية . أما الطلاق فيمكن الحصول عليه لأسباب وجيهة ، وقد بدا من محاكمة Peira فى القرن الحادى عشر، (وهى مجموعة من الأحكام والمناقشات حول قضايا متباينة أجراها القاضى يوستاتيوس الرومانى Eustatius Romaius جمعها مؤلف مجهول)، أنه وإن كان الطلاق شائعا ، وأنه يتم حتى بالتراضى بين الطرفين ، إلا أنه كان عندئذ عملا غير شرعى، وكان للمرأة وضعها اللائق فى القانون البيزنطى، فقد حفظ لها القانون حقها فى الصداق، فإذا مات عنها زوجها ، أصبحت هى الوصية الشرعية على أولادها ما دامت لم تتزوج ثانية . ونصت الاكلوجا على أن تباشر الأرملة السيادة على كل أملاك زوجها المتوفى «باعتبارها رأس الأسرة وأهل الدار» وإذا ما وقع الاختيار على الزوج ليرسم أسقفا ، فانه يستطيع تلقى هذه الرسامة فقط إذا وافقت زوجته بكامل إرادتها وحريتها على أن تهجره إلى أحد أديرة الراهبات وإلا كان عليه أن يتخلى عن هذه الوظيفة الكهنوتية الجديدة [٤].

ولاينبغى أن يؤخذ التأكيد المستمر على انتهاج السلوك اللائق فى العلن باعتباره دليلا على أن حياة المرأة البيزنطية كانت بالضرورة من وراء حجاب ، فقد كان لسيدات البيت الإمبراطورى مراكزهن المرموقة فى مراسم البلاط ، وأدوارهن البارزة فى المسائل السياسية . فلقد راحت زوجة الإمبراطور جوستنيان العظيم تنافح فى هوادة عن المنافزة ، وأعيد الاحترام الأرثوذكسي للأيقونات فى المرة الأولى على يد الإمبراطورة ايرين ، وفى عام ٨٤٣ بمشيئة الإمبراطورة ثيودورا ، وروت لنا أنا كومننا كيف أن جدتها كانت تصرف الأمور كنائب عن الامبراطور أثناء غيابه عن العاصمة ، وكيف أن زوجته ايرين كانت تصحبه فى حملاته العسكرية . أما نساء الطبقات الدنيا من المجتمع فكن يظهرن اتفاقا فى المصادر المعاصرة. وكانت أم بسللوس فى القرن الحادى عشر هى عماد أسرته ، وإلى جهودها يعزو هو فضل تثقيفه . وعن الحياة فى القرن السابع لايتحدث مؤلف سيرة ثيودور السيكيونى [٥] Theo-dore of Sykeon عن والد القديس ، بل عن النساء فى ذلك البيت . والدته التى تملكها

---

٤- نوفلا اسحق الثانى انجليوس Isaac II Angelus سنة ١١٨٧ .

٥- نسبة إلى قرية سيكيون sykeon فى جالاتيا Galatia (غلاطية) بآسيا الصغرى ، وهو ابن غير =

الغضب لأن ابنها لم يعد من المدرسة كي يتناول وجبة الظهيرة ، وجدته التى كانت تتعاطف مع ميوله النسكية ، وتتسلل خفية إلى الكنيسة الصغيرة التى يأوى إليها لتقدم له قليلا من الفاكهة ليتبلغ بها ، أو شيئا من سلاطة الخضار ، وإن كان هذا يحدث فقط فى أيام السبوت والآحاد » [٦].

وبمقدورنا أن نتصور غالبا ما كان يفعله الناس ، وكيف كانوا يعيشون ابتداء من الإمبراطور حتى نهاية السلم الاجتماعى . فقد كانت السمة الجوهرية واحدة عند الجميع - العماد ، وأزمان التوبة ، واحتفالات - القداسات السنوية ، والصوم الكبير، وذبيحة الفصح ، والحج سواء كان إلى مدن معينة بعيدة ومقدسة كأورشليم، أو سياحة يوم من القرية إلى ضاحية جبلية حيث مزار أحد القديسين المحليين ، وربما من ستيريس Stiris عبر طريق البغال mule-track إلى دير هوسيوس لوقا Hosios Lukas ثم تجئ بعد ذلك الدعوة الحتمية لكل انسان من ملك الملوك ورب الأرباب ، فالارتحال عن هذا العالم ، وما يصحب ذلك من طقوس الوداع . على أن أفخم المهرجانات هى التى كانت تتعلق بأسرة الإمبراطور ، عندما تبدو العاصمة فى ثوب قشيب احتفالا بتناول أحد أفراد البيت الإمبراطورى سر المعمودية، أو عندما يلفها الحزن وينتحب أهلوها لموت واحد من العائلة الملكية . ويصف مرقس الشماس طقس العماد الذى جرى فى أوليات القرن الخامس لولى عهد أركاديوس Arcadius ، الطفل ثيودوسيوس[٧] Theodosius حيث ازدانت القسطنطينية بأبهى التعاليق من الديباج وكل أنواع الذهب والزخارف ، وازدحمت الطرقات بالأهالى وقد ارتسمت على وجوههم علامات البشر والسرور ، وارتدى الموكب إلى الكنيسة فى القصر الإمبراطورى أردية بيضاء لاشية فيها ، وكانت الثلوج قد غلفت بنقائها وجه المكان ، يقود الجمع البطارقة وعلية القوم يتبعهم الحرس الإمبراطورى ، والكل يحمل بيمينه شموعا مضاءة ، فأمست وكأن النجوم قد أخذت تتلألأ فوق سطح

---

= شرعى لأبنة أحد أصحاب الحانات ، سلك درب الرهبنة وذاع صيته فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع لما شاع حوله من إتيانه المعجزات وخاصة تصديه للأرواح الشريرة التى تصيب فلاحى المنطقة بالأوبئة والطواعين .

أنظر Jones, The decline of the Ancient World, p. 4 (المترجم) .

٦- E. Dawes and N.H. Baynes, Three Byzantine Saints , p. 98 .

٧- Life of Prophyry of Gaza , pp. 39-40 (ed. H. Gregoire and M. A. Kugener , Paris 1930, With French trans).

البسيطة، وإذا بالطفل قد أقبل يتهادى ، يحمله بين ذراعيه نبيل ، وإلى جواره يخب أبوه فى خطو زاده تألقا عباءته الأرجوانية ، ونفس تطفق بهجة وكبرياء .

ولم تكن أنغام الفرح ورنات الأسى تختلف فى الأوساط العليا عنها فى الطبقات الدنيا ، فقد راحت أنا كومننا تبكى أباها ، ويسللوس أخته . ولكن الحزن الذى جمع بينهما كان واحدا . ويعطينا بسللوس صورة حية عن حزنه العميق عندما آوى إلى بيته ثانية ليجد أقاربه وأصدقاءه ما يزالون عند قبر أخته التى توفاها الموت، وحيث يعاودون البكاء ثانية فى اليوم السابع للوفاة حسب التقليد الوثنى، تذكرة لمدى تأصيل تلك العبادة . والحقيقة أن الإنسان حتى أيامنا هذه يستطيع فى تجواله فى منطقة البلقان وبلاد اليونان أن يلمح شيئا من عالم العصور الوسطى ، فها هو خروف الفصح يحمل من السوق إلى البيت، معلقا حول العنق ، ويشوى على الفحم النباتى ، والشموع تومض «كأنها النجوم» فوق رابية ليكابتوس Ly-cabettus بينما جموع المصلين تغادر الكنيسة بعد أن باركها المسيح الحى فى الساعات الأولى من نهار يوم الفصح ، أو فى جنوبى صربيا حيث ما يزال الطعام والشراب يؤتى بهما إلى الكنيسة، بينما تقام الصلوات من أجل موتى كل عائلة عشية صلاة كل الأرواح . وفى صبيحة اليوم التالى يخرج نساء القرية وبناتها فى موكب كبير يحملن سلالهن وأطباقهن وزجاجاتهن من الكنيسة إلى الجبانة عند التل وهناك يتناولن بعضا مما معهن ويتركن البعض الآخر على القبور، وهكذا نجد ذلك التقليد مازال باقيا .

وكانت هيئة المجتمع البيزنطى قد تحددت بصورة واضحة، ولكن هذا التحديد لم يكن مانعا بحيث لايقبل الخروج عليه، فقد كان يسيرا على ابن الفلاح أن يصبح إمبراطورا ، واستطاعت ابنة حارس الخان أن تقفز إلى العرش بالزواج من ولى العهد . كما أنه بمقدور أى صبى ماهر أن يشق طريقه إلى أعلى المناصب . وكانت العاصمة تمثل مركز الحياة الاجتماعية والإمبراطورية خلال العصر الزاهر لبيزنطة، «فالذى يمتلك القسطنطينية يسود الإمبراطورية». أما بعد عام ١٢٠٤ فقد أصبحت هناك مناطق أخرى تنافسها المكانة وتجذب إليها الانتباه مثل سالونيك Thessalonica وطرابيزون Trebizond ومسترا Mistra بنفس القدر الذى سنحت به الفرصة لبلاط أمراء البلقان أو الأمراء اللاتين فى بلاد اليونان ومنطقة بحر إيجة ، أو حتى الدوائر العثمانية . وقد روعى تنفيذ المراسم الإمبراطورية بدقة بالغة وإبداع فى البلاط البيزنطى خلال العصر الذهبى للأسرة المقدونية فى القرن العاشر، وبدت بعيدة الأثر بشكل واضح ، رغم

الصورة الباهتة والمتعصبة والتى رسمها ليوتبراند Liutprand فى سفارته الثانية فى القسطنطينية. ويعتبر «كتاب المراسم» Book of cermonies وصفا دقيقا لما كان عليه البلاط البيزنطي، وقد أكد قسطنطين فى مقدمته أن تلك المراسم تعد المظهر الخارجي والتجسيد المرئى للتناغم والانسجام فى الداخل ونظاما للطقوس العامة، يرفع من قدر العظمة الإمبراطورية. وهذا في حد ذاته دليل على ما كان يعتبر لائقا ومناسبا بحيث تشارك الرعية فيه امبراطورها . وتذكر الرواية التى تتحدث عن استشهاد اثنين وأربعين قديسا فى عمورية[٨] Amorium كيف أن الجلاد الأثيوبى تقدم شاهرا سيفه ، وراح الضباط يقدمون أنفسهم كل حسب رتبته كما لو كان الأمر احتفالا يجرى فى البلاط الإمبراطورى .

وتكشف المصادر الكثير من الجانب الشخصى فى حياة البلاط ، فقد كان للأباطرة أوقاتهم الخاصة التى يميلون فيها للاسترخاء «فهذان الزوجان الورعان»، ألكسيوس كومننوس وزوجته يفضلان قراءة الاعمال اللاهوتية أثناء تناولهما وجبة الإفطار، وهذا العابس الفظ ، باسل الثانى كان يحمل بين جوانحه فى الوقت ذاته رقة ودعة تجاه زوى Zoe ابنة أخيه . وكانت المتطلبات الإنسانية تترجم فى الواقع العملى بصورة دقيقة فى قاعات للصلاة صغيرة خاصة فى كنيسة أيا صوفيا ، حيث تقدم للإمبراطور والإمبراطورة كل على حدة الخدمة الكنسية مع بعض المنعشات بعد القداس الذى يجرى فى الكاتدرائية ، وقبل الوداع الرسمى . ثم تأخذ

---

٨- ورثت الدولة الإسلامية العداء التقليدى الذى كان قائما بين الفرس والرومان ، وذلك بعد زوال دولة فارس بيد المسلمين ، ولم تنقطع الحروب بين المسلمين والبيزنطيين . وفى عهد الإمبراطور ثيوفيلوس قام الجيش البيزنطى بالتوغل فى آسيا الصغرى وتدمير زبطرة وإحراقها. وقام الخليفة العباسى المعتصم بالرد على ذلك فى عام ٨٣٨ فزحف إلى داخل آسيا الصغرى ، واستطاع الاستيلاء على قلعة عمورية الحصينة ، وفعل بالمدينة ما فعله ثيوفيلوس من قبل بزبطرة. وكانت عمورية هى مسقط رأس الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية التى ينحدر منها الإمبراطور ثيوفيلوس . وكان المعتصم ينوى الزحف بعد ذلك إلى القسطنطينية ، غير أنه ما لبث أن عاد مسرعا عندما علم بوجود مؤامرة للإطاحة به. وتربط الحوليات اليونانية بين حصار عمورية والرواية التى شاعات عن اثنين وأربعين ضابطا من جيش ثيوفيلوس ، كانوا من بين الأسرى ورفضوا الدخول فى الإسلام ، فسيقوا إلى نهر دجلة حيث قتلوا جميعا وألقيت جثثهم فى النهر . وتضيف الأسطورة أن المياه حملت هذه الجثث ولم يبتلعها النهر، وظلت طافية هكذا حتى انتشلها بعض المسيحيين ودفنوها فى جنازة مهيبة ، وقد خلد الشاعر العربى أبو تمام انتصار المعتصم فى عمورية ببائيته الشهيرة (المترجم)

الإمبراطورة ووصيفاتها طريقهن إلى غرفهن ، على حين يصطحب البطريرك الإمبراطور إلى الباب المؤدى إلى البئر المقدسة[٩] . وهنا يقوم الإمبراطور بتقديم أكياس الذهب إلى رجال الاكليروس ، ويقوم البطريرك بوضع التاج على رأسه ، وهو الذى كان قد خلعه عند دخوله الكنيسة . وكان للبطريرك أيضا قاعاته الخاصة فى الكاتدرائية ، وفى مكان إقامته المجاورة حيث يقدم الإفطار ، وكان الإمبراطور يشاركه هذه الوجبة فى بعض الأحيان .

وكان الطعام الذى تقبل عليه أحسن الأسر حالا تتعدد أصنافه ، وكانت الأطباق الرئيسية على المائدة تتكون من الدجاج واللحوم . وقد كتب أحد المصريين فى زمن مبكر إلى خولى ضيعته «وقبل كل شئ، فلتعد لنا خنزيراً سمينا ، وتأكد بنفسك أنه كذلك وليس أعجفا هزيلا كالمرة الماضية »[١٠]. وفى الاسكندرية كانت المائدة البطريركية فى بواكير القرن السابع تحتوى على الحساء والخضروات والسمك والخمور والزيت[١١]. وكانت والدة القديس ثيودور السيكيونى تدير حانا ، يتولى أمر الطعام فيه طباخ ماهر ذاع صيته بأطباقه الشهية ، ولما حاولت أن تغرى ابنها ليقبل على الطعام قدمت إليه أنواعا مختلفة من الطيور المسلوقة والمشوية وأرغفة من الخبز الأبيض[١٢] أما أشد الناس فقرا فقد كانوا يعيشون بشكل غاية فى البساطة . وقد أقام أطالياتس Attaliates أحد رجال القانون فى القرن الحادى عشر عددا من الأديرة ، حملها بواجبات معينة من بينها اطعام «اخوتى فى يسوع المسيح ، ذوى الفاقة». وكان الطعام الذى يوزع على الأرامل والمسنين وذوى العاهات يتكون من الخبز والخمر . وفى كل يوم يتناول ستة من الفقراء وجبة فى الدير ، حيث يقدم لهم الخبز والخضروات المطهية طازجة أو يابسة ، واللحوم أو الأسماك ، وكل ما يمكن تقديمه ، إلى جانب أربع قطع نقدية نحاسية . وكانت قائمة الطعام الرئيسية فى الأديرة تتكون من الأسماك والخضروات ، وإن كان هناك استثناء أيضا من هذه القاعدة . فقد أبيح بصفة خاصة تقديم اللحوم للتخفيف عن بنات قسطنطين السابع اللاتى دفعت بهن إلى دير للراهبات قسرا امرأة أخيهن المقيتة عقب وفاة والدهن ، وقد شارك سيمون اللاهوتى الجديد فى أكل حمامة بدلا من أن يسبب الحيرة والارتباك لزائر يشكو من اضطراب فى معدته .

---

٩- هذا الأثر هو حافة البئر حيث التقى المسيح بالمرأة السامرية.

١٠- U.I.Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest"Oxford 1948",p.97

١١- E. Dawes and N. H. Baynes , Three Byzantine Saints, p. 230 .

١٢- Ibid, p. 97 .

وفى إمبراطورية كهذه يغلب عليها الطابع الزراعي، كان لابد أن تشكل الحاصلات الغذائية معظم الإنتاج المحلى بحيث تختلف فى أنواعها من إقليم إلى آخر . وحينما كان من السهل الحصول عليه، فان الجبن الذى يقوم باعداده الرعاة الولاشيون Vlach كان شائعا . ولم يكن تزويد المدن الكبيرة القليلة ، خاصة القسطنطينية ، بحاجياتها الأساسية ، مسألة سهلة فى جميع الأحوال، ومن ثم فان الاهتمام الإمبراطورى كان موجها بصفة أساسية إلى توفير الغلال للعاصمة ويتضمن كتاب الوالى Book of the prefect فى القرن العاشر وصفا كاملا لواجبات مختلف الطوائف الحرفية فى القسطنطينية [١٣]، وفى مقدمتها تلك التى يتصل عملها بالمسائل التموينية مثل البدالين ، والخبازين ، والقصابين (بما فيها من لحم الخنزير) وقصابى الخنازير ، والسماكين، ويتم ضبط الأسعار بصورة دقيقة على يد الوالى (أو المحافظ Eparch ) وكانت عملية البيع والشراء تجرى فى صورة منظمة ، من ذلك مثلا أنه كان على السماكين أن يبتاعوا من على شاطئ البحر أو رصيف الميناء من مراكب صيد الأسماك عند المرسى ويحظر عليهم تخفيض سعر السوق عن طريق الحصول على الأسماك رخيصة من القوارب فى عرض البحر. وكان يسمح للبدالين باقامة محلاتهم فى الميادين العامة وشوارع المدينة، إذا ما ظلوا ملتزمين ببيع الحاجيات الأساسية التى تتضمن اللحم ، والأسماك المملحة ، والدقيق والجبن ، والعسل ، وزيت الزيتون ، وجميع أنواع الخضروات والزبد، أما الحانات فكانت تبيع الخمور والمأكولات ، على أن لاتفتح أبوابها قبل الثامنة صباحا فى أيام الآحاد والأعياد الكبرى ، وعليها أن تغلقها فى الثامنة مساء ، وأن تطفئ كل نيرانها، بينما اختص الخبازون بتحذيرات جادة لتفادى الحرائق وكان من الأمور الجوهرية بالنسبة للمدينة أن هؤلاء جميعا ومعهم حيواناتهم لم يكونوا عرضة للاستدعاء لأداء أى نوع من الخدمات العامة.

وليس لدينا ما يمكننا على وجه اليقين من معرفة كيف كانت هذه التنظيمات تطبق فى القسطنطينية ، سواء فى بواكير القرن العاشر أو فى أى وقت آخر، ولكن هناك من الأدلة ما يؤكد أن الدولة كانت تتحكم حتى القرن الثانى عشر فى الأسعار والارباح . وكانت هذه الناحية تأتى فى مقدمة اهتمامات الخزانة الإمبراطورية أكثر من المستهلك نفسه . وقد تعرض نقفور الثانى للوم عنيف نتيجة اثرائه بسبب احتكار القمح زمن المجاعة . وكان للمحاولات التى جرت فى أخريات القرن الحادى عشر للإفادة من احتكار الدولة للحنطة ، آثارها الخطيرة،

---

١٣- قام بترجمة هذا الكتاب E. H. Freshfield (Cambridge 1938)

وما حدث في القسطنطينية كان متبعا في المدن الكبيرة الأخرى ، على الرغم من أن بعض هذه المدن ، خاصة الاسكندرية وأنطاكيه، انتقلت من تحت السيادة الإسلامية إلى أيدي العرب في منتصف القرن السابع . ففي أوائل هذا القرن اعترض أسقف الإسكندرية يوحنا على البطريرك نيقتاس Nicetas الذي أراد « ... تنظيم السوق بما يكفل تحقيق الربح للدولة ، حيث إن الأسقف لن يتسامح مع ذلك مطلقا لأنه أخذ على عاتقه توفير السعادة للفقراء ... » (١٤) .

ولم يعد هناك في الواقع شيء من القصور أو الأبنية الخاصة من العصر البيزنطي ، عدا ذلك الهيكل الذي يعود إلى القرن الرابع عشر الموجود في ميسترا على مرتفعات تايجتوس Taygetus ، وبعض أطلال القصر الإمبراطوري في القسطنطينية . ومن الممكن استكمال هذا النقص بالرجوع إلى الفيسفساء والفريسك والمصادر الأدبية . فالقصر المقدس في العاصمة كان بناء فسيحا بالغ التعقيد ليجئ مناسبا للحاشية الامبراطورية ، وكان متصلا بكاتدرائية أيا صوفيا . ثم تأتي بعد ذلك قصور العائلات الثرية على نمط مصغر، بكنائسها الصغيرة وحدائقها وفسقياتها. وتزدان من الداخل بدوائر من الفسيفساء أو الفريسك وقد ذاعت شهرة ما بقي من هذه من القصر الكبير لثباتها وواقعيتها(١٥). أما الذين يلونهم مرتبة من الأثرياء فكانوا يقيمون في شقق أو منازل/بل ان ميخائيل أطالياتس Michael Attaliates أحد أثرياء القرن الحادي عشر كان يمتلك عقارا استغله في هذا السبيل . وكان من الطبيعي أن يكون لدى سراة القوم الشئ الكثير من الملابس ، وليس أدل على ذلك مما يحكيه ثيودور متوخيتس (١٦) Theodore Metochites في القرن الرابع عشر عن دولاب زوجته

---

١٤- E. Dawes and N. H. Baynes, Three Byzantine Saints, p. 225 .

١٥- Illustrated London News , 12 March 1955 .

١٦- يرتبط ذكره في الآداب البيزنطية بالدراسات الفيلولوجية ، غير أن ثقافته الواسعة ونشاطاته المتعددة ، تتعدى هذا المجال ، كان شديد الإعجاب برجال العصر القديم مثل بلوتارخ وأرسطو وبصفة خاصة أفلاطون . وقد عمل وزيرا للإمبراطور أندرونيكوس الثاني فقد كان سياسيا موهوبا ، ترك بصماته الواضحة على شئون الدولة. وخلال الثورة التي أطاحت باندرونيكوس الثاني من على العرش فقد ثيودور منصبه وأدخل إلى السجن ، ثم سمح له بعد ذلك – نظرا لسوء حالته الصحية- بالذهاب إلى دير ضاحية القسطنطينية . وكان قد قام باعادة بناء هذا الدير والكنيسة الملحقة به ، عندما كان ما يزال له نفوذه ، وأمده بمكتبة وزينه بالفسيفساء التي ما زالت قائمة حتى الآن ، حتى أن الكنيسة تعرف اليوم بجامع الفسيفساء . وقد مات ثيودور في هذا الدير سنة ١٣٣٢ .

أنظر Millingen , Constantinople, p. 149 وكذلك Vasiliev, op. cit., II, pp. 702-703 (المترجم)

وقد غص بالشياب . وكان ارتداء اللفاع الولاشى يعتبر أمراً مألوفا وشائعا فى القرن الثالث عشر . وخلال العصور الوسطى المتأخرة ، أضحت الطرز الأجنبية ، خاصة الإيطالية والتركية، هى الشائعة . فالعمامة التى تبرزها فسيفساء القرن الرابع عشر والخاصة بثيودور متوخيتس والموجودة فى الكنيسة التى جددها ثانية ، تعد تذكارا لذلك . وقد تملك الحزن جماعة المحافظين من أمثال معاصره الأصغر نيقفور جريجور [١٧] Nicephoras Gregoras لأن مختلف الطرز كانت أشبه شئ بمسبحة الدراويش ، بحيث كان يبدو مستحيلا التعرف على البيزنطى وسط ذلك الخليط الأجنبى المتلاطم فى العاصمة . أما الشئون المنزلية الأخرى كالغزل والنسيج، وأدوات المطبخ[١٨] والأطباق والقدور والمقلاوات فتظهر بوضوح فى الفريسك وبصفة خاصة تلك التى توجد فى الكنائس البلقانية . وفى بعض الأحيان تفرج الحفائر عن بعض دفائنها، كما حدث فى مكان السوق فى أثينا ، حيث عثر على أطباق تصور تصميمات بعض منها ما شاع عن تجوال روبين هودRobin Hood، وديجنيس أكريتاس Digenis Akritas البيزنطيين؛ على حين يبدو البعض الآخر وقد ازدان بأشياء أكثر بساطة كأرانب منزلية صغيرة، أو صبية يلعبون الكرة .

وكان المجتمع البيزنطى يضم بين جنبيه الطرفين المتناقضين - الثراء البالغ والفقر المدقع. وعند الدرك الأسفل من السلم الاجتماعى تمسى الحياة بئيسة مهلكة. وكان علاج ذلك الوضع يفوق طاقة المؤسسات الخيرية رغم أنها كثيرة كثرة هؤلاء القوم. وتتضمن حياة القديس يوحنا المعطاء St. John the Almsgiver صورة أليمة عن حال الفقراء فى الاسكندرية عند بداية القرن السابع. وقد رفض الأسقف السكندرى يوحنا أن يلتحف بغطاء فاخر منحه إياه أحد كبار الملاك ، كان قد ترامى إلى سمعه أن الأسقف ينام تحت «لحاف ممزق بال». وإن كان قد قبل ، نتيجة الإلحاح الشديد ، أن يضع هذه الهدية على فراشه لليلة واحدة فقط. وهو ينتحب لأجل نفسه .

---

١٧- أنظر قبله حاشية ١١ ص٢٢٦-٢٢٧ (المترجم)

١٨- لعل من أطرف ما يمكن ذكره فى هذا المجال، ويوضح فى الوقت نفسه مدى التفاوت الحضارى بين الإمبراطورية البيزنطية والغرب الأوربى. هو أن استخدام الشوكة فى المجتمع الإقطاعى فى الغرب، قد انتقل من القسطنطينية فى القرن الحادى عشر إلى البندقية ، وانتشر منها إلى بقية أنحاء إيطاليا ثم تدريجيا عبر أوروبا الغربية ثم انجلترا. ولكنه ظل لفترة طويلة فى الغرب أمرا يدعو إلى الاحتقار كنوع من التهذيب الصارم أنظر Thompson & Johnson . op. cit., p. 315 (المترجم)

وترى .. من ذا الذي سوف يقول إن يوحنا المتضع، كان يرقد تحت لحاف بلغت تكاليفه ٢٦ توميزما Nomismata بينما تتجمد من البرد أطراف اخوة المسيح؟ كم منهم تراه هناك تصطك في تلك اللحظات أسنانهم ؟ وكم منهم لايملك إلا دثارا واحدا باليا ، يفترش نصفه ويلتحف بنصفه الآخر، يبيت يرتعد وقد انطوى على نفسه وكأنه كرة من خيط ؟ كم منهم ينام في العراء عند الجبال بلا غذاء ولاضياء ، وقد تكالبت عليه كرب الدهر من الجوع والزمهرير؟ كم منهم تتوق نفسه إلى أن يقتات بتلك الوريقات اليابسة للخضروات والتي تلقى من نافذة مطبخي ؟ كم منهم يشتهي أن يغمس كسرة الخبز التي بيده في الماء الذي يسكبه طباخي خلف مطبخي ؟ كم منهم يتمنى أن يشم رائحة الخمر التي تصب في زق خمري؟ كم من الغرباء كانوا هناك في تلك الساعة يهيمون على وجوههم في المدينة بلا مأوى ، بل ويرقدون في ساحة السوق حيث تهطل الأمطار فتغرق منهم الرؤوس والأجساد [١٩].

وقد بيع الغطاء الثمين واشتُري بثمنه مائة وأربعة وأربعون دثارا خشنا وزعت على المعدمين.

وكانت رعاية الفقراء واجبا مسيحيا ألقي على كواهل الجميع ، هذا إلى جانب كونه التزاما خاصا بعالم الرهبنة . فقد تضمن ميثاق تأسيس الدير الذي أقامه أطالياتس، النص على أن يلتزم كل راهب بتقديم جزء، حتى ولو كان صغيرا ، من وجبته الرئيسية إلى أحد الفقراء ، والحقيقة أن الرهبان كانوا غالبا وراء خيرية العلمانيين . فالتقي من بين هؤلاء الأخيرين ، والذي يقيم ديرا ، كان في العادة يخصص بعض مؤونته من أجل ذوي الحاجة والفقراء والمرضى والمسافرين والحجاج ، على حين كانت المؤسسات الديرانية الثرية تنشئ ملاجئ اليتامى ، والمستشفيات والمضايف . ولاشك أن أعظم الهبات في هذا الميدان هي تلك التي منحها يوحنا كومننوس John Comnenus في القرن الثاني عشر؛ فقد قدم لأحد الأديرة كنيستين ، وجعل تحت رعايته ليس فقط دار استشفاء للرجال والنساء بل دوراً للمسنين والمصابين بالصرع ، واللقطاء واليتامى، وأخرى للمجذومين . وقد أبان ميثاق تأسيسه عن مراميه ، حيث كان عدد الأسرّة في المستشفى خمسين سريرا ، قسمت إلى خمسة أجنحة هي الجراحة ، العلاج الطبي أمراض النساء . واثنان للحالات المرضية البسيطة. ويشرف على ذلك هيئة من الأطباء . تتميز

---

١٩- E. Dawes and N. H. Baynes, op. cit., p. 230 .

بالكفاءة والاقتدار (من بينهم طبيبة واحدة) . أما الغذاء الذى يقدم للمرضى فقد كان نباتيا ولكن بصورة معتدلة . يضاف إلى هذا عيادة طبية وصيدلية للعلاج الخارجى . ولأبناء هيئة الأطباء مدرستهم الخاصة التى يتعلمون فيها أصول الطب ومبادئه الأولى. وكانت هذه المؤسسة بكل هذا الذى تحتويه تخضع لإشراف رئيس الدير، رغم أنه قد عهد بالكثير من هذه المسئوليات إلى أحد الإخوة فى الدير. والتفاصيل التى وردت فى ميثاق تأسيس هذا الدير جديرة بالإعجاب حتى أن من يطالعها تبدو له وكأنها من بنات القرن العشرين أكثر مما عهدناه فى القرن الثانى عشر. وكانت مثل هذه المؤسسات الديرانية الكبيرة والثرية تقام فى داخل العاصمة أو قريبا منها، وعلى أهالى المناطق القصية أن يعتمدوا على مساعدات أقل من التى تقدمها تلك الأديرة الضخمة، خصصت حسبما تسمح به الظروف والإمكانيات فى المناطق المجاورة . ومن الواضح أنه كانت هناك مساعدة طبية سريعة ومتاحة فى مختلف الأقاليم ، فقد اعتاد القديس ثيودور السبكيونى أن يوصى بالاطباء والجراحين فى الحالات المستعصية التى لم يكن بمقدوره أن يتولى علاجها بنفسه .

وكانت المدن الكبيرة مثل القسطنطينية وسالونيك وطرابيزون تعتبر مراكز صناعية وتجارية هامة . فقد كان للقسطنطينية صناعاتها الخاصة وبالذات الصناعات الحريرية والتطريز والعديد من المنتجات الكمالية الأخرى مثل المجوهرات أو العاج أو الخزف التى ذاعت شهرتها. وكانت أنفس الخامات وأدق الألوان الأرجوانية تخصص فقط للاستخدام الإمبراطورى، سواء للثياب الرسمية الخاصة، أو ترسل كهدايا ، وهو أمر نادر الحدوث ، إلى بلاط أحد الدول الأجنبية . وقد احتل تنظيم صناعة الحرير وتسويق خاماته مكانة بارزة فى كتاب الوالى، Book of the Prefect ولم يكن الحظر المفروض على التصدير مجرد مسألة شكلية. فقد اكتشف ليوتبراند مبعوث أوتو الأول جدية الأمر، عندما تم تفتيش حقيبته بواسطة موظفى الجمارك وصودرت بعض مشترياته. وكانت هناك بعض المصانع الإمبراطورية الخاصة فى القسطنطينية ، تقوم بتصنيع الأقمشة الحريرية لأسرة الإمبراطور والبلاط وكبار رجال الدولة والكنيسة . ولما استطاعت الإمبراطورية أن تحصل على دودة القز على عهد جوستنيان ، وأمكن استخلاص الحرير الطبيعى ، لم تعد الإمبراطورية تعتمد على استيراده من الصين. وقد تم انتاج الكتان كذلك وبيع للمصانع فى القسطنطينية ، شأن بعض أنواع الطيب والعطور ، رغم أن بعض هذه المنتجات يتم استيراده من الخارج .

وكان الكروم والزيتون يفيان حاجة الاستهلاك المحلي في الريف والمدينة على السواء . وفى أجزاء من بلاد اليونان، ونجود آسيا الصغرى كانت تربى قطعان الماشية والأغنام التى تمثل مصدرا كبيرا للثروة . وهناك الخيول والجمال والمعز التى تمتاز بشعرها الطويل نتيجة تجوالها الدائم عبر مروج ووهاد تلك الضياع الواسعة التى تعتبر ثرواتها إحدى الدعامات الأساسية للدولة، ما دامت تخضع لسيادة حكومة امبراطورية قوية. أما الحياة الريفية فى أحط مراتبها اتضاعا، فيرسمها بوضوح ذلك التشريع الذى عرف بـ «قانون الفلاح»[٢٠] The Farmar's Law الذى يصور مجتمع قرية تتكون من صغار الملاك الأحرار ، وهم الطبقة التى قوى مركزها نتيجة السياسة التى درجت عليها الإمبراطورية منذ القرن السابع ، والتى قامت على أساس منح الأراضى مقابل الخدمة العسكرية ، بحيث تنتقل الهبة من الأب إلى أكبر الأبناء . وعلى الرغم من أن «قانون الفلاح» جاء مطابقا لهذا النمط من المجتمعات ، إلا أن الكثير من التفاصيل حول الحياة الرعوية والزراعية لم تكن تعبر عن أوضاع المزارعين . وفى هذا القانون يبدو الفلاح مشغولا ، يساعده أحيانا أحد العبيد أو عمال اليومية[٢١]، فى إعداد مزارع الكروم والتين وحقول القمح ، وتربية ماشيته ، وأغنامه وخنازيره ، وقد تضمن القانون العقوبات والقواعد لمواجهة كل الأمور التى تطرأ ، كأن يبيع أحد الرعاة خفية أحد الحيوانات، أو الهجوم المباغت العرضى الذى تشنه الحيوانات المفترسة ، أو التصرفات الهوجاء لكلب الرعاة أو قطيع الخنازير ، إلا أن هناك أخطارا كانت تفوق كل ذلك ، كأن تتعرض المحاصيل للتلف ، أو تهلك الماشية أو تطارد ، وبصفة خاصة على الحدود الشرقية لآسيا الصغرى حيث كانت غزوات الفرس والعرب والترك على التوالى (والمسيحيون فى بعض الأحيان) تمثل تهديدا خطيرا ومستمرا . وقد سقطت بصورة حتمية كثير من الحصون الصغيرة الموجودة على الحدود فى أيدى أعداء الإمبراطورية ، ومع التقلص الذى اعترى هذه الجبهات كان من الطبيعى أن تضيع هذه الأبنية بشكل دائم . وفى أوقات الجفاف أو السيول ، أو إغارات الجراد ، أو أية

---

٢٠- Translated by W. Ashburner, Journal of Hellenis Studies , 32 (1912) pp. 78 ff., and by E. H. Freshfield, Manual of Later Roman Law (Cambridge 1927) .

٢١- على الرغم من أن القديس فيلارتس St. Philaretes فى القرن الثامن قد اضطر إلى التخلى عما فى حوزته، بحيث لم يبق له إلا زوج من الثيران وحصان وحمار وبقرة وعجل، إلا أنه ظل يحتفظ بعبد واحد وخادم واحد Byzantion, 9 "1934" , p. 115 .

آفات أخرى قد تلتهم المحصول ، كان من الصعب على الفلاح أن يفى بالتزامه تجاه جباة الضرائب . ومن ثم فان الفلاحين كانوا يلجأون فى بعض الأحيان إلى أحد الرجال المطهرين إذا كان يقيم على مقربة منهم . وقد أدت صلوات القديس ثيودور السيكيونى إلى صرف الكارثة التى كان يمكن أن تحيق بالمحاصيل والتين ، بسبب الخنافس والجراد والدود والفئران النوامة (زغبة dormause). كما أبرأ الثيران والحيوانات الأليفة الأخرى. لقد كان الفلاح يعيش على هامش الحياة ، قلقا . وكان التنازل عن حريته مقابل التدنى إلى وضع المزارع المقيد بالأرض، المكبل بالالتزامات المعينة تجاه ضيعة ما سواء كانت علمانية أو ديرانية، يبدو غالبا الحل الوحيد لهذا الفلاح البسيط. ولكن الحال كان بخلاف ذلك فى الأراضى الأكبر حجما، حيث كان هناك بقية من الأرض يعول عليها عند الحاجة . ولقد ظلت الأرض الزراعية واحدة من أحسن الاستثمارات أثرى بها الكثير من الأعيان إلى أقصى حد.

وكان للإمبراطورية سواحلها الطويلة، وجزرها العديدة، مما دفع الكثيرين من البيزنطيين إلى اكتساب أرزاقهم عن طريق البحر ، فعمل بعضهم بالصيد ، وآخرون بحارة فى البحرية التجارية ، أو الأسطول الإمبراطورى إلى أن أخذت فى الظهور الجمهوريات البحرية الإيطالية منذ القرن الثانى عشر فصاعدا . ويعتبر القانون البحرى الرودوسى Rhodian Maritime Law مجموعة من النظم التى وضعت من أجل سفن صغار التجار ، تصف الترتيبات الخاصة بالبحارة والمسافرين . فقد كان مسموحا ، على سبيل المثال ، لكل راكب بمساحة معينة (فالمسافر الذكر له ثلاثة أضعاف ما تحتله المرأة من مكان) وكانت الأخطار التى يجب أن توضع فى الاعتبار كثيرة ، كاشعال النيران ، أو الوقوع فى أيدى القراصنة ، أو غرق السفينة. ولهذا كان محظورا على المسافرين قطع الاخشاب ، أو «قلى السمك على ظهر السفينة» ولن يسمح القبطان بشئ من ذلك»[٢٢]. وعلى ذلك فقد كان مسموحا لكل منهم بقدح من الماء ، كما أنه كان باستطاعتهم الحصول على الطعام من الطباخ المشرف على المقصف الصغير ، وللقبطان الحق فى أن ينزل المسافرين إلى البر ، إذا كان من الضرورى الإقلاع إلى عرض البحر، حتى يتفادى التعرض للقرصنة. وفى بعض الأحيان كانت كل حمولة السفينة أو بعضها تطرح إذا ما اقتضى الأمر ذلك . وكان من أهم سمات القانون البحرى الرودوسى نظامه الخاص

---

٢٢- قام E. T. Freshfield بترجمة القانون البحرى الرودوسى فى A Manual of Later Roman Law "Combridge 1927" p. 206.

بالتعويض المتبادل والتأمين ، وهو يتضمن بعض مبادئ التأمين البحرى فى العصر الحديث(٢٣) ولما كانت التجارة تعنى غالبا رحلة بحرية إلى بعض الأمكنة ، وحركة التجارة البحرية تعد من الأنشطة المحددة ، فقد سمح بذلك لرهبان جبل آثوس ، ولأولئك الذين يعملون على أسطول بطريرك الاسكندرية الذى جلب القصدير من «الجزر البريطانية» فى القرن السابع أو لتاجر بالارتحال الى مكان قصى كالهند أو الصين ، كما كشفت عنه الوثائق اليهودية الباقية (٢٤).

ولقد كان للبيزنطيين لهوهم ومسلياتهم ، قصورهم الآدمى ووهنهم وكانت الحمامات العامة تكاد تعادل الأندية ، حيث يلتقون ويتسامرون على امتداد يومهم. وغالبا ما كانوا يجمعون بين عملهم ومسراتهم فى أسفارهم أو أسواقهم الكبرى. ويحرص البائعون باستمرار على التردد على مزارات القديسين المحبوبين ، ويتم الاتفاق على تفاصيل العمل فى هذه الدور ، وفى بعض الأحيان ينسل الناس إلى خارج الكنيسة قبل أن ينتهى القداس لاستكمال المباحثات فى الخارج (وفى إحدى المرات كان هناك كثير من التشويش والبلبلة ، مما حدا بالبطريرك أيضا إلى الخروج قائلا، إنه باعتباره راعيهم فان مكانه بينهم ) ، وكانت الخرافات والخزعبلات تجد رواجا واسعا فى المدن والقرى على السواء . وانتشرت الرقى والتمائم لدفع الأذى والشفاء من المرض، بما فيها الوفائيات المسيحية لنفس الغرض . وقد كتب يوحنا الإيطالى إلى عميد كلية الطب فى القسطنطينية يقول إنه لن تكون به حاجة إلى العلاج العادى، أو المطهرات . أو تغيير الهواء أو ما شابه ذلك، إذا ما لبس فقط وسام قسطنطين الذى أرسله إليه. وكان للقرى امرأتها الحكيمة أو الساحرة. أما فى المجتمعات الأكثر رقيا فكانت تعقد حلقات أشبه ما تكون بالمشاهد التمثيلية ، وكانت هناك تعليمات لتفادى أى ارتباك قد يحدث إذا ما تضرع الوسيط إلى إله الشر أو روح خبيثة، أو عندما تأتى الإجابة غير صحيحة . وعلى هذا النحو اقتفت بيزنطة أثر العالم القديم المتأخر فى الإيمان بالسحر وممارسته . وكان واضحا أن هناك اهتماما كبيرا بالأنشطة الروحانية فى الأوساط الرومانية الشرقية . وتظهر تجارب العصور

---

٢٣- أنظر E. H. Freshfield, op. cit. p. 60

٢٤- أنظر المقالة الرائعة التى كتبها S. D. Goitein تحت عنوان «من البحر المتوسط إلى الهند» وثائق عن التجارة إلى الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى Speculum 29 "1954" pp. 181 ff. ورغم أنها أنها تتناول فى الدرجة الأولى التجارة اليهودية من القاهرة . إلا أن هذه الوثائق تكشف عن «مظهر دولى» وتلقى ضوءا على تجارة العصور الوسطى مع الشرق الأقصى بصفة عامة .

الأبحاث الروحانية الحديثة[٢٥] وكانت الكنيسة تبدى باستمرار استياءها لمثل هذه الأنشطة ، بما فيها التنجيم . وقد هاجم يوحنا الدمشقى بقوة فى مؤلفه «ينبوع المعرفة» ادعاءات المنجمين، وأكد أن النجوم أو الأحوال الجوية ليست بقادرة على تحديد طبائع الإنسان أو إدارة شئوننا . «لقد خلقنا الله أحرارا ، سادة أفعالنا» [٢٦].

وقد حرم المجمع الخامس السادس[٢٧] Quini-Sextum Concil المنعقد فى سنة ٦٩١، الاحتفالات الوثنية التى كانت تقام بمناسبة عيد أول مايو ، وعند حصاد الكروم ، وممارسة السحر والشعوذة ، وإن كان نجاح هذه الإجراءات أمرا ليس مؤكدا. ولعل الاحتجاجات المجمعية والكنسية المتكررة تظهر المقاومة العنيدة التى بذلتها الخزعبلات والتقاليد الموغلة فى القدم ، من أجل البقاء .. ولقد كان هذا واضحا بصفة خاصة فى الجزر التى حافظت باصرار على تقاليدها وفولكلورها حتى أيامنا هذه تقريبا .

وكانت أوقات البذر والحصاد لاتسمح إلا بوقت قليل للراحة . وفى الريف ، ترتبط مسرات أهله بالفصول المختلفة، كزمن حصاد العنب، ويكتمل هذا بأنواع التسلية الأخرى القادمة من خارج القرية كفرق الأكروبات التى تنتقل على الجمال ، أو الحواة، وربما أيضا مع المقلدين والمهرجين . أما المدن الكبيرة فقد كانت تفتقر إلى أى شئ يمكن أن يقف على قدم المساواة مع الدراما الإغريقية القديمة أو حتى دراما الأزمنة الحديثة . ولكن كان هناك عروض موسيقية محلية واستعراضات راقصة (وهى التى يفترض فيها أن الدوائر الكنسية لن تحضرها) . وقد حاول أحد بطاركة القسطنطينية فى القرن الثالث عشر (وهو الذى كان يتصف بطلعة تنحسية) كما حاول غيره ممن سبقوه ، التأكيد بأن التمثيل فى يومى السبت والأحد مجلبة الشقاء .

---

٢٥- المادة العلمية الخاصة بالعالمين اليونانى الرومانى والبيزنطى ، لم يكتشف إلا البعض منها ، ولعل من أحسن المداخل إلى هذا الموضوع المقالة التى كتبها E. R. Dodds تحت عنوان «السحر وعلاقته بالافلاطونية المحدثة» Theurgy and its relationship to neoplatonism فى . Journ . Rom ., stud. 37 "1947" pp. 55 ff .

٢٦- John of Damascus , De fide orthodoxa, c. 7 transl. Nicene and Post Nicene Fathers "1899" , p. 24 .

٢٧- عرف المجمع بهذه التسمية لأن قوانينه كانت تعتبر تتمة للمجمعين المسكونين الخامس والسادس (المؤلفة) ، راجع قبله (المترجم)

وكانت وسائل اللهو المفضلة، ومباريات الكئوس - فى العصور الوسطى ، تتمثل فى سباقات الهيدروم فى القسطنطينية تحت رعاية البيت الإمبراطوري. وهنا كانت الفرق المتنافسة تتلقى التأييد من مشجعيها وأنصارها ، وعندما ينتصر المتسابق فإن ذلك يفسر على أنه انتصار للإمبراطور الذى لايقهر ، والذى غالبا ما كان يشرف على السباق من المقصورة الإمبراطورية .

وكما هو الحال فى أى زمان ، كانت الحياة اليومية البيزنطية تمتلئ بالكثير من الخزعبلات والسخافات والمنغصات . ولكن الصورة العامة والبارزة ، كانت شيئا بعيدا عن الانحطاط أو القنوط . لقد كان الناس يسخرون من أطبائهم ورجال القانون فيهم والأكليروس ، ولكن سخريتهم اللاذعة هذه تفصح عن مدى إحساسهم بالاطمئنان على تراثهم أكثر مما تشير إلى عكس ذلك . ولقد توفرت لديهم حتى القرن الثالث عشر أفضل الخدمات الاجتماعية ، سواء تلك التى تقدمها الدولة أو التطوعية ، كما نعمت الطبقتان العليا والوسطى بأرقى مستوى من الحياة لم يتوفر لأحد فى أى مكان آخر من العالم المسيحى آنذاك. أما حالات الفاقة فقد كان يتم الخلاص منها بادراك الأهداف الإلهية والسعى إلى تحقيقها ، يشهد على ذلك الاقتناع الكامل لدى أهل القرى فى وساطة أحد القديسين، ورغم ضرارة النزال إلا أن المحن والبلايا كانت تعتبر تجربة صحية مفيدة . وقد كتب نقفور جريجور فى القرن الرابع عشر، عندما كانت الإمبراطورية تبتلى بما يفوق احتمالها، «من النادر أن يبتسم الحظ لنا، وحتى إذا جاءنا فانه سرعان ما يولى كما تذبل الزهور. ولكنها إرادة الله التى توقع بنا القصاص العادل، وإلا ربما غرتنا أنفسنا ونسينا أننا إلى الفناء سائرون» (٢٨).

---

٢٨- Nicephorus Gregoras , History XVI, 4 "vol. II p. 819"

## مراجع خاصة بالنواحى الاجتماعية والاقتصادية والحياة اليومية


- Cambridge Economic History .

  (vol. I, 2nd ed . 1966), Agrarian Conditions by G. Ostrogorsky .

- Cambridge Medieval History.

  (vol. IV, pt. II) ch. 22, Social Life by R. J. H. Jenkins .

  _______ ch , 28, Byzantine Science by K. Vogel.

- Diehl (C.), La Societe Byzantine a L'epoque des Comnenes (Paris 1929).

- Jeanselme (E.) , et L. OEconomos, Les OEuvres d'Assiatance et Les Hopitaux Byzantins au Siecle des Comnenes, Communication faite au ler . Congres de L'Histoire de L'Art de Guerir, Anvers 1920 (Anvers 1921).

- Ostragorsky (G.), Pour la L'histoire de la feodalite Byzantine. Paris 1954 .

  Quelques Problemes d'histoire Paysnnerie Byzantine. Brussels 1956 .

- Rhodian Law, Farmer's Law, Book of the Prefect, and other legal Codes. by E. H. Frehfield. Cambridge 1927-31 .

- Runciman (S.) Byzantine Civilization , London 1933 .

# الفصل التاسع

# التعليم والأدب
# أوجه التراث البيزنطى

# الفصل التاسع
# التعليم والأدب
# أوجه التراث البيزنطى

يعتبر المجتمع البيزنطى من المجتمعات المثقفة ، على الأقل فى مستوياته الوسطى والعليا. وهنا أيضا كما جرى بذلك التقليد السياسى والإدارى ، لم يحدث انقطاع عن العالم اليونانى- الرومانى . ولقد ذهب كل من القديس باسل St. Basil والقديس جريجورى النازيانزى St. Gregory Nazianzus وهما من أهم عمد الكنيسة المسيحية . إلى جامعة أثينا، جنبا إلى جانب معاصرهم الوثنى جوليان المرتد Julian the Apostate وحوالى ذلك الوقت كان القديس يوحنا ذهبى الفم John Chrysostom يزمجر مبينا للآباء التربية السليمة للأطفال المسيحيين، ولكن مهما كانت الحيطة التى اتخذها ليحول بكل جهده دون تدنيسهم بالعادات والسلوك غير المسيحيين ، إلا أنه لم يوص أبدا أن يظل أبناء المسيحية بعيدين عن الثقافة (الوثنية) . وهكذا فان الدولة البيزنطية فى عصرها الأول كانت وريثا واعيا للأدب والفكر ووسائل التعليم فى الإمبراطورية الرومانية المتأخرة ، ومن ثم لم يكن عليها أن تبنى من جديد كما فعلت بعض الممالك الغربية الصغرى. وفوق هذا فانه فى القرن السادس عندما لم يكن لدى انجلترا وفرنسا إلا القليل الذى يمكن أن تقدمانه، ولم يكن لدى الكنيسة فيهما شئ على الإطلاق، كان الإمبراطور البيزنطى يشكل لجانا من المشرعين ، كان لعملها أثره الكبير على مختلف المستويات فى كل البلاد الأوروبية تقريبا ، وينظم الأمور المتعلقة بطلاب مدارس القانون بأساليب تكاد تطابق الحياة الجامعية الحديثة. وقد كتب بروكوبيوس Procopius الذى كان سكرتيرا عسكريا خاصا لبليزاريوس Belisarius قائد جوستنيان ، مؤلفات كثيرة وضخمة عن الحرب والسلام، ولعله أراد في الوقت ذاته أن يخفف عن نفسه هذا العناء ، فوضع تقريرا خاصا عن معاصريه (وفى مقدمتهم الإمبراطور) لانقول إنه كان بعيدا عن الفطنة بقدر ما كان عملا تشهيريا ، بحيث لم ينشر إلا بعد وفاته. ونظم رومانوس الملحن[1] Romanus the Melodus ، بما عرف فيما بعد بالنظم الجديد، ترانيم كورالية ما زالت تستخدم إلى اليوم ،

---

١- ولد فى سوريا ، واختلف الدارسون حول انتمائه للقرن السادس أو القرن الثامن وإن كان الرأى قد =

لا يدانيها مثيل في جمال النص والمحتوى . وكان بولس الصامت Paul the Silentiary يكتب بأحد بحور العالم القديم قصائده الوصفية التي نظمها في الكاتدرائية التي بنيت حديثا في القسطنطينية، كنيسة الحكمة المقدسة ، أيا صوفيا .

وعلى امتداد العصور الوسطى البيزنطية، كما هو الحال في العالم القديم ، كانت التربية لذوي اليسار أمرا مسلما به، ويستحث الكثيرون على الكتابة بطريقة جيدة وكذا الحديث، وكان البنات شأن البنين يتلقون التعليم ، حقيقة لم يكن عادة يذهبن إلي الجامعات ، ولكنهن يحصلن على مستوى عال من الثقافة ، خاصة في العائلات التي كان بمقدورها أن تقدم لبناتها معلمين خصوصيين، وكانت سكرتارية الإمبراطور قسطنطين السابع تضم بناته المتعلمات ، وزوج المؤرخ والجندي نيقفور بريانيوس[٢] Nicephoros Bryennius إلى مؤلفة مثقفة هي الأميرة أنا كومننا Anna Comnena وكانت إيرين Irene ابنة ثيودور متوخيتس ذات ذكاء حاد وبصيرة نافذة ، حتى أن معاصريها من الرجال شهدوا بأن أحاديثها كانت تعود بهم إلى أفلاطون وفيثاغورس . ولم تكن الثقافة قاصرة فقط على بنات الطبقة الراقية ، فقد كان هناك على سبيل المثال نساء مثقفات ، مثل أم ميخائيل بسللوس في القرن الحادي عشر، وتلك الطبيبة التي جاء ذكرها مرتبطا بمستشفى يوحنا كومننوس في القرن الثاني عشر.

---

= استقر أخيرا على ذيوع صيته في القرن السادس ، بناء على ما أمكن استنتاجه من اشاراته في مؤلفاته إلى الإمبراطور أنسطاسيوس الأول (٤٩١-٥١٨) . وقد انتقل من سوريا إلى القسطنطينية وهو ما زال شماسا ، وتفتحت عبقريته في نظم الشعر الديني والتراتيم المسيحية ، حتى أن بعض الدارسين يعتبره أعظم الشعراء البيزنطيين قاطبة . ويطلقون عليه «بندار الشعر الإيقاعي» و «دانتي الهللينيين المحدثين».

أنظر في ذلك Baynes & Moss, op. cit. pp. 240-241

وكذلك Vasiliev, op. cit. I, pp. 122-123 .

وأيضا دكتور أسد رستم : الروم ، الجزء الأول ص١٥٩ (المترجم)

٢- عمل في خدمة الكسيوس كومننوس وابنه يوحنا ، ولعب دورا بارزا في إدارة أمور الدولة على عهديهما ، وتزوج من أناكومننا ابنة الكسيوس ، وكان نيقفور ينتوي كتابة تاريخ عن الإمبراطور الكسيوس غير أن الموت عاجله فحال بينه وبين بغيته، غير أنه ترك تقريرا وافيا عن أسرة كومنين وكيف تم لألكسيوس اعتلاء العرش، وهو يتناول الفترة بين عامي ١٠٧٠-١٠٧٩ ، وهو إلى جانب ذلك يعد مصدرا هاما لهذه الفترة ، بهذا الضوء الذي يلقيه على سياسة البلاط الداخلية ، والسياسة الخارجية للدولة. وخاصة ذلك الخطر المتزايد للأتراك السلاجقة وتهديدهم لبيزنطة (المترجم)

وكان التعليم الابتدائي يتلقى في المدن، وأحيانا في مدارس القرى، كما حدث في القرن السابع عندما ذهب القديس ثيودور السيكوني إلى ريف جالاتيا في آسيا الصغرى. وكان أبناء العائلات الثرية يتعلمون على أيدى معلمين خصوصيين. أما المستوى الراقى من التعليم فقد كان متاحا من مصادر مختلفة. وفى القرن التاسع الميلادى، نجد أن ليو Leo عالم الرياضيات ، بعد أن أنهى مرحلة التعليم الأولى فى القسطنطينية ، ارتحل إلى جزيرة أندروس Andros ليكمل تعليمه على يد مدرس للفلسفة والرياضيات ، حتى إذا عاد جعل من نفسه معلما خاصا في القسطنطينية . ولقد كان من السهل غالبا العثور على معلم خصوصي من أجل دراسة متقدمة رغم أن مثل هذه الدراسة لم تكن ذات سمعة طيبة . وقد قام يوحنا موروبوس John Mauropous فى أوائل القرن الحادى عشر بتعليم مجموعة متفرقة من الشباب، شغلوا بعد ذلك مناصب مرموقة ، وكان يعلم حبا فى مهنته ، ولم يطلب أجرا من أولئك الذين لم يكن باستطاعتهم تقديمه ، وجرى بذلك قلمه في قصيدة تثير العواطف حول سنى عمره الأولى فى القسطنطينية . وفى بعض الأحيان كانت البداية تأتى فى بيوت من يهتمون بعملية التعليم وغالبا ما كان هؤلاء من الدارسين ذائعى الصيت .

وتأتى بعد ذلك الأكاديميات الشهيرة ذات السمعة الدولية ، وقد استمرت المدارس الكبرى فى العصر الكلاسيكى تؤدى دورها فى الفترة البيزنطية المبكرة ، وفى مقدمتها مدارس أثينا والاسكندرية وبيروت ، وإن كانت القسطنطينية التى تأسست مؤخرا ، قد أخذت تزاحمها . وقد عمل قسطنطين على تشجيع التعليم فى عاصمته الجديدة . بحيث أصبح هناك مركز للدراسات العليا خلال النصف الثانى من القرن الرابع، وما لبثت الجامعة أن افتتحت رسميا عام ٤٢٥ على يد ثيودوسيوس الثاني. وقد أقيمت فى القاعة الكبرى على صرح الكابيتول ، وأصبحت على هذا النحو تحت الإشراف الإمبراطورى ، وخصص للغة اللاتينية ثلاثة خطباء وعشرة من النحويين ، ومثل هؤلاء الأخيرين وخمسة سوفسطائيين يعلمون باللغة اليونانية ، هذا بالإضافة إلى أستاذ للفلسفة «واثنين لفقه القانون والشريعة» . وقد أغلقت جامعة أثينا على عهد الإمبراطور جوستنيان ، وإن كان هذا لايعنى توقف حركة التعليم هناك ، على حين انتقلت الأسكندرية وأنطاكية وبيروت إلى أيدى المسلمين . ولكن أعرافهم حملتها القسطنطينية التى بقيت أشهر مركز للدراسات اليونانية فى العصور الوسطى، على الأقل حتى عام ١٢٠٤ . وبمرور الزمن تناقص عدد الكراسى الخاصة بالدراسات اللاتينية ، حتى اختفت

تماما فى النهاية عندما أهمل استعمال اللغة اللاتينية ، وتم فقدان النصف الغربى من الإمبراطورية نهائيا . وكانت الجامعة هى ميدان التدريب على الوظائف المدنية والإدارية ، وعادة ما كانت تتلقى الدعم المادى من الدولة ومن جهات أخرى كذلك ، وليس من اليسير أن نضع تصورا عاما لتاريخها بسبب قلة المصادر ، ولكن الواضح أنها ازدهرت فى القرنين الخامس والسادس بصفة خاصة ، ثم عادت إلى الانتعاش ثانية منذ منتصف القرن التاسع حتى نهاية القرن الثانى عشر، وكان من أهم الوثائق التى وصلتنا كاملة ، لائحة كلية الحقوق التى وضعت فى سنة ١٠٥٤ عندما أعيد تنظيم الجامعة على يد قسطنطين التاسع، استجابة لرغبة مجموعة من الأساتذة الغيورين وذوى النفوذ. وبعد عام ١٢٠٤ انتقل الاهتمام بها إلى حد ما، أولا إلى نيقية ، ثم إلى البلوبونيز بعد ذلك حيث نجح علماء الدراسات الإنسانية البيزنطيون فى اجتذاب وتعليم صغار الدارسين . وكان هناك أيضا ثمة مراكز أخرى مثل سالونيك أو طرابيزون حافظت على أنشطتها الثقافية . ومع ذلك فقد تمكنت القسطنطينية من أن تستعيد شيئا من تألقها السالف ، وذلك على عهدى أندرونيكوس الثانى وكانتاكوزينوس . حيث تم إنجاز عدد من الأعمال التى لا بأس بها وخاصة فى بعض العلوم ، بينما عكست المحاورات الدائرة والجدال وقع اللاهوت الغربى والديالكتيكية هناك على التقاليد الحماسية المحافظة للروحية الأرثوذكسية .

وعلى امتداد تاريخها الطويل ، حرصت بيزنطة على تكريم مدرسيها ، الخاص منهم والعام على السواء ، معتبرة التعليم شيئا ساميا ، ليس فقط للأمراء الذين كان بالنسبة لهم أمرا جوهريا ، «بل لكل الآخرين.. جموع الرعية»[٣] وكانت أنا كومننا تظهر احتقارها الشديد لأولئك الذين أخفقوا ، أو لم يستجيبوا ، لبرامج التدريب على فن المحادثة أو الكتابة . وراحت تتساءل ، عندما سقط ليو أسقف خلقيدونية فى الهرطقة وسط دهشة الجميع، «لقد كان عاجزا عن أن يضع تفسيرات أو شروحا دقيقة، أو حتى إقناع الآخرين بها، وما ذلك إلا لأنه لم يتدرب مطلقا على العلوم العقلية»[٤]. ولقد ظل البيزنطيون حتى النهاية، يحتفظون

---

٣- Constantine VII, De Administrando Imperio (ed. G. Moravcsik and trans. R. J. H. Jenkins), p. 49

٤- Anna Comnena, Alexiad. V. 2 trans . E. A.S. Dawes, p. 119 .

بادراكهم الحيوى لقيمة التعليم، حتى أن امبراطور نيقية فى القرن الثالث عشر، ثيودور الثانى كان يقول إبان تلك الحيرة الحالكة التى وقعت فيها الإمبراطورية بعد الحملة الصليبية الرابعة «مهما تكن متطلبات الحرب والدفاع ، فانه من الأمور الجوهرية أن نجد الوقت لنغرس بذور بستان العلم» .

ولقد تم الرضى بالتعليم البيزنطى عن أصوله الكلاسيكية ، فالتعليم الابتدائي كان يشمل على القراءة والكتابة ودراسة للأدب اليونانى القديم. وكان الاقتباس من هوميروس والاستشهاد به أمرا بدهيا عند البيزنطيين كشأننا اليوم مع شكسبير . أما أساسيات الدراسة الابتدائية فكانت مقدمة لتدريب خاص فى الخطابة ، يتبعها دراسة للقانون أو الفلسفة على المستوى الجامعي ، بالإضافة إلى مواد أخرى كالطب والحساب والهندسة والفلك والموسيقى . ولم تكن الدراسات اللاهوتية المتقدمة من بين برامج جامعة القسطنطينية ، فقد كان هناك عدد من المدارس الكنسية ومن بينها الأكاديمية البطريركية في العاصمة ، بفروعها الملحقة بالكنائس المختلفة هناك . وفى احدى هذه المدارس ، وهي الموجودة بكنيسة الرسل ، كان كيرلس رسول الصقالبة ، يعلم فى أيام فوطيوس Photius ورغم أنه لم تكن هناك كراس للدراسة اللاهوتية فى الجامعة ، إلا أن الأساتذة العلمانيين كانوا لاهوتيين أكفاء ، منهم فوطيوس نفسه وتلميذه ومعاصره ليو السادس ، أو مانويل الثانى Manuel II فى أوائل القرن الخامس عشر، ذلك أن الحد الفاصل بين مجال الاهتمامات العلمانية والكنسية ، لم يكن له وجود .

ومن السهل أن نجد أى نوع من النشاط الثقافى أو الأدبى فى أى فترة من فترات التاريخ البيزنطي، وإن كان الكثير من هذه الأعمال ما يزال غير مطبوع أو مكتشف ، وليس أدل على ذلك من أن وضع تاريخ دقيق للعلوم البيزنطية ، والتعليم والتطور التكنولوجي والمهنى، لم يتم بعد، والتعليق على تقدم الدراسات البيزنطية فى ميادين بعينها يعتبر شيئا فوق طاقة كاتبة هذه السطور. وربما كان هناك تطور فى الطب والجراحة ، حيث توحى كتابات اسكندر الترالى Alexander of Tralles فى القرن السادس ، وبولس الايجى Paul of Aegina فى أوائل القرن السابع ، أن بيزنطة كانت حلقة الاتصال بين مدرسة جالنوس Galen والتقدم الأخير فى إيطاليا والعالم الإسلامى. ولكن الذى لاشك فيه أنه كان هناك نشاط فى الرياضيات والفلك، تدل عليه أعمال ليو عالم الرياضيات فى القرن التاسع ، أو إعادة الاهتمام ثانية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر عندما استخدم النظام البشرى الهندى (وقد ظهر ذلك للمرة

الأولى فى بيزنطة فى مدرسة القرن الثانى عشر القائمة على أعمال إقليدس[٥] (Euclid) . ولقد كان الاهتمام قويا بالفلك بصفة خاصة ، وشجع على ذلك أيضا باعث آخر نبع من طرابيزون ، على اعتبار أنها كانت على صلة بايران فى أخريات القرن الثالث عشر. وهناك فروع من الرياضيات كانت ترتبط تماما بالدراسات الفلسفية ، وقد نظر بعض الدارسين فى الحقيقة ، مثل ميخائيل بسللوس ، إلى الرياضيات باعتبارها أنموذجا رفيعا لأنها حلقة اتصال بين الموضوعات المادية والتفكير المجرد . وكان إحياء الدراسة المتقدمة للرياضيات فى القرن الرابع عشر من بين ما يشكو من إهماله العلامة والسياسى تيودور متوخيتس ، ذلك أنه لم يجد سوى أجزاء فقط من أعمال إقليدس ونيقوماخوس Nicomachus هى التى تدرس ، وهى التى كانت ذات صلة بالفلسفة .

وكانت الفلسفة هى الأخرى ترتبط ارتباطا وثيقا باللاهوت ، ويعود ذلك بعض الشئ إلى أن آباء الكنيسة الأوائل كانوا متضلعين من فكر العالم القديم. وعلى هذا النحو كان الجزء الأول من «ينبوع المعرفة» Fount to Knowledge الذى وضعه يوحنا الدمشقى فى القرن الثامن، وهو كتيب فى التعاليم المسيحية، يتحدث بصفة خاصة عن المنطق والميتافيزيقا عند أرسطو. وقد تنوعت الاهتمامات بالدراسات الفلسفية، وكان من الأمور المسلم بها أنها تتطلب المزيد من حصانة الرأى، كما أعلن ذلك أحد المتحمسين لها مثل يوحنا الإيطالى الذى كلفه ذلك الشئ الكثير! ولقد كان ينظر إلى الفلسفة عموما على أنها رياضة فكرية يجب أن تدور فى فلك العقيدة المسيحية ، ولكن المناهج والمحاورات الفلسفية كانت شيئا فائق القيمة، خاصة ذلك الجدال اللاهوتى الذى شهدته الفترة المبكرة حتى أيام يوحنا الدمشقى. وهكذا حفظت المبادئ والمؤلفات الأساسية لتنتقل إلى الغرب. وكان التأكيد على إحياء العلم فى القسطنطينية منذ منتصف القرن التاسع والقرون التالية إنسانيا وأدبيا أكثر منه فلسفيا، حتى منتصف القرن الحادى عشر عندما قفز أرسطو وأفلاطون ، وبصفة خاصة الأفلاطونيون المحدثون إلى المقدمة، ليدرسوا بنهم وعزيمة على يد ميخائيل بسللوس، الذى شغل لفترة معينة رئاسة كلية الفلسفة فى الجامعة بعد أن أعيد تنظيمها . ورغم أن صديقه القديم يوحنا

---

٥- للمزيد من المعرفة عن العلوم فى بيزنطة بفضل الرجوع إلى الفصل الذى كتبه K. Vogel فى الطبعة المنقحة من Cambridge Medieval History IV, pt. II

اكسيفيلينوس John Xiphilinus قد قال فى نغمة تحمل طابع التوبيخ أنه متعلق بأفلاطونه ذلك إلى حد كبير جدا ، إلا أن بسللوس كان على استعداد للاعتراف بأن الفلسفة ، التاج الذي يزين مفرق الدراسات العلمانية ، لايمكن أن تكون شيئا ذا قيمة فى حد ذاتها ، ولكنها مجرد إعداد للاهوت . وقد أدى هذا الاتجاه فى بعض الأحيان إلى إحباط التفكير الفلسفى . وسواء تمخض هذا الاتجاه عن جديد أم لا ، فانه ما يزال من الصعب الحديث فى هذا الموضوع . وقد حفظ لنا الزمان العديد من الشروح والتعليقات على أعمال أفلاطون وأرسطو أو بروكلوس Proclus فى أواخر القرن الخامس. ومن الممكن أن تبرهن هذه الأسفار الضخمة المتراكمة من القرون الوسطى على مدى قيمتها فى تتبع تطور الفكر الفلسفى فى الغرب. فمن المعروف أن توماس الأكوينى[٦] Thomas Aqunias قد اعتمد على شروح يوحنا فيلوبونوس John Philoponus لأعمال أرسطو ، ولكن الكثير لم يعرف طريقه إلى الطباعة بعد ، وما تزال الفلسفة والعلوم البيزنطية تحتاج إلى المزيد من البحث .

---

٦- ولد فى أوائل سنة ١٢٣٥ ، فى مدينة Roccasecca بالقرب من نابولى، وهو ينتمى لأسرة نبيلة ، والتحق فى صباه بدير جبل كاسينو البندكتى ، ثم بـ جامعة نابولى ، ثم اتبع أسلوب الرهبنة الدومينيكانية ، وأكمل تعليمه فى جامعة باريس ليحصل على إجازة اللاهوت سنة ١٢٥٦ ، وبعد ثلاث سنوات عاد إلى إيطاليا واستمر يدرس فى جامعاتها حتى أدركته الوفاة سنة ١٢٧٦ . ويعتبر توماس الاكويني أشهر آباء الفلسفة المدرسية المسيحية ، حيث جعل من الفلسفة الأرسطية محور عمله ليطوعها لخدمة العقيدة المسيحية ، حتى أضحت كتاباته بعد ذلك سلاحا قويا شهرته الكنيسة فى القرون التالية ضد الخارجين عليهما، إبان رد الفعل العنيف الذى تعرضت له الكنيسة فى عصر النهضة . عن القديس توماس الاكوينى وفلسفته ومؤلفاته.

أنظر
Gordon Leff, Medieval Thought (1958)

و
Maurice de Wulf , Philosophy and Civilisation in the middle Ages (1953) .

وكذلك
H. Slesser, The middle Ages in the West. pp. 212-239 Knowles, op. cit, pp. 255-268 .

وراجع كذلك . يوسف كرم:تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط ، ص١٤٤-١٧٧ ، دكتور عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى، ص١٣١-١٦١ ، عبده فراج : معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى، ص٢١١-٢٢٧ ، دكتور حسن حنفى حسنين : نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط ، ص٢٠٩ - ٢٨٣ (المترجم)

وكان الاهتمام بالأدب اليونانى القديم يعنى أن وقتا كبيرا كان مخصصا للأعمال الفيلولوجية والنصوص، وكان معظم الجهد المبذول منصرفا إلى أعمال الإسناد ، والمعاجم والأجروميات ، ودوائر المعارف ، والشروح والتفسير ، ودواوين الشعر، التي تحوى كنوز المعرفة ، والأعمال التاريخية والأدبية واللغوية . وما تزال شروح يوستاتيوس السالونيكى Eustathius of Thessalonica التى وضعها لهوميروس فى القرن الثانى عشر تستخدم حتى اليوم من جانب المختصين بالدراسات الكلاسيكية . وتضم «مكتبة» فوطيوس ، إلى جانب تعليقاته الذكية كلها بلا استثناء ، اقتباسات من كتب كان قد قرأها، ولم يعد لها وجود . ولم تكن مثل هذه الكتابات إبداعا أدبيا ، ولكنها كانت الوسائل الجوهرية والقطوف الدينية لشعب متعلم .

ولقد ورثت بيزنطة أيضا عن أسلافها اهتماما كاملا بالبيان الذى صبغ كل نظمها التعليمية وأعمالها الأدبية . ولايخفى على أحد أن البيان هو الذى يهيئ الكاتب أو الخطيب لتقديم عمله فى صورة لائقة ومتناغمة ، ولاشك أن جذوره الأولى قد نبتت فى السفسطة الوثنية ابان الحقبة الهللنستية . وكان هناك تيار متدفق من الأدب ، والكتابات التقريظية ، والنصائح التهذيبية (منها مثلا انموذج الأمراء) والكتابات العرضية والخطب باختلاف موضوعاتها. ولم يجد الكتاب الذين يفتقدون أصول البيان ، إلا الاستياء ، ومن ثم جاءت أول ترجمة لحياة القديس يوحانيكيوس St. Joannicius في القرن التاسع ، مخيبة لأمال المعاصرين لأنها كتبت بأسلوب ركيك يفتقد الانسجام .

والحقيقة التى لا مراء فيها أن هناك فارقا كبيرا بين اللغة المكتوبة ولغة الحديث ، فقد شهدت القرون الأولى للميلاد اندماج اللهجات العديدة التى كانت سائدة فى العالم القديم فى لغة مشتركة Koine وهى التى كانت تستخدم فى العالم الهللنستى ، وهى تتميز بخصائصها الأتيكية ، وقد تعرضت لكثير من التغيير بما أدخل عليها إبان العصور الوسطى ، لتشكل من بعد أصول اللغة اليونانية الحديثة . ولم تكن الأوساط التعليمية البيزنطية تستخدم هذه اللغة الحية رغم كونها وطنية المولد. وعادت هذه الأوساط القهقرى إلى أتيكا محاولة الكتابة بلغة ثوكيديدس Thucydides أو بعض الكتاب الآخرين فى العصر الكلاسيكى . ولاريب أن هذه الناحية كانت تمثل جزءا من كبريائهم واعتزازهم بأنفسهم ، باعتبارهم حماة بل وأصحاب الثقافة اليونانية القديمة، وإن كان ذلك قد أدى إلى نتائج سيئة، فغالبا ما كانت كتاباتهم تمتلئ

بالتعبيرات والمصطلحات القديمة، هذا بالإضافة إلى الأخطاء النحوية التي يقعون فيها عندما يخلطون دون عمد بين الاستعمالين القديم و «الجديد» للغة. أما الكنيسة فلم تستخدم هذه اللغة الدارجة ، وإن كان معظم أدبها قد كتب بأسلوب مبسط من هذه اللغة المشتركة Kione كشئ متميز عن الاتيكية القديمة ، واستطاعت أن تطور لنفسها نسقا معينا ، وخاصة فى شعرها القداسى وأعمالها الرمزية. والحقيقة أنها لجأت فى بعض الأحيان إلى استعمال الشعر الكمى الإيقاعى الجديد. هذا على حين مالت أنواع الأدب الأخرى تلقائية إلى اللغة وطنية المولد، حتى فى فترة مبكرة ، كما يتضح فى المزمنات ، بينما كانت حياة القديسين تكتب أحيانا بلغة أكثر بساطة ، وخاصة فى النسخ الأصلية قبل أن تصاغ ثانية فى صورة أدبية واضحة ، وربما أيضا دبجت بعبارات أو فقرات مقتبسة من هوميروس أو بعض الكتاب العظام الآخرين. هذه الأعمال فى الحقيقة تقف على قدم المساواة مع قصصنا خاصة تلك التى تعود إلى بواكير العصورالوسطى ، كما أنها أمدتنا بمجموعة كبيرة من الروايات التهذيبية ، وقد اختلطت مع التفاصيل البسيطة والليالى العربية الأسطورية ، وبنوع خاص فى الحكايات التى دارت حول الرجال الأطهار فى أقاصى المشرق الذين ارتادوا أقطارا قصية حتى بلغوا شواطئ الكنج. ومنذ القرن الثانى عشر أخذت لغة الحديث تستخدم فى القصائد العلمية والشعر الرومانسى . أما فى الولايات والجزر ، وبعيدا عن الدوائر الإمبراطورية، وجد الخيال اليونانى وحب القصة المروية متنفسا له فى المواويل الشعبية والشعر العامى، وهو ما أبقى عليه الزمان، ومع أن العامية لم تستطع أن تزحزح الفصحى عن مكانها أبدا فى العصور الوسطى ، فقد كانت لغة الحياة اليومية لليونان، واستطاعت بعد مقاومة عنيدة أن تصبح فى النهاية لغة اليونان الحديثة .

وقد تعرض الأدب البيزنطى للنقد العنيف ، على أساس أنه يشتمل على أعمال بلاغية لفظية ، كتبت فى صورة تحاكى دون إبداع اليونانية الاتيكية . حقيقة أن معظم الأدب البيزنطى قد وقف عند المستوى العادى وجاء مخيبا للآمال ، سواء ما كان منه بالفصحى أو العامية ، ولكن ذلك ليس شيئا خاصا ببيزنطة . فلاشك أن النقاد وهم يكونون آراءهم هذه، لم تذهب من ذاكرتهم تلك الفترة الزاهرة للأدب الكلاسيكى ، ومن ثم كانوا يتصورون أن تخرج بيزنطة عظماء ، على غرار سوفوكليس Sophocles وأرسطوفانيس Aristophanes ولكن لم يبد أن بيزنطة أظهرت اهتماما خاصا بالدراما الواقعية الدنيوية أو الدينية ، فقد اتجهت

أحاسيسها فى هذا الناحية إلى التمثيل التقليدى الصامت والملاهى. أما إنتاجها الأدبى فيتمثل فى نواح أخرى. ففى ميدان الشعر، وبغض النظر عن القصائد العامية ، نجد عملا أو اثنين من الأعمال التصويرية الطويلة ، كقصيدة المدح التى نظمها جورج البيسيدى George of Pisidia فى هرقل فى القرن السابع، كما نستطيع أن نجد فى كل جيل تقريبا قصائد قصيرة من الوزن القديم، تتناول الرثاء ، والنواحي التصويرية ، والشعر الغنائى ، وقصائد الحب. وقد اتسمت هذه «المقاطع الشعرية»[٧] بالذكاء والملاحة فى صورها ومحتواها ، وهى غالبا ما تشبه تماما أشعار القرن السابع عشر. وربما عرفت قصائد الفروسية طريقها إلى دواوين الشعر اليوناني ، ولعل أبرزها ملحمة ديجنتيس أكريتاس Digenis Akritas الشهيرة والتى تعبر عن الحياة العنيفة والاستقلال التام والشاق لسادة البر ، وقد ولدت ونمت فى بوتقة الثقافة «الممتزجة» عند الحدود الشرقية ، وألهبت خيال الأجيال التالية، ودفعت عجلة المواويل الشعبية عند الصقالبة واليونان على السواء ، حتى إذا كانت العصور الوسطى المتأخرة، ظهرت القصائد الرومانسية الطويلة فى اللغة الوطنية متأثرة بالفروسية الأفرنجية والتواتر الملحمى اليونانى [٨].

ولا مراء فى أن بيزنطة قد برعت حقيقة فى ميدانين مختلفة تماما. التاريخ والكتابات التى تتصل بالعقيد المسيحية بصفة خاصة .

فالبيزنطيون كانوا بصفة دائمة على دراية تامة بماضيهم ، واصطبغ تفكيرهم بهذه المعرفة عن الاستمرا التاريخى. وقد شغف مؤرخو العصور الوسطي اليونان بمنهج وأسلوب أسلافهم وعلى رأسهم هرودوت Herodotus وثوكيديدس Thucydides وتأثروا فى الفترة المتأخرة بأسلافهم المباشرين مثل مؤرخ القرن السادس أجاثياس Agathias ولم يكن التاريخ الذى يعتبر «أعظم إبداع للإغريق» مجرد خبر يروى ، ولكنه ، كما كتب نيقفور جريجورى ، «يهتم بالماضى والحاضر . وفعال بنى البشر ، ووجهات نظر المثقفين تجاه طبائع الأشياء ، وخطأ

---

٧- هكذا كانت تسمى فى العادة وإن كانت الكلمة خادعة ، وقد استخدمت لتشمل مجالات واسعة من الشعر.

٨- الشعر البيزنطى شأن الهللنستى ، يحتاج إلى أمثال F.J.E. Ramy أو Helen Waddell

٩- Nicetas Hhoniates, History (Bonn 1835), p. 768 .

وصواب هذه الآراء [١٠]. ولقد تعددت كيفية تدوين التاريخ البيزنطى ، حقيقة لم يستطع كتابها أن يحاكوا تماما مؤلفات ثوكيديدس أو اكسنوفون Xenohon ، ولكنهم فى الوقت ذاته قدموا عدداً من الاعمال يرقى إلى الدرجة الأولى. فهناك مؤلفون مثل ليو الشماس[١١] Leo the Deacen وأنا كومننا فى الفترة الوسيطة ، ونيقفور جريجورى ويوحنا كانتا كوزنوس فى القرن الرابع عشر، قدموا تواريخ ذاتية دقيقة واضحة ، لاتخرج فقط إلا عن مجتمع بلغ مرتبة عالية من الثقافة. وإلى جانب هذه التواريخ بمعناها الحقيقى ، هناك المزمنات التى كتبت من أجل المحافل الشعبية . وتسجل هذه المزمنات أهم الأحداث فى تتابع زمنى ، مع إضافات كثيرة عن أهوال تثير العواطف ، وموضوعات أخرى حول أحداث محببة إلى الجموع. وإذا كانت هذه المزمنات تعتبر انعكاسا للمزاج والعقلية المعاصرة إلا أنها ليست عملا إبداعيا كالتواريخ .

وكان الولاء الكامل للإيمان المسيحى بمثابة الإلهام للفرع الآخر من الأدب الذى ارتقى فيه البيزنطيون الدرجات العلا. وينقسم عملهم فى هذا الميدان إلى مجالين مختلفين ، الكتابات اللاهوتية ، والكتابات القداسية ، وفى هذا المجال الأخير نجد اهتماما جديدا ، يظهر أحيانا عند محاولة تطويع الصيغ الأدبية اليونانية للمتطلبات الخاصة للكنيسة .

---

١٠- Nicephorus Gregoras, Roman History, I, I(Vol. I, p. 4, Bonn 1823). cf . T.A. Hart, Nicephorus Gregoras: historian of the history 2 (1951) .

١١- من أشهر المؤرخين الذين حفلت بهم الأسرة المقدونية ، كان معاصرا لباسل الثانى، وضع تاريخا تناول فيه الأحداث بين عامى ٩٥٩-٩٧٥ ، ويعتبر شاهد عيان للحرب البلغارية ، بالإضافة إلى بعض المعلومات عن هجمات العرب والروس على الإمبراطورية. وتعود أهمية «التاريخ» الذى وضعه ليو الشماس إلى أنه يعد المصدر اليونانى الوحيد المعاصر للفترة الزاهرة على عهدى نيقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس ، وقد بدأ ميخائيل بسللوس تاريخه من حيث انتهى ليو الشماس وذكر ذلك فى أول سطور تاريخه » .

أنظر Psellus, Chronographia, vol. I, I

وأيضا Baynes, & Moss, op. cit. pp. 231-232 .

وكذلك Vasiliev , op. cit., I, p. 364 .

وراجع دكتور أسد رستم : الروم ، الجزء الثانى ، ص ١٠٠ . (المترجم)

ولاشك أن أعظم عمل لاهوتي على الإطلاق هو ذلك الذى خلفه آباء الكنيسة الأول. وقد وجد هؤلاء الرواد عونا هائلا من المرونة التى تتسم بها اللغة اليونانية ، ومن ذلك الماضى العريق فى الفكر الفلسفى ، فاستخدموا ما يروقهم عند أفلاطون وأرسطو والرواقيين والأفلاطونيين المحدثين ، فى محاولة لتصوير قدر الإنسان فى الزمان والمكان بالنسبة للتجسد، ولتحديد الطبيعة الإلهية. واعتمادا على الأسس التى وضعها آباء الكنيسة الأول، بنى اللاهوتيون البيزنطيون فيما بعد بشكل مستمر، ما أصبح صرحا شامخا. وإن كان يوحنا الدمشقى يستطيع أن يقف على قدم سواء مع أثناسيوس وجريجورى أسقف نيسا ، إذا اتخذنا سلاسة الأسلوب والعمق معيارا .

وفى عصر الآباء الأول ، قرب نهاية القرن الخامس ، كتبت المجموعة الديونيسية Corpus Dionysiacum على يد ما يسمى زيفا ديونيسيوس الأريوباجى[١٢] Pseudo- Dionysius the Areopagite . وهى وإن كانت تدين شأن الآباء لمصادر غير مسيحية ، إلا أنها مدينة بالشئ الكثير للأفلاطونيين المحدثين وبصفة خاصة أفلوطين Plotinus ومع ذلك فقد لقيت القبول باعتبارها عملا لديونيسيوس الأريوباجى ، التابع الأمين للقديس بولس . وقد قام ماكسيموس المعترف[١٣] Maximus the Confessor فى القرن السابع بوضع تعليق وتفسير

---

١٢- مؤلف مجهول عاش فى القرن السادس ، وخلع على نفسه اسم ديونيسيوس الأريوباجى تلميذ بولس وأول أساقفة أثينا. وقد ولد فى سوريا الشمالية ، واتخذ الأفلاطونية المحدثة منهاجا لفكره ،فلما تحول إلى المسيحية حاول أن يمزج بين معتقده الفلسفى والعقيدة المسيحية وقد تبعه نفر كثير ، وظلت آراؤه مثارا للجدل والنقاش ما يقرب من عشرة قرون .

أنظر دكتور أسد رستم : كنيسة أنطاكية ، الجزء الأول ص٤١٧-٤١٨ .

وأيضا Baynes & Moss, op. cit., pp. 223-227 - 228 .

وكذلك Bury, op. cit. II, pp. 381-3 .

و Chadwick, op. cit., pp. 207-210 .

و Ware, op. cit., pp. 27 sqq (المترجم)

١٣- حرص الإمبراطور هرقل ، بعد استعادة الأراضى التى استولى عليها الفرس ، على أن يحقق وحدة العقيدة داخل الإمبراطورية ، فانتهى بتأييد البطريرك سرجيوس إلى إعلان مرسوم إيمان جديد يتضمن القول

شامل لها، بحيث أصبح لها تأثيرها الهام على الروحية الأرثوذكسية المتأخرة ، رغم أنها ليست الأثر الوحيد على الإطلاق ، وكان القلق يساور الرهبان البيزنطيين دائما من أجل الاهتداء إلى تفسيرات وشروح لذلك التيه الذى اتسمت به العقيدة المسيحية، تجاه الألوهية . ويعتبر سيمون اللاهوتى الجديد ، فى أوائل القرن الحادى عشر، واحدا من أعظم الشخصيات الحيوية ، التى تركت بصماتها واضحة على معاصريه من العلمانيين ورجال الدين على السواء، ويكشف عن ذلك بوضوح كتاباته . ولقد كانوا كذلك ذوى اهتمامات لغوية ، فقد استخدم سيمون فى مؤلفه «حب الترانيم الإلهية» Love of the Divine Hymns حين يصف تجاربه الروحية الصادقة ويستخدم أسلوب الخمسة عشر مقطعا الخاص بالشعر السياسى الحديث، ولم يلجأ إلى استخدام البحر الكمى القديم . وقد بلغت بعض كتاباته درجة رفيعة جدا فى نصها وموضوعها، وتكشف ترانيمه وعظاته عن الطبيعة الخلاقة فى الفكر الدينى البيزنطى. والحقيقة أن كتابات على هذا النحو تبين فى وضوح مدى الاحساس الوجدانى الفياض ، الذى كان يعبر عنه أيضا أحايين أخرى فى أسلوب علمانى .

هذه الكيفية بعينها نجدها فى الطقوس الدينية ، سواء كان النص يستخدم فى صلاة عامة أو فى أجزاء متفرقة من القداس . ففى سبيل التركيز على أحكام العبادة ، فان الدين الأدبى أحيانا ما نضرب صفحا عن ذكره ، ذلك أن أجزاء كثيرة من القداس كتبت قبل العصر الوسيط مثل المزامير ويمكن القول بصفة خاصة ، إن ذلك التنوع الجمالى للترانيم التى كان يجرى إضافتها بصورة مستمرة ، على الأقل حتى نهاية القرن الحادى عشر ، يعتبر شاهد عدل على مدى ثراء اللغة اليونانية . وكشأن بعض الكتابات النسكية ، فإن النظم القداسى لم تستخدم فى كتابته البحور الكمية الكلاسيكية الشائعة، ولكن الأوزان الحركية والإيقاعية ، وتأرجحت هذه الأشعار ما بين الشعر البسيط أو الترنيمة القصيرة ، إلى العظات الترنيمية الروائية

---

= بالمونوثلية Monotheletism (المشيئة الواحدة أو الإرادة الواحدة) فى المسيح مع وجود الطبيعتين . غير أن هذا المعتقد الجديد لقى المعارضة الشديدة خاصة فى مصر والشام. وحتى فى القسطنطينية على يد ماكسيموس المعترف ، وكان يعمل أمين سر لهرقل ، ثم ترك عمله لذلك والتحق بدير خريسوبوليس(اسكى دار) ، وأصبح رئيسا له. وهو يعد من أشهر رجال اللاهوت فى القرن السابع ، حيث كتب الكثير للرد على مذهب «المشيئة الواحدة». وقد تعرض للاضطهاد فى عهد قنسطانز الثانى فقطع لسانه ويده اليمنى ونفى إلى لازيقا فى القوقاز حيث مات هناك عام ٦٦٢ (المترجم)

الطويلة Kontakia التى استقيت من المصادر السيريانية وقدمها رومانوس الملحن فى القرن السادس، حتى وصلت فى النهاية إلى مرتبة سامية ضمن الترانيم التسع . ويغض النظر عن تلك الترانيم التى ضمتها كتب القداسات ، وما تزال تستخدم حتى اليوم (غالبا فى شكل مقتضب)، وهناك مجموعات استخدمت ككتب تكميلية غير رسمية للترانيم فى الأوساط الديرانية. وهذه ترنيمة الميلاد التى كتبها رومانوس «اليوم (تلد) العذراء ... » Today the Virgin ، والتى تقول الأسطورة إن أم المسيح قد أوحت بها إليه على منبر أبا صوفيا فى ليلة أحد أعياد الميلاد. أو الترنيمة Akathistos لتكريم العذراء ، حامية القسطنطينية التى من المحتمل أن يكون رومانوس أيضا هو الذى كتبها ، تكشف عن ذلك التوتر الدرامى للراوية ، والسمة الإنشادية الوجدانية للمسيح ، مما وضع الترنيمة الروائية الطويلة Kontakia فى المقام الأول بين شعر العصور الوسطى .

وهكذا كان لبيزنطة روائعها الأدبية ، التى لم تكن تقل عن قريناتها فى الغرب . وعلى شاكلة الأقطار الغربية، فقد كان لها أيضا لغة للتعليم ولغة للعامة . وقد ووجه هذا الازدواج اللغوى فى العصور الوسطى بموجة من النقد المفتعل ، على أساس انه كان عائقا فى سبيل التطور الأدبى الحديث ، ولكن الحقيقة ، أن هذا ربما يعود بصورة مباشرة إلى تلك الظروف السياسية السيئة التى مر بها اليونان بعد عام ١٤٥٣ ، وزاد الطين بلة تلك المقاومة الحديثة المشئومة، التى قامت فى وجه استخدام اللغة بكل تضميناتها السياسية. ولكن عددا قليلا من النقاد تصدى لهذه المقاومة بشدة محاجين بأن بيده Bede[١٤] لم يكتب باللغة الانجلوسكونية،

---

١٤- يعد آخر الدارسين والمؤرخين والشعراء الذين ينتمون إلى العصر القديم . وإذا كانت قائمة هؤلاء تفتتح بالفيلسوف الرومانى بوئثيوس، وتتضمن ازيدور الاشبيلى وجريجورى التورى، فانها تنتهى بالأنجلو سكسونى بيده ، أمضى معظم حياته فى صومعته داخل دير جارو Jarrow البندكتى ، وكان شعاره كما حدث عن نفسه «التعلم أو التعليم أو الكتابة»، ولم يحد عن ذلك مطلقا خلال عمره الطويل (٦٧٢-٧٣٥). وقد ذاعت شهرته بفضل تعليقاته الرائعة التى كتبها على الكتاب المقدس » وحاسته التاريخية الفريدة ومنهاجه العلمى الذى اتبعه فى الكتاب الذى وضعه عن التاريخ الكنسى لانجلترا Ecclesiastical History of England والذى اعتمد فيه اعتمادا كاملا على مصادر تاريخية قديمة فقدت فيما بعد ، أو على المشاهدة والتمحيص كما يتمثل فى الفترة التى تحدث فيها عن وصول القديس أوغسطين إلى انجلترا حتى سنة ٧٣١ .

أنظر . W. p. Ker, The Dark Ages, pp. 95-98

ولا كتب الأكوينى Aquinas بالإيطالية ، كما أنه من غير المقبول أن نبدى ذلك الاستياء لأن يوحنا الدمشقى أو يوحنا كاتتا كوزينوس لم يكتبا بالعامية. ولاشك أن مرتبة الفخار التى خلعتها بيزنطة على التراث الكلاسيكي ، فى التربية والتعليم على السواء ، تأكدت بصورة واضحة من استخدامهم للمكتبات فى كل أنحاء الإمبراطورية ، فى الأكاديميات والمدارس ، فى الكنائس والأديرة وبيوت الطبقة الراقية. وهكذا فان تراث العالم القديم بفروعه المختلفة فى المعرفة النظرية والتطبيقية، كان متاحا ويمثل أهمية خاصة للشرق الرومانى ، وإلى حد ما جيرانه . ولم يكن لدى المسلمين أى مانع يحول دون الإفادة من هذا التراث وإن كانوا قد اعتمدوا فى ذلك على مصادر غير صادقة . وكان على الصقالبة حتما مقضيا أن يتصلوا اتصالا وثيقا بالحضارة اليونانية. أما اللاتين ، فانهم تمكنوا من خلال ترجمات الرواد الأوائل ، ثم عن طريق صقلية وإيطاليا وأسبانيا بعد ذلك وأخيرا منطقة بحر إيجة نفسها ، من تكوين معارفهم عن التراث اليونانى، حتى إذا ما وقعت بيزنطة فيما بعد فى أيدى المسلمين ، قام الغرب يؤدى دورها .

---

= وكذلك . Laisaner, Thought and Letters in Western Europe. pp. 156-166

وأيضا C. M. H. I, p.p 302 sqq, II, p. 574 .

و Thompson & Johnson , op. cit., pp. 219. 226-7 .

و Stephenson , op. cit. pp. 143-144 .

وراجع دكتور نظير سعداوى : تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى ص٤٣ (المترجم)

## مراجع خاصة بالأدب

- Anna Commena , Alexiad, trans . E. A. S. Dawes (London repr. 1967)

- Brehier (L.) Le Monde Byzantin , vol. III, La Civilisation .

- Cambridge Medieval History IV , pt. II, ch 27 (F. Dolger on Byzantine Literature) .

- Dawkins (R. M.) The Greek Language in the Byzantine Period, (in Byzantium, ed . by N. H. Baynes and H. St. L. B. Moss).

- Digenes Akrites, trans. J. Mavrogordato (O. U. P. 1956).

- Michael Psellus, Chronographia, trans. E. R. A. Sewter (London 1955 and Penguin 1966 under the title : Fourteen Byzantine Rulers).

- Wellesz (E.) , Le Monde Byzantin, vol . III, La Civilisation .

# الفصل العاشر

# الفـن البيزنطـى

# الفصل العاشر

# الفن البيزنطى

تمتد جذور الفن البيزنطى ، شأن التاريخ البيزنطى أيضا ، إلى العالم اليوناني- الروماني، المتمركز فى حوض البحر المتوسط الشرقى. وقد تحددت أهم سمات هذا الفن بعاملين رئيسين، المسيحية والتقاليد الإمبراطورية ، وإن كانت تفاصيله الدقيقة وخصائصه المميزة لأساليبه ، تعود فى الغالب إلى ما وراء الأفكار والمناهج بين بيزنطة وجيرانها الشرقيين القريبين، وتمثل ذلك بصورة واضحة فى مجال الفن عنه فى ميدانى الأدب أو الإدارة .

ولقد عاني الفن البيزنطى بصفة خاصة آنفا من سوء التقدير الذى لقيه تاريخ بيزنطة وحضارتها ، وما زال هناك إلى اليوم عائقان يحولان دون فهم ما أصبح مسلما به على واحد من أعظم منجزات بيزنطة فى العصور الوسطى. وتقدير قيمة الفن البيزنطى ليس مجرد مسألة شخصية فحسب ، بل إنه يتضمن معرفة بالتقاليد المختلفة والمصطلحات الفنية، والإطار التاريخى الذى تطور فيه هذا الفن. وفوق هذا وذاك ، فان المعرفة المصدرية بمعظم الآثار ما زالت بعيدة عن متناول الكثيرين . ويستطيع القارئ المتخصص أن يحصل على كثير من التفاصيل التى لابأس بها من قراءته لتاريخ بسللوس ، حتى من الترجمة . ولكن الصور التى تطابق الأصل لايمكنها أن تنقل بدقة كاملة توزيع الضوء على سطح فسيفسائى منحن، وقليلون هم الذين يستطيعون أن يقيموا فى ظلال كنيسة المارتوروونا Martorona فى بالرمو Palermo أو كنيسة دافنى Daphni قرب أثينا. يدرسون فسيفساءها التى تتغير من ساعة لأخرى بتغير الضوء [1]. وأكثر من هذا كله ، أن هذه الآثار الباقية على قلتها وندرتها ، تكشف عن ذلك الانتاج الفنى الضخم عبر فترة طويلة من الزمن ، حتى على الرغم من أن الاكتشافات الأثرية المثيرة ما يزال يجرى العمل فيها، مثل الفسيفساء التى تم اكتشافها فى كنيسة أيا صوفيا فى القسطنطينية ، أو الرسوم الحائطية الموجودة فى كنيسة صغيرة على التلال المقدونية [2].

---

١- من المتيسر معرفة تفاصيل كثيرة عن النواحى الفنية التى تضمنها هذا الفصل ، والنتائج التى تم استخلاصها من الكتب التى صدرت مؤخرا حول هذا الموضوع ، وهى موجودة فى قائمة المراجع وتعطى صورة لكل شئ تقريبا جاء ذكره فى هذا الفصل .

٢- أدين بهذه المعلومة لـ Dr Kosic of Skopje

ولاشك أن التباين الواضح بين فن المعمار فى البارثنون Parthenon على الأكروبول الأثينى Acropolis ، وكاتدرائية أيا صوفيا فى القسطنطينية، أو بين الصورة القديمة المنحوتة لأبوللو، وفسيفساء المسيح ضابط الكل فى قبة إحدى الكنائس البيزنطية، كتلك التى توجد فى دافنى Daphni ، يعكس اختلاف الأسلوب والاقتضاء عند كل من العالم القديم والإمبراطورية البيزنطية . وقد وقع هذا التحول خلال الزمن الذى شغلته الإمبراطورية الرومانية المتأخرة . وقبل أن يغدو قسطنطين العظيم ، فى وقت ما، مسيحيا ، كان هناك عاملان على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للفن البيزنطى، قد اتضحا ، ويتأرجح هذا ما بين روعة الرواية المنسابة على عمود[٣] تراجان ، الذى ما يزال قائما فى روما ، إلى الأساطير والوجوه المنقوشة على العملة والميداليات التى صممت لتصل إلى أكبر عدد من المواطنين . ولما لم يعد الناس يبتهجون لاقتدارهم وابتداعهم ، بل يتحركون إما بدافع التشاؤم المميت أحيانا ، أو تحت تأثير الحب العميق للوطن من أجل حياة متجددة خارقة للطبيعة أحايين أخرى ، سواء تحقق ذلك بأساليب وثنية أو مسيحية ، فإنهم كانوا على استعداد لأن يروا فى الفن وسيطا، لابد أن تتمثل فيه القيم الأساسية لعالم خيالى رائع .

---

٣- أقيم عمود تراجان بين مكتبتى الدراسات اليونانية واللاتينية ، فى الطرف الشمالى من السوق فى روما ، ويرتكز على قاعدة ضخمة زينت ثلاثة من أوجهها بتماثيل منحوتة ، أما الوجه الرابع فكان يوصل إلى سلم مكون من ١٨٥ درجة رخامية . على حين نجد طول قطر جذع العمود من أسفل اثنتى عشرة قدما وارتفاعه سبعا وتسعين ، ويقوم فى أعلاه تمثال لتراجان يمسك بيده كرة أرضية ، وقد زينت الكتل قبل تثبيتها فى مواضعها بنقوش بارزة تمثل حروب تراجان فى داكيا Dacia . وتعد هذه النقوش أروع ما وصلت إليه الواقعية وفن النحت التاريخى فى العالم القديم فلم يهدف من ورائها إلى الجمال أو أنماط فن النحت اليونانى، بل إلى أن ينقل للرائى صورة واضحة للأفراد الأحياء وسط مناظر الحرب وضوضائها. بحيث يمكن أن نتتبع فى الألفى صورة المنقوشة على المائة والأربع والعشرين لوحة ، فتوح داكيا خطوة خطوة ، كخروج الكتائب الرومانية وعبورها نهر الدانوب وإقامتها للمعسكرات ، ثم المعركة مع العدو واختلاط الحراب والسهام والمناجل والحجارة ، وإشعال النيران فى إحدى قرى داكيا ، وما يتعرض له الأسرى من الجانبين من معاملة ، وغير ذلك مما يتصل بهذه الحوادث وتحقيق نفس التأثيرات التى تنتظرها اليوم من عرض أحد الأفلام السينمائية . ورغم أن هذا الأسلوب الفوتوغرافى فى الفن لم يكن يلقى قبولا فى البداية ، إلا أنه كان تبشيرا بظهور الأسلوب الملحمى وهو أسلوب الفن المسيحى والغربى. أنظر : ول ديورنت : قصة الحضارة ، المجلد الثالث ، الجزء الثانى ، ص٣٩٨-٤٠٠ . أرنولد هاوزر : الفن والمجتمع عبر التاريخ ، الجزء الأول ص١٣٢ (المترجم)

استمر الاستخدام اليوناني- الروماني للفن ، نعني الفن فى خدمة الحاكم، سائدا خلال الفترة البيزنطية الوسيطة، فقوس النصر الذى أقيم من أجل الإمبراطور قسطنطين فى روما ، واللوحة الفسيفسائيةلجوستنيان فى كنيسة سان فيتالى San Vitale في رافنا Ravenna ، الأوتوقراطور Autocrator (الحاكم المطلق) نائب المسيح، والعظمة الفائقة للبانتوقراطور Pan-tocrator (المقتدر) ، الذى احتلت فسيفساؤه أبرز مكان فى قباب الكنائس البيزنطية ، لتذكر الناس دائما بالمكانة السامية لمثل المسيح على الأرض .

وقد ازدانت جدران القصر الإمبراطوري بالفسيفساء ، التى تسجل الانتصارات الإمبراطورية (رغم أننا نتعرف عليها الآن من المصادر الأدبية فقط)، وشاركتها فى ذلك التحف العاجية والعملة وحتى المنسوجات . واستمرت بعض الملامح والموضوعات الوثنية تتمثل فى مشاهد أسطورية ترسم على القبور ، أو العلب المصنوعة من العاج ، أو حتى فى الكنائس ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك رب نهر الأردن ، الذى رافق يوحنا المعمدان John the Baptist ، كما تبرزها الصور الفسيفسائية من القرنين الخامس والسادس فى الأماكن التى يتم فيها تلقى سر المعمودية فى رافنا . ولاشك أن كثيرا من سمات وطرز ووسائل الفن فى الإمبراطورية المتأخرة، قد جاءت بالفعل من الشرق إلى العالم اليوناني- الروماني، وهكذا فان بيزنطة ، بغض النظر عن الاتصال المباشر بجيرانها ، قد ورثت من روما فنا يحتوى على العناصر الشرقية واليونانية معا .

وكانت هناك فى العالم الهللنستى ، أنماط ومدارس فنية مختلفة ، كالمدرسة السكندرية بتأكيدها على الواقعية والأبعاد الثلاثة ، أو مدرسة آسيا الصغرى وسوريا وتركيزهما على صورة البعدين الرمزية المعلقة كما لو كانت فى هيئة سرمدية Sub apecie aeternitatis .

هذان النمطان من التعبير يمكن تبينهما فى فسيفساء القرنين الرابع والخامس فى إيطاليا. ففى كنيسة العذراء الكبرى Maria Maggiore في روما ، توجد فى فناء الكنيسة فسيفساء تعود إلى أواخر القرن الرابع ، وتتكون من صورة صغيرة تحكي قصصا من العهد القديم، كقصة موسى ويوشع ، وابراهيم ويوسف . ولما كانت قد نقلت عن الصورة الموجودة فى خطية الترجمة السبعينية Septuagint (الترجمة اليونانية للعهد القديم فى صورته العبرية)، فانها لم تهيأ بالدرجة الكافية للاستخدام على الآثار، كما أنها جاءت صغيرة جدا حتى أصبح من الصعب رؤيتها بسهولة. ويستطيع المنظار المزدوج فقط أو استخدام السقالات أن يكشف عن

الاستعمال الرقيق للألوان ، الذى يعتبر صالحا جدا لكتاب أكثر منه لجدران كنيسة. وقد صورت المناظر بدقة فى أسلوب طبيعى، روعى فيه البعد والعمق ، وعلى العكس من ذلك نجد فناء كنيسة القديس أبو لليناَر S. Apollinare Nuovo فى رافنا والتى تعود إلى القرن السادس ، قد ازدانت جوانبه بالقديسين والشهداء ، ولايجئ ذلك مقسما فى مناظر طويلة ، بل يظهر فى أقسام ذلك الموكب الطويل، وقسمات الوجوه ، التفضيل الآسيوى المتباين للتصوير ذي البعدين والأقل طبيعية . ويمكن ملاحظة هذين الاتجاهين فى الفن البيزنطى على امتداد عمر الإمبراطورية الطويل [٥].

وبالمقارنة إلى ما سبق فان ما نعلمه قليل عن الأبنية العامة البيزنطية ، وما بقى منها ليس كثيرا، بغض النظر عن الخزانات الجوفية، والأطلال مثل برج سراى تفكور Tefkour Serai فى القسطنطينية (وهو الذى تختلف الآراء فى تحديد تاريخه ، ويميل جرابار Graber الى القول بأنه يعود إلى الفترة الباليولوجية)، أو القصر الإمبراطورى الذى بنى فى القرن الرابع عشر على منحدرات ميسترا Mistra فى البلوبونيز . وقد كشفت أعمال التنقيب التى جرت فى القسطنطينية ، عن جزء من القصر الكبير، يحتوى فسيفساء أرضية ، ربما يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الخامس مع صور طريفة عن الحياة اليومية، منها صورة صبى يوشك أن يوقع فى الفخ أحد الأرانب البرية ، الذى يقضم بغير حذر عنقودا من العنب ، أو صورة لبغل جامح ، يقذف بكل العنف إلى الأرض براكبه وحزمتين من العصى .

---

٥- لعله مما يجب تنبيه القراء إليه، أنه ليس من السهل دائما إدراك المعنى الخفى للتصوير البيزنطى (والرومانى المتأخر) بل وحتى الاخصائيون والخبراء، قد يصبحون فى حيرة من أمرهم . ومن أوضح الأمثلة على ذلك الفسيفساء الأرضية الموجودة فى إحدى كنائس نيقوبوليس Nicopolis فى بلاد اليونان ، والتى تعود إلى القرن السادس، وتصور منظرا خلويا ومشاهد من الحياة الريفية، مثل صيد الأسماك أو الطيور أو القنص. وفى واحدة من هذه الفسيفساء، توجد صورتان كبيرتان بنوع خاص لصيادين . وهناك نقش واحد يمكن للبعض أن يرى فيه خريطة للأرض والمحيط، بينما قد يرى فيه المتخصصون تصويرا للجنة ، أما ما يظهر على أنه مظهر صيد فيحتمل أنه يمثل الفردوس ، بينما يمكن تفسير الصيادين على أنهما يمثلان أخنوخ Echnoch واليشع Eligah بما يرمز إلى ذلك الصراع الأبدى بين الفضيلة والرذيلة ، قارن E. Kitzinger, " Studies on Late Antique and Early Byzantine Floor Mosaics" Dumbarton Oaks Studies 6 (Cambridge, Mass. 1951) .

أما الآثار التى ما تزال باقية على نطاق واسع فهى الكنائس ، التى أقيمت لتبقى ، ما بقى الإيمان الذى بنيت من أجله . وقد تبع الاعتراف بالمسيحية فى القرن الرابع ، وما تبعه من انتشار لها وارتقاء فى الامبراطورية، إعادة بناء عدد كبير جدا من الكنائس والأديرة . وأدى ذلك إلى فرض التزامات معينة على المهندسين المعماريين والفنانين، وبالأحرى لأن الكنيسة المسيحية لقيت عونا سخيا من الجميع على السواء ، ابتداء بالإمبراطور الذى يستطيع اقامة وزخرفة كاتدرائية ، وانتهاء بذلك القروى البسيط الذى يشارك فى تأسيس دير جديد ، أو كنيسة صغيرة قريبا منه. إلى جانب التطور الذى شهدته خدمة القداس الكنسى، والطقوس الدينية ، سار أيضا ليس فقط النشاط المعمارى ، بل إنتاج المنسوجات وصناعة المينا والتحف العاجية والمعدنية . والحقيقة أن اهتماما كبيرا قد وجه إلى كل الفنون التى تستخدم إما فى تزيين الكنائس من الداخل ، أو لإضفاء الصفة الجمالية على الأدوات اللازمة لإتمام القداس، كملابس الاكليروس الرسمية أو الأوانى المقدسة. ولكن الشئ الذى يفوق هذا كله، هو استخدام الدخلات الحائطية لأغراض الشرح والتفسير كشئ متميز عن مجرد التزيين. ومن هذه الناحية فان فن الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى يغاير فن كنيسة بيزنطة فى نفس الفترة: أحدهما قصد به إثارة مشاعر الرائين ، والآخر جاء ليكون تفسيرا للإيمان المسيحى . بل إنه من الممكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك لنؤكد أن الفن البيزنطى يعد جزءا من عمل شعب الكنيسة فيما يتصل بالعبادة .

وتعتبر الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى السادس هى فترة تشكيل فن العمارة البيزنطى ، فالأبنية التى كانت قائمة ، مثل البازيليكا الهللنستية ، أعدت لتلائم الاستخدام المسيحى ، فقد كانت البازيليكا المسيحية تحتوى على فناء atrium وجناح narthex ثم البلاطة المركزية، وهى الجزء الرئيسى فى الكنيسة الذى تحفه الأعمدة بحيث تصنع ممرين جانبيين ، وينتهى عند الجهة الشرقية بحنية توضع حولها مقاعد مخصصة لرجال الأكليروس ، وأمامها يوجد المذبح الذى يقام فوق ما خلفه الشهداء. ويقوم فى البلاطة المركزية منبر للوعظ يرتقيه الكاهن بصعود عدة درجات ، أما السقف فكان مسطحا . وتعتبر كنيسة العذراء الكبرى S.Maria Mog-giore أو كنيسة سان كلمنت[٦] San Clemente العليا ، التى تحمل بعض سمات الكنيسة

---

٦- تحمل هذه الكنيسة اسم البابا كلمنت الذى يأتى ترتيبه الثالث على كرسى القديس بطرس فى روما. وهى تعد من أروع الكنائس الرومانية فى العصر الوسيط . بنيت فى القرن الخامس، ثم دمرها النورمان =

الأولى التى بنيت مكانها ، أشبه شئ بخيمة العرش . ونجد هذا الطراز من الكنائس المسيحية الأولى موجودا أيضا فى بلاد اليونان (ممثلا فى كنيسة القديس ديمتريوس S. Demetrius فى سالونيك ، وقد أعيد بناؤها بعد أن تناولتها يد التدمير فى الحربين العالميتين) ، وكذلك فى منطقة البلقان والمناطق الساحلية لآسيا الصغرى. وقد شيدت بعض الكنائس الأولى على مسقط دائرى، وحولت فى بعض الأحيان إلى أضرحة ومزارات ، مثل كنيسة سانتا قسطانزا S. Costanza فى روما. والتى تعود إلى القرن الرابع، والتى ربما أعدت كى تصلح لإجراء العماد المسيحى .

أما الفن المعمارى المميز لبيزنطة بصفة خاصة ، فهو بناء القباب والعقود على مسقط مربع. وكانت القباب شائعة فى فارس وأرض الجزيرة ، حيث تندر الأخشاب ، ويصبح الآجر هو الوسيلة الطبيعية فى البناء . وقد أقيمت على مساحة مربعة بواسطة حنيات معقودة أو حنيات ركنية . واستخدم البيزنطيون هذا النمط من الأبنية ، ولكنهم أضافوا إليها ابتداعهم الخاص باقامة قبة فوق هذا المربع . وهو عبارة عن نتوء أو سطح منحن فوق الزوايا الأربع للمربع . وقد خلعت هذه القباب والعقود على البناء هيئة صليب يونانى ، (أعنى صليبا ذا أذرع متساوية) من الخارج ، على الرغم من أن المسقط الأفقى كان مربعا. ومن ثم فقد أطلق على هذا الطراز من البناء اسم «القبة المصلبة» وعند نهاية الطرف الشرقى، تقوم الحنية الرئيسية ، بحيث يتاخمها من كل جانب اثنان أصغر منها ، . ويطلق على الحجرتين اللتين شكلتا نتيجة هذا البناء ، غرفتا الأوانى المقدسة وملابس الكهنة (Sacristry diaconicon) والمائدة المقدسة Prothesis (وهى التى تستخدم فى الجزء الأول من الصلاة الجماعية) . أما فى نهاية الناحية الغربية فيوجد عادة جناح ولكن دون فناء . وقد خلت حوائط الكنائس البيزنطية من الخارج ، من التزيين الفياض بالصور المنحوتة والزخارف التى وجدت فى كنائس الغرب. وكانت الكنائس البيزنطية تبنى فى الغالب من الآجر الكالح دون طلاء ، ونوافذها صغيرة . وفى بعض الأحيان كان الآجر المصقول يستخدم فى الزخرفة ، وربما نجد مثالا لذلك فى الكنائس التى ما تزال باقية فى جنوب إيطاليا أو شمالى بلاد اليونان . وإنا كنا نجد أحيانا أن هذه الحوائط قد

---

عندما اقتحموا روما عام ١٠٨٤ بناء على دعوة البابا جريجورى السابع إبان نزاعه مع الإمبراطور هنرى الرابع ، ثم أعيد بناؤها بعد ذلك سنة ١١٠٨ على عهد البابا باسكال الثانى فوق نفس الأكمة التى كان يقوم عليها البناء القديم (المترجم)

ازدانت من الخارج بالفريسك ، كبعض الكنائس الموجودة فى كاستوريا Castoria أو القريبة منها. ولكن زخرفة هذا النوع من الكنائس ، كانت تستبقى كالعادة للداخل ، حيث يكون لها أهمية خاصة .

وكان النحت نادرا ، وقد أصبح واضحا بعد الجدل الذى دار من حول الأيقونات ، أنه لم يعد يستخدم للأعمال التذكارية . ويعتبر التقليد الشرقى الذى جرى باستخدام النحت فى بروز بسيط ، موروثا عن الإمبراطورية الرومانية ، حيث كان يستخدم لزمن بعيد فى أغراض مختلفة ، مثل التصوير الروائى على الأعمدة وأقواس النصر. وتظهر المنحوتات والملامح البارزة، التى تجمع بين العناصر الهللنستية والشرقية ، بشكل واضح فى كل من الفنين ، العلمانى والمسيحى ، فى الإمبراطورية البيزنطية . وقد وجدت على التوابيت Sarcophagi والعاجيات . وقد استخدم النحت بكثرة لتزيين الكنائس من الداخل . على الأعمدة أو المنبر . أو جوانب المحراب أو جدار الرواق . وتوضح تيجان الأعمدة كيف أن هذا النوع من الزخرفة قد أخذ يتجه إلى الشكل المسطح بدلا من البارز ، وخير الأمثلة على ذلك أن سمات أوراق الاقنتا Acanthus (شوكة اليهود) لم تعد بارزة ، بل أصبحت أكثر فى طبيعة التصميم الزخرفى . وقد استخدم أسلوب الكشط Champleve الخاص بعمل التجاويف فى الرخام، وملئها بمادة سوداء مختلفة عنه كما تظهر فى دافنى وميسترا . ويمكن أن نجد شيئا من هذا النوع أيضا فى الرواق المجاور لكاتدرائية مونريالى Munreale حيث طعمت الأعمدة الرشيقة بأعمال فسيفسائية ، جنبا إلى أعمدة أخرى زينت بمناظر منحوته .

وقد بلغ البيزنطى أعظم مراتب ارتقائه فى الزخرفة الداخلية ، حيث كانت الفسيفساء أو الفريسك هو الوسائل المستخدمة ، وقد اعتمد فنانو الفسيفساء على مكعبات صغيرة من الزجاج أو الرخام لتصوير المشاهد والصور ، وكانت فى العادة مغايرة للأرضية المذهبة. وقد تنوعت أحجام هذه المكعبات التى تحشى القاعدة الجصية، تبعا للتأثير المطلوب، وهى توجد تقريبا فى كل ما تدركه الحواس ، فى المواد على اختلاف أنواعها ، بما فيها الخزف والذهب والفضة . ولاشك أن هذا الأسلوب كان صالحا بصفة خاصة للسقوف المنحنية فى العمارة البيزنطية. وقد عرف الفنانون والصناع كيف يحصلون فعلا على الإحساس الصادق من جانب العابد، إذا ما راح يتأمل هذه الفسيفساء على مسافة معينة فى وسط الكنيسة. ويمكن أن نقف على درجة اللون والشكل والصناعة من الصور التفصيلية الدقيقة التى أخرجت لبعض

الفيسفساء ، مثل صور جوستنيان وثيودورا فى كنيسة سان فيتالى فى رافنا [٧] ، أو الصور الإمبراطورية التى تعود إلى القرنين الحادى عشر والثانى عشر، والموجودة فى أيا صوفيا بالقسطنطينية[٨] ولكن التأثير الذى يبتغيه الفنان من موقع الصورة الفسيفسائية على النفس، لايتحقق إلا بالوقوف فى الكنيسة وتأمل الفسيفسا فى درجات الضوء المتباينة ، أو عندما توقد الشموع من أجل القداس . أما الأسلوب الآخر للزخرفة الحائطية فهو الفريسك (الرسم على حائط من الجص). وكان هذا النوع أقل تكلفة من الفسيفساء ، ومن ثم استخدم على نطاق واسع فى العصور الوسطى المتأخرة ، عندما تقلصت مساحة الإمبراطورية ، وانخفضت بالتالى مواردها المالية. ولكن هذا لايعنى أنه لم يوجد فى فترة مبكرة ، وإن كان فى صورة بدائية، كما يتمثل فى الفن الشائع فى كنائس كبادوكيا Cappadocia فى آسيا الصغرى Asia Minor كما نجد فى روما أيضا نماذج ما تزال باقية ، وتعود إلى فترات تاريخية مختلفة ، توضح أسلوبى التصوير اللاتينى واليونانى . أعنى فى الكنيسة الأولى للقديس كلمنت أو كنيسة العذراء القديمة فى السوق الرومانى Forum Romanum .

ولم يبق فى الإمبراطورية البيزنطية إلا القليل نسبيا من آثار القرون من السابع إلى التاسع. ويعود ذلك جزئيا إلى الغزوات الإسلامية ، ولكن السبب الرئيسى فى ذلك كان الجدل الذى دار من حول الأيقونات فى القرنين الثامن والتاسع . وقد اقترنت اللعنة التى حلت بأى تصوير للأشخاص فى الكنيسة، بتحطيم أو تشويه الفن الكنسى الذى خرج على القاعدة الأساسية ، وبانتصار الأيقونات والعودة إلى تقديسها ، وانتهاء الجدل اللاهوتى العميق، دخلت بيزنطة فترة من المد المظفر فى النواحى المادية والثقافية على السواء . ولم يكن الفن استثناء من ذلك هو الآخر. وتشير المصادر الأدبية الى التطور الجديد للأيقونوجرافيا Ic-onography ، كالوصف الخاص بأبنية باسل الأول. وإذا كانت الآثار الخاصة بالحقبة المقدونية لم يعد لها وجود، فإن الزخرفة الفسيفسائية، التى تعد واحدة من أعظم منجزات الفن البيزنطى يمكن رؤيتها فى أبهى صورها فى كنائس القرن الحادى عشر، خاصة كنائس هوسيوس لوقا

---

٧- A. Grabar, Byzantine Painting (Skira seres), or the relevant Batsford Iris Colour Books .

٨- T. Wittemore, The Mosaics of Haghia Sophia at Istanbul, vol, III (O.U.P. 1942)

Hosios Lokas ودافنى فى بلاد اليونان، والكنيسة الجديدة Nea Moni فى جزيرة خيوس Chios وقد اتبع الفنانون والصناع المنهاج الأيقونوجرافى المتفق عليه ، وكان هدفه الأساسى لاهوتيا ، حيث يهتم بعقيدة التثليث ، وخلاص العالم بواسطة الإله الابن ، وكان للشخصيات الرئيسية أماكنها الخاصة فى الكنيسة ، فالمسيح ، ضابط الكل يحتل القبة، بينما تقوم العذراء فى العقد الرئيسى. وهناك فى القبة أمام العقد يصور عرش خال، «والعرش المهيأ للتجلى Hetimasia، ويضم الأدوات التى استخدمت فى عذاب المسيح ، ويرمز إلى مجئ المسيح الأول ورجعته ، أما فى المحراب ، فيرى المسيح والملائكة وهم يباركون القداس ، على حين يختص الفقهاء بالاحتفالات أو الأعياد الكنسية الكبرى، مثل الميلاد ، والصلب ثم رقاد (أو موت) العذراء . بينما يحتوى الجناح على مشاهد من حياة العذراء ، وما تبقى بعد ذلك من فراغات على الجدران وفى القبة ، فيحتله الرسل والشهداء والأنبياء والقديسون ، فى ترتيب هيراركى. وقد يحدث فى بعض الأحيان خروج على هذا الالتزام ، بناء على المتطلبات المحلية. وكان القديسون المحاربون يوضعون فى مكان بارز فى المناطق الفاصلة المتنازع عليها ، فهذان هما القديسان ثيودور St. Theodores وديمتريوس St. Demetrius ما زالا يقفان فى الفريسك الموجودة فى الكنائس المقدونية . ولسبب يسهل إدراكه ، يحتل أحد رجالات القرن العاشر ، القديس لوقا الاستيرى St. Luke Stiriotes وضعا هاما نسبيا فى كنيسة الدير المقام بين الجبال التى تشرف على قريته استريس Stiris فى فوكيس Phocis .

هكذا نجد الكنيسة البيزنطية من الداخل تستحضر العالم، الكون، بقبة هى السماء ، بنطاقها الأعلى حيث المقتدر . والفردوس فى الأوسط ، والأرض نطاقها الدانى . ولاشك أن رقة الإخراج عند فنانى الفسيفساء كانت شيئا رائعا ، فقد استطاعوا ببعد نظرهم ، وتطويعهم للمادة التى بين أيديهم، وحسن استخدامهم للأسطح المنحنية، أن يجسدوا شخصيات الهيراركية السماوية حتى لبشعر العابد، وقد رفع رأسه إلى أعلى يتأملها فى الكنيسة ، أنها حقا على قيد الحياة ، «ففى بيزنطة ، لايقف الرائى على مسافة معينة من الصورة ، بل ينغمر فى عبير قدسيتها ، وتقبل الصور بدورها تشاركه المكان أنى خطا» (٩).

---

٩- Otto Demus , Byzantine Mosaic Decoration, p. 4 وهو الذى أدين له بالكثير .

أما فى الايقونوجرافيا فان هذا الأسلوب يتغير قليلا، وإن كان هناك اختلاف كبير فى التصميم والتنفيذ ، فمشهد الصلب فى دافنى (١١٠٠) بكل ما فيه من قمع وكرامة ، يكاد يشبه النحت الملون ، ويعكس التأثير الكلاسيكى ، ويبدو قائد المائة فى مشهد الصلب الموجود فى خيوس (١٠٥٠) شخصية «شرقية» فظة عصبية ، فى ألوان زاهية ، بعيدة كل البعد عن تقاليد الفن المألوف الموجودة فى بعض الأعمال التصويرية الديرانية . وجملة القول ، إن دافنى كانت تتميز باتجاه إنسانى ساد فى القرن الثانى عشر، وإن كنا نجد بعضا من أعظم الأعمال فى الفسيفساء والفريسك موجودة خارج الأراضى البيزنطية، مثل النورمان فى صقلية ، ومنطقة البلقان. ولعل العصر الزاهر للفن البيزنطى يتمثل تماما فى فريسك نيرزى Nerezi (١١٦٤) المقدونية ، وهى الآن إحدى القرى الإسلامية ذات الأهمية ، تبعد حوالى أربعة أميال عن سكوبجى Skopje . وتعتبر صورة العذراء وهى تحتضن جسد المسيح المسجى Pieta ، الموجودة بها ، لايفوقها أي من قريناتها .

ويتمثل الفن البيزنطى فى الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن التاسع واحتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، ليس فقط فى الأعما التذكارية ، بل فى نواح عديدة وصغيرة ، تم إنجازها فى الغالب من أجل الخبراء والمختصين فى داخل الإمبراطورية أو خارجها ، مثل الكتب المصورة ، وعلب الحلى العاجية ، أو الأعمال الخزفية أو المنسوجات .

وكانت دار النسخ Scriptoria هى مركز المطبوعات البيزنطية ، حيث يتم نسخ المخطوطات باليد ، ومن بين أقدم الخطيات نجد الكتب «الأرجوانية» التى يتأرجح تاريخها ما بين نهاية القرن الخامس إلى السادس ، وتحتوى على أجزاء من الكتاب المقدس كتبت بالفضة على جلد أرجوانى . ومن المحتمل أن تكون هذه المخطوطات المصورة الدقيقة المتقنة، قد انجزت تحت رعاية أحد النبلاء أو الأثرياء . ولم يكن النص فقط، بل الصور أيضا يتم نسخها ، وهكذا نجد أن نسخة القرن التاسع الخاصة برحلات قوزماس ملاح الهند[١٠] Cosmas In-dicopleustes تكرر ثانية الصور المصغرة للنسخة الأصلية (التى وضعها قوزماس بنفسه) ،

---

١٠- ولد قوزماس فى مصر ، وعلى الأرجح فى الأسكندرية ، واشتغل بالتجارة ، فارتحل إلى شواطئ البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، والحبشة وربما سيلان أيضا. ثم سلك فى نهاية الأمر درب الرهبانية وحصل على لقبه هذا «ملاح الهند» لسفره إلى الهند بحراً كما يظن . وقد اشتهر أمر قوزماس بسبب ذلك الكتاب=

وهناك نسخ من القرن التاسع أو العاشر ، لأجزاء من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، أو كتاب المزامير الذي يبدو واضحا أنه يخص «عائلة» تنحدر من أصل قديم جدا . وتتنوع أنماط هذه الصورة ، فبعضها ، مثل كتاب المزامير الموجود في باريس مثلا، تحمل سمات سكندرية، ترى في الأرضية الريفية ، وفي تجسيد المعاني المجردة والعناصر الرمزية ، بينما تظهر الأخرى ميلا شرقيا يتمثل في الألوان السخية والملامح الزخرفية المعقدة ، وهناك بعض الخطيات التصويرية التي لاتنتسب إلى هذه الكتابات الارستقراطية ، فقد جاءت في نمط فكه بل وحتى قدحي وقدمت للاستهلاك الشعبي. واستخدم الخصوم السياسيون والعقائديون هذه الناحية في شن حملات التشهير العنيفة ضد بعضهم ، ففي أحد كتب المزامير مثلا، والذي ربما نسخ في زمن محنة الأيقونات والموجودة في دير ستوديوس في القسطنطينية ،رسم أعداء الأيقونات وهم يصلبون المسيح . وتبرز بين الحين والآخر مشاهد تثير الدهشة من الحياة اليومية، وخطوط بألوان مغايرة في صور مصغرة لأنواع مشابهة ، كالتصوير غير العادي في الفن واللون للراهب جيمس الكركينوبافي James of Kokinobaphus لعظات حول العذراء، أو ذلك الكاريكاتير الصغير المعبر تماما كما نراه في أسلوب المجلة الإنجليزية المسماه Punch في خطية مدريد الخاصة بتاريخ سكيليتزيس(١١) Scylitzes .

---

= الذي وضعه عن «الطبوغرافيا المسيحية» في منتصف القرن السادس ، وهو يتضمن معارف جغرافية هامة عن البحر الأحمر والمحيط الهندي ، والصلات التجارية بين الهند والصين ، وإلى جوار ذلك الكثير من الحقائق التاريخية، فهو يعطينا صورة صادقة لبعض النقوش الهامة في النوبة وعلى شواطئ البحر الأحمر . ووصفا لقصر ملك الاحباش في مملكة أكسوم . ونعرف من كتابه أيضا مدى ما كانت تمثله جزيرة سيلان من أهمية استراتيجية ، حيث كانت تعتبر مركزا للتجارة العالمية بين الصين من ناحية وشرق أفريقيا وفارس وبيزنطة من ناحية أخرى .

أنظر Vasiliev , op. cit. I, pp. 1631165 .

وكذلك Baynes & Moss, op. cit. pp. 239-240 .

وراجع C. M. H. vol, I, p. 581 (المترجم)

١١- أحد كتاب المزمنات في القرن الحادي عشر، وقد وضع تاريخا تناول فيه الفترة من ٨١١ حتى منتصف القرن الحادي عشر (المترجم)

وتتضح تقاليد بيزنطة ودهاؤها إبان فترات تاريخها الزاهرة ، فى مجالات أخرى من الفن . فقد كان البيزنطيون أساتذة فى فن الفصوص المتحاجزة Cloisonne ، كما كان لهم مكانتهم الفريدة فى التزين بالميناء . وتحتفظ كنيسة القديس مرقس فى البندقية ببعض من أجمل هذه الأعمال ، ويعتبر ما انتجه الصاغة كهذا الذى ما زال بين أيدينا ، على درجة واحدة من الرقى، وقد كان واضحا أن نحت تمثال دقيق من العاج ، لايمكن أن ينظر إليه بارتياب ، واتخذت العاجيات سبيلها فى اتجاهين : دينى ودنيوى[١٢] . يتمثل أولهما فى مجموعات من اللوحات ذات الورقات الثلاث triptychs أو صناديق لحفظ الآثار المقدسة ، وينقش عليها موضوعات دينية . على حين كانت العاجيات الدنيوية تدور حول أشياء كمالية ، كصناديق الجواهر ، وتزين بروايات من الميثولوجيا ، أو مشاهد لقنص ، أو مطالب الحياة اليومية الأخرى ، أما العبقرية البيزنطية فى التصميم والتلوين فتعكسها بوضوح المنسوجات التى كانت تستخدم فى الكنيسة كأردية لرجال الأكليروس، وسجوف . وقد وصف بولس الصامت Paul the Silentiary فى صورة بليغة ستائر البلاط الإمبراطورى أو بعض الأسر الثرية . وقد وجد البيزنطيون سوقا رائجة فى الخارج ، وحملت تصميماتهم ملامح الفن البيزنطى المتنوعة إلى مختلف أجزاء العالم المتحضر .

ومما لاريب فيه أن الاقتصاد البيزنطى قد أصيب بهزة عنيفة، من جراء ذلك الانحلال التدريجى الذى دهم الإمبراطورية فى أعقاب احتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ . وكان لذلك أيضا أثره على الفن . فقد ندرت الأعمال الفنية الدقيقة، مثل الخطيات المزخرفة باهظة التكاليف. واستخدم الفريسك بصفة عامة فى الكنائس بدلا من القسيفساء الأكثر تكلفة. ومع ذلك فقد استمر النشاط الفنى والأدبى على السواء فى الازدهار ، وظلت مظاهر التطور التى شهدها القرن الثانى عشر ، تسير قدما فى الفترة التى أعقبت سنة ١٢٠٤ . وكانت معظم المراكز النشطة فى العصور الوسطى المتأخرة فى مواقع متقدمة نسبيا ، مثل ميسترا فى البلوبونيز أو طرابيزون والمناطق الأخرى ذات المعتقد الأرثوذكسى كالبلقان وروسيا . ويعتبر التصوير الدينى على الجدران أروع أعمال هذه الفترة ، خاصة فى البلقان فى القرنين

---

١٢- بعض هذه التحف العاجية موجودة فى متحف فيكتوريا بلندن .

الثانى عشر والثالث عشر . ورغم أن الكنائس المختلفة تظهر مدى التمايز فيها بينها ، إلا أنه كان هناك على العموم اتجاه للابتعاد عن الفن المعنوى الذى ساد فى القرن الحادى عشر إلى تفسير أكثر انسانية . وإذا كانت ملامح منهج فن التصوير فى بيزنطة العصور الوسطى قد بقيت ، فانه بمجئ القرن الرابع عشر أخذت الحوائط تميل إلى الامتلاء بالمشاهد اكما هو واضح فى كنيسة القديس كلمنت الأوخريدى St. Clment of Ochrida [ فى بلغاريا ] ومهما بلغت روعة وأصالة كنائس سوبوكانى Sopocani أو ميلسوفو Milesovo فى صربيا ، والتى تعود إلى القرن الثالث عشر ، أو دير الضاحية Chora (حاليا جامع القريه Kariye Djamii) فى القسطنطينية ، فان هذا الأمل على عكس قرينه المعاصر فى الغرب، ظل بعيد المنال . وربما كان هذا التوقف يعود إلى حد ما إلى التقليدية الأرثوذكسية التى دعمت الأحداث التاريخية ، كما أنه كان أيضا بكل تأكيد أحد نتائج الفتح العثمانى .

## مراجع خاصة عن الفن والعمارة

- Datton, (O.M.), East Christian Art: a survey of the Monuments (Oxford 1925).

- Demus (O.), Byzantine Mosaic Decoration (London 1938).

  The Mosaics of Norman Sicily (London 1950).

- Diez (E.) & Demus (O.), Byzantine Mosaics in Greece: Hosios Lucas and Daphni (Cambridge1931).

- Dumbarton Oaks Papers, Contain Valuable reports (with excellent illustrations) on work in progress in Constantinople (notably Hagia Sophia and Kariye Djamii) and elsewhere, as well as studies on more specialised aspects of Byzantine Art.

- Grabar (A.), Byzantine Painting (Skira Series, Geneva 1953).

- Hamilton (J.), Byzantine Architecture and Decoration, 2 nd. (London 1966).

- Iris Colou Book : Early Christia Mosaics, introduction by W. F. Volbach (Batsford 1943) .

- Byzantine Mosaics, introduction by p. Meyer Batsford 1952) .

- Jackson (T.G.), Byzaine and Romanesque Architecture, 2 nd ed., 2 vols. (Cambridge 1920).

- Mathew (G.), Byzantine Aesthetics (London 1963).

- Millet (G.), L'Ecole grecque dans L'Architecture Byzantine (Paris1916) .

- Simpson (F.M.), History of Architecture Development, vol . II, Early Christian, Byzantine and Romanesque, New edition by C. Stewart (London 1954).

- Stewart (C.), Byzantine Legacy (London 1947).

- Talbet Rice (D.), Byzantine Art (Pelican 1954).

- The Art of Byzantium (New York 1962).

- Art of the Byzantine Era (London1963).

- Whittemore (T.), The Mosaics of Haghia Sophia at Istanbul, I-IV (O.U.P. 1923-1952) .

- Yugoslavia : Mediaeval Frescas, Preface by D. Talbot Rice, introduction by S. Radojcie (Unesco World Art Series , New York 1955).

# الفصل الحادى عشر

# بيزنطـة وجيرانهـا

# الفصل الحادى عشر

# بيزنطـة وجيرانهـا

كان الموقع الجغرافى وحده كافيا كى يحتم على بيزنطة أن تلتقى كل صباح بأولئك الذين كانت طرائق حياتهم ونماذج تفكيرهم ، تغاير ما كانت عليه هى تماما . وقد اختلفت الصعاب التى واجهتها ، والفرص التى سنحت لها فى الشرق عنها فى الشمال والغرب.

وكان الاتصال بالشرق أمرا تقليديا ، والتقدير (فى العصور الوسطى على أية حال) متبادلا . وكان لكل من العالم اليونانى- الرومانى وعالم الشرق الأوسط، حضارته المعترف بها وإن كان التنافس قائم بينهما . ولاشك أن المسلمين قد أفادوا كثيراً من أساليب الحياة التى وجدوها في الولايات البيزنطية التى فتحوها أو من مصادر المعرفة اليونانية الكامنة عند أبوابها. ولم يكن ما أفاده البيزنطيون أقل من ذلك . ولعل أوضح الأمثلة على هذا الإخصاب المتبادل يتمثل بوضوح فى الرهبانية البيزنطية وحياة قديسيها . وقد خلا تاريخ القديسين البيزنطيين غالبا من العناصر الهللينة ، وشهدت الأفكار تبادلا مستمرا نتيجة لبعض العوامل، كالمراكز الديرانية التى تضم رهبانا يتحدثون لغات متفرقة ، أو الجاليات الشرقية الموجودة داخل العالم المسيحى ، كما فى بيت المقدس والقسطنطينية وجبل آثوس . أو قيام أقاليم الحدود (مثل جورجيا أو أرمينيا) ، حيث كانت الكنائس المختلفة تمارس ما يعتبر من المفضل وصفه بأنه حكم مشترك .

وفى الشمال ، فى البلقان ، فيما وراء الدانوب وفى منطقة البحر الأسود ، كانت الاتصالات مسألة لايمكن تجنبها منذ البداية، كما أن العلاقات قامت على أسس متباينة تماما. وكانت الهجرات الصلقبية والهونية تمثل تهديدا خطيرا ودائما . ولكن بيزنطة استطاعت هنا ، فى الشمال ، أن تقدم واحدا من أعظم وأوضح منجزاتها ، حيث تمكنت من استيعاب أعداد هائلة من الغزاة البرابرة، خاصة فى منطقة البلقان والتيمات الاغريقية، على الرغم من أن الدارسين ما زالوا يتناقشون حول كم من الدماء الصقلبية مزجت فى عملية توطينهم منطقة البلوبونيز فى العصور الوسطى المبكرة . ومن ناحية أخرى، كان هناك مجموعة من القبائل التى لم تتمكن الإمبراطورية من إبقائها خارج البلقان، أو إذابتها داخل ولايات الإمبراطورية.

وكانت هذه القبائل قادرة على انماء نفسها إلى درجة الاكتمال ، وتطوير إماراتها خلال العصور الوسطى تحت وصاية القسطنطينية ، شأن صربيا وبلغاريا .

أما فيما يختص بالغرب المسيحى فقد كان الوضع يختلف تماما ومتغيرا بدرجة كبيرة على امتداد العصور الوسطى. ومهما يكن من أمر الادعاءات التى أثارتها القسطنطينية عن الامبراطورية العالمية، فإن صلاتها المباشرة مع الغرب منذ القرن الخامس حتى الحادي عشر ، كانت أقل مما هي عليه مع الشمال أو الشرق، ولم يكن للغرب فى أوائل العصور الوسطى حضارة يمكن أن تقارن بحضارة بيزنطة أو الحضارة الإسلامية، فقد كان منطقة تتميز بقلة الكثافة السكانية والبدائية المفرطة . وليس بخاف أن إيطاليا كانت تمثل منتصف الطريق، كما أنها كانت تخضع بصورة جزئية للسيادة البيزنطية ، وقد أصبحت ادعاءات السيادة على إيطاليا والأدرياتى مشكلة امبراطورية ، إلى حد الصراع بين القسطنطينية والكارولنجيين. غير أن الحال ما لبثت أن تغيرت بشكل جوهرى بسبب توسع الغرب وارتقائه . وبصفة خاصة نتيجة الغزو النورمانى لصقلية وجنوب إيطاليا فى القرن الحادى عشر ، والحركة الصليبية الغربية التى تم القيام بها تحت رعاية بابوية تتميز بالقوة والحيوية المتجددة، ونمو الحياة المدنية فى إيطاليا مع الأنشطة الاقتصادية المتزايدة . وعندما بدا أن الهجرات الصقلبية وغيرها كانت تمكن لنفسها فى أرض البلقان ، وجدت القسطنطينية نفسها وقد أحيط بها من الشرق والغرب على يد الأتراك واللاتين . وقد أدى نمو الأمة ودولة المدينة فى الغرب ، كالمملكة المسكوفية Moscovite فى الشمال ، وإمارة آل عثمان فى آسيا الصغرى، والممالك الصقلبية فى البلقان ، إلى أن تشهد الدبلوماسية البيزنطية المتأخرة تعقيدات لم يكن لها ما يناظرها فى الفترة المبكرة من تاريخها.

وعلى العكس من الخلفية عن مشاكل الحدود والتغير الدبلوماسي، فان تأثير نظام الدولة البيزنطية يجب أن يوضع فى الاعتبار . وليس من الصعب إدراك أن المجموعات الأقل تطورا تحمل فى أعناقها دينا كبيرا بصورة مباشرة للقسطنطينية ، وأن هيئتهم قد تحددت إلى درجة بعيدة باتصالهم بهذا الجار القريب. ومهما تكن التفسيرات ، مع التسليم بأن تطور بناء المجتمع قد قام فى جوهره على أسس وطنية ، فانه من الصعب أن ننكر أن هذه الدويلات التى تشكلت خلال العصور الوسطى، مثل الصرب أو البوسنة Bosnia أو بلغاريا (وكانت هذه الأخيرة قد ظلت منذ القرن الحادى عشر حتى نهاية الثانى عشر جزءا من الإمبراطورية البيزنطية) ، أو كييف وأخيرا المملكة المسكوفية، روسيا ، قد أخذت الكثير من حنكة جارتها

وفوق هذا وذاك ، فإن الكنيسة الأرثوذكسية ، بغض النظر عما كان عليها أن تقدمه من جانبها ، فإنها كانت دليلا واضحا على أسلوب الحياة البيزنطية. ولم تكن السنة المسيحية بالصوم والأعياد على مدارها تتعلق فقط باحتياجات كل فرد على حدة ، بل كان ينظر إليها على أنها المظهر الخارجي الذى يعبر عن فحوى الإمبراطورية المسيحية . فالله عندما ارتضى أن يظهر نفسه متجسدا فى الزمان والمكان ، قدس مسرى التاريخ ، واستطاع العالم المسيحى أن يصبح انعكاسا على أرض مدينة السماء Civitas Caelestis وكان للإمبراطور وموظفيه ، والبطريرك وأكليروسه أماكنهم المحددة فى كل مظاهر الخدمة الكنسية للقداس السنوى. وتظهر الإجابات والهتافات مدى الأهمية البالغة التى تتعلق بالمنصب الإمبراطورى ، وكان هذا التصور الدقيق عن الدولة المسيحية ، مع الارتباط الوثيق بين القس والحاكم ، الذى ترك بصماته واضحة على الشعوب الصقلبية ، يتمثل فى طرائق حياتهم إبان العصور الوسطى ، والحقيقة التى لا مراء فيها أن بيزنطة كانت تتصور امبراطورا واحدا فقط ، وإن كان من الممكن وجود عديد من الأفراد الميرزين يعملون تحت امرته. وفى وقت معين بدا لاحدى الممالك الصقلبية أن المسئوليات الامبراطورية الرومانية والمسيحية قد ألقيت إليها ، عندما احتل الأتراك القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وتزوجت صوفيا Sophia إحدى أميرات أسرة باليولوجوس من ايفان Ivan الموسكوفى .

ولم يكن التصور البيزنطى للتقليد الإمبراطورى الرومانى ، باعتباره ذا مغزى خاص ، قاصرا على البلدان التى مكنت الكنيسة الأرثوذكسية لنفسها فيها ، ففى العصور الوسطى المبكرة أبقت روما الجديدة ، القسطنطينية ، على مفهوم الإمبراطورية بالنسبة لدنيا المسيحية فى الشرق والغرب على السواء، وكان هذا بالنسبة للمسيحى ، يمكن تصوره كفكرة على طراز الإمبراطورية الرومانية التى أعاد تشكيلها قسطنطين العظيم . ولم تساعد التطورات السياسية فى العصور الوسطى ، فيما أصبح يعرف بالنصف الغربى Pars Occidentalis على اعادة بناء عالم قسطنطين ، ولا حتى محاولة محاكاة رومان القسطنطينية من جانب الإمارات الصقلبية . ولم يحاول أمراء الغرب أبدا من جانبهم إحياء ما كان فى بادئ الأمر تحت حكم شارلمان ، يبدو أقل بكثير من لقب «الإمبراطور»، وما أصبح من بعد على عهد الأباطرة الأتوويين ، يرتبط بحقوق معينة فى أراضى ايطاليا وبرجنديا وألمانيا ، وأدى ظهور إمبراطورية غربية فى العالم اللاتينى، وهى التى عرفت بالإمبراطورية الرومانية المقدسة ، إلى أن تصبح فى السنوات الأخيرة موضع جدال. ولكن لاشك فى أن الغرب اللاتينى يحمل فى

عنقه دينا مبدئيا للشرق ، أو بمعنى آخر ، ذلك الطريق الذى ساعدت من خلاله الاتصالات المتنوعة بين بيزنطة والغرب على بعث واكمال التصور الغربى للمنصب الإمبراطورى .

وقد ورثت الاقطار اللاتينية والصقلبية أيضا - وإن كان بدرجة متفاوتة- المبادئ الفقهية الرومانية كما فسرها البيزنطيون . وكان نقل أعمال جوستنيان التشريعية ، أو المقننات الرومانية الشرقية فى العصور الوسطى المتأخرة ، يعتبر خدمة عظيمة وأساسية أدتها الإمبراطورية على درجة عالية من التنظيم ، وقد أفادت بلدان أوروبا وعالم البحر المتوسط - بطرق مختلفة- من مثل هذه المصادر والخبرات. وليس بخاف على أحد مدى ما لقيته مجموعة القانون المدنى Corpus Juris - Civilis لجوستنيان فى الغرب من قبول . وإن كانت المجموعات الأخرى التى صدرت زمن الأباطرة البيزنطيين المتأخرين ، مثل المراسيم الإمبراطورية Basilica ، قد حظيت بنصيب أقل من الذيوع ، ويعود ذلك بصورة جزئية إلى قلة الدراسات التى أجريت حولها. وقد اعتمدت الشعوب الصقلبية اعتمادا كبيرا على المجموعة التشريعية البيزنطية ، بل انهم احتفظوا بأجزاء منها مترجمة، وربما كان الدليل الذى يشير إلى استمرار استخدام القانون البيزنطى فى جنوب ايطاليا ، أقل من المتوقع : فالدليل الكالابرى المختصر عن القوانين الريفية والمدنية ، الذى صنف على عهد باسل الثانى من «المختارات» Ecloga زمن ليو الثالث ، والوجيز فى القانون Procheiros Nomos الذى وضع ابان حكم باسل الأول، هذا الدليل الكالابرى استخدم من جانب أمراء النورمان فى القرن الثانى عشر ، ثم تم تنقيحه فى عهد روجر الثانى Roger II . ولاشك أن أى فحص يمكن إجراؤه للمختصرات القانونية المعمول بها ، ليس فقط فى منطقة البلقان ، بل فى مناطق أبعد من ذلك ، كجنوب إيطاليا أو فلسطين وسوريا ، سوف يكشف (كما فى البلقان ) اما عن البناء المتأنى الذى تم بمساعدة النظرية والتطبيق البيزنطيين، أو (كما فى جنوب إيطاليا) عن الاستخدام المستمر والتكييف لما ظل فترة طويلة جزءا من قانون الأقاليم .

ومن الممكن كذلك أن نعرف شيئا ما عن مبادئ الحكم البيزنطى فى نواح أخرى عديدة ، ويتضح هذا من كتابين صنفا فى منتصف القرن العاشر على يد الامبراطور الإنسانى قسطنطين السابع ، أولهما عن المراسم De Cerimonils الذى نظم مظاهر الحياة اليومية فى الدوائر الامبراطورية البيزنطية ، وقدم أنموذجا يحتذى لبلاط الملوك والأمراء الآخرين . والثانى عن الادارة الإمبراطورية De Administrando Imperio ليعلم القيصر الصغير حنكته

الإمبراطورية ، ويشرح لنا- بدرجة لا تقل عما يقدمه له - قواعد السياسة الخارجية البيزنطية. كما أن المعلومات التى يتم الحصول عليها من وزارة الخارجية ، ومن أقسام الإدارة المختلفة ، ومن الدبلوماسيين وحكام الولايات ، لاتكشف فقط عن النظام البيزنطى ، بل تبين بعض الوسائل والقنوات التى انسابت من خلالها المعرفة بالحضارة والحكومة البيزنطية إلى البلاد الأخرى .

وكانت هناك صلات كثيرة غير رسمية بين الغرب الأقصى والقسطنطينية، خاصة منذ القرن الحادى عشر فصاعدا. فقبل أن يحل عام ١٢٠٤ كانت انجلترا قد أصبحت على علاقة ببيزنطة عن طريق تجنيد الحرس الإمبراطورى الخاص وروابط المصاهرة . وهناك إشارات معاصرة عن «المحاربين حاملى البلط» الذائعى الصيت والذين عرفوا باسم «الورنك»[١] Varangian ، وان لم تكن من قبيل الثناء بصفة دائمة ، كما حدث عندما قدم رئيس رهبان باطموس Pat-mos فى سنة ١٠٨٨ شكاية ضد اسكان الفرق العسكرية ، ومن بينهم «أولئك الجنود الانجليز». ويتضح الرضى البيزنطى عن هذا المصدر الذى يتم منه تجنيد الحرس الإمبراطورى فى تاريخ يوحنا كيناموس[٢] John Cinnamus الذى وضعه فى أخريات القرن الثانى عشر، حيث يتحدث عن «الجنس البريطانى الذى عمل فى خدمة الأباطرة الرومان لزمن طويل»، كما تفصح الرسالة الودية التى بعث بها أحد أباطرة القرن نفسه ، مانويل كومننوس Manuel Comnenus إلى ملك انجلترا هنرى الثانى Henry II والتى حفظها روجر الهوفيدى[٣]

---

١- أنظر قبله .

٢- هو أحد المؤرخين الذين عاصروا الفترة الكومننية . وضع تاريخا يتضمن عهدى يوحنا ومانويل ، أى ابتداء من عام ١١١٨ حتى سنة ١١٧٦ ويعتبر تاريخه هذا تكملة للالكسياد الذى كتبته أناكومننا عن أبيها الامبراطور ألكسيوس كومننوس. وكان كيناموس هذا من أشد المتحمسين للإمبراطورية الألمانية . كما أنه كان أكثر الناس إعجابا بهيرودوت وأكسنوفون، كما تأثر فى كتاباته بالمؤرخ بروكوبيوس القيسارى (المترجم)

٣- أحد مؤرخى القرن الثانى عشر أيضا ، كان مقربا من البلاط الإنجليزى ، وعمل قاضيا ومستشارا، كما عمل أيضا راعيا للكنيسة فى هويدن . وقد مكنته صلاته الوثيقة بالبلاط أن يكون على مقربة من مجريات الأحداث خاصة وأنه صحب ريتشارد الأول ملك انجلترا فى حملته الصليبية إلى بلاد الشام .

أنظر F. Heer, The Medieval World, p. 280 .

وكذلك Barlow, op. cit. p. 328 .

وأيضا Mund, Europe in the High Middle Ages 1150-1309, p. 15. (المترجم)

Roger of Hoveden عن التقدير الكثير لسجايا هؤلاء الجنود . فقد كتب مانويل بعد الهزيمة التى لقيها البيزنطيون على يد الأتراك فى آسيا الصغرى سنة ١١٧٦ : «ولقد غمرنا السرور إذ رأينا بعض كبار نبلائكم معنا .. ومن ثم قدرنا أنه يجب أن نطلعكم باعتباركم صديقنا العزيز المحبوب ، ولأنكم قد ارتبطتهم بعظمتنا الإمبراطورية بروابط الدم». ذلك أن زوجة مانويل الثانية تنتمى لأسرة صليبية غربية ، فهى مارى صاحبة أنطاكية ، ابنة ريموند كونت بواتييه Raymond of Poitiers ، عم إليانور أميرة أكويتانيا Elenor of Aquitaine زوجة هنرى الثانى، ومن ثم كان أولاد هنرى وأولاد مانويل أبناء خؤوله ، كما أن تقارير هنرى تعكس هى الأخرى ذلك الارتباط الودى بين العائلتين . وتشير سجلات الخزانة إلى العديد من وجوه الإنفاق الخاصة باستضافة سفراء إمبراطور القسطنطينية، وكذلك بعض البنود فى كشوف الحسابات تتعلق بارسال مجموعة من كلاب الصيد الإنجليزية إلى مانويل الذى كان صيادا متمرسا . وكان أمرا عاديا وجود مثل هذه الإشارات التى تحمل طابع الود والمجاملة فى كل فترة من الفترات ، ولكن مع هذا الإقرار الكامل بروابط الدم، فان أخريات القرن العاشر قد شهدت ابتعادا واضحا عن سياسة المنع التى عرفها القرن العاشر ، ودونت فى كتاب الوجيز فى الإدارة حول مسألة الزواج الإمبراطورى . ورغم أن الإمبراطورية لم تحد مطلقا عن النظرية التقليدية الخاصة بالسمو العالمى، إلا أن الظروف السياسية قد أجبرت العالم البيزنطى على أن يعدل من موقفه تجاه «البرابرة» .

ومع ذلك ، فهناك مجال واحد سار فيه عالما اللاتين واليونان بمعزل عن بعضهما متباعدين. فلم يتوفر للمسائل العقيدية نفس الحالة التى كانت عليها العلاقات الدبلوماسية والممارسة الإدارية ، ذلك أن الصدع الهائل الذى يفصل بين المسيحى والمسيحى يعود بصورة جزئية إلى ذلك التعصب الدينى الشديد عند كل منهما ، ولكن السبب الرئيسى يتمثل فى الأحداث السياسية التى تركت أثرها العميق على السياسة الكنسية . فقد شهدت العصور الوسطى المبكرة قيام الخلافات اللاهوتية والتنظيمية بين الكنائس اليونانية واللاتينية ، غير أن العامل الحاسم كان فى الغالب يتركز فى اهتمام روما بالنشاط التبشيرى فى بعض الميادين التى كانت تعد مجهولة إلى حد ما، أو إلحاحها من أجل استعادة سيادتها الكنسية على جنوب إيطاليا والليريا ، والتى كانت قد فقدتها بانتقال كنائس هاتين المنطقتين الى رعاية بطريرك القسطنطينية عام ٧٣٢ . ولم يقدر للمفاوضات التى دارت بعد سنة ١٢٠٤ فى العصور

الوسطى المتأخرة ، من أجل إعادة الوحدة بين الكنيستين أن تنجح ، وكان السبب فى فشلها منذ البداية تلك الكراهية العامة عند البيزنطيين تجاه أولئك الافاقين اللاتين الذين نهبوا الإمبراطورية الشرقية .

غير أن هناك ناحية إيجابية فى العلاقات القائمة بين الكنيسة الأرثوذكسية والعالم المجاور لها ، وأصبحت هذه الناحية فى سماتها الرئيسية أمرا مسلما به وإن كانت التفاصيل ما تزال تضاف إلى معارفنا تباعا . فقد لعبت القسطنطينية دورا كبيرا فى المجال التبشيرى ، حيث امتد نشاطها إلى مساحة واسعة تشمل الشرق وروسيا والبلقان ووسط أوروبا . ولعل جهود كيرلس Cyril ومثوديوس Methodius المبشرين البيزنطيين فى القرن التاسع ، فى مورافيا Moravia لم تكن سريعة الزوال كما يفترض أحيانا[٤] وهناك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الثقافة الصقلبية - البيزنطية ، بما فيها القداس الصقلبى، قد مكنت لنفسها قرابة قرنين من الزمان (العاشر والحادى عشر) ، كما وجدت آثار الطقوس الشرقية فى بوهيميا بعد ذلك بزمن متأخر . وبنفس القدر من الاهتمام وعلى نفس المنوال، جاءت نتائج الأبحاث الهنغارية التى أجريت للتعرف على الأصول البيزنطية للكنيسة المجرية[٥]. وقد تأكدت الآن بصورة واضحة ، تلك الجهود التبشيرية الجادة التى بذلتها الكنيسة الشرقية بين القبائل التركية والهونية فى العصور الوسطى المبكرة ، خاصة منذ القرن السادس وما تلاه، وأدت هذه الجهود، وكذلك الصلات التى كانت قائمة مع الصقالبة ، إلى إدخال المجيار فى المسيحية قبل أن يصلوا إلى هنغاريا . وما أن قدموا إليها حتى وجدوا روما وبيزنطة يستبقان ، وفوق هذا ، فانه رغم القرار الذى اتخذه الملك ستفن فى صالح الغرب، إلا أن هناك من الأدلة ما يثبت استمرار التأثير اليونانى على الأرض الهنغارية . ولم يكن هذا أمرا يثير الدهشة نظرا للصلات السياسية والعائلية الهنغارية مع القسطنطينية. وقد شهد القرنان الحادى عشر والثانى عشر إقامة بعض الأديرة اليونانية فى هنغارية كانت خاضعة فيما عدا فترة قصيرة من القرن الثالث عشر، لسيادة بطريرك القسطنطينية ، وما زلنا نجد فى هنغاريا مجموعة من الأساطير والروايات ، التى تعود إلى أصول بيزنطية ، وأماكن تتصل أسماؤها بقديسين بيزنطيين،

---

٤- قارن .Dumbarton Oaks Papers XIX (1965) حيث توجد أوراق تتناول عدة نواح تتعلق بالبعثات التبشيرية البيزنطية إلى الصقالبة وضعها G. Ostrogorsky و G. C Soulis و Obolen-sky وأيضا A. Dostaal .

٥- أنظر G. Moravesik and M. Gyoni

كما ترجمت فى أوائل القرن الثانى عشر كتابات يوحنا الدمشقى John of Damascus عن الإيمان الأرثوذكسى – De Fide Othodoxa وأعمال ماكسيوس المعترف Maximus the Confessor .

وكان من الطبيعى أن يتبع نشاط القسطنطينية التبشيرى ، الاندماج الادارى والتمكين للمؤسسات الكنسية ، وإذا كان الأمر فى هنغاريا ومورافيا وجنوب إيطاليا ، (وهى المناطق التى لم يكن يطلب إلى بيزنطة بدهيا أن تقوم فيها بعمل رائد)، يجرى مشاركة مع الكنيسة الكاثوليكية، بل فى الجزء الأكبر أخيرا، خضوعا لها، فان الحياة المسيحية فى الأقاليم الأخرى التى تحولت إلى هذه العقيدة على يد القسطنطينية، وكانت تقليدا للنمط الأرثوذكسى . لقد كانت الكنيسة بأبروشياتها وأسقفياتها ومطرانياتها تحت رعاية كبير المطارنة. تخضع فى النهاية لبطريرك القسطنطينية ، وكانت الهيئة الكهنوتية العليا للأكليروس ، تعين أحيانا من بين رجال الكنيسة البيزنطيين ، وبصفة خاصة فى روسيا والبلقان . وكانت الحياة الرهبانية بشكلها الديرانى والتوحدى تنمو بصورة حماسية كما لو كانت على الأرض البيزنطية، ومن البدهى فى عالم الرهبنة ، أن يحيا الراهب المتضع حياة عالمية. ومن ثم فقد كان هناك فى بولندا وروسيا والأديرة الشرقية رهبان من جبل أثوس للإقامة أو الزيارة وأناس من كل أنحاء العالم المسيحى . ولم يكن الأمر مقصورا فقط على الإفادة من تجربة الحياة العملية فى المراكز الأولى، بل ان ترجمات الأعمال الكلاسيكية للديرانية اليونانية ، قدمت إلى أتباع الكنيسة الأرثوذكسية النائين المحدثين ، معارف يونان العصور المبكرة والوسطى . وتقاليد الديرانية الشرقية . وهكذا كانت سيرة الراهب المصرى أنطونيوس فى أوائل القرن الرابع ، أو الروايات التى دارت فى القرن السابع حول جوديان Judaean ، والتى أنجزت زمن كيرلس البيسانى Cyril of Scythopolis ، تقرأ فى ترجمة صقلبية قديمة داخل أديرة بلغاريا أو روسيا فى زمن أمراء كييف. وعلى ذلك فلم يكن القديس باسل والقديس ثيودور الاستوديى وحدهما أصحاب الأثر الأكبر فى الرهبنة الأرثوذكسية فى العصور الوسطى .

أما عناية الكنيسة الأرثوذكسية وحكمتها فى إعداد الإطار القداسى لمظاهر العبادة اليومية (رغم عدم ضرورتها فى اللغة اليونانية) ، واضفاء المزيد على الأعمال الأساسية لكبار اللاهوتيين والآباء الروحيين للكنيسة المسيحية لاتحتاج فى جملتها إلى تعليق . كما أن بيزنطة قدمت أيضا الموسيقى التى كانت تعتبر جزءا مكملا فى العبادة العامة سواء فى الأبروشية أو

كنيسة الدير. وقد تركت الموسيقى البيزنطية أثرها الواضح فى بلغاريا ، التى نقلت فى القرن التاسع عن القسطنطينية قداساتها وترانيمها ، ثم نقلتها إلى الروس فى القرن العاشر [٦].

ولاشك أن الفن والعمارة يعتبران من الموضوعات الضخمة التى يصعب تناولها هنا ، وإن كان من السهل الإشارة إلى الخطوط العريضة التى يعمل فيها الدارسون . فقوانين النقد الصحيحة تنطبق على الفن والعمارة الإقليمية ، كذلك على التصميمات والأعمال الفنية التى يمكن أن تصف بطبيعتها على أنها مخطوطات ومسكوكات ونقوش عاجية «سياحية»، أو ذلك النوع من المادة التى وجدت فى انجلترا فى سفينة سوتون هو Sutton Heo المطمورة ، ويحلل أوتوديموس Otto Demus فى دراسات رائعة متتالية ، فن التصوير ، ويقدر القيمة الحقيقية لتكنيك العمل الفسيفسائى فى بلاد اليونان وإيطاليا وصقلية ، مبينا مدى ما تدين به البندقية وصقلية لأيقونوجرافيا التقليد القداسى البيزنطى، وللصناع المهرة الذين أنجزوا هذا العمل ، والذين يمكن رؤية أعمالهم إلى الآن فى أديرة دافنى أو هوسيوس لوقا أو كيفالى Cephalu [فى صقلية] .

وتعتبر الأشكال الفنية بطبيعتها عالمية أكثر منها وسيطا أدبيا. ولقد كانت كتابات البيزنطيين تتداول بصفة عامة فى المناطق التى كانت اليونانية ما تزال سائدة فيها ، أو من خلال الترجمة . ولكن يجب أن نعيد إلى الأذهان ثانية، أننا لم نذهب أبعد من مجرد البدء فى استكشاف المدى الذى وصلت إليه الآداب والفلسفة والعلوم والدراسات الغيبية البيزنطية فى الحياة الثقافية والعامة للعالم المجاور لبيزنطة . وفى بعض النواحى ، خاصة الفلسفة والعلوم، فان معلوماتنا ما زالت قليلة حتى عن طبيعة التطور داخل الإمبراطورية . ولكن الهدية القيمة التى قدمتها بيزنطة للشرق والغرب على السواء والتى تتمثل فى المنطق الأرسطى ، وتصور الفكر المجرد ، يجب التأكيد عليها. وقد بدا لائقا ليوحنا الدمشقى، أن يبدأ كتابه عن الإيمان المسيحى بفصل فى المنطق ، الذى كان يمثل جزءا من خلفيته الهللينية ، ولم ينسه حتى على الرغم من أنه كان يعيش فى عالم اسلامى . فهذه المدركات الأرسطية ، الصيغ المجردة ، رغم أنها لم تبد متناغمة مع بعض أساليب التفكير الإسلامى الشرقية ، إلا أنها تركت بصماتها أيضا على التفكير الإسلامى فى العصور الوسطى. أما عند النهاية الأخرى للسلم،

---

٦- كتبت المخطوطات المتعلقة بهذه الناحية فى الشكل الصقلبى القديم، أعنى البلغارى القديم الذى اصطلح على العلامات الموسيقية البيزنطية .

فهناك الكثير من العادات الشعبية بل وحتى التافهة ، التى انتقلت إلى البلاد الصقلبية ، وفى بعض الأحيان إلى أصقاع بعيدة مثل انجلترا ، كالحكايات والمواويل والتنبؤات والتعاويذ والرقى التى تستخدم ضد الأمراض البسيطة مثل الأرق وفصد الأنف والصداع .

وكان من غير المألوف بصورة واضحة ، أنه بعد عام ١٢٠٤، عندما تمكن اللاتين من امتلاك مناطق هامة من الإمبراطورية البيزنطية، وعندما أصبح واضحا أن الهوة الموجودة بين الكنائس اليونانية واللاتينية لايمكن اجتيازها ، أن يقدم المسيحيون الشرقيون والغربيون على معرفة آداب بعضهم البعض .

وكان تحويل الحملة الرابعة عن غرضها ، وتوجيهها لاحتلال الإمبراطورية المسيحية ، قد قوبل بما يستحقه ، تماما من الإدانة . ولكنها فى الوقت ذاته جمعت ، بما لايدع مجالا للشك ، بين الشرق والغرب بطرق مختلفة فى إحساس أكثر بهجة : فتزاوجت العائلات اللاتينية مع البيزنطية ، ونبت أبناؤهم فى بلاد اليونان ، وها هو وليم فيلهاردوان William of Vill-hardouin حاكم إمارة آخايا Achaea فى القرن الثالث عشر ، ويولد يحيا وهو طفل فى قلعة أبيه فى كالاماتا Kalamata بالبلوبونيز ويتكلم اليونانية بطلاقة . وقدم تعلم الحكام اللاتين لبلاد اليونان كيف يعرفون ويقدرون قيمة أمجادها ، وغير ذلك فقد ذاعت شهرة آثارها فى العالم الخارجى ، فقد كتب بدرو الرابع Pedro IV ملك أرغونة Aragon فى سنة ١٣٨٠ يقول إن الأكروبول Acropolis ، قلعة الستينين [الاثينين] the Castell de Cetines كما كانت تسمى فى الوثائق القطالونية، تعتبر «أثمن جوهرة فى العالم ، النموذج الذى ليس بمقدور أى ملك فى العالم أن يحاكيه» [٧]. ولم تؤد الممارسة الشخصية للاتين فى منطقة بحر إيجة إلى معرفة قيمة الفن اليونانى البيزنطى فقط ، بل الوقوف على التقاليد الأدبية الثقافية لكل من العالمين . ونحن نسعى بصفة دائمة للتعرف على هذه التيارات المتداخلة، فالبيزنطيون يقبلون بنهم على القديس أوغسطين أو القديس توماس الاكوينى فى الكتابات المترجمة وكذلك كان اللاتين يقرأون أيضا هوميروس مترجما ، وعلى هذا النحو تعلم الطرفان إلى حد ما كيف يفهم كل منهما الآخر، على عكس ما حدث فى القرن الحادى عشر، عندما بدا أن بسللوس لايعرف الفرق بين قيصر وشيشرون .

---

٧- اقتبسها K. M. Setton , Catalan domination of Athens 1311-1388 (Cambridge Mass 1948), p. 187, وكلمة Cetines هى التصحيف اللاتينى للتعبير الشعبى Athens صيغة "eis Athenas" .

ولقد كانت هناك طرائق لانهاية لها للاتصال بين بيزنطة والعالم المجاور لها الذى اقتبس واستعار منها بدرجة كبيرة . وكان تأثير بيزنطة على جيرانها مباشرا وغير مباشر . فليس لأحد أن ينكر فضلها فيما قدمته للعالم الحديث من كتابات اليونان الأقدمين . ولايقل عن ذلك أهمية بالنسبة للحضارة المسيحية ، ذلك الدور الرائد الذى قامت به بيزنطة عن طريق علماء اللاهوت الذين يتحدثون باليونانية ، خلال فترة التكوين من القرن الرابع إلى السابع وأدى ذلك أيضا فائدة جليلة للغرب عن طريق الترجمة . ولقد كان ذلك عطاء «يونانيا» خالصا . تمتد جذوره إلى الاقتدار الهلليني على التفكير الواضح، وانصهر فى بوتقة الإمبراطورية اليونانية فى العصور الوسطى . لقد قامت الثقافة اليونانية فى العصر الوسيط على الحياة الإغريقية القديمة، ولكنها كانت شيئا حيا وأساسيا ، قادرة على التعبير عن نفسها بأسلوب العصر الذى كانت تحياه .

## مراجع عن الفصل الأخير

Baynes (N.H.) & Meyendorff (B.), The Byzantine Inheritance in Russia, in Byzantine (ed. N. H.. Baynes & H. St. L. B. Moss).

Dolger (F.), Byzanz und die Europaische Staatenwelt (Ettal 1953).

Dumbarton Oaks Papers XVIII (1964), XIX (1965) .

Dvornik (F.), Les Slaves, Byzance et Rome (Paris 1926).

The Making of Central and Eastern Europe (London 1949) .

Huxley (M.), Root of Europe . Studies in the Diffusion of Greek Culture (London1952).

Obolensky (D.), Russia's Byzantine Heritage, Oxford Slavonc Papers, vol . I (1950).

Peeters (P.) Le Trefonds Oriental de L'Hagiographic Byzantine (Brussels 1950) .

# المصادر والمراجع

# التى اعتمد عليها المترجم فى التقديم والتعليق

# أولا - المصادر

AMMIANVS MARCELLINVS :

Res Gestae . trans . by John C. Rolfe in 3 vols. London 1935 .

ATHANASIVS :

De decretis Nicaenae Synodi Contra Arianos: Nicene IV 2, 150-172 (=P.G. XXV, I, 415-476) .

- Depositio Arii= Nicene IV2, 69-71 (=P. G. XXV, I, 691-695) .

- Epistola ad Dracontium : Nicene IV 2, 557-560 (=P.G. XXV 524-533) .

- Historia Arianorum ad Monachos : Nicene IV2 , 270-302(= P.G. XXV 696-796) .

- Vita S. Antoni : Nicene IV 2, 195-221 (= P. G. XXVI 835-976) .

AVGVSTINVS :

Civitate Dei. trans . in 2 vols. by Marous Dods. Edinburgh 1949 .

EINHARD :

The Life of Charlemagne , trans , by Lewis Thorpe, in tow Lives of Charlemagne. Penguin Book 1969 .

EVSEBIVS :

Vita Constantini : Nicene I 2, 473-580 (=P.G. XX 905-1232).

HIERONIMVS :

Vita S. Pauli Primi erimitae : Nicene VI 2, 299-303 (=P. L. XXIII 17-28).

HILARIVS :

De Synodie seu Fide Orientalium : Nicene IX 2, 4-29 (=P. L. X471-546).

LACTANTIVS :

De mortibus Persecutorum: Ante Nicene Fathers ed . by A. Roberts & J. Donaldson . Michingan S. d (VII 301-3222= P. L. VII 2, 189-276).

Nicene and Post Nicene Fathers of The Christian Church . ed . by Philip Schaff & Henry Wace,. Michigan 1891 sqq .

PALLADIVS

Historia Lausiaca , trans . by Budge (in Stories of the Holy Fathers). London 1934 .

PSELLVS , M :

Chronographia . trans in (Fourteen Byzantine Rulers) by E.R.A. Sewter. Penguin Book 1966 .

RVFINVS :

Historia Monachorum (P. L. XXI. 391-462).

SOCRATES :

Historia Ecclesiastica : Nicene II 2, 1-178 (=P. G. LXVII 29-842).

SOZOMENVS :

Historia Ecclesiastica : Nicene II 2, 239-427 (=P. G. LXVII 843-1630).

THEODORETVS :

Historia Ecclesiastica : Nicene III 2, 33-159 (=P. G. LXXXII 3, 881-1280).

# ثانيا - المراجع

## (أ) المراجع الأوروبية

Academy of Sciences of the U. S. S. R. Institute of history : A short history of the U. S. S. R. trans . From Russian by George H. Hanna . Moscow 1965 .

Acton (Lord) :

Essays on church and state , ed .. and introd . by Douglas Woodruff. London 1952 .

Artz (F.B.) :

The mind of the Middle Ages, 200-1500, an historical survey New York 1953 .

Barlow (F.) :

The Feudal kingdom of England 1012-1216 London 1974 .

Barry (W.) :

The Papal monarchy from St. Gregory the Great to Boniface VIII . New York 1906 .

Baynes (N.H.) & Moss (H. St. L. B.) :

Byzantium , an introduction to East Roman Civilization Oxford 1969 .

Boak (A. E. R.) :

A history of Rome to 565 A. D London 1955 .

Brooke (Ch). :

Europe in the central Middle Ages , 962-1154. London 1966 .

Bhroke (Z.N.) :

A history of Europe 911-1198. London 1966 .

Browne (Gh. G.) & Swallow (J.A.):

Prolegomona (GREGORIVS NAZIANZENVS. Orationes et epistolae): Nicene VII 2, 187-202 .

Bryce (J. A.) :

The holy Roman Empire . London 1950 .

Budge (E.A.W.) :

Stories of the Holy Fathers London 1934 .

Burckhardt (J.) :

The age of Constantic the Great, trans , by Moses Hadas, U. S. A. 1949 .

Bury (J. B.) :

History of the Later Roman Empire, 2 vols . London 1931 Cambridge Medieval History , 8 Vols. Cambridge 1964 .

Cantor (N. F.) :

Medieval history - New York 1964 .

Chadwick (H.) :

The early Church - London 1974 .

Copleston (F.) :

A history of Philosophy. Medieval philosophy . pt. 1. New York 1962 .

DANTE :

The divine Comedy, 3 vols. trans by Dorothy L. Sayers Penguin Book 1972 .

Davis (R.H.C.) :

A history of Medieval Europe from Constantine to st . Louis . London 1975 .

Dawson (Ch.) :

Religion and the rise of Western Culture . New York 1958 .

De Wulf (W.) :

Philosophy and civilization in the Middle Ages, New York 1953 .

Dictionary of Christian biography . 4 vols . ed . by W. Smith & H. Wace London 1977 .

Dictionnaire de theologie Catholique. 15 toms . Paris 1923 .

Douglas (D.) :

William the Conqueror. London 1969 .

Duchesne (M.L.):

Histoire anciene de l'eglise . 3 toms. Paris 1911 .

Dudley (D.R.) :

The Civilization of Rome . New York 1962 .

Ganshof (F.) :

Feudalism . London 1976 .

Gibbon (E.) :

Decline and Fall of the Roman Empire, ed in 7 vols. by J. B. Bury. London 1909.

Gwatkin (H. M.) :

- The Arian Controversy . London 1914 .

- Arianism (in C. M. H. vol I) .

Hardy (E. R.) :

Christian Egypt : Church and People. Christianity and nationalism in the Patriarchate of Alex. New York 1952 .

Haskins (Ch.) :

The Normans in European history . New York 1966 .

Hay (D.) :

Europe in the fourteenth and fifteenth centuries. London 1971 .

Heer (F.) :

The Medieval World. trans . from the German by Janet Sondheimer . New York 1963 .

Hefele (C. J.) :

History of the Councils of the Church, trans . from the German in 5 vols . and ed. . by W. R. Clark , Edinburgh 1972 .

Hodgett (G.A.) :

A Social and economic history of Medieval Europe . London 1972 .

Hughes (Ph.):

A history of the Church, vol . 2. London 1948 .

Jackson (B.) :

Prolegomena (BASILIVS of Cappadocia. opera omnia ) Nicene VIII , 2 13-77 .

Jones (A. H. M) :

- The decline of the Ancient World . London 1975.

- Later Roman Empire, 3 vols . Oxford 1964 .

- Constantine and the Conversion of Europe . London 1948 .

Ker (W.P.) :

The Dark Ages New York 1958 .

Kidd :

A history of the church to A. D. 461 , 2 vols . Oxford 1922 .

Knowles (D.) :

The evolution of Medieval thought . Hong Kong 1976 .

Laistner (M. L. W.) :

Thought and letters in Western Europe . New York 1957 .

Lambert (W. ):

The Cannons of the first four general Councils of the Church and those of the early Local Greek Synods. London . S. D.

Latourette (K.S.) :

- A history of Christanity . London 1955 .

- A history of the expansion of Christianity. 7 vols. New York 1937 sqq .

Leff (G.) :

Medieval thought from S. Augustine to Ockham. Penguin Book 1958 .

McGiffert (A.C.) :

Prolegomena and notes ( EVSEBIVS . hist. eccl. ) : Nicene I, 2 , 3-72 .

Millingen (A.V.) :

Constantinople, London S.D.

Mundy (J.) :

Europe in the high Middle Ages, London 1973 .

Neale (J. M.) :

A history of the Holy Eastern Church, Patriarchate of Alexandria. 2 vols . London 1847 .

Neander (A.) :

- Lectures on the history of Christian Dogmas , 2 vols. London 1882 .

- General history of the Christan religion and Church, trans. from the German by Joseph Tarrey , 9 vols. London 1851-1858 .

The New Schaff - Herzog encylopedia of religious Knowledge 13 vols. Michigan 1957sqq .

O'Lwary (De L.) :

The Coptic Church and Egyptian monsaticism (in Legacy of Egypt) .

Oman (Ch.) :

The Dark Ages : European history 476-918. London 1928 .

Ostrogorsky (G.) :

History of the Byzantine State , trans. by Joan Hussey Oxford 1956 .

Painter (S.) :

A history of the Middle Ages 384-1500 New York 1954 .

Percival (H. R.) :

The Seven Ecumenical councils (Nicene XIV 2) .

Pirenne (H.) :

A history of Europe, London 1951 .

Economic and social history of Medieval Europe. London 1972 .

Rand (E.K.) :

Founders of the Middle Ages, New York 1957 .

Richardson (E. C.) :

Introduction (EVSEBIVS, vita Const . ) Nicene , I 2 , 411-469 .

Runciman (S.) :

A history of the Crusades, 3 vols . London 1951 .

Scott (M.) :

Medieval Europe. London 1975 .

Slesser (H.) :

The Middle Ages in the West, London S.D.

Stanley (A.F.) :

Lectures on the history of the Eastern Church . London 1864 .

Stephenson (C.) :

Medieval history . New York 1962 .

Strayer (J.) & Munro (D.) :

The Middle Ages 395-1500 New York 1970 .

Thompson (J.W.) & Johnson (E.N.) :

An introduction to Medieval Europe 300-1500. New York 1965 .

Toynpe (A.) :

A study of history . vol IV. London 1939 .

Ullmann (W.) :

A short history of the Papacy in tne Middle Ages, London 1974 .

Ure (P.N.) :

Justinian and his Age. Penguin Book. 1951 .

Vasiliev (A.A.) :

A history of the Byzantine Empire. Madison and Milwauke 1964 .

Vinogradoff (P.) :

Feudalism (in C. M. H. vol. III) .

Waddell (H. ) :

The desert Fathers . London 1946 .

Waley (D.) :

Later Medieeval Europe from St. Louis to Luther. London 1976 .

Ware (T.) :

The Orthodox Church. Penguin Books, 1967 .

## ب مراجع عربية ومترجمة

ابراهيم العدوى (دكتور) :

الأمويون والبيزنطيون . القاهرة ١٩٦٣ .

ابراهيم نصحى (دكتور) :

تاريخ الرومان . جزءان . بيروت ١٩٧٣ (منشورات الجامعة الليبية ببنغازى) .

ابن شداد (بهاء الدين) :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . تحقيق دكتور جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٤ .

اسحق عبيد (دكتور) :

- الدولة البيزنطية فى عصر آل باليولوغوس ١٢٦١-١٢٨٢ .

(منشورات جامعة بنغازي- طبعة بيروت - بدون تاريخ) .

- الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع . بنغازى/ بيروت ١٩٧٥ .

- روما وبيزنطة . القاهرة ١٩٧٠ .

- الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية . القاهرة ١٩٧٢ .

أسد رستم (دكتور) :

- كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى ، ٣ أجزاء . بيروت . بدون تاريخ .

- الروم . جزءان . بيروت ، ١٩٥٥ .

- حرب فى الكنائس . بيروت . ١٩٥٨ .

السيد الباز العرينى (دكتور) :

الدولة البيزنطية . القاهرة ١٩٦٥ .

أومان (ش) :

الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور مصطفى طه بدر . القاهرة ١٩٥٣ .

باركر (ارنست) :

الحروب الصليبية ، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى . القاهرة . ١٩٦٠ .

بينز (نورمان) :

الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد . القاهرة ١٩٥٧ .

توينبى (أرنولد) :

الفكر التاريخى عند الإغريق من هومير إلى عصر هراكليس . ترجمة لمعى المطيعى . القاهرة ١٩٦٦ .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى. القاهرة ١٩٦٧ .

- العدوان الصليبى على مصر : هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور. القاهرة ١٩٦٩ .

جيبون (ادوارد) :

اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (ترجمة للمختصر الذى نشره فى الولايات المتحدة الأمريكية فى ثلاثة أجزاء D. M. Low سنة ١٩٦٠، ترجم الجزء الأول محمد على أبو درة ، والثانى لجيب اسكندر ، والثالث دكتور محمد سليم سالم) . القاهرة ١٩٦٩ .

حسن حبشى (دكتور) :

الحرب الصليبية الأولى . القاهرة ١٩٥٨ .

حسن حنفى حسين (دكتور) :

نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط : أوغسطين ، انسلم ، توماس الاكوينى. القاهرة ١٩٦٩ .

حسن محمود (دكتور ) وأحمد الشريف (دكتور) :

العالم الإسلامى فى العصر العباسى . القاهرة ١٩٦٦ .

ديفز ( ر. هـ. س) :

شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى. القاهرة ١٩٥٩ .

ديل (شارل) :

البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة دكتور أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر . القاهرة ١٩٤٨ .

ديورنت (ول) :

قصة الحضارة تم نقلها إلى العربية فى اثنين وأربعين جزءا . القاهرة ١٩٦٥-١٩٨٧ .

رأفت عبد الحميد (دكتور) :

الدولة والكنيسة . الجزء الثانى : قسطنطين . القاهرة ١٩٨٢ .

الدولة والكنيسة . الجزء الثالث : أثناسيوس . القاهرة ١٩٨٣ .

رنسيمان (ستفن) :

الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد . القاهرة ١٩٦١ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

الحركة الصليبية . جزءان . القاهرة ١٩٦٣ .

عبد الرحمن بدوى (دكتور) :

فلسفة العصور الوسطى . القاهرة ١٩٦٢ .

عبد اللطيف أحمد على (دكتور) :

التاريخ الروماني . عصر الثورة من تيبريوس جراكوس إلى اكتافيانوس أغسطس . بيروت ١٩٧٣ .

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

الناصر صلاح الدين الأيوبى. القاهرة ١٩٥٨ .

عبد النعيم حسنين (دكتور) :

سلاجقة إيران والعراق . القاهرة ١٩٧٠ .

عبده فراج :

معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى. القاهرة ١٩٦٩ .

فرجيليوس :

الانيادة . ترجمة دكتور عبد المعطى شعراوى وآخرين. الجزء الأول القاهرة ١٩٧١ .

فينوجرادوف (ب) وكوبلاند :

الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ، ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة . القاهرة ١٩٥٨ .

كلارى (روبرت) :

فتح القسطنطينية . ترجمة دكتور حسن حبشى . القاهرة ١٩٦٤ .

كوبلاند :

القنية والإقطاع (فى تاريخ العالم الذى أشرف على نشره سيرجون هامرتن . المجلد الخامس) . القاهرة بدون تاريخ) .

كولنجورود (ر. ج) :

فكرة التاريخ . ترجمة محمد بكير خليل . القاهرة ١٩٦٨ .

متى المسكين (الأب) :

الرهبنة فى عصر القديس أنبا مقار . القاهرة ١٩٧٢ .

محمد مصطفى زيادة (دكتور) :

حملة لويس التاسع على مصر . القاهرة ١٩٦١ .

موس (هـ.) :

ميلاد العصور الوسطى . ترجمة عبد العزيز جاويد . القاهرة ١٩٦٧ .

نظير حسان سعداوى (دكتور) :

- التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى . القاهرة ١٩٥٧ .

- تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة الوسطى. القاهرة ١٩٥٨ .

هارتمان (أ.م) وباراكلاف (ج) :

الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى . ترجمة وتقديم دكتور جوزيف نسيم يوسف . القاهرة ١٩٧٠ .

هاوزر (أرنولد) :

الفن والمجتمع عبر التاريخ . جزءان . ترجمة دكتور فؤاد زكريا القاهرة ١٩٧١ .

يوسف كرم :

تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط. القاهرة بدون تاريخ .

# محتويات الكتاب

صفحة

تقديم المترجم ........................................ ٣

مقدمة المؤلفة ........................................ ٦٩

الفصل الأول :

تكوين الإمبراطورية البيزنطية ٣٢٤-٧١٧-

١- قسطنطين العظيم وظهور إمبراطورية مسيحية ........................ ٧٣

٢- غزوات البرابرة ونجاة نصف الإمبراطورية الشرقى ........................ ٨٠

٣- الإمبراطور جوستنيان والقرن السادس ........................ ٩٢

٤- الصراع من أجل البقاء فى القرن السابع

مشاكل الأسرة الهرقلية ........................ ١٠٠

الفصل الثانى :

الإمبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى ٧١٧-١٠٥٦ ........................ ١٠٩

١- منجزات الأباطرة اللاأيقونيين ٧١٧-٨٤٢ ........................ ١٠٩

٢- العصر الذهبى للإمبراطورية البيزنطية ........................ ١١٨

(أ) العموريون والمقدونيون ........................ ١١٨

(ب) الزحف إلى الشرق ٨٤٢-١٠٢٥ ........................ ١٢٢

(جـ) القسطنطينية والصقالبة ........................ ١٢٥

(د) بيزنطة والغرب ........................ ١٢٩

(هـ) السياسة الداخلية : الكنيسة والتعليم ........................ ١٣١

الفصل الثالث :

تغييرات جوهرية ١٠٢٥-١٢٠٤ ........................ ١٣٩

١- مفترق الطرق فى القرن الحادى عشر ........................ ١٣٩

٢- إحياء الإمبراطورية زمن آل كومنين ........................ ١٥٠
(أ) الكسيوس كومننوس ........................ ١٥٠
(ب) يوحنا الثانى كومننوس ومانويل الأول كومننوس ................ ١٥٨
٣- الانحـلال الأول ........................ ١٦٨

الفصل الرابع :

الصدام بين الشرق والغرب ١٢٠٤ -١٤٥٣ ........................ ١٧٧
١- الغدر اللاتينى والدبلوماسية البيزنطية ١٢٠٤-١٢٦١ ........... ١٧٧
٢- التنافس المسيحى والحروب الأهلية البيزنطية ١٢٦١-١٣٥٤ ........... ١٨٢
٣- الغزو التركى وسقوط بيزنطة ١٣٥٤-١٤٥٣ ........................ ١٨٧
مراجع عامة ........................ ١٩٣

الفصل الخامس :

الكنسـية والدولة ........................ ١٩٧
الحكومة الإمبراطورية

الفصل السادس :

الكنيسة الأرثوذكسية ........................ ٢١٧
الحياة المسيحية والعلمانيون

الفصل السابع :

عالم الرهبنة : مناداة الروح ........................ ٢٣٧
مراجع خاصة بالكنيسة والحياة الديرانية ........................ ٢٦٠

الفصل الثامن

الحياة اليومية ........................ ٢٦٥
مراجع خاصة بالنواحى الاجتماعية والاقتصادية وبالحياة اليومية ........... ٢٨٢

الفصل التاسع :

التعليم والأدب : أوجه التراث البيزنطى .......... ٢٨٥

مراجع خاصة بالأدب .......... ٣٠٠

الفصل العاشر :

الفن البيزنطى.......... ٣٠٣

مراجع خاصة عن الفن والعمارة .......... ٣١٦

الفصل الحادى عشر :

بيزنطة وجيرانها .......... ٣١٩

مراجع عن الفصل الأخير .......... ٣٣٠

المصادر والمراجع التى اعتمد عليها المترجم فى التقديم والتعليق .......... ٣٣١

(أ) المصادر.......... ٣٣٢

(ب) المراجع الأوروبية.......... ٣٣٤

(جـ) مراجع عربية ومترجمة.......... ٣٤١

[illegible]

Just for you

رقم الإيداع ٩٧/٣٩٩٧

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 54 87 - 65 - X

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ – ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار – باب اللوق

# العالم البيزنطى



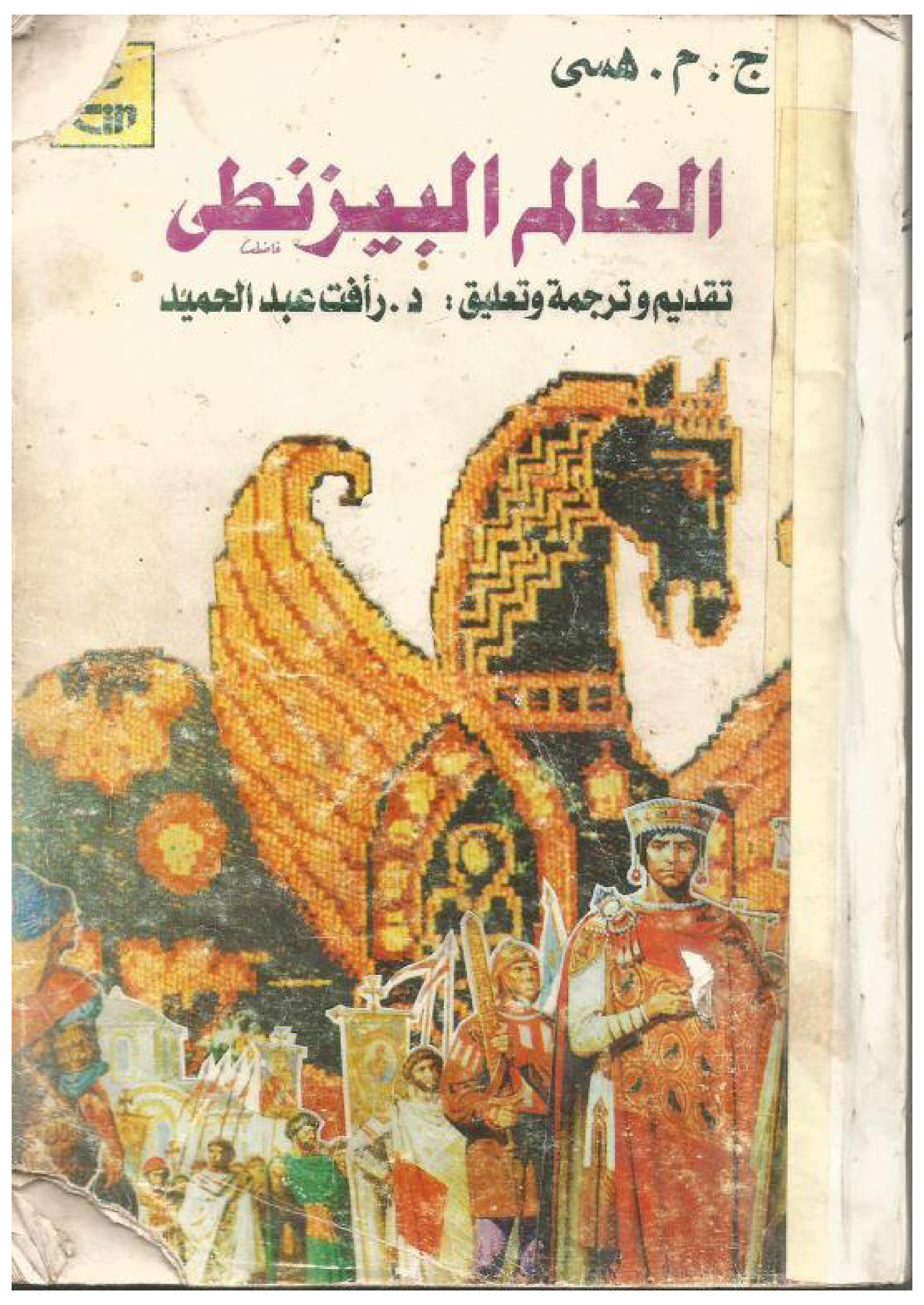


للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

سحبه الكتاب ونسقه على الصيغة الالكترونية

الباحث عماد أمير

جزاه الله خير


ج . م . هسى
العالم البيزنطى
تقديم وترجمة وتعليق : د . رأفت عبد الحميد